

حركة الانطلاق الفكري

و

جهود الشاه ولي الله في التجديد

للعلامة محمد اسماعيل السلفي رحمه الله

(١٨٩٥ - ١٩٦٨م)

ترجمه

الدكتور مقتدى حسن ياسين الأزهري

الناشر

ادارة البحوث الاسلامية بالجامعة السلفية ببنارس



حركة الانطلاق الفكري

و

جهود الشاه ولي الله في التجديد



حركة الانطلاق الفكري
و
جهود الشاه ولي الله في التجديد

للعلامة محمد اسماعيل السلفي رحمه الله

(١٨٩٥ - ١٩٦٨م)

ترجمه

الدكتور مقتدى حسن ياسين الأزهري

الناشر

ادارة البحوث الاسلامية بالجامعة السلفية ببنارس

الطبعة الأولى: عام ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

الطبعة الثانية: عام ١٤٠٩ هـ — ١٩٨٩ م

بالمطبعة السلفية ، بنارس ، الهند

يطلب من

المكتبة السلفية ، ريورى تالاب ، بنارس — ٢٢١٠١٠

عـــادة معـــروفـــة

جرت عادة الكتاب و المؤلفين بأنهم يهدون مؤلفاتهم إلى بعض الشخصيات تقــديرا لمواقفها و تنويها بأعمالها وعرفانا بجميلها. وقد حذوت حذوهم فى الطبعة الأولى من الكتاب، ثم نبهنى بعض الإخوة على أن الإهداء لا يستحسنه مشايخنا حفظهم الله تعالى. ودون الاطلاع على دليلهم فى ذلك ألغيت عنوان الإهداء وعبارته، ولكن مع ذلك أرى الواجب على نفسى إثبات سطور عدة تقديرا لموقف قرينتى التى كانت لى بتضحيتها وتشجيعها أكبر عون فى بناء المستقبل العلمى وتكريم منزلة العلم والعلماء، جزاها الله تعالى عنى وعن العلم خير الجزاء، وكتب لها الفوز و السعــادة فى الدارين، ونفع بهذه الترجمة طلاب الحق جميعا، إنه ولى التوفيق، وصلى وسلم على رسوله خاتم النبيين، والحمد لله رب العالمين ؟

(الأزهـــرى)

كلمة الطبعة الثانية

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادى له، أما بعد:

فقد وفق الله تعالى القائمين على ادارة البحوث الاسلامية لاخراج الطبعة الثانية من كتاب حركة الانطلاق الفكرى، وكانت نسخه قد نفدت منذ سنتين أو أكثر، ولكن الأعمال الأخرى تراكمت على مطبعة الجامعة فتأخر طبع هذا الكتاب، وتقدم ما كان له أهمية أكبر.

والقبول الذى حظى به هذا الكتاب فى الأوساط العربية يرجع بعد فضل الله ومنّه إلى الموضوع الذى يتناوله، وإلى الأسلوب الذى اختاره مؤلفه لشرح القضايا الواردة، وإلى التزامه بالرزانة والموضوعية فى بسط الأدلة والرد على المعارضين، وإلى دقة نظره وسعة اطلاعه وحسن عرضه للراحل التى مرت بها دعوة العمل بالكتاب والسنة وعدم التقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية التى يصاب أتباعها بالتعصب والجمود فى أغلب الأحيان.

واستعراض سريع لأحوال المسلمين فى الهند وغيرها من البلاد يؤكد لنا أهمية هذا الكتاب ومدى حاجة الناس إليه، فإن طبقة

منهم لا تزال بمعزل عن المنهج الذى دعا إليه الشاه ولى الله الدهلوى رحمه الله فى سبيل اتباع الكتاب والسنة ، ولا تزال بعض الألسنة تردد القول بوجوب التقليد ، وتطعن فى الطائفة المنصورة التى التزمت العمل بالكتاب والسنة ، وتحاول الانتصار لبدع العقيدة والعمل . وهذا الوضع هو الذى يدفع إلى نشر هذه الكتابة القيمة ، لعل الله تعالى يهدى بها أصحاب العقول السليمة والنوايا الطيبة . ومما يبشر بالخير بهذا الصدد أننا نرى مجموعة من العلماء والكتاب ينادون فى هذا العصر بوجوب اتباع الكتاب والسنة وبضرورة فتح باب الاجتهاد وتشجيع اتجاه التوسع والانفتاح ، ولعل هذا التغير نتج عن مثل هذه الكتابات .

هذا ، وقد أضفت إلى هذه الطبعة مبحثين آخرين نشرا فى الطبعة الثانية لأصل الكتاب ، وهما مبحث : حياة النبى ﷺ ، وزيارة القبور . وكذا ورد فيها بعض الأسئلة والرد عليها من المؤلف رحمه الله . وهكذا صار الكتاب أوسع وأنفع إن شاء الله .

وشكرا لمن أبدى توجيهاته لهذه الطبعة وقدم عونه فى تحسينها ، والله تعالى أسأل يكتب القبول لهذه الطبعة كسابقتها ، ويجزى المؤلف والناشر أحسن الجزاء ، ويوفق الجميع لاتباع الحق والخضوع له حيث كان ، وصلى الله على نبينا وسلم .

١٨/٦/١٤٠٩هـ (مقتدى حسن الأزهرى)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الأولى للكتاب

بقلم: سماحة الشيخ العلامة المحدث عبيد الله الرحمانى حفظه الله

رئيس الجامعة السلفية، بنارس، الهند

إن التأريخ الدينى والثقافى للحركات والجماعات، مثل التأريخ السياسى للأمم والبلاد. يكون دائما فى حاجة إلى البحث والتنقيب، ويتطلب من الباحثين الجهود المضاعفة لاستنطاق الحوادث واستنباط النتائج وتصويب الأخطاء وتفنيد المزاعم، فإن المؤرخين لا يكونون على مستوى واحد من دقة النظر، ونفاذ البصيرة، وقوة الاستنتاج، ومراعاة الأمانة العلمية، فقد يخلط بعضهم الخطأ بالصواب، ويستدل بالأحداث على ما لا تدل عليه، و يغفل ذكر ما لا يرضاه ولو كان مهما، وينوه بما يحبه ولو كان تافها، وهكذا تتشوه معالم التأريخ ويجد التحريف إليه سبيلا.

وهنا يأتى دور الباحثين الأمناء الذين يتمتعون بالإخلاص العلمى، ويتجردون من الميول والنزعات الشخصية فى سبيل الوصول إلى الحقائق العلمية الثابتة، حتى ينهضوا بتدوين التأريخ على أسس سليمة بدون البخس والإطراء، و يصححوا الأخطاء، ويردوا الحق إلى نصابه،

ويذكروا ما أهمل ذكره من قبل المؤرخين بتعمد أو دونه، مما يجدر بالإشادة والتنويه.

ومن هؤلاء الباحثين الأفذاذ فضيلة الشيخ العلامة محمد إسماعيل ابن محمد إبراهيم السلفى، رحمه الله تعالى، أمير جمعية أهل الحديث فى باكستان الغربية، الذى ألف كتابه على موضوع الحركة السلفية، وما مرت به من المراحل المختلفة فى الهند، وما ذا كان موقف أصحاب المذاهب الأخرى معها، وما هى الآثار التى ترتبت على جهود الشاه ولى الله ضد التقليد والجمود، وكيف إنه دعا الناس إلى العمل بالكتاب والسنة والتحرر من أغلال التقليد والجمود، ومن هم الذين حملوا راية البحث والتحقيق، وقاوموا البدع فى العقيدة والعمل فيما بعده من الزمن؟

هذه وغيرها من النقاط المهمة يبحثها ويفصلها كتاب الشيخ محمد إسماعيل السلفى، الذى يحمل بالعربية عنوان «حركة الانطلاق الفكرى وجهود الشاه ولى الله فى التجديد».

وكما أشار المؤلف – رحمه الله – كانت لوضع الكتاب مناسبة خاصة من إثارة بعض المقلدين فى باكستان المسائل التى اختلفت فيها وجهات نظر أهل الحديث وأهل التقليد، فرأى نفسه مضطرا إلى الدفاع عن موقف أهل الحديث وتمسكهم بالأحاديث الصحيحة بدون التحيز والتقليد. ولكنه فى بحثه القيم الأصيل لم يقتصر على الرد على الخصم بطريق الجدل والمناظرة، بل قد تناول المسائل الخلافية بأسلوب علمى

دقيق، وصور الحالة الدينية للمسلمين، ونشأة المذاهب والفرق، والتطورات التى مرت بها حركة العمل بالكتاب والسنة منذ زمن الرسول ﷺ إلى يومنا هذا، ثم أشار إلى أصل الخلاف الذى يوجد بين أهل الحديث وغيرهم من الطوائف التى ترى وجوب تقليد إمام من الأئمة، رحمهم الله تعالى.

وكل ذلك فى صورة التوضيح والتحقيق، وبنظرة الباحثين المخلصين بدون الطعن فى أحد والتحامل على مذهب.

ويكتسب الكتاب أهميته إذا نظرنا فى علماء الهند وغيرها من البلاد الإسلامية من يشتغل بالحديث وعلومه بدافع من التعصب المذهبى، ويحاول النيل من أعلام المحدثين الذين أفنوا أعمارهم فى جمع حديث الرسول ﷺ وشرحه، والذب عنه والتمييز فيما بينه، والاستنباط منه والكلام على رجاله ومؤلفيه. كان لهؤلاء الأعلام — ولاشك — فضل كبير ويد عظيمة على الأمة الإسلامية، فى جمع الحديث وشرحه واستنباط الأحكام منه. ولكن هذه الخدمة الجليلة لم تعجب أصحاب الأغراض المتحزبين فشكوا فى نيات المحدثين وردوا على كلامهم مدافعين عن المذهب الذى اختاروه. وهذا الموقف هو الذى شجع اتجاه إنكار الحديث وحجيته فى الشريعة الإسلامية، فى الهند وباكستان.

وردا على مثل هذه المحاولة الخاطئة، ودفاعا عن السنة النبوية الشريفة، وعن السلفيين فى الهند ألف صديقنا — رحمه الله — كتابه القيم مخلصا مدافعا، فلاقى قبولا فى الأوساط العلمية، وأفاد كل من

أقبل عليه سليم النية حسن الإرادة .

وكان الكتاب بأسلوبه العلمى الرصين و ببحوثه الجادة الأصيلة جديرا بأن يطالعه كل من يريد الإلمام بتأريخ المذاهب ، وتطور حركة العمل بالكتاب والسنة ، وخاصة فى البلاد العربية ، فاقترحت إدارة البحوث الإسلامية بالجامعة السلفية بنارس على الدكتور مقتدى حسن الأزهرى المدرس فى الجامعة و رئيس تحرير مجلتها بنقل الكتاب إلى اللغة العربية حتى يتمكن القراء العرب من الاطلاع عليه . وقد قام المذكور بأداء مهمته على طريقة مرضية .

أسأل الله تعالى أن يجزى المؤلف والمترجم عنا وعن العلم أحسن الجزاء ، ويسهل للترجم طريق العلم والخير ، ويوفق الجميع لما يحب ويرضى ، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وأصحابه أجمعين .

عبيد الله المباركفورى

رانى فوره ـ مباركفور ـ اعظم گڑه

١٩ / شوال ١٣٩٦ هـ

١٤ / اكتوبر ١٩٧٦ م

توطئـــة

بقلم : فضيلة الأستاذ على شامى

حلب ، سوريا

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبـــا . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ .

أما بعـــد : فإن خير الكلام كتاب الله تبارك وتعالى ، وخير الهدى ، هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

تسلمت كتـــاب « حركة الانطلاق الفكرى » وسارعت لقراءته يدفعنى إلى ذلك أمران اثنان :

الأول: رغبة بعض الاخوة فى التعليق حول مواضيع الكتاب.

والثانى: حب الاطلاع على مايعانيه إخوتنا السلفيون فى شبه القارة الهندية من التعصب المذهبى الذى يعيشه معاشر الحنفية، والجمود الفكرى الذى يتصف به الغالبية العظمى من مسلمى العصر الحاضر فى دنيا المسلمين.

وأحمد الله تبارك وتعالى أن وفقنا لاتباع منهج السلف الصالح، رضى الله عنهم، وجعلنا من أنصار سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وان لاقينا فى اتباع هذا المنهج الصعاب والعقابيل التى لا نزال نلاقيها يوميا. فهذه سنة الله تبارك وتعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾. ولقد وقفت من خلال صفحات الكتاب على ما يعانيه السلفيون فى الهند وباكستان من إخوانهم المسلمين ومن غيرهم ممن يعيش معهم فى تلك البلاد، ولكن العجب العجاب أن يتألب جمهرة من المسلمين على إخوانهم السلفيين لمجرد مخالفتهم الرأى و المنهج، وعند التحقيق نرى تعصب هؤلاء تعصبا أعمى لما ورثوه من علمائهم ومشايخهم دون روية ولا تمحيص علميين، وليس هذا من الاسلام فى شىء، فالإسلام دين علم وبصيرة كما قال تبارك وتعالى: ﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾، ولكن ويا للأسف لقد بدل المسلمون وغيروا، فحكموا على أنفسهم بالموت حينما زعموا إغلاق باب الاجتهاد، ووصموا أنفسهم بالجهل حينما ارتضوا التقليد،

وركنوا إلى الكسل حينما جمدوا على نصوص لا روح فيها، وخالفوا نصوص القرآن الصريحة، ونصوص السنة الصحيحة، ترى ما موقفهم أمام ربهم يوم الفزع الأكبر؟ وما جوابهم عن هذه المخالفات التى يعيشونها فى العقيدة والأحكام والمعاملات؟؟!!.

إن جل ما عابه الله على المشركين فى الكتاب العزيز تقليدهم الأعمى للآباء والزعماء. وعدم استعمال الفكر والعقل فيما يعتقدونه أو يفعلونه، أيقع المسلمون اليوم وقبل اليوم فيما نهوا عنه؟؟ بل ويشنعون على من يحذرهم عن الوقوع فيه؟؟ سبحان الله، إن هذا الشيء عجيب!!

أين الاستجابة لله وللرسول: بل أين التحاكم لله وللرسول عن الاختلاف، بل أين إفراد الله بالعبودية وإفراد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالاتباع؟ وهما غاية الاسلام وأصله، بل أين المسلمون من منهج اسلام محمد وصحبه عليه السلام ورضى الله عنهم؟؟

والكتاب الذى نحن بصدده، يصور حالة المسلمين أصدق تصوير، فيظهر الداء الذى نخر فى جسد الأمة، ويصف الدواء الناجع المجرب ويتلخص فيما يلى:

— الرجوع بالمسلمين إلى كتاب الله عز وجل والسنة الصحيحة وفهمهما على النهج الذى كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

— تعريف المسلمين بدينهم الحق، ودعوتهم إلى العمل بتعاليمه

وأحكامه ، والتحلى بفضائله وآدابه التى تكفل لهم رضوان الله وتحقق لهم السعادة والمجد .

ـ تحذير المسلمين من الشرك على اختلاف مظاهره ، ومن البدع والأفكار الدخيلة ، والأحاديث المنكرة والموضوعة التى شوهت جمال الاسلام ، وحالت دون تقدم المسلمين .

ـ إحياء التفكير الإسلامى الحر فى حدود القواعد الإسلامية وإزالة الجمود الفكرى الذى ران على عقول كثير من المسلمين وأبعدهم عن منهل الاسلام الصافى .

ـ السعى نحو استئناف حياة اسلامية وإنشاء مجتمع اسلامى ، وتطبيق حكم الله فى الأرض .

وقد بذل المؤلف رحمه الله جهدا مشكورا فى معالجة هذه المواضيع، ورد باسهاب وأسلوب علمى رصين على دعاة الجمود والتقليد ، وقد أحسن المترجم حفظه الله ، فأعطى الكتاب ما يستحق من الجهد فى تقريبه للغة العربية ، فجزى الله المؤلف والمترجم عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء ، ونفع الله بهذا الكتاب طلاب الحق وعشاق الحقيقة[1].

****

---

(١) أورد الأستاذ المكرم بعد هذه السطور ثمانى تعليقات على مواضع مختلفة من الكتاب، وقد أثبتناها فى مواضعها مع التصريح باسم المعلق.

الإسلام والحرية الفكرية

كلمة فضيلة الأستاذ محمد نافع (حلب سوريا)

للطبعـة الثـانيـة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمـدا عبده ورسوله. ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام. إن الله كان عليكم رقيبا. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، وقولوا قولا سديدا، يصلح لكم أعمـالكم، ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾.

أما بعـد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسله بالهدى ودين الحق وشرفنا بأن جعلنا من الذين دانوا به واستمعوه ولم يتولوا عنه أو يعرضوا ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون. ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون. إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون[1]﴾.

أما بعد: فلا شىء كالاسلام يربى متبعيه ومعتنقيه على حرية الفكر فهو الدين الوحيد الذى حرر العقول من سيطرة الأباطيل والخرافات ومن أسر التبعية العمياء. وخلص النفوس بعبوديتها لله من حبائل الشيطان ومن ضغط الشهوات السيئة وجعلها نفوسا مطمئنة تلتذ بطاعة الله وجعل من المؤمنين بالله خير أمة أخرجت للناس.

ومن الواضح أن الحرية كلمة محببة لكل الناس ولكنهم يختلفون فى حدودها وتفسيرها. والشىء الذى لايجوز أن يختلفوا فيه هو عدم وجود حرية مطلقة بأن يفعل الانسان ما يشاء بغير قيد أو شرط فالقيود ملازمة للحرية وفيها وقع الاختلاف ولبيان ذلك نقول:

(١) الأنفال: ٢١—٢٢

إن الله جعل الخلق أى البشر صنفين مؤمنين وكافرين ليظهر أثر الحرية بالإيمان والكفر إذ لوانعدم اختيارهم لكانوا مجبورين ولبطل الثواب والعقاب وهذا ما أوضحته الآية الكريمة: ﴿ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم [١]﴾.

فالمرحومون هم الذين اختاروا الإيمان وتقيدوا به فلم يختلفوا، وسواهم هم الذين كفروا وحكموا أهواءهم فاختلفوا، وبمعرفة حرية المؤمن تتضح حرية غيرهم وحرية المؤمن تنحصر فى عبوديته لله وحده وبذلك يتحرر من العبودية لغيره فهو يخاف الله ولا يخشى سواه ومتى كان كذلك انتفى خوفه من أن يصيبه ما يكره وانتفى خوفه على ما فى حوزته أن يفوته لأنه مطمئن إلى قول الرسول الكريم ﷺ «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك [٢]».

وقد أثبت الله هذه الحرية لعباده المؤمنين فى قوله جل شأنه: ﴿إن الانسان خلق هلوعا. إذا مسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا. إلا المصلين. الذين هم على صلاتهم دائمون. والذين فى أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين.

---

(١) هود: ١١٨–١١٩

(٢) رواه أبوداود، والترمذى، وابن ماجه، وأحمد.

والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك فى جنات مكرمون[1] ﴾ .

إن هذه الآية الكريمة قد ارتفعت بالمسلم إلى مستوى من الحرية لا يكون لغيره إذ أخرجته عن حدود المخاوف البشرية ووضعته فى مخافة واحدة لابد منها ولا محيد عنها هى الخوف من الله وحده دون سواه حيث يتلذذ بطاعته وتقواه ويجانب الهلع ويقارب مجامع الخير التى وصفته بها الآية الكريمة .

أما أن يخاف من الشر أن يدركه وعلى الخير أن يفوته أو يفلت من يده فهذه صفة الانسان الهلوع الذى يقطع صلته بالله فلا يصلى له ولا يؤدى واجباته المالية ولا يحسب ليوم الله يوم الدين حسابه وينطلق وراء شهواته المختلفة بلا قيد ولا يرعى الأمانات والعهود ويكذب ما شاء له هواه ، فهذا عبد رقيق لجهات مختلفة وكثيرة ، هلوع طوال حياته إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن ما وصفنا به المؤمن لا ينافى وجوب الحيطة والحذر لأن ذلك مشروع للؤمن ، ومأمور به فى قوله تعالى :

---

(١) المعارج : ١٩–٣٥

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون[١]﴾ فالأمر بتقوى الله يقتضى اجتناب ما يغضبه ويسخطه والأمر فى ابتغاء الوسيلة إليه يقتضى التقرب إليه بطاعته وفعل ما يرضيه والأمر بالجهاد فى سبيله يقتضى اتقان العمل وسد الثغرات الاجتماعية ليتوفر الحب فى الله ويتمكنوا به من الجهاد فى سبيله ويبقى الفلاح منوطا بإخلاص الدين لله . فإذا أصيب بعد ذلك المؤمن بمكروه فهو الابتلاء من الله لتمحيص عباده ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون[٢]﴾، وفى الحديث الشريف «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل[٣]»، ولكى يخصهم بمزيد من الأجر والثواب ﴿ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون[٤]﴾، وهم بذلك يتميزون عن جميع الناس بما نالوه من صلوات الله ورحمته وهدايته ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون[٥]﴾.

---

(١) المائدة : ٣٥

(٢) الأنبياء : ٣٥

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه والدارمى .

(٤) البقرة : ١٥٥–١٥٦

(٥) البقرة : ١٥٧

وخلاصة القول فى حرية المؤمن أنها انطلاق إلى جميع مقومات الحياة الكريمة مقرون بتفكير وحذر مشفوع بمراعاة رضاء الله تعالى بناء على نص إن وجده فى معلوماته أو اجتهاد إن فاته النص.

والإسلام بوصفه الدين الخاتم لسائر الأديان الدائم إلى نهاية البشرية قد اشتمل على كل أسباب السمو الإنسانى ووفر فى تعاليمه الحلول لكل ما يعرض من المشاكل حيث فتح مغالق العقول ودعاها للاجتهاد وأجراً واحداً لمن يخطىء فى اجتهاده ومنعها من التقليد الأعمى للغير لسوء نتائجه فى المجتمع الإسلامى.

انظر كيف عاب الإسلام على الانسان أن يدرج على منوال من تقدمه دون تأمل وتعقل فى إخبار الله رسوله ﷺ عن مواقف الجامدين من الأمم السابقة حيث قال: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون[1]﴾.

وقد نعى على المقلدين تقليدهم الخالى من التفكير فى عدة مواطن من القرآن الكريم وأطلق العنان للعقل ليستنبط الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ودعاه إلى النظر فى الكون ليستفيد مما أودعه الله فيه من كنوز ومعادن ومنافع ونواميس جعلها الله مشاعا

---

(١) الزخرف: ٢٣—٢٤

بين عباده ينال حظه منها كل من أدرك سر العمل والسعى والتفكير.
قال تعالى : ﴿أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء[١]﴾ . ﴿وتلك الأمثال نضربهـا للناس وما يعقلها إلا العالمون[٢]﴾ . ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون[٣]﴾ . ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا[٤]﴾ .

أترونـه خلق ذلك لهم ليهملوه أم ليستفيـدوا منه ﴿أفلا يتدبرون[٥]﴾ ، ﴿أفلا يعقلون[٦]﴾ ، ﴿أولم يتفكروا فى أنفسهم[٧]﴾ ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون[٨]﴾ ، ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون[٩]﴾ .

وكفى الإسلام شرفا أنه محا ظلمات القرون الوسطى التى تمثلت فى تألـه بعض البشر وتحكمهم فى رقاب الأكثرين تحكما أفقـدهم جل

---

(١) الأعراف : ١٨٥
(٢) العنكبوت : ٤٣
(٣) الروم : ٢٨
(٤) البقرة : ٢٩
(٥) النساء : ٨٢
(٦) يس : ٦٨
(٧) الروم : ٨
(٨) الرعد : ٣
(٩) النحل : ١٢

صفات الانسان وجمد عقولهم حتى جعل منهم حيوانات ولكنها تنطق. تنطق بغير إرادة أو إدراك ألفوا الذل والهوان واستساغوا عبادة البشر الأقوياء وتعظيمهم دون أن يقابلوا منهم بأى احترام، وأصبحوا يشعرون بأن تذللهم لأكابرهم وخضوعهم لهم هو جزء من كيانهم لا يمكن أن يتخلوا عنه أو يعيشوا بدونه، ولا زالت فى عالمنا اليوم بقية من هذا الشعور أبرهن عليه بالقيام، فقد كان معروفا فى الجاهلية يقام للكبراء والأسياد والأمراء فى العرب وغيرهم وحاسب رسول الله ﷺ هذا القيام وهدد من يحبه بتبوء مقعده فى النار وكرهه لنفسه من أصحابه ولم يعتبره أداة تعظيم واحترام ومع ذلك فهو أمر منسحب على مجتمعاتنا حتى اليوم وكثير منا لا يجيز لنفسه ترك القيام لفئات كثير من الناس رغم أنهم لا يقابلونه بالمثل ولو فرض أن واحدا منهم قام له لسبب ما لعدّ قيامه عملا كبيراً خطيراً واستغفر الله منه مرة من هذا القيام.

وقد استغل اليهود شعور الناس بوجوب التبعية العمياء من المشروف للشريف والمسود للسيد والجاهل للعالم وظنوا أن الاسلام لم يستأصل هذا الشعور السيء بالتبعية العمياء من نفوس المسلمين، فراحوا يدفعون بعضهم ليدخلوا فى الاسلام ثم يخرجوا منه حيث يخرج معهم عدد من المسلمين بحكم نظرتهم إلى اليهود أنهم أهل كتاب وأعلم منهم فيحملون خروجهم من الاسلام بعد دخولهم فيه على أنهم

وجدوه غير صالح فتركوه وهذا ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم[١]﴾ .

والواقع فى كل مجتمع وفى كل زمن وجود التبعية فى الناس والإسلام حاربها حيث اعتبر الناس فى الحقوق سواسية كأسنان المشط ولم يميز أحداً على أحد وأمر المسلمين جميعا باتباع ما أنزل إليهم من ربهم فلم يسمح بالتبعية العمياء لغير رسول الله ﷺ ذلك لأنه معصوم من الخطأ فى الدين ومن يتبع المعصوم يأمن الزلل. قال الله تعالى : ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون[٢]﴾ ، وقال أيضا : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله[٣]﴾ ، وقال أيضا : ﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا[٤]﴾ .

وقد سار المسلمون بتوجيهات دينهم سيراً حميداً طيلة قرون ثلاثة أطلق عليها رسول الله ﷺ وصف الأخيرية والأفضلية على غيرها

---

(١) آل عمران : ٧٢—٧٣

(٢) الأعراف : ٣

(٣) آل عمران : ٣١

(٤) الحشر : ٧

حيث قال : « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم[1] » وبشرنا رسول الله ﷺ بأن المسلمين لا يحرمون أبداً من أناس ينصرون الحق ويؤيدونه وينشرونه فى الناس فقال ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة[2] » .

وقال ﷺ : « إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها[3] » ، فالإسلام والحمد لله قد ظهرت معالمه وارتفعت فى الآفاق أعلامه واستبانت حقائقه لكل ذى لب غير أن التقليد الأعمى قد دب فى المسلمين بعد القرون المفضلة واستفحل تدريجا حتى قعد بالمسلمين دحوراً طويلة فأصيبوا بشلل أفكارهم وجمود عقولهم وقبلوا من أفسد التعاليم والأفكار ما يدهش له العاقل ويأباه الجاهل ، والذى حمل هذه التعاليم الفاسدة إلى المسلمين فيما يظهر هم أناس يظهرون الاسلام و يبطنون الكفر ، ولكن بعد تمكن هؤلاء من تلبيس الحق بالباطل انخدع بها أناس مسلمون طيبون لا يشك فى أخلاقهم فحملوها إلى تلاميذهم وهؤلاء إلى غيرهم حتى أحيط بالمسلمين وفشا فيهم التقليد الأعمى بشكل موحش فقبلوا ما لا يقبل وصدقوا

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه ابن ماجه .

(٣) رواه أبوداود .

ما لا يصدق وفعلوا ما يفعله المجانين . ومن أمثلة ذلك ما هو منثور فى كتب بعض الفقهاء والمتصوفين من تحريم الاعتراض على الشيخ ووجوب الطاعة المطلقة له ولو أمر بفعل الحرام فقد قالوا : ليس للمريد أن يعترض على شيخه ولو رآه يفعل المنكر .

وقالوا : يجب على المريد أن يكون بين يدى شيخه كالميت بين يدى الغاسل .

وقالوا : من يعترض يطرد .

وقالوا : من أراد الوصول إلى الله فليتخذ شيخا عارفا بميزان كل حركة وسكون وليسلمه نفسه بحيث لوقال له شيخه طلق زوجتك اخلع مالك ، تخلّ عن وظيفتك ، فتردد بعض الشيء لايشم رائحة الوصول إلى الله ولو عبد الله ألف عام .

ونقل عن الامام الشعرانى فى كتابه الميزان صفحة / ١٨ / قال : (فصل) إن قال قائل كيف الوصول إلى الاطلاع على عين الشريعة المطهرة التى يشهد الانسان اغتراف جميع المجتهدين مذاهبهم منها ويشهد تساويها كلها فى الصحة كشفا ويقينا لا إيمانا وتسليما فقط ولا ظنا وتخمينا ؟ فالجواب : طريق الوصول إلى ذلك هو السلوك على يد شيخ عارف بميزان كل حركة وسكون بشرط أن يسلمه نفسه يتصرف فيها وفى أموالها وعيالها كيف شاء مع انشراح قلب المريد لذلك كل الإنشراح . وأما من يقول له شيخه طلق زوجتك أو

أسقط حقك من مالك أو وظيفتك مثلا فيتوقف فلا يشم من طريق الوصول إلى عين الشريعة المذكورة رائحة ولوعبد الله تعالى ألف عام .

بحسب العادة غالبا إن هذه التربية التى تجلى سوءها وفسادها فى الأقوال التى سمعتها وأمثالها تدل طرقه على موت الضمائر وشلل العقول فى أصحابها وأن التبعية العمياء الماثلة فى أهل عصور الانحطاط هى نتيجة جهود العاملين ضد الإسلام من المذاهب الصوفية التى استهدفت الإباحية المطلقة فى تعاليمها وزينتها وحلتها بالألفاظ حتى أساغتها لأربابها وردا يتلى ودعاء يردد « اللهم انشلنى من أوحال التوحيد وأغرقنى فى بحر الأحدية » .

لقد سيطروا على أتباعهم فى حلقاتهم وانضاف إليهم ساذجون كثيرون فاستسلموا لهم ، وقد أحكموا رباط هذا الاستسلام وأحاطوه بتأكيد التوصيات لأتباعهم أن لا يصغوا لأقوال المنكرين عليهم .

وإليكم شاهدا على صدق ما ذكرت ما نقله عبد الوهاب الشعرانى فى مقدمة طبقاته عن الخواص : والجنيد وغيرهما من مشايخ الصوفية قال وهو يتكلم عن الخواص : وكان رضى الله عنه يقول : إياك أن تصغى لقول منكر على أحد من طائفة العلماء أو الفقراء فتسقط من عين رعاية الله عز وجل وتستوعب المقت من الله عز وجل ، وكان الجنيد رضى الله عنه يقول : من قعد مع هؤلاء القوم وخالفهم فى شىء مما يتحققون به نزع الله منه نور الإيمان . قلت : (أى المؤلف الشعرانى)

نور الايمان بذلك الكلام الذى خالفهم فيه لا نور سائر أنواع الايمان كالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فافهم.

ونظير ذلك «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن[1]» أى بأن الله يراه حال الزنا وهكذا. وإنما نهى القوم عن المنازعة لأن علومهم مواجيد لا نقل فيها.

ومن كان يخبر عما يعاين ويشاهد لا يجوز للسامع منازعته فيما أتى به بل يجب عليه التصديق به إن كان مريدا والتسليم له إن كان أجنبيا فإن علوم القوم لا تقبل المنازعة لأنها وراثة نبوية وفى الحديث: «عند نبى لا ينبغى التنازع[2]»، ونهى ﷺ عن الجدال وقال فى المجادل «فليتبوأ مقعده من النار[3]» اهـ.

ثم ذكر بعده من كلام محى الدين ابن عربى ما يدعم هذه الفكرة الهدامة، فانظر يا أخى هذا الكلام الذى يفتح الباب على مصراعيه للكذابين والدجالين ويراد به قتل الفكر فى المسلمين وتقويض دعائم الإسلام، وحسبى فى الاستدلال على تقويض دعائم الإسلام وجعله أباطيل وأضاليل أن أنقل للقارىء الكريم كلاما قليلا مما ذكره الشعرانى فى طبقاته عن الشيخ ابراهيم الدسوقى ليرى بأم عينه الكفر البواح

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد والشيخان.

(٣) البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى وابن ماجه والدارمى.

ويحكم بعد ذلك كيف يجوز أن يسكت عليه أو يرتضى منه .

قال الشعرانى فى الجزء الأول من طبقاته صفحة / ٢٠٠ / وكان رضى الله عنه يقول (أى الشيخ ابراهيم الدسوقى) : المريد مع شيخه على صورة الميت لا حركة ولا كلام ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة فى الزاوية أو غير ذلك . هكذا كانت طريق السلف والخلف مع أشياخهم فإن الشيخ هو والد السر ويجب على الولد عدم العقوق لوالده ولا نعرف للعقوق ضابطا نضبطه به إنما الأمر عام فى سائر الأحوال ، وما جعلوه إلا كالميت بين يدى الغاسل فعليك يا ولدى بطاعة والدك وقدمه على والد الجسم فإن والد السر أنفع من والد الظهر لأنه يأخذ الولد قطعة حديد جامد فيسبكه و يذيبه ويقطره ويلقى عليه من سر الصنعة سرا فيجعله ذهبا ابريزا فاسمع يا ولدى تنتفع ، وكثير من الفقراء صحبوا أشياخهم حتى ماتوا لم ينتفعوا لعدم الأدب ، وبعضهم مقتوا الله من صدود الرجال ومن صحبة الأضداد ومن سماع المريد للحال ، وكان رضى الله عنه يقول : أنا موسى عليه السلام فى مناجاته أنا على رضى الله عنه فى حملاته أنا كل ولى فى الأرض خلقته بيدى ألبس منهم من شئت . أنا فى السماء شاهدت ربى وعلى الكرسى خاطبته ، أنا بيدى أبواب النار أغلقتها وبيدى جنة الفردوس فتحتها ، من زارنى أسكنته

جنة الفردوس. واعلم يا ولدى أن أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون متصلون بالله. وما كان ولى متصل بالله إلا وهو يناجى ربه كما كان موسى عليه السلام يناجى ربه وما من ولى إلا ويحمل على الكفار كما كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يحمل. وقد كنت أنا وأولياء الله تعالى أشياخا فى الأزل بين يدى قديم الأزل وبين يدى رسول الله ﷺ وأمرنى أن أخلع على جميع الأولياء بيدى نخلعت عليهم بيدى. فقال لى رسول الله ﷺ: يا ابراهيم أنت نقيب عليهم فكنت أنا ورسول الله ﷺ وأخى عبد القادر خلفى وابن الرفاعى خلف عبد القادر ثم التفت إلى رسول الله ﷺ وقال لى: يا ابراهيم سر إلى مالك وقل له يغلق النيران وسر إلى رضوان وقل له يفتح الجنان ففعل مالك ما أمر به ورضوان ما أمر به. واطال فى معانى هذا الكلام. ثم قال رضى الله عنه وما يعلم ما قلته إلا من انخلع من كثافة حجبه وصار مروحنا كالملائكة. قلت — أى الشعرانى — وهذا الكلام من مقام الاستطالة تعطى الرتبة صاحبها أن ينطق بما ينطق. وقد سبقه إلى ذلك عبد القادر الجيلى رضى الله عنه وغيره فلا ينبغى مخالفته إلا بنص صريح والسلام. اهـ

ونكل إلى القارىء الفطن معرفة ما فى هذا الكلام من الخروج عن الإسلام ومن الهذيان والغريب أن يجنح العلماء إلى تأويل هذا الخلط.

إن هذا الموت الأدبى الذى منى به المسلمون فى خلال سلسلة من سلاسل الحدثان استحكمت حلقاتها فى الضغط على خناق الفكر الإسلامى بصنع الحاقدين على الإسلام المنحدرين من الأصول الحاقدة الفارسية واليهودية والمجوسية لابد أن يتقشع وتنجاب عنهم سحائبه التى تلبدت زمناً طويلا. وقد ظهرت الآن بوادر تؤذن بحلول الحياة محل الموت المذكور كجهود الشاه ولى الله فى التجديد التى ظهرت فى مؤلفاته ومنها حركة الانطلاق الفكرى وغير ذلك من العلماء المجددين.

وقد رأيت فى القرآن الكريم آية تشير إلى حياة الميتين موتا أدبيا بنور هذا الإسلام ثم يقعون فى الموت ثانية ثم يحظون بالحياة التى تستمر حتى ينتهى العالم. تلك هى قول الله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون[1]﴾.

فالإشارة فيها واضحة جلية وهى من خير البشائر للمسلمين، نسألك اللهم أن تعز الإسلام وأهله يا رب العالمين؟

---

(١) البقرة: ٢٨

كلمة الناشر للطبعة الأردية

الحمد لله الواحد الفرد الذى يوفق عباده بحكمته وإرادته للعمل لتقوية الدين المحكم، ويكرمهم بإلهامه الخاص إياهم إتمام المقاصد المنشودة، ويتم عمل المحافظة على دين المصطفى ﷺ من انتحال العصور السيئة. وهكذا يقوم عباده بفضله بإتمام الأعمال التى يؤدى تركها إلى الخسران العظيم فى حق البشرية. والصلاة والسلام على النبى الحق الذى علمنا ديننا بأحاديثه الحقة ودعوته الصادقة.

وبعد: فكنت أرغب منذ مدة طويلة فى نشر كتاب تطور حركة الحرية الفكرية وجهود الشاه ولى الله التجديدية الذى ألفه الشيخ الأستاذ الكبير محمد اسماعيل السلفى أمير جمعية أهل الحديث لباكستان الغربية، على طريقة علمية حديثة، فى العصر الذى قلّت فيه العناية بالمؤلفات الدينية. ونظرا لاحتواء الكتاب على أدلة محكمة، وبراهين قاطعة فى موضوعه أحببت أن يطلع عليه الناس فى عصر التقليد الجامد، مدافعا عن الحق، ومتوكلا على الله تعالى فى إتمام هذا العمل المضنى، ولايخفى على أهل العلم أن هذا الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات للشيخ محمد اسماعيل، التى نشرت فى جريدة «الاعتصام»

الأسبوعية بلاهور فى أعداد سنة ٦٢ — ١٩٦١م باسم « تطور حركة أهل الحديث وجهود الشاه ولى الله التجديدية » ثم غير الشيخ هذا الاسم إلى « حركة الانطلاق الفكرى الخ ». ثم نشرت له مقالات أخرى باسم « ترك التقليد وأهل الحديث » و « نشاط الموحدين فى شبه القارة : الهند وباكستان » و « الموقف التأريخى لحركة أهل الحديث وخدماتها ». وكان محبو العلم يرغبون فى طبعها فى صورة كتاب، فالتمست من الشيخ المحترم الإذن فأذن وكتب بنفسه مقدمته.

وإنى قد بذلت قصارى جهدى لتصحيح الكتاب وتزيينه، فمن وجد فيه سقما يدلنى عليه حتى أقوم بالاصلاح فى الطبعة القادمة.

(محمد حنيف اليزدانى)

فى ١٧ / محرم الحرام ١٣٨٦ هـ



مقدمة المترجم

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على الرسول النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فهذه ترجمة لكتاب العلامة محمد اسماعيل السلفى (١٨٩٥=١٩٦٨ م) ألفه باللغة الأردية مدافعا عن السنة النبوية والحركة السلفية . وقد أعجبنى الكتاب ببحوثه العلمية الجادة وبتناوله المسائل الخلافية بروح التسامح والاحترام، فقمت بترجمته إلى اللغة العربية على رغبة المسؤلين عن إدارة البحوث الاسلامية .

وبما أن الكتاب أمام القراء لا أريد وصفه وتصويره . أما المؤلف فهو الأستاذ الكبير محمد اسماعيل بن ابراهيم السلفى — رحمه الله — من أبرز العلماء السلفيين فى القرن العشرين . ولد فى قرية قريبة من وزيرآباد فى كوجرانواله (باكستان) وهناك نشأ وتعلم وقضى حياة حافلة بالنشاط والعمل ، إلى أن توفى فى فبرائر سنة ١٩٦٨ م . قد أجمع معاصروه على أنه كان إماما فى علوم الكتاب والسنة ، كاتبا مجيدا ، غزير الانتاج ، واسع الاطلاع، متقد الفكر . له عدة مؤلفات، وهى تجمع بين غزارة العلم وأصالة الفكر وإصابة الرأى وحماية الحق . قام بالتدريس والتوجيه والارشاد نحو نصف قرن من الزمن، وبجانب هذا النشاط الدينى والعلمى له مواقف رائعة محمودة فى حركة التحرير ضد الانجليز ، وفى الدفاع عن مبدأ ختم النبوة فى الاسلام . وقف حياته لنشر دعوة العمل بالكتاب والسنة ولخدمة الحركة

السلفية بالهند . كان من أكبر دعاة الاتحاد بين المسلمين وتوحيد كلمتهم على أساس المصدر الأصلى لأحكام الشريعة ، وكان يكره كل ما يثير الخلاف بين المسلمين ويضر وحدتهم ، ونرى أثر ذلك فى هذا المؤلف الذى يتناول المسائل الخلافية ولكنه مع ذلك لايتحامل على أحد ولا يطعن فى مذهب .

وقد حاولت فى الترجمة الدقة والأمانة وألا يفقد النص معناه و روحه ، بدون تقيد بالترجمة الحرفية . ولكن لا أدعى الكمال ، فهو لله وحده ، بل أرجو من القراء الصفح عن الأخطاء والتنبيه على المواضع التى قد تبدو غامضة . ثم إنى رجعت إلى المصادر التى نقل منها المؤلف بعض الكلام فقارنت وصححت ما وقع فيه من الأخطاء المطبعية، وهكذا فعلت نحو الأعلام والأسماء الواردة فى الكتاب ، وألحقت فى نهايته فهرس المصادر التى استقى منها المؤلف، مشيرا إلى مكان الطبع وتأريخه حيث تيسر ذلك .

وختاما أقدم خالص شكرى إلى سماحة الشيخ المحدث الكبير عبيد الله الرحمانى حفظه الله تعالى (رئيس الجامعة السلفية ومؤلف مرعاة المفاتيح) الذى تكرم بتقديم الكتاب، وإلى فضيلة الشيخ عبد الوحيد السلفى أمين عام الجامعة الذى تكرم بالأمر بطبع الكتاب على مطبعة الجامعة ، فجزاهما الله عنى وعن العلم خيرا، وتقبل هذا الجهد المتواضع الذى بذلته فى الترجمة وينفع به القراء الكرام ، إنه سميع مجيب .

٢٢ / شوال ١٣٩٦هـ (مقتدى حسن الأزهرى)

++++++++++++

ترجمة المؤلف

الشيخ محمد اسماعيل السلفى رحمه الله

بقلم: نجله الكريم الأستاذ محمد

كانت حياة الوالد، رحمه الله، مجموعة صالحة للمحاسن والمحامد، وكان نموذجا طيبا للسلف الصالح، رضى الله عنهم. كان اتباع السنة غاية وحيدة لحياته، وكان ذهنه ثاقبا، يفهم الأمور ويصل إلى أعماقها، اتصف بالنظر فى العواقب وبالتدبير والذوق السليم. وبجانب ذلك كان كريم الخلق سمح المعاملة طاهر الذيل بعيدا عن الأثرة متحليا بالجود والاخلاص، كل ذلك بتوفيق من الله تعالى ومنته.

تحمل مسئولية الدعوة إلى دين الحق ونشر التوحيد الخالص بين الناس، كان ذلك همه الوحيد فصبر على الصعاب والشدائد كلها فى هذا الصدد بعزيمة وهمة.

مولده: كانت ولادته على وجه التقريب عام (١٣١٤هـ المصادف ١٨٩٥م) فى قرية دهونيكى بمديرية كوجرانواله بمحافظة وزيرآباد. كان جدنا (والد صاحب الترجمة) الشيخ محمد ابراهيم ناسخا مجيدا وعالما معروفا وطبيبا حاذقا، وقد تتلمذ على العلامة الحافظ عبد المنان الوزيرآبادى، فانتقلت آثار هذا التلمذ إلى الوالد رحمه الله.

دراسته: تلقى الوالد دراسة الابتدائية من الجد الشيخ محمد ابراهيم رحمه الله، وفى هذه المرحلة أتيحت له فرصة الاستفادة من عالم صالح اسمه الشيخ عمر الدين الوزيرآبادى. وهكذا حصلت للوالد معرفة كافية بكتب النحو والصرف فى سن مبكر، ودرس من كتب الفارسية: كلستان وبوستان وغيرهما.

وبعد الدراسة الابتدائية الأساسية اتصل بالعلامة الحافظ عبد المنان الذى اعتنى بالوالد عناية بالغة وقام بتعليمه وتربيته على طريقة ناجحة.

سافر صاحب الترجمة من وزيرآباد إلى دهلى حينا بلغ الثانى عشر أو الثالث عشر من عمره، وكانت هذه المدينة فى ذلك الوقت مركزا للعلوم والفنون، وكانت هناك آثار الشاه ولى الله وحركته العلمية بارزة ملموسة. نزل الوالد فى مدرسة الشيخ المحدث السيد نذير حسين المتوفى (١٣٢٠هـ) رحمه الله، وتتلمذ على الشيخ عبد الجبار العمرفورى وعلى غيره من العلماء الكبار واستفاد من علومهم وتوجيهاتهم.

وفى هذه الأيام كانت مدينة أمرتسر قد عرفت بنشاط علمى وعملى كبيرين بجهود بعض الأكابر من الأسرة الغزنوية، فتوجه الوالد إلى أمرتسر، ودرس على الشيخ عبد الغفور الغزنوى والشيخ عبد الرحيم الغزنوى رحمهما الله، ودرس كتب الفنون (العلوم العقلية) على المفتى محمد حسن الذى أسس فيما بعد الجامعة الأشرفية

بلاهور. كان اعجاب الوالـد بالمفتى كبيرا ، فكان يثنى كثيرا على ذوقـه السليم.

مساهمته فى الدعوة والنشاط السياسى : كانت شهرة العـلامة الشيخ ثناء الله الأمرتسرى قد بلغت ذروتها فى تلك الأيام ، بالجهود الواسعة التى كان يبـذلها فى نشر التوحيد والسنة. تأثر الوالد بهذه الجهود ، واستفاد كثيرا من مقابلته مع العلماء ، وهكذا بدأ يساهم فى حركات التحرير الوطنية مع ممارسة نشاطه فى العلوم الدينية ، وكان إمام الهند العلامة أبو الكلام آزاد بين الزعماء السياسيين قدوة له ، فكان يثنى على بصيرته السياسية.

وبعد إقامته فى أمرتسر ذهب إلى سيالكوت ، وتتلمذ على الشيخ محمد ابراهيم مير السيالكوتى أيضا.

علم الحـديث : كانت اجارة الحديث حصلت لصاحب الترجمة من المحدث عبد المنان الوزير آبادى الملقب بأستاذ بنجاب ، وبجانب ذلك حصل على اجازة من عالم مكة المكرمة الشيخ أبو بكر خوقير صاحب المؤلفات العديدة والمتمسك بالسلفية ، وكانت سلسلة سند الوالد تتصل بالنبى ﷺ بأربع وعشرين واسطة.

تعينه فى كوجرانوالـه : كان صاحب الترجمة وصل إلى كوجرانوالـه مع الشيخ محمد إبراهيم السيالكوتى عام (١٣٣٩هـ المصادف ١٩٢١م) ،

وكان أفراد جماعة أهل الحديث فيهـا يعدون بالأصابع ، فقال لهم الشيخ السيالكوتى : إنى جئت إليكم بدرة فريدة فاحفظوها ، وبعـد ذلك توطن الوالـد مدينة كوجرانوالـه ، وتولى مسئولية الإمامة والخطابة فى مسجدها ، واستمر فيها نحو نصف قرن مع تقلب الأيام وحدوث الحوادث ، دون أن تفتر همته وتنحل عزيمته وتزل قـدمه حبا للجاه والثروة .

إن سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز نائب رئيس الجـامعة الإسلامية بالمدينة المنورة كان قـد وجه الدعوة بواسطـة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد إلى الوالد يستقدمه إلى المدينة المنورة ، ولكنه آثر البقـاء فى كوجرانوالـه وأرسل مكانه الشيخ الحافظ محمـد الغوندلوى ، رحمه الله .

أسس صاحب الترجمة فى جامع أهل الحديث بكجرانواله المدرسة المحمـدية التى قامت بتدريس العلوم العربية الإسلامية نحو نصف قرن للوافدين من ضواحى كجرانوالـه بل من بنجاب كلها . لم يقم الوالـد بالتدريس فى هذه المدرسة فحسب ، بل عين فيهـا مدرسين أكفاء ، والمؤسف أن جمعية أهل الحديث بكجرانوالـه لم توفق للحفاظ على هذه المدرسة بعد رحيل مؤسسها (الشيخ محمد إسماعيل) من الدنيا ، وهكذا حرمت هذه المدينة فوائدها ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

تلامذتـــه : تخرج فى هذه المـــدرسة ألوف من الطلاب ، واشتغلوا بنشر التوحيد والسنة فى باكستان ، ومن الـذين برزوا منهم فى ناحية أو أخرى :

الشيخ محمـــد حنيف الندوى الـذى اشتغل بالفلسفة الإسلامية وأجاد فى التـأليف فيهـــا ؛ والشيخ الطبيب عبد الله نصر ، والشيخ الحافظ محمد إسماعيل الذبيح الذى فاق فى الخطابة والتدريس ، والشيخ معين الدين اللكهوى الذى عرف ببصيرته السياسية وملـكته فى الخطابة ، والشيخ محمد سليمان الـكيلانى الذى اشتغل بالتـأليف وترجمة الـكتب العربيـــة والفـارسية ، والشيخ خالد الـكرجاكهى الذى أسس ادارة أحياء السنة ، وألف عدة كتب ، ونشر بعض التراجم . ذكرت هذه الأسمـــاء على سبيل المثـــال ، و يطول فهرس تلامذة الوالد الذين برعوا واشتهروا .

قدرته على التـأليف : جمع صاحب الترجمـة إلى براعته فى الخطـابة التفوق فى الـكتابة والتأليف ، فكان فارس هذه الحلبة ومعروفا بالرزانة فى الـكتابـــة ، كان يفيـــد فوائد جمة تحت عناوين بسيطة ، ولـكن الشواغل الأخرى الـكثيرة قللت انتاجه فى التأليف ، ومع ذلك تمتاز كتاباته بالجودة والابتكار ، وقد تم جمع مقـالاته الـكثيرة المتنوعة التى نشرت فى مجلة « الاعتصام » وغيرهـا من الجرائد والمجلات ،

وذلك سوى مؤلفاته المستقلة، وهى تطبع بعد التنقيح والتهذيب، إن شاء الله تعالى.

مؤلفاته: ومن مؤلفاته المستقلة المطبوعة:

١ — ترجمة مشكاة المصابيح مع التعليق، إلى نصف الكتاب، باللغة الأردية.

٢ — ترجمة المعلقات السبع مع الشرح، بالعربية والأردية.

٣ — صلاة رسول الله ﷺ.

٤ — نظرية الجماعة الإسلامية فى الحديث.

٥ — مسألة حياة النبى ﷺ (نشرت فى حركة الانطلاق).

٦ — مكانة السنة التشريعية.

٧ — السنة فى ضوء القرآن الكريم.

٨ — حركة الانطلاق الفكرى.

٩ — مسلك الإمام البخارى رحمه الله.

١٠ — زيارة القبور.

١١ — ملامح الحكومة الإسلامية.

موقفه من الأمة والجماعة: ينبغى أن أقدم هنا قطعة من افتتاحية مجلة «الاعتصام» بلاهور بتغير يسير، وقد نشرت فى جزء أول مارس عام (١٩٦٨م).

« إن الشيخ محمد إسماعيل شارك مشاركة قوية فى جميع النشاطات الدينية و السياسية لجماعة أهل الحديث فيما مضى من نصف قرن ، ومما يدل على سعيه وهمته أيام الشباب أنه استضاف الجلسة السنوية لجمعية أهل الحديث المركزية عام ١٩٢٤ م ، وترأس الشيخ الحافظ محمد الكوندلوى لجنتها الاستقبالية . كان صاحبنا ذا عناية بالغة بتنظيم الجماعة ، و بهذا الصدد تم انشاء جمعية أهل الحديث لمنطقة بنجاب ، فلعب فيه دورا ملموسا . وفى عام (١٣٤٩هـ = ١٩٣١ م) تم انشاء منظمة أهل الحديث برئاسة الشيخ الشاه محمد شريف السكرياوى رحمه الله ، فساهم فيه صاحبنا مساهمة فعالة ، وجعل مكتبها فى كوجرانواله تحت اشرافه ، وعين الشيخ القاضى عبد الرحيم رحمه الله أمينها العام .

وفى عام ١٩٤٠ م انعقدت الجلسة السنوية لجمعية أهل الحديث فى دهلى ، وتم فيها انشاء مجلس العمل لأهل الحديث ، وانتخب صاحبنا سكرتيرا له ، وبعد تأسيس دولة باكستان اعتمدت جمعية أهل الحديث فى باكستان الغربية ، بعد عون الله تعالى ، على جهود صاحبنا وسعيه المتواصل إلى حد كبير ، وهو الذى أقنع الشيخ السيد محمد داود الغزنوى رحمه الله لقبول رئاسة جمعية أهل الحديث بعد التخلى عن ورطة السياسة فى البلاد ، فلم يزل معه فى السراء والضراء ولما قامت مطالبة تطبيق الشريعة الإسلامية فى باكستان وقف صاحبنا

مع السيد محمد داود يمثلان الجمعية ، ثم انتخب عضوا فى لجنة وضع القوانين الإسلامية التى تكونت عام ١٩٥٢ م .

وفى عام ١٩٥٣م أنشئت الحركة التأريخيــة للحفاظ على عقيدة ختم النبوة . فانتخب فى مجلسها التنفيذى ثلاثة أعضاء من جمعية أهل الحديث هم : الشيخ السيد محمد داود الغزنوى ، والشيخ محمد إسماعيل السلفى ، وكاتب هذه السطور (محمد عطاء الله حنيف) ولكن صاحب الترجمة وحده « تشرف » بالقيود والسلاسل (انتهى من الافتتاحية) .

وفى عام ١٩٢٤م بدأت فى الهند حركة « شدهى » أى إدخال المسلمين فى الهندوكية بإكراه، فخرج وفد دعوى اسلامى من بنجاب إلى منطقة الملكانيين فى وسط الهند ، فكان الوالد رحمه الله عضوا بارزا من أعضاء هذا الوفد .

منهجه وتعامله فى الحياة : كانت حياته مليئة بالعمل والنشاط ، حتى إن الناس كانوا يتعجبون من تمكنه من أداء هذه المسئوليات الكثيرة ، كان خطيبا وإماما فى جامع ، وكان يواظب على إلقاء درس القرآن الكريم بعناية بالغة حتى لم يتخلف عنه إلا نادرا ، وحينما كان يقوم بجولاته الدعوية حاول العودة سريعا كى لايحصل الانقطاع فى الدرس. ثم كانت هناك جماعة من أهل العمل والتجارة فى المدينــة تتلق منه درسا فى القرآن ، وبعد ذلك كان يقوم بالتدريس فى المدرسة المحمدية ،

وخلال هذه الأعمال كان ينتهز الفرصة لكتابة مقالاته وبحوثه للإجابة على الاستفتاء، وفوق ذلك كله كانت له مشاركة فى الحركات السياسية والاجتماعية على مستوى مدينة كجرانواله وعلى مستوى باكستان كلها، وكذلك كان يقدم خدماته فى الحوادث والنوازل.

خدماته بعد تأسيس باكستان: قام بخدمة كبيرة فى إسكان المهاجرين من الهند عام ١٩٤٧م فى مدينة كجرانواله، وجمع المساعدات ووزعها من قبل جمعية أهل الحديث على المصابين والمنكوبين بالآفات والحوادث.

وكانت له عناية بالغة بإنشاء المساجد وتعميرها، ومما يدل على ذلك أن نحوا من خمسة وعشرين مسجدا قد تأسست بجهوده فى كجرانواله وحدها.

الجامعة السلفية: كان الوالد يعتنى دائما بإنشاء المدارس العربية، حتى أنه أنشأها فى الأرجاء النائية للبلاد أيضا، ويجدر بالذكر الرحلات التى قام بها بهذا الصدد لمنطقة بلتستان وكشمير الحرة. ولكن المؤسسة التعليمية التى شغف بها قلبه خاصة وواصل الليل بالنهار لنهضتها ورقيها هى الجامعة السلفية بلائل فور، فقد ساهم فى بنائها واعتنى بنظام تدريسها وادارتها وتنسيق مكتبتها وبالشئون الأخرى بالغ الاعتناء.

ولرفع مستوى هذه الجامعة قام بالمراسلة مع سماحة الشيخ

عبد العزيز بن باز حفظه الله نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ورجا منه التكرم بإيفاد المدرسين إلى الجامعة، وكانت الإجراءات الخاصة بالموضوع على وشك الانتهاء حتى وقعت حادثة وفاته ولم ير بعينه ثمرة جهوده، ولكن الله تعالى بارك فى جهوده فتمت الموافقة على إيفاد المدرسين، وهم يأتون إلى الجامعة منذ سنوات.

مرضه ووفاته: كان يشتكى منذ سنوات من المرض العصبى، ولكن حالته لم تكن تبعث القلق، ولكن فوجئنا يوم الثلاثاء بعد العصر فى (٢/ ١١/ ١٣٨٧هـ = ٢٠/ ٢/ ١٩٦٨م) بتدهور فى حالته الصحية حتى لبى دعوة ربه، إنا لله وإنا إليه راجعون.

أولاده: ترك الوالد ثلاثة من الأبناء، وهم:

محمد (كاتب هذه السطور) وأحمد ومحمود رعاهم الله تعالى ووفقهم لكل خير.



مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على رسوله محمد خاتم النبيين، والسلام على أصحابه وأتباعه أجمعين.

إنى لست متعودا على مواصلة الكتابة، وأميل بفطرتى إلى الدين، وأرغب بطبعى فى عقيدة السلف، وعلى هذا المنهج الدينى تمت دراستى، فلست أستأنس ولا أتأثر بالمدارس الحضرية والدراسة على المنهج الانجليزى. وإذا مست الحاجة فأكتب على الموضوعات الدينية. وأرى فى نفسى أنى لست مناظرا، ولا أعرف طرق المناظرة المصطلحة اليوم، فلست متعودا ألبتة على تغيير وتحريف النص عند الترجمة حتى يوافق مذهبى و رأيى. أحب مذهب أهل الحديث، وأرتبط كطالب بالحديث النبوى، وفى بيئته كتبت ما كتبت. وبما أن أساس الحديث هو القرآن ارتبطت به كأصل، ولم أر وجها للمحاولة التى ترمى إلى فهم القرآن بدون الحديث. وأعلم عن حركة إنكار الحديث التى تأسست فى البلاد منذ سنوات ومرت بمراحل، وتغير أصحابها حسب الظروف. وفى بدايتها قرأت مؤلفاتهم بنظر الباحث، فلم أزدد منها إلا نفورا وكرها، وأرى فى الاشتغال بها إضاعة للوقت والطاقة. والمؤلفات: «صلاة القرآن»، و «بيان القرآن»، و «طلوع الإسلام[1]» عبارة عن مراحل مختلفة لعجز هذه الحركة. ويتلخص عمل قواد هذه الحركة

---

(١) صلاة القرآن لعبد الله الچكڑالوى وبيان القرآن للمولوى أحمد الدين الأمرتسرى، ومجلة طلوع الإسلام لغلام پرويز.

وتفكيرهم فى أن القرآن — مع كونه مفصلا — مجمل، وفى حاجة إلى الشرح والتفسير، فهم ينشرون مؤلفات لشرح القرآن وتفسيره، مما يدل على أن القرآن فى حاجة إلى شرحهم. وقبول هذا الشرح يعنى عندهم الإيمان بالقرآن. ولكنهم لايرون حاجة إلى قبول التفسير الذى ورد عن النبى ﷺ وأصحابه، بل يكرهونه بشدة. و ينكرون الحديث ولو لم يفهموه. ومن المعروف أن أئمة الحديث أنكروا الأحاديث التى لم تكن على شروطهم، وكذلك دلوا على الأحاديث الموضوعة. ولكن إنكار الحديث بأسره بحجة أن يتعذر فهم بعض الأحاديث، موقف غير معقول.

وهكذا نرى بعض الأشخاص قد تمسكوا بعادات واختاروا هتافات يدّعون بها حب رسول الله ﷺ وخدمة الإسلام، ويظنون أن هذه العادات هى أساس الإيمان، والإنكار عليها معارض للإسلام، ومناف لحب النبى ﷺ، وهذا أمر عجيب، فإن هذه العادات لم يرد ذكرها فى قرون الخير ولدى أئمة الإسلام وفقهاء المحدثين ولو ذكرت فعلى سبيل الذم والإنكار. والحقيقة أن دينا عمليا مثل الإسلام لن ينحصر فى عادات وهتافات، فإن الضمير يأباه.

وكذلك بداية التقليد السائد والجمود هو التأثر الطبعى الذى يحصل للطالب من المدرس، وهذا أمر طبيعى، ولا فائدة فى المناقشة حول جوازه أو عدمه. فهذا التأثر لابد منه، ويكون دائما بطريق البحث والتحقيق، ولايؤدى إلى الجمود أبدا، ولايرمى إلى نفى الصواب لدى أئمة الاجتهاد الآخرين، ولايحمل على التنفر منهم، بل التأثر المبنى

على التحقيق ينسجم مع طرق النظر والتفكير، فالصواب لاينحصر فى الفروع الفقهية مع أحد، ولا المنافرة والمباغضة تجوز فيما بينهم. فالأئمة بأنفسهم لم يقولوا قط بأن الصواب معهم دائما، ولاطالبوا بأن يقبل قولهم بدون دليل على أساس حسن الظن والاعتقاد الجميل. والأنبياء عليهم السلام كانوا يدعون إلى النظر والتفكير، فكيف يدعون أتباعهم إلى التقليد والجمود؟ وأرى أن المواقف الثلاثة واضحة بينة لا تحتاج إلى نقاش طويل، ولكن مع ذلك يوجد فى العالم أشخاص يحاولون تكوين حركة حول نظرية إنكار الحديث. والنقطة التى يرتكزون حولها أن قول النبى ﷺ وفعله وسكوته واجتهاده ليس حجة فى الدين، واوفسر النبى ﷺ آية فلنا أن نفسرها خلاف تفسيره ﷺ، وأن نعتقد صحة تفسيرنا. وسترا لهذا الموقف الشنيع قالوا: إن القرآن مكمل، ولايعتمد على الحديث نظرا للإسناد، فإنه موضع شبهة. وهكذا حال الآخرين فإنهم يسمون عادات الشرك والتقاليد البدعية بحب النبى ﷺ وبتكريم الصلحاء، ويسمون الاستفادة العلمية تقليدا، وبينهما مفاوز تنقطع فيها أعناق الإبل.

وفى الأيام الماضية كنت قد كتبت بعض المقالات بدوافع مختلفة، ونشرت فى جريدة «الاعتصام[1]». وكانت هذه المقالات موضع إعجاب كبير لدى البعض، بينما أغضبت الآخرين كثيرا، ويتأكد

---

(١) مجلة إسلامية أسبوعية باللغة الأردية أنشأها العلامة المحدث محمد عطاء الله حنيف الفوجيانى رحمه الله صاحب التعليقات السلفية على سنن النسائى عام (١٩٤٩م) من لاهور.

تأثير العمل — ولاشك — إذا تكونت حوله أوساط مختلفة ، وصار هدفا للنقـــد والمناقشة . وأثناء نشر المقـــال انتقده بعض الأصدقاء المحترمين انتقاد باحث وصديق ، جزاهم الله أحسن الجزاء .

وكان بعض الأصدقاء يرى أن « أهل الحـــديث » اسم لحفاظ الحديث ، وليس مدرسة فكرية مستقلة . وقد أشرت بالايجاز إلى هذه النقطة فى هذه المقـالات ، وأنوى أن أبحث هذا الموضوع بشىء من التفصيل ، وأرجو من الله التوفيق .

ولعل الشيخ محمد حنيف اليزدانى اطلع على هذه المقالات ، وأراد طبعها فى صورة كتاب ، فأذنت له فى ذلك ، وفقه الله تعالى لأعمال الخير.

وأرجو من القراء الكرام ، إذا أعجبهم هذا العمل المتواضع ، أن يخلصوا الدعاء لأستاذى المحترم المحدث الكبير الحافظ عبد المنان[1] الوزيرآبادى رحمه الله تعالى ؛ فتربيته الغالية الهادفة هى التى دفعتنى إلى حب التوحيد والسنة والتمسك بمذهب السلف رحمهم الله . اللهم اغفر له وارحمه واجعل جنة الفردوس مأواه ، واجعله من ورثة جنة النعيم .

محمـــد إسماعيل

مدرس وخطيب جامع أهل الحديث

چاه شاهان — گوجرانواله

٣ / ذو القعدة ١٣٨٥ ﻫ

٢٦ / مارس ١٩٦٦ م

+++++++++++

(١) من كبـار أساتذة الحديث فى عصره توفى (١٢٦٧م = ١٣٣٤ﻫ)
انظر : جهود مخلصة فى خدمة السنة المطهرة ص ١٣٣

الفصل الأول

في

تطور حركة أهل الحديث وجهود الشاه ولي الله في الإصلاح والتجديد



بسم الله الرحمن الرحيم

تطور حركة أهل الحديث وآثار جهود الشاه ولى الله في الإصلاح والتجديد

إن العلامة ابن خلدون قد قرر أن الأمم الماضية كانت على اختلاف فى التفكير، فكان فيها من يتمسك بظواهر الألفاظ، ومن يحاول الوصول إلى حقيقة الحكم وحكمة الشرع. وكذلك كانت مختلفة فى العمل، فكان فيها من يحاول الجمع بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة، ومن يركز همه حول نعيم الآخرة. وقد زاد هذا الخلاف فى التفكير والعمل، وغلا كل فريق إلى أن وقعوا فى الإفراط والتفريط، فضلوا سواء السبيل.

يقول ابن خلدون: « قال ابن كربون: وكان اليهود فى دينهم يومئذ ثلاث فرق: فرقة الفقهاء وأهل القياس، ويسمونهم الفروشيم، وهم الربانيون، وفرقة الظاهرية المتعلقين بظواهر الألفاظ من كتابهم، ويسمونهم الصدوقية، وهم القراءون. وفرقة العباد المنقطعين إلى العبادة

والتسبيح والزهاد فيما سوى ذلك ، ويسمونهم الحيسيديم[١]» .

هذا ، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل[٢]» .

عقول مختلفة :

ونرى هذه الأنواع الثلاثة توجد الآن فى الأمة الإسلامية ، فنهم من يتعمق فى النظر إلى الشريعة ويجعل دائما مصالح الدين نصب عينيه ، ومنهم أهل الظواهر قصار النظر الذين لا يصلون إلا إلى القشور ، ومنهم طبقة الزهاد الذين لهم سيطرة على تفكير الناس . وكان نظام المعابد والزوايا فى البداية مقبولا إلى حد ما ، وذلك معروف عند الجميع . ولكن اليوم نرى أن معظم البدع والخرافات تنشأ فيهم وتبيض الفتن هناك وتفرخ .

وكان فى الصحابة — رضوان الله عليهم — بعد مبعث الرسول ﷺ طبقة الفقهاء وأهل الظواهر والزهاد . وكانت هذه الطبقات توجد فى الأمة بعد الرسول ﷺ ، وكانت لها مذاهب ومناهج فى التفكير والسلوك ، وكان أحيانا يوجد فيهم الانحراف ويتسرب إليهم

---

(١) تأريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) ج ١ ص ١٨٠

(٢) فتح البارى ١٣ / ٣٠٢

الجمود. مع أن الجمود كان بطبيعته معارضا لفطرة الإسلام، ولكنه قد منيت به هذه الطبقات الثلاث، فكان الغلو فى الأخذ بظاهر الألفاظ إلى أن ركزوا على الظاهر كل تركيز، وصرفوا النظر عن المصالح والمقاصد التى كانت مرعية فى الدين. وأحيانا تأثر العلماء بآراء الرجال وقياسهم فجمدوا على التقليد، وأوجبوه[1] على الأمة كانوا يقدسون آراء العلماء وينزلونها منزلة أحاديث الرسول ﷺ ومكانتها فى التشريع. ولم يكن هذا وذاك إلا غلوا فى الدين. وقد منيت طبقة الزهاد والأتقياء بهذا المرض، فجعلوا المرشد مظهراً لله

---

(١) ومن المعلوم أن الجمود الذى نراه اليوم على التحزب والتجمع حول الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة السنة وحول علومهم، وكذلك التمسك بأقوالهم وآرائهم لم يوجد فى القرون الأولى، والأئمة أنفسهم وأصحابهم لم يرضوا بذلك بل اعتبروه مضادا لمصالح الدين، فقد رفض الإمام مالك رحمه الله ما عزم عليه الخليفة العباسى هارون الرشيد من جعل الموطأ دين الدولة وفرض فقهه وآرائه على الأمة فى ذلك الوقت (الديباج ص ١١٨) ونرى فى كتابى حجة الله البالغة للشاه ولى الله الدهلوى، وجامع بيان العلم لابن عبد البر الأندلسى عددا من أقوال الأئمة تمنع من التقليد والتقيد بآراء إمام أو عالم مخصوص. ولكن العجب من أكابر ديوبند الذين يحترقون اليوم على الدعوة إلى التقليد والجمود، ويزعمون أنه واجب على الأمة، وأن لهم الحق فى فرضه عليها.

تعالى وعوضا عن الرسول ، وأنزلوا عادات الصالحين وتقاليدهم منزلة الوحى الإلهى ، بل اعتمدوا على سلوكهم وحالاتهم ، واستغنوا عن الشريعة وهدايتهـا . فاستحلوا ما أحلوه ، وحرموا ما حرموه . وكان موقفهم هنا مبعثـا للجمود ومعارضا لروح الإسلام الذى هو دين الحركة والانطلاق ، دين يجعل الكتاب والسنة أساسا ، ثم يقرر مبدأ الحرية الفكرية ويمهد لها سبيلها ، ويقدر الجهود التى تبـذل لمقاومة اتجاهات التقليد والجمود والتحجر العقلى .

حركات علمية للقضاء على الجمود :

كان الإسلام فى مختلف العصور ، بتأثير من تفكير أتباعه وميولهم وعواطفهم ، متطورا غير جامد ، فأحيانا رجحت كفة أهل الظاهر فأبطلوا القياس والعمل بمقتضاه ، وأحيانا زاد إقبال الناس على الرأى والقياس فتركوا بإزائهـا النصوص الصريحة ، وجعلوا الدين عبارة عن المسائل والصور المتخيلة المفترضة .

ونشأ عن ذلك ظاهرية الحافظ ابن حزم الأندلسى (م–٤٥٦هـ) . وكذا كتاب الحيل للفقهاء الذى قد أفسد الدين ، وشوه معالمه من العبادات إلى الاقتصاد ، وأدخل فى الدين الفواحش باسم العبادات والتفقه . وقد تأثرت بذلك من العبادات الصلاة والزكاة والحج . وهنـاك من يزعم أن الظاهرية ترتبط بالحـديث ولذلك غلبت على

ابن حزم، ولكن الحقيقة أن الظاهرية والحيل الفقهية كلاهما قد نتجا عن تفكير واحد وعقلية متماثلة. إن ابن حزم وأتباعه قد غرهم ظاهر الألفاظ، وأصحاب الحيل قد انخدعوا بظواهر القواعد الفقهية، نخفيت مصالح الشارع وأهدافه على أنظار الفريقين، وظاهرية الألفاظ قد حالت دون الوصول إلى لب الموضوع وحقيقته.

والنظائر إذا لم تدرس بالقياس ولم تراع أهداف الشريعة فلا فائدة إذن من الاعتراف بالقياس والتسليم بأدلته. والاحترام لآراء الكبار وأقوالهم بمجرد كونهم كبارا ليس إلا نوعا من الظاهرية ومظهرا لجمود غير مرضى.

نظرة على تأريخ المذاهب:

كان الاشتغال بالحديث شائعا بالحجاز، وبخارى، ومصر، والمغرب فى القرون الماضية، وكان الناس يدرسون الحديث ويحفظونه بنشاط واجتهاد، والمدارس كانت مرتجة بأصوات «حدثنا، وأخبرنا» إذ اشتهر الإمام الشافعى (رحمه الله) فى الحجاز ومصر بحفظه وذكائه. وساد الفقه المالكى فى المناطق بين السودان والأندلس، والفقه الحنفى قد انتشر بين الكوفة إلى إيران، وأقصى بلاد الهند. وكانت نجد وما يجاورها من المناطق تحت تأثير مذهب الامام أحمد ابن حنبل (رحمه الله). وكان هناك أئمة آخرون قد تركوا آثارهم

ملموسة فى المنـاطق الأخرى ، مثل الإمام الأوزاعى ، وابن جرير الطبرى ، والحافظ ابن خزيمة ، وداود الظاهرى ، رحمهم الله تعالى . وقد أدى ذلك إلى أن الحديث لم يفهم مجرداً عن آراء هؤلاء الأئمة ، بل كانت دراسة هذه الآراء وفهمها واجبا لفهم الأحاديث النبوية . وكان هناك فى البداية زعم بأن اتباع هؤلاء الأئمة فى التفكير قـد يعصم الذهن عن الأخطاء ، ويمهد له سبيل الحق ، ولكن هذا التفسير نفسه قد أدى إلى الخطأ ، وتحولت النقطة الدالة على الغاية إلى حجر العثور . فكانت البحوث والمناقشات بين الحنفية والشافعية قد أضرت فى بعض المواضع بالإسلام أكثر مما نفعت ، وبينهما اقتسمت النصوص .

الحركات الإصلاحية :

والتاريخ يشهد أنه كانت هناك حركات إصلاحية ، وكان العلماء فى كل عصر يبذلون قصارى الجهود ليتفادوا من هذا المرض ، فقد منوا بالجمود إذا تجنبوا الفوضى ، وأخذتهم الفوضى إذا تجنبوا الجمود . ونذكر هنا من العلمـاء الأعلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، والحافظ ابن القيم ، ومحمد الشاطبى ، وعبد الرحمن بن إسماعيل ، وأبا شامة المقدسى ، الذين بذلوا جهودا قيمة مشكورة فى مجال الإصلاح والتجديد .

الشاه ولى الله الدهلوى :

ونحن هنا نحاول إبراز المعالم والمساعى التى بذلها الشاه ولى الله

المحدث الدهلوى ، وكان يعيش فى نهاية العصر المغولى حينما ساد الجمود وتحجرت العقول . والملك الصالح أورنكزيب نفسه لم يستطع أكثر من أن يأمر علماء عصره بتأليف « الفتاوى الهندية » .

وكان الشاه ولى الله وأتباعه يحملون مشعل العلم والهداية فى ذلك الوقت ، ويرشدون إلى طريق المحدثين والفقهاء . وكانت المحاولة تجرى لتقريب الحنفية والظاهرية إلى منهج المحدثين .

والمسلمون فى الهند — سواء كانوا من أهل الحديث أو الحنفية — يجب عليهم لتصحيح نسبتهم إلى الشاه ولى الله أن يسلكوا مسلك الفقهاء والمحدثين ، فذلك هو خدمة الإسلام الكبرى فى هذا العصر . رزقنا الله تعالى التوفيق للعمل والقصد فى العقيدة . ونحن نحاول فيما يأتى تسليط الأضواء على الدور الذى قامت به حركات الإصلاح من أهل الحديث والفقهاء والصوفية فى سبيل الدفاع عن الإسلام ، وكيف كان تأثرهم بجهود الشاه ولى الله الإصلاحية .

كانت حركة « أهل الحديث » تعنى فى البداية أن الأمور الاجتهادية لايدخلها التقيد والجمود ، بل ينظر فى القضايا بعد مراعاة المصالح والاستنارة باجتهادات الصحابة والأئمة من بعدهم ، وذلك مع الابتعاد عن التحزب والجمود ، والتركيز التام حول نصوص الكتاب والسنة عند الاستنباط .

وإذا لم يوجد حكم فى الكتاب والسنة لحادثة جدّت فى هذا

العصر، فلا يقضى فيها برأى فرد أو جماعة من العلماء تنتمى إلى منطقة معينـة، بحيث يفرض هذا الرأى الشخصى على الأمة، بل ينظر إلى منهج الصحابة رضوان الله عليهم، وموقفهم من الحرية الفكرية حتى لا تقع الأمة فى الحرج، ولا يتسرب إلى تفكيرها الجمود.

ومن المعلوم أن الاجتهاد لابد منه إذا لم تكن هناك نصوص من الكتاب والسنة تحكم فى الحوادث الناجمة. وهذا هو ما نرى عند الصحابة والأئمة المجتهدين من بعدهم، فكانوا يجتهدون ويستنبطون كلما عرضت لهم قضية لم يجدوا لها حكما فى الكتاب والسنة. ولذلك نقول: إن القضايا الناجمـة يجب أن نحاول فهمها وحلها فى ضوء الاجتهاد كما كان هو دأب أهل الحديث والفقهاء، ومن هنا وجدت الحلول للمسائل الحديثة.

ولم يجـد منهج الحافظ ابن حزم والإمام داود الظاهرى، فى الاستغناء الكامل عن القياس، قبولا لدى المحدثين وبالأولى لدى فقهاء العراق. وبذلك نرى أنه ليس هناك خلاف بين المحدثين وبين فقهاء العراق فى الاستفادة من القياس، أو توحيد الأحكام فى النظائر، فالجميع يرون القياس ضروريا و واجبا لدى الحاجة.

وكان الشاه ولى الله قـد أدرك هذين الاتجاهين المتضادين المتطرفين وما يترتب عليهما من الآثار فأوصى تلامذته وأصحابه بما معناه: «وصية هذا الفقير هى الاعتصام بالكتاب والسنة فى العقيدة

والعمل ، والاشتغال بهما دائمـــا ، وقراءة جزء منهما كل يوم ، فإن لم يستطع القراءة فالاستماع إلى ترجمة جزء منهما، واتباع مذهب أهل السنة القدماء فى العقيدة ، والإعراض عن بحث وتفصيل ما لم يبحثوا عنه ولم يفصلوه ، ونبـــذ التشكيك الزائف من أهل المعقول ، واتباع العلماء المحدثين فى الفروع ، فإنهم قد جمعوا بين الفقه والحديث ، وعرض التعريفـــات الفقهية دائما على الكتـــاب والسنة ، كى يقبل ما يوافقهما ويرد مايخالفهما، فإنه لا غناء للأمة عنهما ، وعدم الإصغاء إلى الفقهاء المتقشفين الذين أوجبوا تقليد بعض العلماء معرضين عن الكتاب والسنة ، والتقريب إلى الله بالابتعاد عنهم » .

وهذا الاعتراف الجرىء الحكيم من الشاه ولى الله قـــد يحملنا على الاستغراب المختلط بالتقدير والإعجاب ، فإنه كان قد تربى وعاش فى بيئة تأصلت فيهـــا جذور الجمود الفقهى ، وكان الملك أورنكزيب عالمكير قد اشتهر بورعه وتنوره وسعة ذهنه ، وكان جمعه للفتـــاوى الهندية يعتبر من أهم مـــا قام به من خدمة الإسلام ، وكان الملك قد جمع علماء عصره لشرح قانون الإسلام ، وتدوينه فى أحسن صورة ممكنة . وكان هؤلاء العلماء قد خدموا الفقه الحنفى حسب ما اهتدوا بفضل اطلاعهم الوافر ومعرفتهم الواسعة .

ومزية هذا الكتـــاب تنحصر فى أنه يحتوى من أقوال الفقهاء على ما هو أوفق بالمصالح وعلى ما هو مختلف فيه ، حتى يسهل العمل بما

هو الأنسب. وكان ذلك محاولة بسيطة للانطلاق والتحرر ضد الجمود القديم، ولكن الجهود لم تبذل لاستعراض وبحث المصالح الشرعية فى ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الأئمة الآخرين، وكان الشاه ولى الله قد تلقى دراسته فى هذه البيئة، ثم جلس للتدريس فى حياة أبيه.

ويبدو أن دروس الشاه ولى الله ومنهجه فى الفتيا كانا مقنعين للطلبة ولعامة النـــاس، ولكن الشاه ولى الله نفسه لم يكن مقتنعـــا ولا راضيا بهذا القدر من الجهود وبهذا المنهج الذى كان يسير عليه. إنه كان يروّى بمنهل علـــه خلقا كثيرا ولكن نفسه كانت متعطشة ومتطلعة إلى المزيد. إن جهوده كانت ترضى عامة المقلدين والجامدين وكانوا يزعمون أن الفقه الحنفى يحظى بالاهتمام الكافى والعناية الوافرة بفضل هذه الجهود. على أن الإمام ولى الله لم يكن يرضى بأن يتقيد بآراء الأئمة السابقين الذين وصلوا إلى ما وصلوا من الآراء والأقوال فى ضوء الكتاب والسنة بعد مراعاة الظروف واعتبار المصالح. إن الأئمة المجتهدين قد خدموا الإسلام بعد النبى ﷺ، وجهودهم فى هذا الباب لن تجحد، ولكن هذا لا يعنى أن نفضل آراءهم وأقوالهم على نصوص الكتاب والسنة.

والغريب أن الفقهاء كانوا يرون وجوب التقليد، ويكفرون من لا يقول بذلك، ثم إنهم كانوا يأولون نصوص الكتاب والسنة إذا تعارضت مع آراء الفقهاء وأقوالهم. ولاشك أن موقفهم هذا

لم يكن بحيث يطمئن إليه عالم مثل الشاه ولى الله ويقر الناس على حالتهم هذه، فدعا إلى النظر فى الكتاب والسنة وصرف النظر عن الأمور الأخرى. وكان تفوقه فى العلوم الشرعية قد ساعده على تحقيق أهدافه، وكان أحيانا ينتقد ويعترض على الأئمة الكبار مثل الامام ابن حزم والعز بن عبد السلام، ويسبق الإمام الرازى والإمام الغزالى فى الإحاطة بأسرار الشريعة ومعرفة حكمها، وكان هذا التفوق المثالى فى العلوم هو الذى جعله لا يطمئن إلى كتب الفقه التى كانت متداولة بين الناس فى عصره، مثل التوضيح وكشف الأسرار، فإنه كان يهدف إلى ما هو أرفع من ذلك، ويريد أن يرجع الناس إلى ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم من الاستدلال بالكتاب والسنة، والاستقاء بينابيعهما الصافية العذبة، ولم تكن القواعد والفروع المتعارضة فيما بينها فى كتب الفقه وأصوله بحيث يطمئن إليها الشيخ ويعتمد عليها.

علة الظاهرية:

وكانت تعقيدات القياس والتعمق فى فرض المسائل وصورها قد أدى كلا من الحافظ ابن حزم والإمام داود الظاهرى رحمهما الله إلى إنكار القياس ورفض كونه حجة شرعية، وكان هدفهما الاكتفاء بالكتاب والسنة واعتبارهما مصدرا للأحكام.

وكانت طريقة الظاهرية هذه سهلة غير خطيرة ، فإن المرء لم يكن فيهـــا مسئولا إلا فى القليل . وكذلك لم يكن فى حاجة إلى أن يتعب نفسه فى مجال القيـــاس والتأويل ، فالمعول فى الدين على النقل ، ومن الواجب أن يطمئن الانسان عليه ، أما العقل فلا يضر تقصيره فى أمور الدين لأن الأصل هو النقل . إن الحكم إذا وجد فى الكتاب أو السنة فلا حاجة بنا إلى أن نصير إلى العقل وموافقته أو إلى النظائر، أو أن يضيف المرء شيئا جديدا من قبل نفسه ويقبل تحمل المسئولية عليه .

ولكنه من المعلوم أن النصوص محدودة ، فإن الأحاديث الصحيحة الثابتة لا تزيد عن عدة آلاف ، وآيات الأحكام فى القرآن قليلة ، والحوادث غير متناهية لا تقف عند حد إلا إذا انتهت الدنيا ، وهذا المحدود لا يكفى لمعرفـــة أحكام الحوادث غير المتناهية، ولذلك اضطر أهل الظاهر إلى التكلف والتعسف ، ولم تبق طريقتهم ملائمـــة للحيـاة وتطورها المتزايد المتجدد ، إن الاختلاف فى الحكم بالنظـائر المماثلة لا يمكن أن يعد حسن المنحى والمنهج . ومن هنا فإن المذهب الظاهرى كان سهلا آمنـا من ناحية ، ولكنه كان مهملا مضحكا من ناحيـــة أخرى .

طريقة القياس والفقه:

وكان لابد للتقدم فى الحياة العملية ولدفعهـا إلى الأمام من

التوفيق بين النظائر وأحكامها ، ومن تعرف الأسباب لأحكام الشارع وتبين وجوهها وعللها التى صدرت لأجلها .

ثم إن القرآن قد جاء يخاطب العقل ويدعو إلى استخدامه فى أمر التوحيد والنبوة والمعاد ، ولذلك وجب ألا نهمل العقل ولا نبعده عما خلق له ، يقول الله تعالى : ﴿ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب[١] ﴾

وفى هذا مدح وثناء على الذين يستمعون بالعقل السليم ويحاولون الوصول إلى حقيقة الأمر . والتوازن فى حكم الأشباه والنظائر نتيجة للقياس الصحيح واقتضاء حتمى للعقل ؛ ﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان[٢] ﴾ .

وهذا الميزان قد نزل مع الكتاب ، ولا يراد به الميزان الذى يوزن به الأشياء المادية الجسمية ، بل هو ميزان يساعد فى فهم الكتاب والأدلة الشرعية الأخرى ، وفى معرفة أحكام النظائر والتسوية بينهما فى الحكم ، وقد سمى ذلك فى اصطلاح الفقهاء بالقياس ، ولكنه فى الحقيقة ميزان .

وعلى هذا لا يسوغ لنا إنكار القياس وضرورته ، ولا يصرف

---

(١) الزمر : ١٧—١٨

(٢) الشورى : ١٧

النظر عن حجيته وفائدته . وكان الأئمة المحدثون — مع اعتنائهم بظواهر الحديث وألفاظه ومعانيه واحترامهم له — يعتبرون القياس حجة شرعية ، وكانوا يستفيدون تماما من أدلته ويولونه ما يستحق من العناية والاهتمام ، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يرضون بترجيح هذه الأدلة على النصوص الشرعية كما يتضح من الأمثلة الآتية فيما بعد . وقد زلت أقدام الفقهاء فى هذا الباب ، ووقع منهم نوع من التفريق ، وخاصة فقهاء الحنفية رحمهم الله . وهذا هو الموقف الذى يقلق الشاه ولى الله . وقد حصل التعارض بين النصوص والأصول الفقهية فى بعض المواضع ، وفى أخرى لم تبق هذه الأصول مطردة منعكسة . وحينما وجدت هذه الأصول طريقها إلى القلوب قاس بها الفقهاء النظائر ، ولكنها لم تتحمل ما حملها الفقهاء ، فتعارضت أحكام النظائر ، وتقطعت هذه الأصول . وهنا نريد ذكر بعض الأمثلة لتوضيح ما قلناه :

قد ورد فى صحيح الإمام البخارى رحمه الله « كانت عائشة يؤمها عبدها ذكوان من المصحف[1] » .

وكان ابن سيرين ، والحسن البصرى ، والحكم ، وعطاء يجوزون القراءة فى الصلاة من المصحف . وكان بعض من يصلى خلف أنس

---

(١) عمدة القارى ٢ / ٧٥٦ ، وفتح البارى ٢ / ١٨٤

يمسك بيده القرآن ويذكره إذا نسى. والإمام مالك رحمه الله يجوز ذلك فى الصلاة التراويح. ويقول الحافظ العينى رحمه الله: «قلت: القراءة من مصحف فى الصلاة مفسدة عند أبى حنيفة لأنه عمل كثير، وعند أبى يوسف ومحمد يجوز، لأن النظر فى المصحف عبادة، لكنه يكره لما فيه من التشبه بأهل الكتاب[1]».

وفى الجامع الصغير «وأما من قرأ فى المصحف فصلاته فاسدة. قال أبو يوسف ومحمد: تامة ويكره[2]».

والقلب يطمئن إلى أن القراءة فى المصحف لا تناسب الصلاة، وإنها بدون شك عمل كثير (مهما كان حده) مع أن أم المؤمنين عائشة وكبار التابعين قد ذهبوا إلى جوازها، فإن الذى يقلب أوراق القرآن فى الصلاة لايستطيع أن يركز عنايته حول الصلاة، ولايحصل له الخشوع التام، ولذلك ينبغى أن يقرأ فى الصلاة عن الحفظ.

والذى يقال عن التشابه بأهل الكتاب غير مفهوم، ولو سلمناه لكانت دلالته على أمرين: الأول أن العمل الكثير لايجوز فى الصلاة فإنه يشغل المصلى.

والثانى: أنه يجب الاحتراز عن التشبه بأهل الأديان الأخرى.

---

(١) عمدة القارى ٢ / ٧٥٧

(٢) الجامع الصغير للإمام محمد ص ١٥

والآن يجب أن تسمعوا إلى نقطة أخرى وهى :

« او نظر المصلى إلى المصحف وقرأ منه فسدت صلاته ، لا إلى فرج امرأة بشهوة ، لأن الأول تعليم وتعلم فيها لا الثانى[١] » .

ومن الواضح أن هذا تحكيم للعقل وإنزال للفقــه منزلا فوق مستواه ، لايستطيع أحد أن يعرف سرهما ، ويظفر بمبرر لها ، فمن يسلم بأن النظر فى القرآن ينافى الخشوع ويعتبر من العمل الكثير ، فى حين أن النظر إلى الفرج بداعية الشهوة لايفسد الصلاة !

ومما لاشك فيه أن العلماء يمكن لهم الاستدلال على حل الذئب وحرمة الدجاجة إذا دخلوا فى ميدان الجدل والمناظرة ، ولكن العقل السليم والميزان العــدل لايجاريان هذا التدقيق والتعمق فى الفرض والتخييل ، ولذلك نرى المحدثين يحتـاطون حتى لايقعوا فى مثل هذا الازدواج العملى والتحكم مع التسليم بحجية القياس .

وتوجد فى الهنــد طائفة فى الحنفية تسمى « البريلوية » لا يزيد عمرها على نحو سبعين سنة . والذين ينتمون إلى هذه الطائفة يريدون إدخال « التعــديل الجوهرى » فى تعاليم الإسلام وتغييرها عما كانت عليه فى المدينة النبوية ، وتلوينها باللون الذى ألفوه لدى أئمتهم ومشايخهم فى مدن « بريلى » و « لاهور » و « فيصل آباد » وغيرها .

---

(١) الأشباه والنظائر ص ٤٣٤

وهؤلاء يعيبون على السيد أحمد الشهيد كلامه فى كتاب «الصراط المستقيم» الذى قال فيه: إن تصور البقر الوحش لايضر الخشوع فى الصلاة مثل ما يضره تصور النبى ﷺ.

وهذا المعنى صحيح صواب مهما كان عنوانه وتعبيره، فإن الشىء الذى يألفه الانسان ويحبه يتملك عليه مشاعره ويشغله فى فكره وخياله فيصعب عليه فى هذه الحالة أن يتفرغ للصلاة ويخشع فيها، بخلاف ما إذا تصور شيئا لايحبه مثل البقر الوحش وغيره. ومن المعلوم أن حب النبى ﷺ وشغف القلب به أمر يثاب عليه المؤمن، ولكنه من الواجب أن لايتصادم هذا الحب مع توحيد الله تعالى ولايغلب عليه. أما النبوة ومكانتها فلا سبيل إلى تسويتها وتشبيهها بالبقر الوحش. وكذلك لايمكن أن يتطرق خيال حبيب إلى الصلاة التى هى مناجاة مع الرب وتقرب إلى جنابه.

كان أصل المسألة صحيحا، والتعبير عنه إذا لم يعجب أحدا فعليه أن يغيره، فإن ترجمة الأستاذ عبد الحى البدهانوى لم يكن وحيا لايجوز تغييره، ولكن العداوة المضمرة فى القلوب هى التى حملت على الكلام الذى انجر إلى الطعن فى الشهيد محمد إسماعيل وإثارة الجاهلين ضده، مع أن المسألة التى نقلناها فيما قبل لم يبينها الشهيد محمد إسماعيل، بل قالها الشهيد السيد أحمد بالفارسية، وترجمها الشيخ عبد الحى إلى الأردية، ولكن المسئولية قد ألقيت على الشهيد محمد إسماعيل من قبل

المبتدعين ، فكفروه وحاولوا الازدراء والاستخفاف بالأعمال الجليلة التى قام بها فى سبيل الرد على البدع والمنكرات ، وبالدور المشرق الذى لعبه فى سبيل إنقاذ المسلمين من براثن الوثنيين . ولكن هذه المحاولات الخبيثة قد باءت بالفشل وأشاد الناس بموقف الشهيد ، وقدروا دماء الشهداء الصالحين التى أريقت على أرض بالاكوت ، وسجلت فى التأريخ صفحة مشرقة للتضحية والتفانى فى سبيل الله .

والسيد الشهيد قد رمى بالكفر مع حبه البالغ للرسول ﷺ بمجرد أنه فرق بين مكانة الرسول العالية ، وبين منزلة البقر والوحش ، فى تأثيرهما فى خشوع الصلاة ، ونصح بأنه يجب أن ترتفع هذه العبادة الروحية عن أدران الشرك . أما التدقيق الفقهى الذى جعل النظر إلى المصحف مفسدا للصلاة دون النظر إلى الفرج وتجاهل الفارق الكبير بين الشيئين ، فلم يثر حمية أحد ولم يحمل على التكفير والطعن ، والذى يقول بذلك يبقى مسلما صادقا ، ولكن الشهيد مع جهوده الطيبة وتضحيته بنفسه فى سبيل الحق صار كافرا صريحا :

من كان هذا القدر مبلغ علمه فليستتر بالصمت والكتمان

ونحن نجزم بأن هذا النوع من التفكير لمتفقهى البريلوية لايقدر له البقاء والانتشار فى هذا العصر فى مملكة إسلامية مثل باكستان ، وهذا الموقف المخزى للعلم لا يستمر أكثر من ذلك .

والذى يجب أن نفكر فيه هو أن هذا « الاتجاه التكفيرى » ما ذا أفاد الإسلام والدولة الباكستانية ؟ وما الذى حصل عليه هؤلاء المكفرون فى الدين والسياسية ؟ إنهم صوبوا سهام السب والشتم إلى الموحدين (أهل الحديث والسلفيين) وهؤلاء تحملوا منهم ذلك صابرين شاكرين ، ولكن هذا الطعن و الظلم لم ينفعا الطاعنين والظالمين شيئا :

(إن الغزلان فى الصحراء منتظرة، واضعة رؤوسها على الأكف، مع الأمل بأنك تأتى يوما للصيد[١]) .

وللظن أهمية خاصة فى الأحكام ، فالشرع قد أصدر حكمه مستندا إلى القرائن فى مواضع كثيرة ، والولد ألحق بأبيه ، واللقيط قد ضم مع الورثة بالقيافة ، وقد روى أن النبى ﷺ قد أبدى فرحه وطمأنينته ، حينما سمع رأى القائف فى أسامة بن زيد . وقد أنكر بعض الفقهاء هذه القرينة بسبب أن الحكم قد بنى فيها على الظن والتخمين ومن المؤكد أن اليقين له أهميته ، والظن ليس بشىء فى جانبه ﴿إن الظن لا يغنى من الحق شيئا[٢] ﴾ والغريب أن بعض الفقهاء قد أنكر هذه القرائن لكونها ظنية ، ولكنه انقلب فمال إلى الظن وبالغ

(١) ترجمة بيت فارسى شهير .

(٢) النجم : ٢٨

فيه بحيث أقام الشك والوهم مقام اليقين ، يقول ابن القيم رحمه الله :
« قال بعض الفقهاء : ومن العجب إنكار لحوق النسب بالقيافة التى اعتبرها النبى ﷺ ، وعمل به الصحابة من بعده وحكم به عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وإلحاق النسب فى مسألة فيمن تزوج بأقصى المغرب امرأة بأقصى المشرق ، وبينهما مسافة سنين ، ثم جاءت بعد العقد بأكثر من ستة أشهر بولد[1].

وهذا من غرائب القياس وتحكماته ، فقد أنكر القرائن الثابتة المستندة ، وأثبت النسب وألحق الولد بأبيه على أساس الظن والوهم . فالأوهام صارت معتبرة مستندة لدى الفقهاء ، ورفضوا بمجموعة الأخبار الآحاد بسبب القيافة فإنها ظنية ، وليس من المعقول أن يطمئن رجل مثل الشاه ولى الله إلى هذا التفكير المنحرف .

والأصوليون قد وضعوا قاعدة قالوا فيها : « الخاص لا يحتمل البيان[2]» ومعنى هذه القاعدة أن الخاص معناه واضح بين ، ولذلك لا يحتاج إلى شرح وبيان من الخارج . وبناء عل هذه القاعدة قد أقيمت الحجة على الشافعية فى مواضح عديدة ، وقيل إنهم على خطأ ، ونحن (الحنفية) على صواب ، بل إنهم قد تركوا الحديث الصحيح

---

(١) اعلام الموقعين ١ / ٢٧٧ ، ط اشرف المطابع دهلى .
(٢) الحسامى ص ١٠ ، نور الأنوار ص ١٥ ، كشف الأسرار مبحث الخاص ، التلويح على التوضيح ص ٣٤

إذا عارض هذه القاعدة وحافظوا عليها ، ومثال ذلك أنه قد ورد فى القرآن : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم [١] ﴾ .

يقول فقهاء الحنفية : إن الركوع معناه الانحناء ، وكذلك معنى السجود وضع الجبهة على الأرض ، فالذى انحنى قليلا أو وضع جبهته على الأرض كيفما كان ، تصح صلاته ولو لم يحصل التعديل والطمأنينة . أما الشافعية فيرون التعديل فرضا فى الصلاة مثل الركوع والسجود ، وإن لم يكن هناك تعديل بطلت الصلاة عند الشافعية وأئمة الحديث . والحنفية تقول إن الصلاة تصح ، لأن المعنى اللغوى للركوع والسجود قد تحقق ، والشافعية على خطأ ، فإن الخاص (أى الركوع والسجود) لا يحتمل البيان ولا يحتاج إلى شرح من الخارج .

وفى الحديث أن النبى ﷺ رأى رجلا قد صلى بحضرته ولم يتم الركوع والسجود ، فقال له النبى ﷺ ثلاث مرات : « صل فإنك لم تصل » . أى إن صلاتك لا وجود لها شرعا . وعلى هذا الحديث قد بنى أهل الحديث والشافعية وغيرهم رأيهم فى أن الطمأنينة لابد منها فى الركوع والسجود فى الصلاة . والحنفية تقول : إن معنى الركوع والسجود معلوم ، ولذلك لسنا فى حاجة إلى الحديث لشرح هذا المعنى ، ولا نقول ببطلان الصلاة .

(١) الحج : ٧٧

عظمة القرآن :

وحماية لهذه القاعدة قيل: لو سلمنا بناء على الحديث أو مذهب الشافعية أن التعديل فرض فى الصلاة فيلزم من ذلك الزيادة على القرآن ، وهو مرادف للنسخ . والقرآن إذا بين معنى بكلمة خاصة فلا تجوز عليه الزيادة أصلا ، ولو فعلنا ذلك لكان منافيا لعظمة القرآن ومكانته الرفيعة .

ومما لاشك فيه أن تعظيم القرآن واجب على كل فرد من المسلمين ولكن لا يكون ذلك على حساب السنة و تعطيل مكانة الرسالة بحيث لا يبقى للرسول ﷺ حق تبيين وتحديد معنى القرآن ، أو إظهار الهيئة الشرعية لعمل ، أو توضيح حكم سكت عنه القرآن . وبعبارة أخرى لايجوز لصاحب الوحى تبيين معنى وحيه والكلام المنزل عليه . أما الفقيه والمجتهد والصوفى فلهم جميعا أن يفسروا ويوضحوا المعنى حسبما يفهمون ويستطيعون ، ولكن الرسول ﷺ محظور عليه أن يتكلم بشىء فى القرآن ، ﴿إن هذا لشىء عجاب[1]﴾ .

ومن المعلوم أن هذه القواعد قد وضعت لفهم القرآن وتفهيمه ، ومعظم الجهود فى وضع هذه القواعد قد بذلها أهل الحديث والمعتزلة ،

---

(١) سورة ص : ٥

كما ذكر صاحب كشف الظنون[١]، ومن الغريب أن تراعى هذه القواعد ويصرف النظر عن الحديث ولا يسمح له بأن يوضح و يبين معنى القرآن الكريم ، مع أن القرآن يحدد مكانة الرسول ﷺ فيقول: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم، ولعلهم يتفكرون[٢]﴾ ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى و رحمة لقوم يؤمنون[٣]﴾ .

وهاتان الآيتان صريحتان فى أن التبيين والإظهار من مسئوليات الرسول ﷺ ، و واجباته التى لايمكن أن يصرف عنهــا بصره ، وفى سورة المائدة قد دعا الله أهل الكتاب إلى تبيين الرسول ﷺ فقال: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير[٤]﴾ .

ومما يبعث على التعجب أن البيان الذى يدعى إليه أهل الكتاب يحاول المسلمون أن يحرموا منه أنفسهم صيانـــة للقوانين التى وضعها أهل الاعتزال . إنهم لايبالون بأن يعمل بالحديث أو يترك ، ويقبل أو يرد، بل الذى يهمهم هو أن تبقى القواعــد والأصول الموضوعة

(١) كشف الظنون ١ / ٨٩

(٢) النحل : ٤٤

(٣) النحل : ٦٤

(٤) المائدة : ١٥

سارية المفعول، واجبة العمل.

ثم إن مسئولية التبيين هى مسئولية الأنبيـاء كلهم، يقول الله تعالى: ﴿ما أرسلنـا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء، وهو العزيز الحكيم[1]﴾.

هذا وقد جعل الله تعالى بيان الرسول بيانه هو حتى لايظهر أثر المغايرة بين الخالق والمخلوق على البيان فقـال: ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه[2]﴾..

وكان الشاه ولى الله يعجب من أن النبى ﷺ يوضح أحكام الله تعالى بأمره، ثم لا يكون هذا التوضيح مساويا للأصول التى وضعها أفراد الأمة! ولذلك قد تكلم هو فى مواضع عديدة من كتبه: حجة الله البالغة، والخير الكثير، والتفهيمات الالهيـة، والمصفى، والمسوى، وعقـد الجيد، والإنصاف وغيرها عن هذا الموقف، وحاول القضاء على هذا الجمود الفقهى وعارض هذه المعاملة الجائرة والترجيح غير العـادل مع السنة النبوية، فإنه ليس من المعقول أن تجعل الأصول التى وضعهـا أشخاص غير معصومين أساسا للدين، وتترك السنة التى هى أساس الوحى والدين، فى الحقيقـة بإزاء هذه

---

(١) إبراهيم: ٤

(٢) القيامة: ١٧

الأصول المصطنعة، ويأتى كل ذلك من الذين يؤمنون بكون الرسول ﷺ خاتم النبيين.

صحة الحديث:

وموضوع صحة الحديث أو ضعفه خارج عن البحث هنا، فإن سيطرة هذه الأصول لا تترك مكانا للحديث سواء كان صحيحا أو ضعيفا، ولكن الذى تلقيناه هو أن الحديث - ولو كان ضعيفا - مقدم على القياس، ومن الممكن أن نجد لذلك مثالا أو مثالين فى كتب أصول الفقه من حديث القهقهة وما يشبهه. والأصل أن فقهاء العراق وخاصة أتباع القاضى عيسى بن أبان يسخطون على السنة، ويريدون أن يتركوا أبواب الرأى مفتوحة على مصاريعها، ولو انغلقت أبواب السنة وتقلص ظلها وانكمش ضوءها. وكيف يطمئن رجل فطن خبير بالأمور وعواقبها متمتع بالذهن التجديدى مثل الشاه ولى الله على هذا الوضع الغريب غير الملائم للمجتمع كله؟ فنرى أنه قد انتقد هذه الاتجاهات لأصول الفقه، وهذا الانتقاد الآن بمثابة الأساس للأذكياء الذين يسمون أهل الحديث أو السلفيين.

وليس من أهداف هذه الحركة (حركة أهل الحديث) قطعا إلغاء مساعى الأئمة أو تحريم الاستفادة من علومهم أو الالتزام بانتقاد علومهم واجتهاداتهم فى الحياة، بل تريد هذه الحركة تقرير

أن اجتهاداتهم ومسائلهم المستنبطة بحث علمى وجهد مشكورة ولكنها لا تصل إلى درجة النبوة ، فكما أننا نتبعها ونعمل بها إذا كانت صحيحة فكذلك يجوز لنا انتقادها فى ضوء الكتاب والسنة ، وصرف النظر عنها أحيانا . وكما أن أبواب البحث والتحقيق كانت مفتوحة لهم فكذلك هى مفتوحة لأتباعهم وتلاميذهم حتى يتفكروا فى نصوص الكتاب والسنة بضوء العلم والنظر ويعملوا بها بعد مراعاة مصالح العصر، ومن الممكن أن يحصل الخلاف فى الاتجاه وتظهر آثارهما متنافية فيما بينها ، فلا يشترط فى البحث والتحقيق بعد العلم وإخلاص النية أن يراعى واحد العلوم والمبادىء المفروضة، فإن هذه المصطلحات لم توجد فى عصر الرسول ﷺ وكذلك وجدت هذه العلوم بعد عصر النبوة بقرون ، ولم يكن الأئمة المجتهدون أنفسهم قد حصلوا جميع هذه العلوم ودرسوها . نعم! تهدف هذه الحركة إلى أن تمنع محاولة اصطياد الأغرار بهذا الشرك المصطنع ، وتجعل العلم يسلم بالطريق العلمى لا بطريق الفتيا أو بضغط الأغلبية أو بفرض من الحكومة .

مثال آخر : القراءة خلف الإمام

ورد فى القرآن العزيز : ﴿فاقرؤا ما تيسر من القرآن[1]﴾

---

(١) المزمل : ٢٠

وهذه الآية من سورة المزمل ، وقد جاء فيها ذكر صلاة الليل فقال : فاقرؤا ما تيسر من القرآن فى صلاة الليل (التهجد) . ويظهر من الأحاديث أن المراد بما تيسر من القرآن هو سورة الفاتحة ، فإن كلمة « ما تيسر » قد ورد فى الحديث ، وقد جاء فى طريق من طرقه أن المراد بما تيسر هو أم القرآن ، وهذا يكون توضيحا لما أجمل فى طريق من طرق الحديث ، وهذا يقتضى أن قراءة سورة الفاتحة واجبة على المصلى سواء كان إماما أو مأموما أو منفردا[1].

أما فقهاء الحنفية رحمهم الله فيرون أن تحديد ما تيسر بسورة الفاتحة لايستقيم ، فإن لفظ « القرآن » خاص لا يحتاج إلى البيان ، وعلى هذا فالفرض يكون قراءة أى جزء من القرآن ، وبيان الأحاديث لا يكون مقبولا معمولا به .

ولكن الفقهاء لم يستطيعوا أن يلتزموا بهذا الأصل ، واضطروا فى تحديد كمية القراءة فى قوله : ﴿ فاقرؤا ما تيسر من القرآن ﴾ إلى القياس . فقد حددوا به مقدار آية أو ثلاث آيات . ثم إن قوله : « فاقرؤا » يعم الإمام والمأموم ، والفقهاء قد استثنوا منه المأموم بحديث « من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة[2] » . مع أن هذا

---

(١) جزء القراءة للبيهقى ص ٣–٤

(٢) الدارقطنى ١/ ١٥٤

الحديث ضعيف باتفاق الأئمة، ولم يصح له طريق[١]. ونحن نقول: إذا

(١) قلت: ليس هذا على إطلاقه بل صح للحديث طرق عديدة كما ذكر ذلك المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى فى كتابه «صفة صلاة النبى ﷺ (ص ٩٥) قال هناك: رواه ابن أبى شيبة (١/٩٧/١) والدارقطنى وابن ماجه والطحاوى وأحمد من طرق كثيرة مسندة ومرسلة وقواه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما فى الفروع لابن عبد الهادى (ق ٤٨ / ٢)، وصحح بعض طرقه البوصيرى وقد تكلمت عليه بتفصيل وتتبعت طرقه فى «الأصل» ثم فى إرواء الغليل رقم (٤٩٣) انتهى.

ومن ذلك يتبين خطأ من ذهب إلى تضعيف هذا الحديث، ثم إن دعوى الإجماع على تضعيف الحديث باطلة، وقد ذكرت آنفا بعض من صححه، ثم أن الأمر حول قراءة المأموم للفاتحة، قد كثر فيه القيل والقال قديما وحديثا، ورأيت من تمام الفائدة أن أنقل ما قرره شيخنا المحدث محمد ناصر الدين الألبانى فى كتابه المذكور سابقا صفحة ٩٣ وما بعد:

قال: . . . وكان صلى الله عليه وآله وسلم قد أجاز للمؤتمين أن يقرأوا بها وراء الإمام فى الصلاة الجهرية، حيث كان «فى صلاة الفجر فقرأ، فثقلت عليه القراءة، فلما فرغ قال: لعلكم تقرأون خلف إمامكم؟ قلنا: نعم هذاً[١] يا رسول الله! قال: لا تفعلوا إلا [أن

(١) الهذ: سرعة القراءة ومداركتها فى سرعة واستعجال.

. . . .

يقرأ أحدكم] بفاتحة الكتاب ، فإنه لاصلاة لمن لم يقرأ بها [١] » .

ثم نهاهم عن القراءة كلها في الجهرية خلف الإمام ، وذلك حينما « انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة (وفي رواية أنها صلاة الصبح) فقال : « هل قرأ معى منكم أحد آنفا ؟ فقال رجل : نعم ، أنا يا رسول الله ، فقال : إنى أقول : مالى أنازع [٢] [قال أبو هريرة] : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيما جهر فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقراءة حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [وقرأوا فى أنفسهم سرا فيما لايجهر فيه الإمام [٣]] .

---

(١) رواه البخاري فى جزء القراءة وأبو داود وأحمد ، وحسنه الترمذى والدارقطنى .

(٢) قال الخطابي : معناه أداخل فى القراءة وأغالب عليها ، وقد تكون المنازعة بمعنى المشاركة والمناوبة .

(٣) رواه مالك والحميدى والبخارى فى جزئه وأبو داود والمحاملى (٦/١٢٩/١) وحسنه الترمذى ، وصححه أبو حاتم الرازى وابن حبان وابن القيم وله شاهد من حديث عمر وفى آخره « مالى أنازع القرآن ؟ أما يكفى أحدكم قراءة إمامه ؟ إنما جعل الامام ليؤتم به ، فإذا قرأ فأنصتوا » رواه البيهقى فى كتاب « وجوب القراءة فى الصلاة » كما فى الجامع الكبير (٢/٣٣٤/٣) .

. . . .

وجعل الإنصات لقراءة الإمام من تمام الائتمام به فقال: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فانصتوا[١]» كما جعل الاستماع له مغنيا عن القراءة وراءه فقال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة[٢]».

وأما فى السرية، فقد أقرهم على القراءة فيها، وإنما أنكر التشويش عليه بها، وذلك حين «صلى الظهر بأصحابه فقال: أيكم قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾، فقال رجل: أنا [ولم أرد بهـا إلا الخير]، فقال: قـد عرفت أن رجلا خالجنيها[٣]»، وفى حديث آخر: كانوا يقرأون خلف النبى صلى الله عليه وآله وسلم [فيجهرون به] فقال: خلطتم علىّ القرآن[٤]» وقال: «إن المصلى يناجى ربه فلينظر بما يناجيه به، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن[٥]» انتهى.

وفى تفسير ابن كثير رحمه الله عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا =

(١) رواه ابن أبى شيبة (١/٩٧/١)، وأبوداود، ومسلم، وأبوعوانة والروياني فى مسنده (١/١١٩/٢٤)

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم وأبوعوانة والسراج، والخلج: الجذب والنزع.

(٤) رواه البخارى فى جزءه وأحمد والسراج بسند حسن.

(٥) رواه مالك والبخارى فى «أفعال العباد» بسند صحيح.

صح استثناء المأموم من حكم القراءة يصح كذلك تعيين سورة الفاتحة فى قوله: « فاقرؤا الخ » أما تبيين معنى القرآن بالحديث إذا كان مؤيدا للذهب، وترك هذا التبيين واعتباره منافيا لعظمة القرآن وحرمته إذا كان معارضا للذهب فطريق للفقهاء غير سليم.

ومثال آخر: الولاية فى النكاح

قال الله تعالى: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره[1]﴾. والفاعل فى قوله: « تنكح » ضمير المؤنث، وهو عبارة عن المرأة، ومعنى ذلك أن مسئولية العقد الثانى — كفاعل — على المرأة، فإذا لم تنكح زوجا غير الأول لا تحل له بعد الطلقات الثلاث. وفقهاء الحنفية رحمهم الله ظنوه خاصا وفهموا منه الحصر فقالوا: إن المرأة حرة فى أمر العقد ولا تحتاج إلى الولى، فإذا بلغت فلها أن تنكح من تريد، ولا يجبرها الولى. أما حديث « أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، باطل، باطل[2]» فإنه يوجب ضرورة

= قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ شرح واف للوضوع، فليراجعه من شاء، والله يقول الحق، وهو يهدى السبيل. (الأستاذ على شامى).

(١) البقرة: ٢٣٠

(٢) سنن الترمذى ٢ / ١٧٥

الولى ولكن الفقهاء لم يقبلوه لأن الآية « حتى تنكح زوجا غيره » لا تحتاج إلى بيان الحديث.

ولاشك فى أن عقد النكاح ينعقد ويتم بأربعة أشخاص: الناكح، والمنكوحة، والولى، والشاهدين. ولكن الحصر المذكور الذى فهمه الفقهاء فلا دليل عليه، لأن أحدا من هؤلاء الأربعة لايغنى عن الآخر، وكل منهم يقوم بواجبه ويؤدى مسئوليته، فلو يلغى قوله: « تنكح » أهمية الولى فلماذا لا يلغى ضرورة الناكح والشاهدين بحيث تكون المرأة كاملة الحرية والاختيار فى العقد ولا تحتاج إلى رضا الزوج ولا إلى الشاهد؟

ثم إن القرآن قد نسب فعل النكاح إلى الرجال فى مواضع فقال:

﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع - النساء: ٣﴾.

﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء - النساء: ٢٢﴾.

﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن - الأحزاب: ٤٩﴾.

﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن - البقره: ٢٢١﴾.

﴿ولاجناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن - الممتحنة: ١٠﴾.

﴿وانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن - النساء: ٢٥﴾.

ففى جميع هذه الآيات الناكحون هم الرجال ، وقد نسب إليهم الفعل ، فلوجوزنا الاستدلال بالفاعلية على الحصر لحصل التعارض فى القرآن ، بأنه قد فوض الأمر مرة إلى المرأة ، وأخرى إلى الرجل .

ولابد فى النكاح من الشاهدين لأنه من العقود ، وقد صرح بذلك فى الحديث ، وحينئذ يجب أن تكون الآية ﴿حتى تنكح زوجا غيره﴾ لكونها خاصة معارضة لهذا الحديث أيضا كما جعلوها لحديث الولى ، وإلا فلا .

هذا ، وقد جعل الفقهاء المرأة البالغة حرة مخيرة بناء على هذه الآية ، ولكنهم من ناحية أخرى قد سلبوا التى لم تبلغ الحرية والاختيار كاملا ، فجعلوا ولاية الأب والجد إجبارية حتى حرموها من خيار البلوغ ، مع أن الآية لم تخصص البالغة من غيرها ولم تشترط أمرا من الأمور .

والحق أن الفقهاء قد راموا حماية أصل واحد من الأصول فابتعدوا عن الكتاب والسنة معا . ولو أعطيت المرأة خيار النكاح فى الآية فبماذا صح استثناء التى لم تبلغ ؟ إننا لا نرى وجها لهذا الترجيح . ويقول صاحب فصول الحواشى متناهرا برزانة وثقة: ونحن تركنا الخبر الواحد بمقابلة الخاص من الكتاب[١].

---

(١) ص ٢٦

ولكن الفقهاء قد استفادوا من هذا الخبر الواحد فى المرأة التى لم تبلغ ، وكذلك سدوا بقبول الرجل ، مع أنه لم يذكر فى قوله تعالى «تنكح» وكذلك اعترفوا بضرورة الشاهدين مع أن الآية لم تذكرهما ألبتة . فكأن الآية ما وردت — كما يظهر من صنيع الفقهاء — إلا لإلغاء ضرورة الولى فقط .

ولم يكن موقف الفقهاء هذا بحيث يرضى الشاه ولى الله ويطمئنه ، إنهم قد عاملوا هذه المعاملة مع أصول الدين ، فكيف مع الفروع التى تفرعت عليها ؟

ومثال آخر : حرمة الرضاع

إن حكم القرآن فى حرمة الرضاع قد ورد مطلقا فى قوله تعالى: ﴿وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم[1]﴾ . أما الحنفية والمالكية فيقولون : إن الحرمة تثبت بشرب قطرة من اللبن ، لأن القرآن لم يحدد كمية الرضاع ، فالحرمة ثابتة سواء شرب جرعة أو شرب سنتين ، أما أئمة الحديث والشافعية فيقولون: إن الحديث قد ورد بتحديد خمس رضعات، فلوشرب أقل منها لا تثبت الحرمة ، وإلى هذا يبدو ميل الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله ، ولكن الحنفية يقولون : إن هذا خبر الواحد ، ولايجوز به تخصيص القرآن ، فيصرف النظر عن هذا الحديث ويقال

---

(١) النساء : ٢٣

بثبوت الحرمة بالقليل والكثير فى الرضاعة.

مع أن الأمر ليس كما ظنوا فإنه ليس ههنا تخصيص القرآن بالحديث، بل هو تقييد ما ورد مطلقا من القرآن بالحديث. فإن القرآن قد أطلق حرمة الإرضاع والحديث قيد هذا الإرضاع بخمس رضعات.

أما الاعتذار بكون خبر الواحد ظنيا فليس بناجح مقبول، فإن فقهاء الحنفية أنفسهم خصصوا القرآن بالخبر الواحد فى عدة مواضع وقد استدل على فرضية الجمعة بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع[1]﴾ ثم استثنى منها العبد والمسافر والمرأة وغيرها بخبر الواحد، ولاستثناء المكروهات من الجمعة لم يظفروا بحديث مرفوع فركنوا إلى أثر على رضى الله عنه، وخصصوا به القرآن الكريم.

وكان الشاه ولى الله يفهم أن مثل هذه الأصول وضعت ومعها ما يبطلها، فلا يمكن أن تكون أساسا للدين ومدارا للفقه والاجتهاد. على أن الفقهاء وأئمة الأصول لم يفوا بما ادّعوه من احترام القرآن.

ومن المعلوم أن الآية لم تذكر إلا حرمة الأم من الرضاع، ولم يرد فى النص القرآنى ذكر أى قرابة أخرى، ولكن ورد فى

---

(١) الجمعة : ٩

سنن الترمذى عن على رضى الله عنه مرفوعا: «إن الله حرم من الرضاع ما حرم من النسب[١]».

فالحديث هنا قد وضح معنى الآية ووسع فى التوضيح، وهذه الزيادة مبنية على خبر الواحد، وكذلك لم تذكر الآية شيئا عن مدة الرضاع، ولكن جمهور الأئمة قرروا أن المعتبر المؤثر فى الحرمة من الرضاع ما يكون غذاء للطفل، ففى حديث أم سلمة رضى الله عنها: «لايحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء وكان قبل الفطام. قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح[٢]».

والتصريح بأن الرضاع لايؤثر بعد سنتين لم يرد فى القرآن بل ورد فى السنة، والقاعدة التى وضعها الفقهاء بخصوص تعيين الرضعات قد انتهكوها فى مدة الرضاع وحرمة سائر القرابات الرضاعية. ومهما تكن الظروف صعبة والموقف محرجا لايمكن أن يطمئن الشاه ولى الله إلى مثل هذه الأصول ويرضاها.

ومن المعروف أن أهل الحديث أيضا يدرسون هذه العلوم، ولكنهم لايرون أصلا من الأصول جديرا بالقبول بإزاء السنة، وإذا صرح القرآن أو السنة أمرا من الأمور فلم يبق هناك سبيل للالتفات

---

(١) سنن الترمذى ٢ / ١٩٧

(٢) تحفة الأحوذى ٢ / ٢٠١

إلى أصل من الأصول . أو قبوله بإزاء هذا التصريح .

أما أصول الفقه فدراستها على مستوى ذهن الطالب يمكن أن تسبغ عليها نوعا من جودة البيان والمنطق ، وتبدو مآخذها قوية لا تقبل الرد والاعتراض . ولكن النظرة العميقة تكشف أنها ليست بهذه المثابة ولا تتصف بالصحة والقوة اللتين تنسبان لها ، وبناء على ذلك قد رفضها الشاه ولى الله بصراحة وجراءة ، وأعلن بأنه يعجبه طريق الفقهاء المحدثين ، ثم أوصى تلاميذه وأصحابه باختيار هذا الطريق .

منهج المحدثين نحو القياس :

والفرق بين المحدثين وبين الفقهاء العراق أن المحدثين لم يكونوا يرون الحاجة ماسة إلى القياس ، ما دامت هناك نصوص خاصة بالموضوع، ولو كانت أصول الاجتهاد والاستنباط تقتضى خلاف ذلك . أما فقهاء العراق فكانوا يرون أن هذه الأصول لا يجوز أن نصرف عنها النظر، فاتخاذ الخل من الخمر حلال ، واستعماله جائز، لأن حكم الشيء يتغير بتغير صورته ، ولكن المحدثين يرون أن اتخاذ الخل من الخمر لا يجوز، ولو اتخذه أحد تبقى حرمته كما كانت ، ولا يجوز استعماله ، لأن الحديث قد صرح بمنع اتخاذ الخل من الخمر .

والمال المسروق إذا تغيرت صورته مثل الحبوب إذا دقت ، والأنعام إذا ذبحت وتحولت إلى لحم ، فالفقهاء يرون أن هذا التصرف

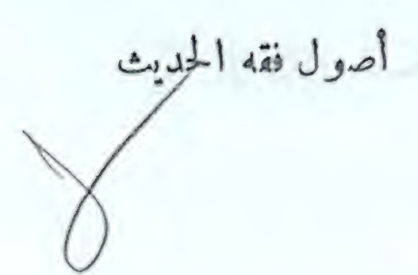
من السارق يكون مثل تصرف المالك فى ماله .

أما المحدثون فلا يسلمون للسارق حقوق الملكية مع هذه التغييرات الظاهرة فى المال المسروق ، ولا يبيحون له التصرف فيه . إنهم يقولون : حقا قد طرأ التغير على المال ، ولكن السارق ما زال سارقا ، ومادام وصف الموضوع معلوما ثابتا لايمكن أن نجعل السارق مالكا بناء على التأويل والمصالح . والغرض من قوله تعالى : ﴿ السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما[1] ﴾ أن السارق مادام سارقا يبقى المال مسروقا ، فكما أن بيعه وشرائه كان محرما فى صورته الأصلية ، فكذلك يكون بعد حدوث التغير فيه إذا علم كونه مسروقا .

وإنى لا أقصد أن فقهاء العراق لايوجد لديهم دليل يؤيد مذهبهم ، فإنهم قد أكثروا من الاستدلال لتصحيح هذه المسائل وأثبتوا عمقهم فى الفكر والنظر ، ولكن المحدثين لم يطمئنوا إلى هذا التدقيق الفقهى لأن وجهة أنظارهم مختلفة تماما ، إنهم يرون هذه المسائل مخالفة لظاهر السنة ، ويعبرون عن هذا التدقيق بـ «الرأى» وأدلة أهل الرأى لم تطمئن عليها قلوبهم بإزاء الحديث . والفقهاء قد صرفوا أنظارهم عن الحديث محافظة على أصولهم ، ولكن العجب أنهم قبلوا منه الضعيف والموقوف إذا احتاجوا إليه .

---

(١) المائدة : ٣٨



أصول فقه الحديث:

قد ذكر الشاه ولى الله رحمه الله تعالى من الأصول الأساسية لفقه أئمة الحديث ما يأتى:

١ — إذا وجد فى المسألة قرآن ناطق فلا يجوز التحول منه إلى غيره.

٢ — وإذا كان القرآن محتملا لوجوه فالسنة قاضية عليه، والمعنى الصحيح هو الذى تؤيده السنة.

٣ — فإذا لم يجدوا فى كتاب الله أخذوا(١) سنة رسول الله ﷺ سواء كان مستفيضا دائرا بين الفقهاء أو يكون مختصا بأهل بلد أو أهل بيت أو بطريق خاصة وسواء عمل به الصحابة والفقهاء أو لم يعملوا به.

---

(١) قلت: يشعر كلامه هذا الفصل بين الكتاب العزيز والسنة المطهرة فى مجال البحث والاستنباط، وليس هذا مذهب أهل الحديث والسلف الصالح رضى الله عنهم، بل مذهبهم فى ذلك عدم التفريق بين الكتاب والسنة فى الاستنباط والحجية، فهم يعودون إليهما كليهما فى كل مسألة ولا يستغنون بأحدهما عن الآخر لأن السنة قاضية على القرآن مقيدة لإطلاقه، مفصلة لمجمله كما هو معروف، وذهاب المؤلف رحمه الله وغيره إلى هذا الرأى اعتمادا منهم على حديث معاذ الذى ذكره فى الصفحة ١٥٤ من نفس الكتاب وصححه تبعا لغيره ممن صحح الحديث.

. . . .

وهذا مستند واه ، فحديث معاذ لا يصح ، أفاد ذلك شيخنا المحدث محمد ناصر الدين الألبانى فى سلسلة الضعيفة والموضوعة رقم (٨٨٥) .
قال : حديث معاذ هذا إسناده ضعيف ، رواه ابن سعد والخطيب والعقيلى والطيالسى وأحمد وأبوداود والترمذى والبيهقى وغيرهم ، وكلهم رووه عن شعبة عن أبى عون عن الحارث ابن عمرو ابن أخى المغيرة بن شعبة ، عن أصحاب معاذ عن معاذ . وقد ضعفه البخارى فقال : لا يصح ، ولا يعرف إلا بهذا مرسل . وكذلك ضعفه الترمذى فقال : لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده عندى بمتصل ، وضعفه الذهبى لجهالة أبى عون ، وكذلك جزم الحافظ ابن حجر بجهالة الحارث ، كما ضعف الحديث الحافظ العراقى لثلاث علل : الإرسال ، وجهالة أصحاب معاذ ، وجهالة الحارث . وقال ابن حزم : هذا حديث باطل ساقط وإنه لم يأت قط من غير طريق الحارث ، وهو وشيوخه مجهولون . كما ضعف الحديث عبد الحق الاشبيلى وابن الجوزى وابن طاهر الذى بحث عنه طويلا ، فوجد أن له طريقا آخر عند ابن ماجه ولكن فيها كذابا وضاعا هو محمد بن سعيد المصلوب الذى وضع أربعة آلاف حديث ، فقتله المنصور وصلبه والظاهر أن هذا اشتبه على ابن القيم رحمه الله بمحمد بن سعيد بن حسان الحمصى ، وليس هو لاختلاف طبقتهما واختلاف الرواة عنهما ثم إن الحمصى هذا مجهول ، كما ضعف الحديث البوصيرى فى زوائده ، وقد رواه ابن عساكر من طريق فيها وضاع وكذاب أيضا . =

٤ — ومتى كان فى المسألة حديث فلايتبع فيها خلاف أثر من الآثار، ولا اجتهاد أحد من المجتهدين .

٥ — و إذا فرغوا جهدهم فى تتبع الأحاديث ولم يجدوا فى المسألة حديثا أخذوا بأقوال جماعة من الصحابة والتابعين ، ولايتقيدون بقوم دون قوم ، ولا بلد دون بلد ، كما كان يفعل من قبلهم .

= وأما قول ابن القيم : إن جهالة أصحاب معاذ لا تضر ، فالجواب على ذلك : إن هذا صحيح لوكان سبب الضعف محصور بهذه الجهالة ، أما وهناك علتان أخريان ، فالحديث ضعيف على كل حال ، وهاتان العلتان لم يتعرض ابن القيم لها فكأنه ذهل عنهما . وقد ظهر بعد البحث أن ابن القيم رحمه الله تبع فى ذلك الخطيب البغدادى فوهما . انتهى ملخصا .

وضعف الحديث أيضا صاحب تحفة الأحوذى (٢ / ٢٧٦) فليراجع من شاء .

وبهذا يتبين خطأ من يرى الفصل بين الكتاب والسنة فى القضاء أو البحث أو الاستنباط ، وكان من هدى السلف رحمهم الله عدم التفريق أو الفصل بينهما ، بل الرجوع إليهما كليهما لفهم المراد .

وأحب لمن أراد زيادة الاطلاع حول الموضوع هذا ، أن يراجع الرسالة الثالثة والرابعة والسادسة من رسائل الدعوة السلفية الصادرة بدمشق . (الأستاذ على شامى) .

٦ — فإن اتفق جمهور الخلفاء والفقهاء على شيء فهو المقنع .

٧ — وإن اختلفوا أخذوا بحديث أعلمهم علما وأورعهم ورعا أو أكثرهم ضبطا أو ما اشتهر عنهم .

٨ — فإن وجدوا شيئا يستوى فيه قولان فهى مسألة ذات قولين (أى يعمل بأيهما شاء بدون ضيق وحرج) .

٩ — فإن عجزوا عن ذلك أيضا تأملوا فى عمومات الكتاب والسنة وإيماءاتها واقتضاءاتها ، وحملوا نظير المسألة عليها فى الجواب إذا كانتا متقاربتين بادىء الرأى لايعتمدون فى ذلك على قواعد من الأصول ، ولكن على ما يخلص إلى الفهم ويثلج به الصدر ، كما أنه ليس ميزان التواتر عدد الرواة ولاحالهم ، ولكن اليقين الذى يعقبه فى قلوب الناس .

وكانت هذه الأصول مستخرجة من صنيع الأوائل وتصريحاتهم[1].

حركة أهل الحديث حينذاك :

لم يوجد فى القرون الأربعة الأولى التقليد الشخصى أو الجمود إلا قليلا ، بل لم يكن هناك تقليد فى القرن الأول البتة ، وفى نهايته قد ظهر الامام أبوحنيفة والامام مالك رحمهما الله تعالى، ثم بدأت مذاهب الأئمة تنتشر شيئا فشيئا . وكان الذى يهم علماء أهل الحديث فى ذلك

(١) حجة الله البالغة ١ / ١٤٩

الوقت هو أن يتبع الناس القرآن والسنة. فإن تعسر عليهم فهمهما رجعوا إلى طريقة الصحابة والتابعين بدون جمود وتقليد وخروج ومخالفة، بل بحيث تبقى السعة فى فتاوى الصحابة نظرا إلى مصالح العصر، ولا يظن أن فتاوى العلماء حلت محل القرآن والسنة.

عن الحسن بن بشر عن معاذ عن الأوزاعى قال: كتب عمر بن عبد العزيز أنه لا رأى لأحد فى كتاب الله، وإنما رأى الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ، ولا رأى لأحد فى سنة سنها رسول الله ﷺ[١].

وإليكم أثرا آخر: «إن عمر بن عبد العزيز خطب فقال: يا أيها الناس! إن الله لم يبعث بعد نبيكم نبيا، ولم ينزل بعد هذا الكتاب الذى أنزله عليه كتابا، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة، ألا وإنى لست بقاض، ولكنى منفذ، ولست بمبتدع، ولكنى متبع، ولست بخير منكم، غير أنى أثقلكم حملا، ألا وإنه ليس لأحد من خلق الله أن يطاع فى معصية الله، ألا هل أسمعت[٢]».

وهذه الآثار تدل على حالة ذلك الوقت الفكرية، وعلى الأخطار

---

(١) سنن الدارمى ص ٦٢

(٢) نفس المصدر.

التى كانت تحدق بأفكار العلماء . إنهم كانوا يحاولون مع اعتمادهم على اتباع السلف ، الابتعاد عن التقيد الجامد وعن الفوضى ، و يحاولون الاجتناب عن البدع مع رفضهم أن يفرضوا على الناس أمرا مستندين إلى السلطة الحاصلة لهم فى الحكم . إنهم معنيون بأن لا تنتشر فى الناس البدعة والفوضى ، ولا يستند لنشر الحق إلى الإكراه بل إلى الوازع النفسى والإخلاص لله .

و لنتفكر فى الأبواب البدائية التى عقدها الإمام الدارمى فى سننه:

« باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة » .

« باب اجتناب الأهواء » .

« باب فضل العلم والعلماء » .

« باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله » .

ويظهر من جميع هذه الأبواب ومن صنيع أهل العلم المتقدمين أنهم يرون اتباع طريقة أئمة السلف واجبا بعد الكتاب والسنة ، و يهدفون إلى تحرير العقول من الآراء والأفكار الشخصية ومن التقليد الجامد ، ولكنهم فى نفس الوقت لايرضون بأن تتسرب فوضى المبتدعين إلى العقول .

وعلماء أهل الحديث فى ذاك الوقت كان يهمهم حفظ وجمع الأحاديث النبوية والتفقه فيها واستنباط المسائل منها والاجتناب الكامل عن بدع الأعمال والعقيدة .

وقد سئل الشاه عبد العزيز الدهلوى (م — ١٢٣٩هـ) رحمه الله عن مذهب أئمة الحديث فقال. « إن أئمة الحديث لايتقيدون بمذهب من مذاهب المجتهدين، بل إنهم يستفيدون من الفقهاء ومن المصادر العلمية الأخري على السواء[1]».

وتصريح الشاه عبد العزيز هذا يدل بوضوح على أن هذه مدرسة مستقلة ليس فيها تقليد ولاجمود.

فتنة الاعتزال :

إن أهل العجم حينما تأثروا بالمسلمين غلبت عليهم بساطة الاسلام من ناحية، ولكنهم قد أثروا فى الاسلام من ناحية أخرى. إن العلوم اليونانية والنظريات الفلسفية قد تعارضت واصطدمت مع بعض العقائد الأساسية للاسلام: ما هى حقيقة صفات الله؟ ما هى نوعية عدل الله؟ الصفات عين الذات أو غيرها؟ ما هى صورة الاتصال بين الحادث والقديم؟ وهكذا عشرات من الأسئلة قد ظهرت أمام الأذهان.

ومن هنا بدأت تظهر البدع العقدية، وقام علماء أهل السنة متسلحين بالأسلحة اليونانية للاجابة عن هذه الأسئلة ولحل هذه المشاكل، وقد أوقع انتشار البدع العلماء فى الحيرة، وفى مثل هذه

(١) الفتاوى العزيزية ٢ / ١١٧

الظروف قد وقف الامام أحمد بن حنبل والعلامة عبد العزيز الكنانى وغيرهما مواقف جريئة ثابتة، وكان من الخلفاء العباسيين المأمون والواثق بالله والمعتصم بالله قد تأثروا بهذه النظريات فوقع أئمة الحديث فى محن شديدة متتالية.

وقد بقى هذا الاتجاه إلى القرن الثامن الهجرى، واستمرت معارضة أئمة الحديث للفلسفة اليونانية ونجحوا فى هذه المعارضة. ويحسن لمعرفة الطائفية والتفرق فى ذاك العصر الرجوع إلى كتاب «الفصل» لابن حزم (م — ٤٥٦ ﻫ)، «والملل والنحل» للشهرستانى (م — ٥٤٨ ﻫ)، و «الفرق بين الفرق» لأبى طاهر عبد القادر البغدادى (م — ٤٢٩ ﻫ) و «المواعظ والاعتبار» للقريزى (م — ٨٤٥ ﻫ) من صفحة (١٤١ إلى ١٨٦).

والقرن الثامن يرينا مدى انتشار الفرق البدعية ونفاق سوقها فى الإسلام، ولكن علماء أهل السنة قد هزموا الفلسفة اليونانية هزيمة نكراء وأبطلوا نظرياتها، والمحدثون قد أوضحوا بلغة الفلاسفة وأساليبهم أنهم على خطأ، وعلمهم بذات الله وصفاته تنقصه الصحة والعمق، والذى يوردونه على العقائد الإسلامية من الإيراد والاعتراض ليس إلا تلبيسا وتسويلا من أنفسهم.

المتكلمون :

وفى هذه الحرب الطويلة الشاقــة للعقائد قد تأثر بعض الناس بالفلاسفة مع المعارضة ، فأولوا بعض النصوص ، وحملوا بعضها على المعانى التى كانت معارضة لمذهب التفويض ومختلفة عنه ، ولكن أئمة السلف والأئمة الأربعة قد اختاروا مذهب تفويض الكيفية . والحنفية قــد اتبعوا فى العقائد الامام أبا منصور محمد بن محمــد الماتريدى ، والشافعية قد مالوا إلى الأشعرية . أما أئمة الحديث والحنابلة فقد بقوا على مذهبهم القديم ولم يصرفوا أنظارهم عن طريقة الامام أحمد وسائر المحدثين ، إنهم حافظوا على بساطة مذهب تفويض الكيفية ، واتفقوا فى العقائد مع الأئمة الأربعة .

الطرق الثلاثة للتقليد :

ومن المصادفــة[1] العجيبة أن العلمــاء وأهل النظر قرب القرن الرابع قد اختاروا تقليد الأئمة الأربعة مجتنبين التلفيق واتباع الهوى فى الفروع ، وقرروا سد باب الاجتهاد . وهكذا قــد قضوا بالتقليــد الشخصى والجمود الفكرى على السعة التى ألفناها فى عصر الصحابة والتابعين ، وأكرهوا الناس على اختيار تقليد أحد من الأئمة

---

(١) قلت : حبذا لو استعمل عبارة أخرى بدل المصادفة ، لأنها مستمسك الملاحدة وأهل المصادفة (الأستاذ على شاى) .

الأربعة، وقالوا: إن ذلك ليس بواجب شرعا ولكن الضرورة تقضى بوجوبه الآن .

ثم لا نمضى طويلا إلا نرى أن الماتريدى والأشعرى قد احتلا فى خلاف العقائد محل الامام أبى حنيفة ومالك والشافعى فى الفروع، وصارا إمامين فى العقائد، ومعنى ذلك أنه كان هناك لكل فرد من أفراد الأمة إمامان، واحد فى العقائد، وآخر فى الفروع .

وهكذا حينما وجدت الطبقية سبيلها إلى التصوف، وتسربت البدع إلى الزهد والورع والاحسان فى الاسلام، وتحول نظام الزوايا والمعابد إلى الحرفة والتجارة اختار المتصوفون فى ذلك الوقت أئمة وفرقا . وهكذا قد صار كل حنفى ومالكى وشافعى وحنبلى نقشبنديا أو قادريا أو سهرورديا أو جشتيا فى التصوف . كأن أتباع الأئمة قد اختاروا أئمة عديدة فى جبهات ثلاث، فانحصرت إمامة الامام أبى حنيفة وأصحابه فى الفروع ولم يرض الناس بهم أئمة فى التصوف والعقائد . وفى بلادنا الطائفة البريلوية من الأحناف ينتسبون للقادرية مع أن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى كان حنبليا فى الفروع . والشاه ولى الله قد ذكر عشر فرق فى التصوف .

طريقة أهل الحديث:

أما أهل الحديث فلم تختلف طريقتهم فى هذه المراحل كلها، بل كانوا يتبعون الصحابة فى الفروع والعقائد والتصوف، ويحاربون بدع المتصوفين، ويكرهون التقليد الجامد فى الفروع، والالحاد فى العقائد، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء:

أهل الحديث هُمُ أهل النبى وإن
لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا

وهكذا كانت حال الحنابلة، فإنهم لم يتأثروا بالأشعرية والماتريدية إلا قليلا. وأهل الحديث لم يعتمدوا على فرد فى فهم الكتاب والسنة، بل نظروا إلى الصحابة وأئمة السلف واتخذوهم أئمة مقتدين، وكذلك تمسكوا بهم فى الفروع والعقائد والإحسان والتصوف، إنهم لم يستبدلوا الآراء الشخصية بالصحابة والسلف، وكان هذا هو الحل الصحيح فى أيام الفتنة والطريق الوسط بين الجمود والفوضى، وبين التحرر والتقيد، فعمل به أئمة الحديث وقاوموا كل ما يعارضه وينافيه.

وجهود شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (م — ٧٢٨ ﻫ) بهذا الصدد لاتزال تذكر فى صفحات التأريخ، إنه قضى على الاعتزال والتهجم من ناحية، ومن ناحية أخرى قبل تحدى الوثوب فى النار من الفرقة الرفاعية فأتى على بدع التصوف من القواعد، وحسبه

قدوة ، اللهم ارحمه رحمة واسعة .

وهذا النضال الجرىء قد جاء فى وقت كان فيه معظم أصحاب التقليد والجمود قد ابتلوا بالبدع ، بل إنهم قد عارضوا جهود الإصلاح فى كل مرحلة وأخرى ، وما أحسن ما قال شيخ الإسلام بهذا الصدد : « أهل الحديث فى الفرق كالإسلام فى الملل[1] » .

ومؤلفات الشيخ مثل « منهاج السنة » ، و« كتاب العقل والنقل » ، و« ردِ المنطق » تتضمن معلومات نافعة فى هذا الموضوع . وكتابه « رد المنطق » يفوق كتابه « الرد على المنطقيين » فهو فى هذه الرسالة الموجزة قد توسع فى ترجيح مذهب أهل الحديث وتائيده توسعا لم نجده فى مؤلفاته الأخرى ، وهذا الكتاب يدل على تنور فكره وسعة عقله .

انهزام الفلسفة اليونانية وتراجعها :

إن شيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه ما عارضوا الفلسفة اليونانية فحسب ، بل هاجموا مهاجمة قوية بحيث فقدت هذه الفلسفة قيمتها العلمية أمام العلماء والعامة : ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب[2]﴾ .

إنهم قضوا على الأغلال العقدية والمنازعات التقليدية وفرق المعتزلة والجهمية ، ولم يبق لهـا ذكر إلا فى كتب الجدل والمناظرة ، وهذا

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/١٤٠

(٢) سورة ص : ١١

أثر مهم خالد فى آثار الشيخ التجديدية ، وخدمة عظيمة من خدمات أئمة الحديث الإصلاحية . اللهم تقبل منهم كما تتقبل من عبادك الصالحين .

ونرى أن جهود شيخ الإسلام وأصحابه فى الرد على الهجوم الفلسفى اليونانى قد نجحت تماما ، ولكنهم لم ينجحوا فى جهودهم ضد التقليد الجامد كما اقتضت الظروف والأحوال بل ازداد هذا الجمود الفقهى يوما بعد يوم ، وصارت الطوائف الأربعة — بعد اتفاقها على صحة الأئمة الأربعة — تتناحر فيما بينها ، وظنت كل طائفة منها أن الحق دائر فيها ولا يعدو إلى غيرها ، وصحة مذاهب الأئمة الآخرين ليست إلا نوعا من الظن . يقول العلامة علاء الدين الحصكفى فى الدر المختار نقلا عن الأشباه والنظائر : « وفيها إذا سألنا عن مذهبنا ومذهب مخالفنا قلنا وجوبا : مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب مخالفنا خطأ يحتمل الصواب . وإذا سألنا عن معتقدنا ومعتقد خصومنا قلنا وجوبا : الحق ما نحن عليه ، والباطل ما عليه خصومنا[1] » . مع أن الاستدلال فى العقائد لم يكن إلا نوعا من خداع الزيف والتأويل .

وهذا الاتجاه فى التفكير لا يستحسن وخاصة بعد الإيمان بأن

---

(١) الدر المختار ١ / ٣٣

الأئمة الأربعة على الحق ، ومن المعلوم عن الأئمة المجتهدين أنهم ليسوا رسلا معصومين ، بل إن جهودهم متصفة بالإخلاص ، فلامعنى للجمود وضيق النظر اللذين نراهما فى الأتباع ، ولكن التقليد هو الذى يبعث على ذلك ، إن الغلو فى حب شخصية يستلزم التفريط فى حق غيرها ، فتنقلب محاسنه إلى المعائب فى عيون الآخرين ، وهذا هو الأثر السيىء من آثار التقليد والجمود ، ومن العسير أن يتجنب المقلد عن التعصب وإساءة الأدب ، والغريب أن مثل هؤلاء المقلدين يسيئون الأدب ولكنهم يتهمون الآخرين بذلك .

موقف غريب نحو الإمام الشافعى :

ونظرا إلى ذكاء الإمام الشافعى ومكانته العلمية الرفيعة قد حاول بعض الحنفية أن يجعله تلميذا للدرسة الحنفية وهذا لا ضير فيه . فإن العلم أمانة تؤخذ حيثما توجد . ولاشك فى أن الإمام الشافعى قد تلقى العلم لدى كبار العلماء فى عصره ، وأخذ الحديث والفقه من الأساتذة البارعين ، يقول العلامة علاء الدين الحصكفى : « ومن تلامذته (أى الإمام محمد) الشافعى رضى الله عنه ، وتزوج بأم الشافعى وفوض إليه كتبه وماله ، فبسببه صار الشافعى فقيها[١] » .

ولكنه كان دائما يعارض فقه الإمام محمد .

---

(١) الدر المختار على هامش رد المحتار ٥٢/١

ثم ينقــل الحصكفي اعتراف الامام الشافعي : « والله ما صرت فقيها إلا بكتب محمد بن الحسن[١] » .

وقــد ذكر الامام الذهبي أيضا « وكتب عن محمد بن الحسن الفقيه وقر بختي[٢] » .

واستفادة الإمام الشافعي من الامام محمد ليس أمرا معيبا ، فإن الامام محمدا من كبار أئمة السنة ، وقد ذكر عن المحدثين أنهم كانوا يتصفون بسعة النظر بالنسبة للعــلم ، حتى كانوا يأخذون العلم عن المبتدعين بعد النقــد والتفحص ، ولا يرون فى ذلك عيبا ، وفى كتب الحــديث المعتمدة توجد الأحاديث التى رويت عنهم مع أن المحدثين لم يكونوا يرضون بحالتهم الدينية ، وعلى هذا فالتلمذ للامام محمد يعد من محاسن أئمة السنة .

وقد كان الامام الشافعي تلميذا أسكت بمواهبه الجدليــة أستاذه الامام محمدا مرات عديدة ، ويعتبر كلام الامــام الشافعي عن حجية أخبــار الآحاد ، والقضاء بالشاهد واليمين ، وعدم الوصية للوارث فى غاية الاقناع والاستدلال[٣] .

---

(١) المصدر السابق

(٢) تذكرة الحفاظ ١ / ٣٦٢

(٣) انظر للتفصيل حجة الله البالغة ١/٣٠٩

ولابأس لدى العلماء فى ممارسة التعليم والتعلم والبحث والمناقشة ، فالتبادل العلمى بين الإمام محمد والإمام الشافعى ليس نقصا ولا عيبا ، بل هو أمارة الفضل والكمال ، ومثل هذا التلميذ جدير بأن يفتخر به الأستاذ أيا كان .

محاولة النيل من الإمام الشافعى :

إن الحنفية يفتخرون بتلمذة الإمام الشافعى لدى الإمام محمد من ناحية ، ومن ناحية أخرى ينقمون منه ويسخطون عليه بسبب أنه انتقد فقهاء العراق ، انهم يوردون عليه إيرادات شتى ويرمونه بالجهل ، ففى الكتب الحنفية مثل أصول البزدوى وشرحه كشف الأسرار وفى أصول الشاشى وغيرها من الكتب نرى أن مؤلفيها يعتبرون مساعى الإمام الشافعى الاجتهادية والفقهية غير مجدية ويرمونه بالجهل ، والفرق أن البعض صرح باسم الإمام الشافعى والبعض الآخر ذكر المسائل ورماها بالجهل .

« وكذلك جهل من خالف فى اجتهاده الكتاب والسنة من علماء الشريعة وأئمة الفقه أو عمل بالغريب من السنة على خلاف الكتاب والسنة المشهورة فردود باطل ليس بعذر أصلا ، مثل الفتوى ببيع أمهات الأولاد ، ومثل القول فى القصاص فى القسامة ، ومثل استباحة متروك التسمية عمدا والقضاء بالشاهد واليمين » .

١ — وتفصيل ذلك أن الإمام داود الظاهرى يرى أنـه يجوز بيع أم الولد أى الجارية التى تلد من مولاها ، والجمهور يرون أن بيع هذه الجارية بعد موت سيدها لايجوز، ولكن الإمام داود الظاهرى يرى بناء على بعض الأحاديث ذلك جائزا ، فهذا من « جهله » عند هؤلاء!

٢ — وإذا وجد قتيل فى قرية ولم يعلم قاتله فيقول الأئمـة مالك وأحمد بن حنبل والشافعى: إن القاضى إذا علم عداء سابقا أو مشاجرة بين القتيل وبين أهل القريـة فإنه يستحلف ولى القتيل خمسين حلفا ثم يعين القـاتل ويأمر بالاقتصاص منه . ولكن الحنفية وأئمـة الأصول يقولون: إن هذا من جهالة الأئمـة المذكورين (إنا لله وإنا إليه راجعون) .

٣ — و يرى الإمـام الشافعى أن المسلم إذا ذبح ذبيحة ولم يسم الله عليه متعمدا يحل أكلهـا ، وإن لم يجز هذا الفعل . والحنفية يرمون رأى الشافعى هذا أيضا بالجهل .

٤ — وكذلك يرى الإمام الشافعى أن المدعى إذا لم يتمكن من إحضار الشاهدين ، فعليه أن يحلف هو ويحضر شاهدا واحدا ، والقاضى بعـد ذلك يقضى له ولكن الحنفية يرون ذلك أيضا من جهله .

إن الخلاف فى المسائل ممكن وطبيعى ، وللأئمة المجتهدين أن يفتوا وفق اجتهادهم وتحقيقهم العلمى ، وكذلك للأتباع أن يعملوا وفق مذهب إمامهم ، ولكن الرمى بالجهل والطعن على عالم من علماء الدين ينافيان مكانة العلماء وتمجيد الأسماء، إن المسلم لايليق به أن يتكلم فى أخيه المسلم بهذه اللهجة النابية ، فضلا عن الأئمة المجتهدين ، والغريب أن الذين يعملون هذا يرمون السلفيين بإساءة الأدب إلى أئمة الدين والتفريط فى شأنهم ! أليس ذلك من نتائج وآثار الجمود التقليدى والغلو فيه ؟

وقد ذكر العلامة الشيخ عبد العزيز (م — ٤٨١ هـ) فى كشف الأسرار أثناء شرحه للمتن أسماء الأئمة الذين رمى العلامة البزدوى اجتهادهم بالجهل . ولكنه لم يقل شيئا عن لهجة العلامة البزدوى الحادة النابية .

وقد نقل محمد بن محمد الأخسيكثى فى الحسامى بإيجاز عبارة أصول البزدوى وكذلك ذكر نفس الأمثلة التى سردها البزدوى . والله يرحم هؤلاء العظام ، فإنهم قدموا لنا نموذجا مرا كريها لعصر الجمود منشئوه الغلو فى محبة بعض الأئمة الكرام .

وقد أبدى شارح الحسامى الأستاذ عبد الحق الحقانى ، رحمه الله ، فى كتاب النامى إنكاره لهذا الأسلوب ولهذه اللهجة بكلمات وجيزة

فقال: «وكل واحد يجهل الآخر فيما خالفه ويقول إنه مخالف للسنة[١]».

وقد ذكر صاحب المنار فى المتن أمهات الأولاد فقط، ولكن الشارح الملاجيون قد فصل الكلام فى الأمثلة وسمى الإمام داود الظاهرى صريحاً ثم قال فى النهاية: «وقد نقلنا كل هذا على نحو ما قال أسلافنا وإن كنا لم نجترىء عليه[٢]».

ومعنى ذلك أنه أغلظ الكلام متبعا سلفه ولم يكن ارتضاه لنفسه. وهذا الاعتذار والتبرؤ من الذنب يبدو أسوأ من الذنب نفسه. والباعث على ذلك كله هو الجمود والعصبية، فإن الإمام الشافعى وأتباعه لم يبلغوا قط من الجهل والإهمال بحيث يفتوا خلاف الكتاب والسنة، فى حين أننا نعلم أن أنظار أئمة الشافعية كانت أوسع وأعمق بالنسبة للكتاب والسنة من أنظار فقهاء الحنفية المتأخرين وأئمة الأصول، وعدد علماء الحديث فى الشافعية كبير جدا، ولكن الجمود والتقليد هما قد يحملان على ما ذكرنا، والانسان حينما يفرط فى المحبة فيغلظ الكلام ويسىء الأدب إلى من يخالفه.

وقد حارب هذا الجمود علماء أهل الحديث فى ذلك العصر وأبلوا فى ذلك بلاء حسنا، ويمكن لنا أن نعرف هذا الجمود وآثاره الضارة

(١) النامى ص ١٢٠

(٢) نور الأنوار ص ٢٩٨

ونتائجه السيئة من كتب الحافظ ابن القيم رحمه الله[١].

وتلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية وأقرب العلماء إليه الحافظ الذهبي (م – ٧٤٨ ﻫ) يذكر البدع المذكورة ويصور موجة الالحاد العقدية فى العصر العباسى فيقول: «وفى هذا الزمان ظهر بالبصرة عمرو بن عبيد العابد وواصل بن عطاء الغزال، ودعوا الناس إلى الاعتزال والقول بالقدر، وظهر بخراسان الجهم بن صفوان، ودعا إلى تعطيل الرب عز وجل، وخلق القرآن، وظهر بخراسان فى قبالته مقاتل بن سليمان المفسر، وبالغ فى إثبات الصفات حتى جسم، وقام على هؤلاء علماء التابعين وأئمة السلف، وحذروا من بدعهم، وشرع الكبار فى تدوين السنن، وتأليف الفروع، وتصنيف العربية، ثم كثر ذلك فى أيام الرشيد، وكثرت التصانيف، وألفوا فى اللغات، وأخذ حفظ العلماء ينقص، ودونت الكتب، واتكلوا عليها، وإنما كان قبل ذلك علم الصحابة والتابعين فى الصدور، فهى كانت خزائن العلم لهم رضى الله عنهم[٢].

وكان ذلك عصر البدع العقدية، وقد ذكر الحافظ الذهبي بالايجاز جهود أئمة الحديث فى مقاومة هذه البدع، وقارن بين الفقهاء وأئمة

---

(١) «إعلام الموقعين» و«زاد المعاد» و«الطرق الحكمية» وغيرها.
(٢) تذكرة الحفاظ ١/١٥٠–١٥١

الحديث فى عصره وبين علماء السلف ، ثم أبان عن الآثار الأليمة التى ترتبت على التقليد والجمود ، ويقول بعد ذكر أبى محمد الفضل بن محمد البيهقى (م — ٢٨٢ هـ) :

« ولقد كان فى هذا العصر وما قاربه من أئمة الحديث النبوى خلق كثير ، وما ذكرنا عشرهم هنا ، وأكثرهم مذكورون فى تاريخى ، وكذلك كان فى هذا الوقت خلق من أئمة أهل الرأى والفروع ، وعدد من أساطين المعتزلة والشيعة وأصحاب الكلام الذين مشوا وراء المعقول ، وأعرضوا عما عليه السلف من التمسك بالآثار النبوية ، وظهر فى الفقهاء التقليد وتناقص الاجتهاد ، فسبحان من له الخلق والأمر ، فبالله عليك يا شيخ ! ارفق بنفسك وألزم الإنصاف ولا تنظر إلى هؤلاء الحفاظ النظر الشزر ، ولا ترمقنهم بعين النقص ، ولا تعتقد فيهم أنهم من جنس محدثى زماننا ، حاشا وكلا ، فما فيمن سميت أحد ، ولله الحمد ، إلا وهو بصير بالدين عالم بسبيل النجاة ، وليس فى كبار محدثى زماننا أحد يبلغ رتبة أولئك فى المعرفة ، فإنى أحسبك لفرط هواك تقول بلسان الحال إن أعوزك المقال : من أحمد ؟ وما ابن المدينى ؟ وأى شىء أبو زرعة وأبوداود ؟ هؤلاء محدثون ولايدرون ما الفقه وما أصوله ؟ ولايفقهون الرأى ، ولاعلم لهم بالبيان والمعانى والدقائق ، ولاخبرة لهم بالبرهان والمنطق ، ولايعرفون الله تعالى بالدليل ، ولا هم من فقهاء الملة . فاسكت بحلم أو انطق بعلم ،

فالعلم النافع هو ما جاء عن أمثال هؤلاء، ولكن نسبتك إلى أئمة الفقه كنسبة محدثى عصرنا إلى أئمـــة الحديث، فلا نحن ولا أنت، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذو الفضل، فمن اتقى الله راقب الله واعترف بنقصه، ومن تكلم بالجاه وبالجهل أو بالشر والبأو فأعرض عنه وذره فى غيه، فعقباه إلى وبال، نسأل الله العفو والسلامة[1]».

وقد ذكر الحافظ الذهبى داء عصره هذا بأسلوب يبعث على الأسف والتـــألم، ويدل على إخلاصه ونصحه للأمة، ويبين مدى ما وصل إليه الجمود واتباع الشخصية فى القرن الثامن الهجرى. وقد أثر هذا الوضع فى الحافظ الذهبى فكان على خوف منه، وكذلك كان أئمة الحديث ملمين بالعواقب والآثار التى ستترتب على هذه الحالة.

ومن الغريب أن الناس قد حاربوا أئمة الحديث فى القرن الثامن الهجرى بنفس الأسلحة التى يحاربونهم بها اليوم، وهى الآن قد كلت، فيقال: إنهم ليسوا فقهاء بل صيادلة، يجهلون الأصول والمنطق والأدلة العقلية، ولا تسمو أفكارهم إلى علم الكلام، وهكذا.

وهذه هى نفس الآلات القديمة الصدئة التى استخدمها فلاسفة اليونان ضد المتكلمين، والمتكلمون استخدموها ضد الفقهاء، والفقهاء استخدموها ضد أئمة الحديث، والآن يستخدمها المقلدون ضد الذين

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢ / ١٨٢—١٨٣

ينادون بالحرية الفكرية، ويريدون أن يلزموا الناس باتباع الأئمة الأربعة، مع أن هذا التحديد لم يأت من الله ورسوله، بل اختارته الدول والحكومات حينا بعد آخر للمحافظة على مصالحها وسلامة بلادها، ولا يوجد عليه دليل من الشرع.

والذى لا يعرف الكتاب والسنة معرفة مناسبة فله أن يستفيد من علوم الأئمة المجتهدين بدون تعيين، وإذا كان المجتهدون[1] كلهم على الحق، والصواب، فلماذا يقسم الحق؟ ولكن تعيين شخص واحد من الأئمة للاتباع لا يعنى إلا تقسيم الحق.

---

(١) قلت: إن كان يقصد أنهم مأجورون أصابوا أو أخطأوا، فهذا مسلَّمٌ به لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد[1]»، وإن قصد ما يدعيه المقلدون الجامدون أن كل مجتهد مصيب، فهذا مردود لا يستند على دليل صحيح. «ولو كان الصواب فى وجهين متدافعين ما خطأ السلف بعضهم بعضا فى اجتهادهم وقضائهم وفتواهم، والنظر يأبى أن يكون الشيء وضده صوابا كله، ولقد أحسن من قال:

إثبات ضدين معا فى حال أقبح ما يأتى من المحال[2]»

(الأستاذ على شامى)

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) صفة الصلاة ص ٤٨

ولاشك أنه يجب المنع من التلفيق ، ولكن محاولة السيطرة على نية المرء لامساغ لها ، وكذلك تفوض الغيوب والسرائر إلى الله عالم الغيب ، أو يعتمد فى ذلك على تصريف الطاقة التى هى مسئولة عن نظام البلاد وسلامتها ، ثم لا تبذل الجهود لإقفال وتعطيل العقول والأفكار الانسانية ولإهمال النظر والاجتهاد ، فإن ذلك ظلم عظيم وتحقير للإنسانية وعداء صريح للعلم والبصر .

إن الإمام الحافظ الذهبى حينما يذكر مناقب عبد الله بن مسعود وسعة علمه وما تفرد به وما اختاره ، يصور الجمود الشخصى فى عصره فيقول : « يمكن أن يجمع سيرة ابن مسعود فى نصف مجلد ، فلقد كان من سادة الصحابة وأوعية العلم وأئمة الهدى ، ومع هذا فله قراءات وفتاوى ينفرد بها ، مذكورة فى كتب العلم ، وكل إمام يؤخذ من قوله ويترك إلا إمام المتقين الصادق المصدوق الأمين المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، فيا لله العجب من عالم يقلد دينه إماما بعينه فى كل ما قال مع علمه بما يرد على مذهب إمامه من النصوص النبوية ، فلا قوة إلا بالله[1] » .

وقد تكلم العلماء فى جميع العصور ضد الجمود كثيرا ، فنجد من الأعلام الإمام أبا شامة ، والشاطبى ، والإمام ابن قدامة وغيرهم

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/١٥

ينذرون من أخطار هذا الداء، ويقول ابن القيم :

العلم معرفة الهدى بدليله ما ذاك والتقليد يستويان

إذ أجمع العلماء أن مقلدا للناس كالأعمى، هما أخوان

وإنى قد فصلت فى هذا الموضع آراء الحافظ الذهبى ووجهة نظره ، لأن أهل المذاهب المختلفة ينظرون إليه نظرة الاحترام والتقدير، ونظره هو فى التأريخ والرجال وسيع جدا ، يقول بحر العلوم فى شرحه لمسلم الثبوت عن الذهبى :

« قال الذهبى وهو من أهل الاستقراء التام فى نقل حال الرجال[1] » .

والذى كتبه الذهبى فى تصوير الجمود والتقليد كان عن البلاد التى كانت تقع مجاورة لأرض الحرم وتعرف كمراكز للعلوم الدينية . فما ظنك ببلد مثل الهند يقع بعيدا عن علوم النبوة وخلوا من الأئمة المحققين ؟

يقول الغزالى : « فإن خاض المقلد فى الحاجة فذلك منه فضول ومن اشتغل به صار كضارب فى حديد بارد وطالب لصلاح الفاسد ، وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر » ؟

الإسلام فى الهند :

من المعلوم أن الفاتحين المسلمين قد دخلوا فى الهند بطريقين ،

(١) بحر العلوم ص ٤٤١

الأول طريق السند . والثانى طريق إيران . والجيش الأول قد وصل تحت إمارة محمد بن قاسم فى نهاية [١] القرن الأول . ولم يكن أحد من الأئمة الأربعة سوى الامام أبى حنيفة قد ولد فى ذلك الوقت ، وكان ذلك العصر عصر التلمذة والتعلم للامام أبى حنيفة ولم يصل إلى درجة الامامة بعد ، ومعنى ذلك أن هذا الجيش كان عاملا بالكتاب والسنة على مذهب أهل الحديث اليوم ، بعيدا عن التفرقة الدينية ، وكان الناس فيه يستفتون أهل العلم بدون تحديد وتعيين ، ولذلك لم توجد فيهم العصبية . أما الهجوم الثانى فكان من ناحية إيران ، وهؤلاء الفاتحون كانوا على مذهب الحنفية على الأغلب ، وعلى أيديهم انتشر المذهب الحنفى فى الهند وقوى ، وهذا هو سبب كثرة الأحناف فى البلاد إلى اليوم ، وتوجد فيهم العصبية الطائفية أيضا ، إلا من رحم .

---

(١) إن الهجوم الأول على الهند قد وقع فى سنة ٩٢ هـ ، وكان الخليفة إذ ذاك الوليد بن عبد الملك ، وكان الحجاج بن يوسف حاكما ، ومحمد بن قاسم قائدا للجيوش ، وغزوات محمد بن قاسم هذه قد استمرت إلى سنة ٩٥ هـ ، وقد وصلت جيوشه من ملتان إلى قنوج . أما الهجوم الثانى فقد كان من السلطان محمود الغزنوى فى القرن الرابع الهجرى ، وكانت المذاهب الأربعة قد انتشرت فى ذلك الوقت إلى حد ما ، والحكومة قد انتقلت بعد الغزنويين إلى الغوريين .

وكانت هذه المناطق على بعد شاسع عن المركز الاسلامى وخالية من العلوم الدينية وآثارها النافعة ، وكان العلماء فيها يفضلون الهجرة إلى الحجاز والاقامة فيها ، وفى هذه الظروف لايستبعد الجمود فى مثل هذه المناطق وتنفّر العامة من التحقيق والاجتهاد ، بل الجمود طبيعى فيها ، فلايستغرب لوكانت الحالة الدينية لشبه القارة الهندية الباكستانية أسوء من التى ذكرها الحافظ الذهبى . فكانت الدول جاهلة عن الدين ، وابتعد الحكام وعامة النـــاس عن تعاليم الاسلام ، وتنازل العلمـــاء والفقراء من مكانتهم الخاصة بهم وحادوا عن طريقهم .

وبعد العلامة الصغانى (م ــ ٦٥٠ ه) لا نرى هنـــا إلا عددا ضئيلا جدا للعلماء المحققين ، ومنهم الشيخ على المتق (م ــ ٩٧٥ ه) والشيخ محمـــد طاهر الفتنى الشهيـــد (م ــ ٩٨٦ ه) وأخيرا الشيخ عبـــد الحق الدهلوى (م ــ ١٠٥٢ ه) ومن الطبيعى أن البلد الذى يحكمه ملك فاسق مثل الأكبر ، وتسيطر على نظامه أسرة الملا مبارك ، و يحصل التشجيع للفجور والفواحش من قبل الدولـة ، كيف تتحرر فيه العقول من أغلال التقليد والجمود ، وكيف تنطلق فيـه الأفكار ، وكيف يستطيع لفيف من العلماء المخلصين من مقاومة موجات البدع والشرك والالحاد ؟

وكان وجود الشيخ عبد الحق (م ــ ١٠٥٢ه) فى العصر المتأخر من المغتنمات ، وكان هو محدث عصره ، وعلى يديه انتشر علم الحديث

فى مدينة دهلى وضواحيها . كان عالما بالرجال مع عدم تثبته فى نقل الروايات ، ولعله كان الوحيد بعد الإمام السيوطى فى عدم الاحتياط والتثبت ، وكتابه « مدارج النبوة » جامع للسيرة ولكنه فى نفس الوقت يزخر بالضعاف والموضوعات ، ثم إنه لايريد أن يتكلم بصراحة ضد مخترعات التصوف وبدع عصره بل يبدو أنه يؤيد ذلك ويميل إلى الظواهر والقشور .

والذى يدل على غرابة اتجاهاته أنه فى شرحه لكتاب « سفر السعادة » الذى يعد نموذجيا فى علم الحديث وفى التحقيق والاستنباط ، قد بذل جهودا كبيرة لأن يجعله ملائما لاتجاه الجمود وعدم الانطلاق ، وحيث كانت حال كبار المحدثين هكذا فماذا نتوقع وننتظر من الجهود التجديدية لشيخ الإسلام ابن تيمية والآثار النقدية لتلميذه ابن القيم رحمهما الله ؟ وحقا يشكو مولانا عبد الحى اللكنوى رحمه الله من الاستعمال الخاطىء لكلمة « شيخ الإسلام » فينقل كلام الحافظ السخاوى و يؤيده : « ثم اشتهر بها جماعة من علماء السلف ، حتى ابتذلت على رأس المائة الثامنة ، فوصف بها من لايحصى ، وصارت لقبا لمن ولى القضاء الأكبر ، ولو عرى عن العلم والسنن ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قلت : ثم صارت لقبا لمن تولى منصب الفتوى وإن عرى عن لباس العلم والتقوى[١]» .

ولا يخفى دروس العلم وانحطاطه فى نهاية القرن الثالث عشر الهجرى ، فكل ما يهم الناس الألقاب والمناصب لا التقوى والعلم ، ومن الطبيعى أن العلم كلما ينقص يزداد الجمود ، ويتكل الناس على غيرهم ، ونظرا إلى الحاجة سواء نسمى هذه الحالة بالواجب أو المباح ولكنها لا تعدو إلا أن تكون مظهرا للجهل وأثرا من آثاره ، ولذلك تركز الاهتمام فى ذلك العصر حول الألقاب والأسماء .

وبعد جهود شيخ الإسلام ابن تيمية الاصلاحية قد حلت البدع العملية محل البدع العقدية ، وقد استعيرت العادات والتقاليد عند مناسبة الموت والزواج من الهنادك ، وقد خيمت هذه الظلمة على قصور الملوك و بيوت الفقراء على حد سواء ، وانصرف هم العلماء إلى طلب الحيل وتصيدها ، وصار تأجيل الأحكام الشرعية من أهداف الفقه . ومن المحاولات الدينية الأخيرة تدوين الفتاوى العالمكيرية ، وهى ليست إلا عبارة عن جمع الآراء المعينة التى استند إليها الناس بحماية من الدولة .

وفيما سبق قد استمعتم إلى الذهبي يشتكى من عصره وبيئته وما فيها

---

(١) الفوائد البهية ص ١ ١

من الجمود وتقليد الإمام المعين ، وكانت وفاته فى سنة (٧٤٨ هـ) ، وإنه قد حكى — طبعا — عن عصره وما وجد فيه من انصراف الناس عن التحقيق إلى التقليد ، ومن أنهم يعتمدون على فهم غيرهم وعلمهم ويعيشون متكلين على الآخرين ، بدل أن يعملوا أفكارهم ويعتمدوا على علومهم .

ومن الطبيعى أن القوى الذهنية والطاقات الفكرية إذا لم تستخدم فإنها تترك عملها و وظيفتها ثم تتعطل ، ولذلك نرى أن بدأ العلم والفقه ينقصان من بعد أئمة السلف ، وقد ضعفت الذاكرة كثيرا بسبب الكتابة وتقييد العلم ، بحيث صار الناس يستغربون إذا ذكرت لهم ذاكرة الحفاظ المحدثين المتقدمين واستنباطات الفقهاء وبصيرتهم فى العلم والاجتهاد .

وكل ذلك بسبب الجمود ، فهو الذى قد حمل كبار أهل العلم على الشعور بالنقص فى نفوسهم . ولكن مع سيطرة موجة الجمود على العقول والأذهان نجد أعلاما ينظرون بأنظارهم ، ويفكرون بعقولهم ، ويعتمدون فى فهم العلوم النقلية على علمهم وفراستهم ، ولا يشعرون بحاجة إلى تقليد أحد من العلماء والأئمة ، وحقا كان موقفهم .

كتاب تذكرة الحفاظ للذهبى :

إن الحافظ الذهبى قد صنف فى علم الرجال كتابين مهمين ،

وهما : ميزان الاعتدال ، وتذكرة الحفاظ . أما الميزان فيذكر فيه على الأغلب الرواة الضعفاء والمجروحين . أما تذكرة الحفاظ فيحتوى على أربعة أجزاء ، وقد ذكر فيها الحفاظ ، ولهم إحدى وعشرون طبقة . والمجلدان الأولان من الكتاب يحتويان على عشر طبقات ، والآخران عل إحدى عشرة طبقة ، وكل ذلك إحدى وعشرون طبقة . وهكذا قد تناول تراجم (١١١٩) نفرا من الأئمة ، ومنهم من ذكر أصالة ومن ذكر تبعا . ولم يلتزم الحافظ الذهبي فى كتابه بذكر مذهب جميع الأئمة والحفاظ ، ولكن نظرا إلى أن كتابه يتناول تراجم أئمة الحديث فإنه قد يشير — ولو إشارة عابرة — إلى أن الإمام الفلانى كان لايحب التقليد ، والإمام الفلانى كان يكره أهل الرأى ، والإمام الفلانى قد نشر فى بلاده مذهب أهل الأثر . ونظرة عابرة إلى تذكرة الحفاظ ترينا أنه كان يوجد هناك حتى عصر الإمام الذهبى (٧٤٨هـ) أناس يبتعدون عن التقليد الشخصى والجمود ، ويحاولون فهم الكتاب والسنة مباشرة ، مثل الصحابة والتابعين وأئمة السلف . إنهم كانوا يرفعون نفوسهم عن مضايق الجمود ، وكان عددهم كبيرا فى كل عصر ، وكان الناس يحترمونهم ويعتبرونهم أساتذة يتلقون منهم علوم السنة .

ونثبت هنا كشف الأئمة المحققين مع سنى وفاتهم نقلا عن تذكرة الحفاظ ، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكانى والتاج المكلل للنواب صديق حسن خان ، وبهذا الكشف نريد توضيح

أمرين: الأول أن نظرية ترك التقليد واتباع طريقـة السلف ليست جديدة، بل اختارها كبار العلماء وفحولهم.

والثانى أنه لم ينعقد إجماع قط على التقليد الشخصى بل كان أهل العـلم فى كل عصر ينشدون التحقيق ويحبون التفحص. وتسمية هذا المذهب بـ «الوهابية» كذب محض وافتراء عظيم، فالمركز الرئيسى للوهابيين نجد والحجاز، ومعظمهم السلفيون على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل، ومنهم العلماء الذين أخذوا علم الحديث من الهنـد أو استفادوا من الحافظ الشوكانى والعلامة حيـاة السندهى فى الحديث. فكأن الوهابيين أيضا قد أخذوا مذهب أهل الحديث من الهند أو اليمن والحجاز. والعجب أن بعض كبار العلماء الديو بنديين أيضا لايخافون الكذب فى استخدام هذا اللقب، إن البريلويـة ترميهم بالوهابيـة، وهم ينتقمون فى ذلك من أهل الحديث.

ومن المتفق عليه أن تقليد الأئمة لم يكن منتشرا إلى القرن الثالث الهجرى، بل إنه قد تم انتشاره بطريقة عامة بعد القرن الرابع، كما صرح به الشاه ولى الله الدهلوى، لكن باب الاجتهاد لم ينسد لدى الأئمة المحققين حتى فى ذلك الوقت، فالإمام الذهبى يذكر فى تراجم أئمة عديدة أنهم كانوا مجتهدين، وأحيانا يقول: «كان لايقلد أحدا» وأحيانا يقول: «لم يكن يعلم أهل الرأى، وغير ذلك».

فهرس الأئمة المحققين مع السنين:

بقي بن مَخلد (٢٠٦ ﻫ) أحمد ابن أبي عاصم (٢٨٧ ﻫ) قاسم ابن محمد الأندلسى (٢٧٦ ﻫ) الحافظ ابن خزيمة (٣١٠ ﻫ) العلامة ابن المنذر (٣١٨ ﻫ) حسين بن محمد السنجى (٣١٥ ﻫ) الحافظ أبو يعلى (٣٤٦ ﻫ) حسن بن سعد القرطبى (٣٢١ ﻫ) ابن شاهين (٣٨٥ ﻫ) الحافظ محمد على الساحلى (٤٤١ ﻫ) الامام الحميدى (٤٨٨ ﻫ) محمد بن طاهر المقدسى (٥٠٧ ﻫ) الامام العبدرى (٥٤٤ ﻫ) أبو زرعة بن محمد (٥٦٦ ﻫ) الحافظ ابن الرومية (٦٣٧ ﻫ). شيخ الاسلام ابن تيمية (٧٢٨ ﻫ) الحافظ مجد الدين الفيروزآبادى صاحب القاموس (٨١٧ ﻫ) محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسى (٧٤٥ ﻫ) الشيخ شهاب الدين (٩٥١ ﻫ) السيد يحيى بن حسين (١٠٨٠ ﻫ) صالح بن محمد الحميدى المقبل (١١٠٨ ﻫ) عبد القادر بن على البدرى (١١٦٠ ﻫ) السيد محمد بن إسماعيل الأمير اليمانى (١١٨٢ ﻫ).

ويجب هنا ملاحظة أسماء هؤلاء الأئمة مع سنى وفاتهم، وأنهم مع تركهم للتقليد يعدون من الأئمة، ونحن جميعا نستفيد من علومهم فى نقل الروايات ونعتمد على ما نقلوه إلينا فى كتب الحديث، ونوقن

بعلومهم فى مصادر الاستدلال والفروع الفقهية ، فكيف يسوغ الطعن على أحد إذا لم يقلد إماما من الأئمة الأربعة ، رضوان الله عليهم ؟ ولماذا يسخط عليه علماء البريلوية والديوبندية ، ويتنابزونه بألقاب شتى ؟ إن هذا المذهب ليس أقل فى القدم ألبتة من مذاهب الأئمة الأربعة ، رحمهم الله بل الحق أن هؤلاء الأئمة قد استفادوا فى مذاهبهم من أئمة الحديث .

وتدلنا الشواهد التاريخية على أن مسلك أئمة الحديث كان هو السائد أولا فى بلاد خراسان وإيران واليمن والجزائر والبربر والمغرب الأقصى ، والمذاهب الفقهية الحالية قد تم لها السيطرة بسبب الحكم أو بطرق أخرى . أما كيفية انتشار المذاهب المختلفة فى الأقطار العديدة فهذا موضوع آخر مستقل بذاته ، ونرى بيانا مفصلا فى مقدمة ابن خلدون ، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى (من ص ١٤١ إلى ١٦٣) عن انتشار مذاهب الشيعة وأهل السنة وعن العوامل التى ساعدت فى هذا الانتشار . والمقريزى قد ذكر الأئمة والملوك بأسمائهم الذين أسهموا فى نشر المذاهب المنتشرة الآن مع عصورهم ، وكذلك قد ذكر الشيعة وتعسفهم فى نشر مذاهبهم فى مصر وضواحيها ، وبذلك يتبين قدم مذهب السلف وأسباب غربته لدى الناس .

نور فى الظلمات:

يبدو أن القرن الثانى عشر الهجرى كان زمن رحمة الله الخاص، ففى هذا العصر نرى يقظة فى العالم الإسلامى، ونشعر بأن أشعة من النور تبدد الظلام الحالك السائد حينا بعد آخر.

وقد ظهر فى البلاد العربية حركة نجدية يقودها الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى رحمه الله.

وقد رفع السيد جمال الدين الأفغانى صوته فى إيران، فوصل صداه إلى مصر والاسكندرية والقسطنطينية.

وقبل ذلك بقليل قد سعد حظ الهند واستيقظت فيها القوى الكامنة للهداية والرشد، وكانت بداية هذه اليقظة على يد السيد أحمد السرهندى رحمه الله فى القرن الحادى عشر الهجرى، فحارب ضد البدع محاربة علنية، وكانت حيلة تقسيم البدعة مستمرة منذ زمن العز بن عبد السلام وكان الناس يحتالون لتبرير البدع بتسميتها بالحسنة، ولكن المجدد السرهندى قد فند هذا الزعم وأتى عليه من بنيانه وصرح بأن النبى ﷺ كان يكره جميع البدع فليس لأحد أن يسميها بالحسنة، ولا تسمى فى الشرع بدعة حسنة.

والدليل الصادق على حب النبى ﷺ هو حب سننه، والمبتدع مهما كان عابدا زاهدا لا يستحق أى احترام فى حضرة النبوة.

وجهود المجدد السرهندى كانت أنفع بكثير من الحركات المصطلحة اليوم نظرا إلى الآثار والعواقب التى ترتبت عليها.

ومن المعروف أن مجدد الألف الثانى والشاه ولى الله والشاه عبد العزيز رحمهم الله لم ينشئوا حركة مصطلحة[١] يرأسونها ويكون لها أعضاء وأنصار فى أقطار البلاد، يعملون بجد ونشاط. بل كان كل منهم علم نور يسلط أضواءه على ما حوله. كان الناس يتأثرون بهم، ويبلغون تعاليمهم إلى غيرهم باحتساب وإخلاص. وعلى ذلك إذا وردت كلمة «الحركة» فى كتابتنا هذه فلا نعنى بها معناها المصطلح اليوم الذى هو عبارة عن تكوين مجلس واختيار أعضاء له وغير ذلك، بل نقصد بها معناها القديم، وهو أن يقوم أحد لرفع راية الصدق، والناس ينضمون إليه، كما أن المصباح يضيىء فيلتف حوله الفراش. إن الوسائل تستخدم حسب الظروف فى كل وقت. وإنى أرى أن عمل الدعوة الدينية كان على هذا المنهاج منذ المجدد السرهندى إلى عصر السيد أحمد الشهيد والشاه اسماعيل الشهيد، كان الفرد العادى يشعر بمسئوليته ويخلص العمل لتحقيق أهدافه، كما

---

(١) وقد أطلق الشيخ عبيد الله السندى رحمه الله على الشاه ولى الله رحمه الله اسم مؤسس حركة بالمعنى المصطلح، ولكن هذا من خياله الحضرى ومن الوهم الذى لم يقم عليه دليل.

كان يشعر بذلك رجل كبير من أهل المسئوليات الجسيمة، وكان هذا هو سر نجاحهم.

مكونات حركة الشاه ولى الله واتجاهها:

العناصر المهمة لهذه الحركة كما يأتى: الشيخ أحمد الفاروقى مجدد الألف الثانى رحمه الله، القاضى ثناء الله البانى بتى، الميرزا مظهر جانجانان، الشيخ فاخر زائر الإله آبادى، غلام على آزاد البلكرامى، الشاه ولى الله، الشاه عبد العزيز، الشاه رفيع الدين، الشاه عبد القادر، الشاه عبد الغنى، السيد أحمد الشهيد، الشاه اسماعيل الشهيد، الشيخ عنايت على، الشيخ ولايت على، الشيخ عبد الحى البدهانوى. ومن هؤلاء من ينتمى إلى الحنفية عملا وإلى أهل الحديث عقيدة، ومنهم من ينتمى إلى الحنفية فى العقيدة والعمل ومنهم من ينتمى إلى أهل الحديث عقيدة وعملا، ولكن الذى يشترك فيه الجميع هو أنهم لم يبرزوا هذا الاختلاف قط.

وقد مال القاضى ثناء الله فى تفسيره المظهرى إلى الفقه الحنفى ولكنه مع ذلك لم يسالم قط مع المبتدعين ولم يداهن فى الرد على البدع، ورأيه واضح جدا فى كتابه: «إرشاد الطالبين» فى مسألة عبادة القبور وتجصيصها وإضاءة المصابيح عليها وإنارتها، إنه لم يكن مداهنا مثل الديوبنديين اليوم، فبعض كبار علماء ديوبند يميلون اليوم

إلى البريلوية ، ويحاولون إرضاء أهل البدع أكثر من إرضاء أهل التوحيد وأصحاب السنة ! ﴿والله و رسوله أحق أن يرضوه ، إن كانوا مؤمنين﴾ .

نظرة إلى أهداف هؤلاء العلماء :

١ — مع تمسكهم بالمذهب الحنفى كانوا يكرهون الجمود الفقهى والعصبية .

٢ — يتوسعون فى المسائل الخلافية لدى الأئمة ، ولم يكن يسخطهم العمل بمذهب من هذه المذاهب .

٣ — يكرهون البدع وينكرونها إنكارا شديدا .

٤ — لايرون المسالمة مع الشيعة إلا أن يغيروا موقفهم تماما مع الصحابة رضوان الله عليهم ، والذى يشهد على ذلك هو رسائل المجدد السرهندى ، وكتاب « إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » للشاه ولى الله ، و « تحفة الاثنى عشرية » للشاه عبد العزيز ، ففى هذه الكتب انتقد مؤلفوها مذهب الشيعة ولم يداهنوا فى هذا النقد .

٥ — إنهم متأثرون بالتصوف ، ولكن يتنفرون من بدعه وعاداته .

٦ — يرون أهل السنة منقسمين فى قسمين : أهل الحديث وأهل الرأى ، فالطائفتان من أهل السنة ، ولكن الشاه ولى الله يحب طريق فقهاء أهل الحديث أكثر ، كما سيأتى .

وقـد جعل الشيخ أبو منصور عبد القاهر الدمشقى أيضا أهل الحديث وأهل الرأى كليهما من أهل السنة فى مواضع من كتابه « الفرق بين الفرق » وهكذا فعل العلامة عبـد الكريم الشهرستانى.

٧ — وهذه الطائفـة لا تريد السيطرة السياسية، ولكنـه إذا ساد الإلحاد فيفضلون مقاومته بدل أن يجلسوا ساكتين مسالمين مع الذين يساندون هذا الإلحاد.

نظرية أصحاب دهلى:

إن الشاه ولى الله يعتبر طريقة الجماعتين فى الأمة صحيحة، ويكره الغلو والتعصب لشخص معين فيقول:

« ليعلم أن السلف اختاروا طريقتين لاستنباط المسائل والفتيا، الأولى: أن يجمع الكتاب والسنة وآثار الصحابة وتستنبط منها المسائل، وهذه هى طريقة المحدثين. والثانية: أن تحفظ القواعد الكلية التى دونها الأئمة وجمعوها بدون الالتفات إلى مصادرها، ثم تطلب وتستخرج منها الإجابة فى المسائل التى ترد، وهذه هى طريقة الفقهاء. وكان فى السلف من يأخذ بالطريقة الأولى، ومن يأخذ بالطريقة الثانية[١] ».

ثم فصل الطريقتين فى حجة الله البالغـة وكيفية العمل بهما

---

(١) المصفى ١ / ٤

بإيضاح تام، وذكر فيه كتابة الحـديث وجمعه وتأليفه والفقهاء المحدثين فقال :

« فرجع المحققون منهم بعد إحكام فن الرواية ومعرفة مراتب الحديث إلى الفقه، فلم يكن عندهم من الرأى أن يجمع على تقليد رجل ممن مضى مع ما يرون من الأحاديث والآثار المتناقضة فى كل مذهب من تلك المذاهب، فأخذوا يتتبعون أحاديث النبى ﷺ وآثار الصحابة والتابعين والمجتهدين على قواعد أحكموها فى نفوسهم[1]» .

ثم ذكر بعد ذلك بالإيجاز قواعد المحدثين التى يعول عليها فى التطبيق بين النصوص أو استنباط المسائل، وهذه القواعد قد وضعت عملا بأثر لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، يقول القاضى شريح : إن عمر رضى الله عنه كتب إليه :

إن جاءك شىء فى كتاب الله فاقض به، ولا يلفتك عنه الرجال، فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله فانظر سنة رسول الله ﷺ فاقض بها، فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله، ولم يكن فيه سنة رسول الله ﷺ فانظر ما اجتمع عليه الناس خذ به، فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله، ولم يكن فيـه سنة رسول الله ﷺ، ولم يتكلم فيـه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت، إن شئت أن تجتهد برأيك ثم تقدم فتقدم،

---

(١) حجة الله البالغة ١ / ١٤٩

وإن شئت أن تتأخر فتأخر ، ولا أرى التأخير إلا خيرا لك[١]» .

ثم يذكر الطائفة الأخرى (أهل الرأى) فيقول :

« وكان بإزاء هؤلاء فى عصر مالك وسفيان وبعدهم قوم لايكرهون المسائل ، ولايهابون الفتيا ويقولون : على الفقه بناء الدين ، فلابد من إشاعته » .

ويقول فى الختام :

« فوقع تدوين الحديث والفقه والمسائل من حاجتهم بموقع من وجه آخر ، وذلك أنه لم يكن عندهم من الأحاديث والآثار ما يقدرون به على استنباط الفقه على الأصول التى اختارها أهل الحديث ، ولم تنشرح صدورهم للنظر فى أقوال علماء البلدان وجمعها والبحث عنها ، واتهموا أنفسهم فى ذلك ، وكانوا اعتقدوا فى أئمتهم أنهم فى الدرجة العليا من التحقيق ، وكان قلوبهم أميل شىء إلى أصحابهم[٢]» .

ثم ازدادت الحال سوء وظهرت طائفة يذكرها الشاه ولى الله فيقول :

« ومنها أنهم اطمأنوا بالتقليد ، ودب التقليد فى صدورهم دبيب النمل وهم لايشعرون[٣]» .

---

(١) المصدر السابق

(٢) حجة الله البالغة ١ / ١٥٢

(٣) " " ١ / ١٥٣

ويذكر الشاه ولى الله لهذا الانحطاط أسبابا فيقول:

١ – «وكان سبب ذلك تزاحم الفقهاء وتجادلهم فيما بينهم، فإنهم لما وقعت فيهم المزاحمة فى الفتوى، كان كل من أفتى بشىء نوقض فى فتواه، ورد عليه. فلم ينقطع الكلام إلا بمسير إلى تصريح رجل من المتقدمين.

٢ – جهل رؤس الناس واستفتاء الناس من لا علم له بالحديث ولا بطريق التخريج.

٣ – «أن أقبل أكثرهم على التعمقات فى كل فن[1]».

ثم يتكلم عن الآثار التى ترتبت على الحالة المذكورة فيقول:

«فكذلك أعقبت هذه جهلا واختلاطا وشكوكا ووهما ما لها من أرجاء، فنشأت بعدهم قرون على التقليد الصرف لا يميزون الحق من الباطل ولا الجدل عن الاستنباط، فالفقيه يومئذ هو الثرثار المتشدق الذى حفظ أقوال الفقهاء قويها وضعيفها من غير تمييز، وسردها بشقشقة شدقيه، والمحدث من عد الأحاديث صحيحها وسقيمها وهذها كهذ الأسمار بقوة لحييه».

وختاما يقول:

«ولم يأت قرن بعد ذلك إلا وهو أكثر فتنة وأوفر تقليدا وأشد

---

(١) حجة الله البالغة ١/١٥٣

انتزاعا للأمانــة من صدور الرجال حتى اطمأنوا بترك الخوض فى أمر الدين وبأن يقولوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون[١]﴾ والى الله المشتكى[٢]».

نتيجة هذا التصريح:

١ – إن أهل الحــديث وأهل الرأى مدرستان فكريتان، وكلتاهما معروفتان لدى أهل العلم.

٢ – وفى رأى الشاه ولى الله لم تبق أى مدرسة منهما فى المكانــة الأصلية فى هذا العصر.

٣ – قد سرت موجة التقليد والجمود فى متأخرى أهل الرأى بدل الاستدلال والاستنباط. وهذا يراه الشاه ولى الله غير ملائم.

٤ – إن أهل الحديث أيضا قد أهملوا علم الحديث، ولا يزاولونه إلا كعادة، إنهم لا يرمون إلى الاستنباط والاجتهاد ولا يحاولون التفقه والفهم.

هدف الشاه ولى الله:

إنه يهدف إلى أن تتمسك المدرستان بالحق والحقيقة، وتبنيان على الكتاب والسنة بدل آراء الأئمة الكبار، ويتجنب أهل الحديث

---

(١) الزخرف: ٢٣

(٢) حجة الله البالغة ١/١٥٤

من الظاهرية ويميلوا إلى التفقه، فيقول فى التفهيمات: ومنها إنى أقول لهؤلاء المسلمين أنفسهم بالفقهاء الجامدين على التقليد يبلغهم الحديث من أحاديث النبى ﷺ بإسناد صحيح، وقد ذهب إليه جمع عظيم من الفقهاء المتقدمين، ولا يمنعهم إلا التقليد لمن يذهب إليه، وهؤلاء الظاهرية المنكرون للفقهاء الذين هم طراز حملة العلم وأئمة أهل الدين، إنهم جميعا على سفاهة وسخافة رأى وضلالة، وإن الحق بين بين[1]».

وبهذه العبارة قد انتقد الشاه ولى الله الطائفتين بصراحة وأرشد للقضاء على الجمود إلى طريقة واضحة سليمة، رحمه الله رحمة واسعة.

ويقول بصراحة أكثر:

«وأشهد لله بالله أنه كفر بالله أن يعتقد فى رجل من الأمة ممن يخطىء ويصيب أن الله كتب علىّ اتباعه حتما وأن الواجب علىّ هو الذى يوجبه هذا الرجل، وإن الشريعة الحقة قد ثبت قبل هذا الرجل بزمان[2]».

وهنا قد عبر الشاه ولى الله عن التقليد الشخصى والجمود بالكفر بالله، إنه لا يسلم لأحد أن يبلغ منزلة يقلده الناس عندها، إنه يرى فى التقليد انسدادا للذهن وعائقا للفكر فيقول بصراحة تامة: «وترى

---

(١) التفهيمات ٢٠٩/١

(٢) « ٢١١/١

العامة سيما اليوم فى كل قطر يتقيدون بمذهب من مذاهب المتقدمين ، يرون خروج الانسان من مذهب من قلده ولو فى مسألة كالخروج من الملة ، كأنه نبي بعث إليه وافترضت طاعته عليه ، وكان أوائل الأمة قبل المائة الرابعة غير متقيدين بمذهب واحد[١]» .

وفى موضع آخر من التفهيمات اشتدت لهجته حينما يذكر الصوفية والعلماء فيقول : « نحن لا نرضى بهؤلاء الذين يبايعون الناس ليشتروا به ثمنا قليلا أو يشوبوا أغراض الدنيا بتعلم علم إذ لا تحصل الدنيا إلا بالتشبه بأهل الهداية ولا بالذين يدعون إلى أنفسهم ويأمرون بحسب أنفسهم ، هؤلاء قطاع الطريق ، دجالون ، كذابون ، مفتونون ، فتانون ، إياكم وإياهم ، ولا تتبعوا إلا من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله ولم يدع إلى نفسه[٢]» .

ثم يخاطب طلاب العلم فيقول : « ورب إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به و يقول إنما عملى على مذهب فلان لا على الحديث ، ثم احتال بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن الكمل المهرة ، وإن الأئمة لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث فما تركوه إلا لوجه ظهر لهم فى الدين من نسخ ومرجوحية[٣]» .

---

(١) التفهيمات ١٥١/١

(٢) " ٢١٤/١

(٣) " ٢١٥/١

ويقول كنتيجة لذلك : « هذا ليس من الدين ألبتة ، فاتبعوا محمدا ﷺ وحده سواء كان مخالفا للمذهب أو موافقا له ، هذا هو رضا الله بأن تتبعوا كتاب الله وسنة رسوله إلخ » .

وفى الظاهر يستأنس الشاه ولى الله بالفقه الحنفى ، ومذهب أسرته — على الأغلب — الفقه العراقى ، ولكنه فى نفس الوقت يهاجم هذا النظام الفقهى مهاجمة عنيفة لأنه يكره الجمود والفقه التوقيفى فيقول فى كتابه « قرة العينين » عند ذكر مناقب الشيخين (أبوبكر وعمر رضى الله عنهما) : « والحقيقة أن الخلاف قد بدأ بعد عصر الشيخين . وأصل المذاهب الأربعة هو ما أجمع عليه الشيخان ، ولكنه لايمكن أن يقال هذا الكلام لمن لا يكون مبلغه من العلم سوى القدورى والوقاية[1] » .

ويقول فى موضع آخر بنفس الأسلوب : ولايمكن أن يفهم هذه النكتة من يقرأ شرح الوقاية والمنهاج ، بل هى تحتاج إلى عالم متبحر[2] » .

ونرى أنه يهدف إلى أن الثقة والتفوق اللذين تحظى بهما متون الفقه وشروحها مرجعهما إلى حب الأئمة ومؤلفى هذه الكتب والثقة بعلومهم ، ولكن يجدر أن يكون هذا الاعتماد والثقة بالنسبة

---

(١) قرة العينين ص ١٣٤

(٢) ،، ص ١٣٥

للصحابة وخاصة للشيخين رضى الله عنهم و رضوا عنه.

وقد ورد هذا الذكر بنفس الأسلوب فى «إزالة الخفاء»، وليس هذا النظام الفقهى وهذا التقليد — كما يرى الشاه ولى الله — سوى جهود فردية، وليس لها أهمية أساسية، فالبحث عن وجوبها وفرضيتها بحث لا طائل فيه ولا معنى، نعم إنهم كانوا علماء صالحين، ويحسن أن نستفيد من علومهم حسبما نستطيع.

ومثل هذه التصريحات قد استغرقت عدة صفحات من كتابه حجة الله البالغة، بل يبدو فى بعض المواضع أنه قد فصل وشرح فى حجة الله بعض ما أجمله فى التفهيمات.

أصول الفقه:

لاشك فى أن فضل تأسيس أصول الفقه وتدوينها يرجع إلى علماء أهل الحديث وخاصة إلى الامام الشافعى رحمه الله، وفى الأغب أخذت هذه الأصول من القرآن والحديث ولغة العرب والعقل السليم.

وقد ورد ذكر مأثرة الامام الشافعى هذه فى كتاب أبجد العلوم للنواب صديق حسن خان وكشف الظنون لحاجى خليفة والفهرست لابن النديم وغيرها، وقد ذكر هذا العلم الشاه ولى الله أيضا فى كتابه حجة الله [1] وغيره. وأصول الفقه وكذلك أصول الحديث مثل

(١) ١١٧/١

المنطق، فالمكانة التى تحتلها أصول الحديث فى تصحيح الحديث وتضعيفه، وأصول الفقه فى استنباط الجزئيات الفقهية هى نفس المكانة التى يحتلها المنطق فى العلوم العقلية. وقد أسس هذا العلم الإمام الشافعى، ولكن إسهام فقهاء الحنفية فى هذا الباب كبير جدا، حتى إنهم قد انتقدوا بفضل هذا العلم مؤسسه الإمام الشافعى انتقادا شديدا فى بعض المواضع. ومن الصحيح أن ثقة الفقه وأهميته يتوقفان على أصول الفقه. وقد انتقد الشاه ولى الله الفقه وأصوله معا وأزال الستار وكشف عن حقيقتهما فيقول فى قرة العينين[1]:

« إن الحنفية قد وضعوا لأحكام مذهبهم أصولا مثل « الخاص مبين فلا يلحقه البيان » و « العام قطعى كالخاص » و « المفهوم المخالف غير معتبر » و « الترجيح بكثرة الرواة غير معتبر » و « الزيادة على الكتاب نسخ » الخ.

وبنفس الأسلوب قد تكلم الشاه عبد العزيز فى الفتاوى العزيزية[2] مع تفصيل أكثر ولهجته أشد من لهجة الشاه ولى الله، يقول: « ومن اللطائف التى قلما ظفر بها جدلى لحفظ مذهبه ما اخترعه المتأخرون لحفظ مذهب أبى حنيفة، وهى عدة قواعد يردون بها جميع ما يحتج بها عليهم من الأحاديث الصحيحة ».

---

(١) ص ١٨٦

(٢) ١ / ٦٢

وبعد ذلك ذكر الشاه عبد العزيز نحو تسع قواعد، منها ما ذكره الشاه ولى الله، وأنا تركتها خوفا من الإطناب، فعلى من يطلب الحق أن يراجع الفتاوى العزيزية[١].

وقد انتقد الشاه ولى الله فى كتابه حجة الله البالغة أصول الفقه انتقادا شديدا، ويقول فى باب «حكاية حال الناس قبل المائة الرابعة وبعدها» ذاكرا التقليد وانتشاره: «وبعضهم يزعم أن بناء المذاهب على هذه المحاورات الجدلية المذكورة فى مبسوط السرخسى والهداية والتبيين ونحو ذلك، ولا يعلم أن أول من أظهر ذلك فيهم المعتزلة[٢]».

وبعد ذلك ذكر قواعد أصول الفقه العديدة وما يترتب عليها من الآثار فى إنكار الحديث ورفضه، ثم أورد عليها نقدا ومعارضة بأسلوب جزل وأثبت أن الحنفية أنفسهم لا يتبعون هذه القواعد، وهذه المباحث مستغرقة عدة صفحات، والباحث الذى يطلب الحق فى حاجة إلى أن يطالعها بتدبر وروية.

والذى أريد أن أقوله هو أن الشاه ولى الله كما لا يعتبر الدين والشريعة محصورين فى الفروع، فكذلك لا يرى أصول الفقه أصولا خالدة أبدية، إنها مجرد جهود علمية بذلها العلماء للحفاظ على مذاهبهم،

(١) ١ / ٦٢

(٢) حجة الله البالغة ١ / ١٦٠

فلا يلزم الكفر من إنكار الفروع، ولا الخلل فى الأمانة من رفض أصول الفقه.

موقف الشاه ولى الله من الفروع:

إن الشاه ولى الله وأصحابه إذ يكرهون الجمود فى العقائد والأصول وفى الالتزام بمذهب معين من المذاهب الفقهية، يريدون أن يعمل الناس بالشرع وفق المذاهب الأربعة وأئمة الحديث بدون التزام وتقيد، كما نراه أنه مع تمسكه فى الظاهر بالمذهب الحنفى كان يرجح عمل المحدثين والشافعية ويرضاه.

ونرى فى هذه الأيام أن الأغلبية من الديوبنديين تظهر احترامها واعتقادها للشاه ولى الله وأسرته ولكن موقفهم وعملهم ينافيان تماما موقف الشاه ولى الله وأسرته وأصحابه، وكأنه لم يبق هناك فرق اليوم بين الديوبندية والبريلوية، والخلاف الذى نراه لا يعدو أن يكون خلافا لفظيا.

والملاحظات التالية تبين كيف أن الشاه ولى الله كان يتمتع بسعة النظر وعدم التضييق فى الفروع، وكيف أن موقف الديوبنديين الحالى يجمع بين ضيق النظر والتحجر، فإنهم لا يودون أن يسمعوا شيئا يخالفهم، مع أن الشاه ولى الله لم يكن يتردد فى العمل بمذهب الإمام الشافعى.

حديث القلتين :

إن الخلاف كبير جدا بين الشافعيـة والحنفية فى طهارة الماء ، وحديث القلتين هو موضع النقاش وأساس الخـلاف بين الفريقين ، فيقول الحنفية إنه مضطرب ، ويرى الشافعيـة أنه صحيح ، ولـكنه قد خفى على متقدمى الحنفية أو المـالـكية ، أو إنهم جميعا قد أخطأوا فى فهم المراد منه ، و « مثالـه حديث القلتين فإنـه حديث صحيح روى بطرق كثيرة إلخ[(١)] » .

ومعنى ذلك أن الشبهات التى نشأت حول مسائل الطهارة بسبب هذا الحديث يقضى فيها الشاه ولى الله لحق الشافعية ويعتذر عن الحنفية والمالـكية بأن الحديث لم يبلغهم بسبب عدم انتشاره فى صدر الإسلام .

قراءة الفاتحة خلف الإمام :

إن الخلاف بين أئمة الحنفية وأئمة الشافعية حول قراءة الفاتحة خلف الإمام معروف ، وقد ألفت فى الموضوع عدة رسائل وكتب تؤيد أحد الفريقين ، أمـا الشاه ولى الله فيقول : « وإن كان مأموما وجب عليه الإنصات والاستماع ، فإن جهر الإمام لم يقرأ إلا عنـد الإسكاتة ، وإن خافت فله الخيرة ، فإن قرأ فليقرأ الفـاتحة قراءة

---

(١) حجة الله البالغة ١/١٤٧

لايشوش على الإمام، وهذا أولى الأقوال عندى، وبه يجمع بين أحاديث الباب[١]».

ونرى أن حكم الشاه ولى الله يتسم بالاقتصاد والعدالة، وهو يكره تشدد الفريقين.

رفع اليدين والوتر:

ويقول عند ذكر رفع اليدين فى الركوع والوتر: والحق عندى فى مثل ذلك أن الكل سنة، ونظيره الوتر بركعة واحدة أو بثلاث، والذى يرفع أحب إلى ممن لايرفع، فإن أحاديث الرفع أكثر وأثبت، غير أنه لا ينبغى لإنسان فى مثل هذه الصور أن يثير على نفسه فتنة عوام بلده[٢]».

ومن الظاهر أن التنفر كان ينشأ فى عامة الناس بسبب هذه الأعمال، وكان الخاصة يشجعونه، ولكننا نحمد الله تعالى على أن وقت الفتنة لم يبق الآن.

شد الرحال لزيارة القبور:

من المتبع لدى عامة الناس أنهم يشدون الرحال إلى المسافات البعيدة لزيارة الصلحاء ومقاماتهم، ويلتزمون بهذه الزيارة كشعائر

---

(١) حجة الله البالغة ٢ / ٩

(٢) " " ٢ / ١٠

الحج ، وبهذا الصدد يقول الشاه ولى الله : «والحق عندى أن القبر ومحل عبادة ولى من أولياء الله والطور كل ذلك سواء فى النهى ، والله أعلم[١]».

والمحبون للزيارة من الديوبنديين والبريلويين يتكلمون فى هذه المسألة بحماس وتجريح ، ولكن الشاه ولى الله يقول بما قال به شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من أئمة التوحيد رحمهم الله تعالى .

نواقض الوضوء :

إن الفقهاء مختلفون فى نواقض الوضوء ، والشاه ولى الله يبدى رأيه فيقول : «وأصل موجب الوضوء الخارج من السبيلين ، وما سوى ذلك محمول عليه[٢]».

الوتر :

وفى الوتر خلاف ، فيراه فقهاء الحنفية واجبا ، والمحدثون سنة . أما الشاه ولى الله فيقول : والحق أن الوتر سنة ، هو أوكد السنن ، بينه على وابن عمر وعبادة بن الصامت رضى الله عنهم[٣]» .

---

(١) حجة الله البالغة ١/١٩٢

(٢) « « ١/١٧٤

(٣) « « ٢/١٧

القنوت :

إن فقهاء الحنفية يرون القنوت واجبا فى الوتر ، والشافعية فى صلاة الصبح ، وفى ذلك يقول الشاه ولى الله : واختلفت الأحاديث ومذاهب الصحابة والتابعين فى قنوت الصبح ، وعندى أن القنوت وتركه سيان ومن لم يقنت إلا عند حادثة عظيمة أو كلمات يسيرة إخفاءة قبل الركوع أحب إلى ، لأن الأحاديث شاهدة على أن الدعاء على رعل وذكوان كان أولا ثم ترك ، وهذا وإن لم يدل على نسخ مطلق القنوت لكنها تومى إلى أن القنوت ليس سنة مستقرة[1] » .

الجمع بين الصلاتين :

اختلفت الأئمة فى الجمع بين الصلاتين ، وفقهاء الحنفية لايقولون بالجمع سواء كان مقدما أو مؤخرا ، والجمع الصورى ليس جمعا فى الحقيقة بل هو صورته ، ويقول الشاه ولى الله : « إن الأوقات الأصلية ثلاثة : الفجر والظهر والمغرب ، وإنما اشتق العصر من الظهر ، والعشاء من المغرب لئلا تكون المدة الطويلة فاصلة بين الذكرين ، ولئلا يكون النوم على صفة الغفلة فشرع لهم جمع التقديم والتأخير لكنه لم يواظب عليه ولم يعزم عليه مثل ما فعل فى القصر[2] » .

---

(١) حجة الله البالغة ٢ / ١١

(٢) " " ٢ / ٢٤

تكبيرات العيدين :

أما تكبيرات العيـــدين فاختلف فيها فقهاء الحنفية وفقهاء أهل الحـــديث ، يقول الشاه ولى الله : يكبر فى الأولى سبعا قبل القراءة ، والثانية خمسا قبل القراءة ، وعمل الكوفيين أن يكبر أربعا كتكبير الجنائز فى الأولى قبل القراءة ، وفى الثانية خمسا بعدها ، وهما سنتان ، وعمل الحرمين أرجح[١]» .

العشر فى العشر من الماء :

اختلف فقهاء الحنفية وفقهاء الشافعية فى الماء الكثير ، فحدده متأخرو فقهاء الحنفية بالعشر فى العشر ، وفقهاء الشافعية بالقلتين . ثم إنهم خاضوا فى القياس وأكثروا منه بخصوص عدد الدلاء التى تخرج من البئر التى وقعت فيها النجاسة ، أما الشاه ولى الله فيقول : « وبالجملة فليس فى هذا الباب شىء يعتد به ويجب العمل عليه » ثم يقول : « وقد أطال القوم فى فروع موت الحيوان فى البئر والعشر فى العشر ، والماء الجارى ، وليس فى كل ذلك حديث عن النبى ﷺ ألبتة[٢]» .

وهنــاك مسائل فرعيـــة عديدة فى حجة الله والمصفى والمسوى (مؤلفات الشاه ولى الله) مال فيهـا الشاه ولى الله إلى فقهاء أهل

---

(١) حجة الله البالغة ٣١/٢

(٢) " " ١٨٥/١

الحديث والشافعية ، الأمر الذى يدل على أنــه لم يكن يحب « الحنفية الجافة » والعصبية الجامدة ، بل إننا لا نرى هذا النوع من الجمود فى قدماء الحنفية ، فإنه قد بدأ فى القرن الرابع الهجرى و وصل إلى القمة فى القرن التاسع ، والمـانع الحقيقى من البدعة هو اتباع السلف ، وقد حاربها تقليد الأئمة أيضا ولـكن جمود الاعتقاد والتكريم قد دب إليه . أما اتباع السلف وآراء الصحابة المختلفة وفتاواهم فهى متنوعة ولذلك لايتسرب إليها الجمود .

أربع مصلات :

كان البرقوق الجركسى (١٣٨٢ — ١٣٨٩م) قد أنشأ فى حرم بيت الله أربع مصلات باسم الأئمـة الأربعة . وكان علماء الحق قد عارضوا عمله هذا فى ذلك الوقت ، ولـكن الحكومة قد ألحت وبقيت على موقفهـا . وقـد اشتد هذا التفريق إلى أن ترك المصلون ائتمام بعضهم بالبعض ، فكان الشوافع والحنابلة يجلسون غير مبـالين وقت جمـاعة الحنفية ، كأن هذا الأذان وهذه الصلاة ما أقيمت لهم[١] . وكذلك كان عمل الحنفية مع الشوافع والحنابلة . وقـد أثرت هذه

(١) نحمد الله تعالى على أن الملك سعود بن عبد العزيز رحمهما الله قد هدم هذه المصلات فى البنـاء الجديد لبيت الله ، وقضى على هذه البدعة فالناس يأتمون الآن بإمام واحد .

البدعة فى العالم الإسلامى تأثيرا سيئا جدا بأن انتشر التنافر وعم بين أتباع الأئمة. وفى ذلك يقول الشاه عبد العزيز: «إن الله تعالى يعلم أنكم تحدثون بدعة فى الزمن الآتى وتقسمون أطراف الكعبة، ويفتخر كل فريق بجهته فتقوم الحنفية فى الطرف الجنوبى وتتجه إلى الشمال ثم تقول مفتخرة بأن قبلتنا قبلة إبراهيم، وتقوم الشافعية فى الطرف الغربى وتتجه إلى الشرق ثم تقول مفتخرة نحن نستقبل باب الكعبة وقبلتنا هى القبلة التى نص عليها[1]».

وهذه العبارة صريحة فى أن الشاه عبد العزيز يرى التقسيم المذكور بدعة ويكرهه فى الإسلام. وقد يحتمل أمر تقليد الأئمة واتباعهم البحث والمناقشة فى موضعه، ولو قام دليل على جواز التقليد الشائع فلا يمكن أن يوجد مبرر للتقسيم المذكور باسم الأئمة رحمهم الله تعالى. أما ملك مسرف مثل البرقوق فلا نتوقع منه إلا مثل هذه الأفعال، وهو الذى يحمل على عنقه وزر هذا الفعل القبيح وكذلك العلماء الذين وافقوه على ذلك، ﴿وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون[2]﴾.

---

(١) تفسير فتح العزيز ٥٤١/١

(٢) الشعراء: ٢٢٧

ماذا يريد الشاه؟

وهناك نتساءل . . . إن هذا الجمود خطأ فما هو الصحيح؟ وما هى التغيرات التى يريدها الشاه ولى الله فى الأحوال؟ إنه يكره القياس واتباع الرأى ويعيب التمسك بالظواهر فالذى يرضاه ويحبه؟ إنه يبدى رأيه فى هذا الأمر مفصلا وبالحلف المؤكد فيقول: وأشهد بالله أنه كفر بالله أن يعتقد فى رجل من الأمة ممن يخطىء ويصيب أن الله كتب علىّ اتباعه حتما، وأن الواجب علىّ هو الذى يوجبه هذا الرجل علىّ، ولكن الشريعة الحقة قد ثبت قبل هذا الرجل بزمان قد وعاها العلماء وأداها الرواة وحكم بها الفقهاء، وإنما اتفق الناس على تقليد العلماء على معنى أنهم رواة الشريعة عن النبى ﷺ، وأنهم علموا ما لم نعلم، وأنهم اشتغلوا بالعلم ما لم نشتغل، فلذلك قلدوا العلماء، فلو أن حديثا صح، وشهد بصحته المحدثون، وعمل به طوائف، فظهر فيه الأمر ثم لم يعمل به لأن متبوعه لم يقل به، فهذا هو الضلال البعيد[1]».

وهذا الكلام لايحتاج إلى تعليق أو توضيح، وإنه يشير إلى أن الشاه ولى الله يقول بالتقليد بمعنى أن العلماء يروون الكتاب والسنة وباشتغالهم بهذين المصدرين يزداد علمهم ويتوسع فينبغى أن يستفيد

(١) التفهيمات الالهية ١/ ٢١١

الناس من علومهم، أما إذا تبين لهم الحديث الصحيح بواسطة سليمة فلا حاجة بهم إلى تقليد العلماء والتمسك بآرائهم. ومن تعصب لعالم أو فتح باب التأويل لانتصار جماعته بعد علمه بالحديث الصحيح فقد ضل ضلالا بعيدا. وهذا الذي يكرهه الشاه ولى الله ويؤكد ضلاله.

طريق آخر:

يقترح الشاه ولى الله للقضاء على الجمود الفقهى أن يلفق بين المذاهب المختلفة، ويحاول العمل بالمذهب الحنفى فى بعض المسائل وبالمذهب الشافعى فى الأخرى، فى ضوء المصالح وما تقتضيه، يقول: «ونشأ فى قلبى داعية من جهة الملأ الأعلى، تفصيلها أن مذهبى أبى حنيفة والشافعى هما مشهوران فى الأمة المرحومة، وهما أكثر المذاهب تابعا وتصنيفا، وكان جمهور الفقهاء المحدثين والمفسرين والمتكلمين والصوفية متمذهبين بمذهب الشافعى، وجمهور الملوك وعامة اليونان متمذهبين بمذهب أبى حنيفة، وإن الحق الموافق لعلوم الملأ الأعلى اليوم أن يجعلا كمذهب واحد، يعرضان على الكتب المدونة فى حديث النبى ﷺ من الفريقين، فما كان موافقا بها يبقى وما لم يوجد له أصل يسقط، والثابت منها بعد النقد إن توافق بعضه بعضا فذلك الذى يعض عليه بالنواجذ، وإن تخالف تجعل المسألة على قولين ويصحح العمل عليهما، أو يكون من قبل اختلاف أحرف القرآن،

أو على الرخصة والعزيمة ، أو يكونان طريقين للخروج من المضيق كتعدد الكفارات ، أو يكون آخذا بالمباحين المستويين ، ولا يعدو الأمر هذه الوجوه ، إن شاء الله تعالى[١]» .

وقد أحس الشاه ولى الله ضرورة التوحيد بين مذهبى أبى حنيفة والشافعى لأنه رأى كثرة الأحناف فى الهند وكثرة الشوافع فى الحجاز، ولو أمكنه الاطلاع على كثرة الحنابلة فى نجد وكثرة الموالك فى السودان لأوجب التوحيد بينهما أيضا وكذلك بين الجميع بنفس السبب ، والتوحيد بين المذاهب الأربعة يمكن أن ينفع ويقضى حاجة دينية . والشاه ولى الله يرى المصالح فى الأحكام من روح الإسلام ، ويبدو أن جمود الأفكار الفقهية كحمل ثقيل على ذهنه ، وهو دائم التفكير فيه ، إنه ينصح الطلاب ويفرق بين علوم الدين وعلوم الدنيا فيقول : «خضتم كالخوض فى استحسانات الفقهاء من قبلكم وتفريعاتهم، أما تعرفون أن الحكم ما حكمه الله ورسوله ، ورب إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به ويقول إنما عملى على مذهب فلان لا على الحديث ، ثم احتال بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن الكمل المهرة ، وإن الأئمة لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث ، فما تركوه إلا لوجه ظهر لهم فى الدين من نسخ ومرجوحية[٢]» .

---

(١) التفهيمات الإلهية ١/٢١١—٢١٢

(٢) « « ١/٢١٤

إن الشاه ولى الله يحترم الأئمة ولكنه مع سعة علمهم لايستحسن الاعتماد عليهم وحسن الظن بهم بحيث يلزم صرف النظر عن الحديث الصحيح ، وهذا هو عيب التقليد الشائع الذى يحيك فى صدره ، ولذلك نصح الطلاب بأن يفكروا فى الحديث بتفكير أعلى من ذلك .

مسلك الشاه ولى الله :

ومن توضيح النظرية السابقة ظهر أن الشاه ولى الله يرى من الواجب أن يتبع عامة الناس العلماء ويطيعوهم ، ولكن لاحاجة إلى تعيين شخص للتقليد مثل الرسول ، ولا يستحسن الجمود فى ذلك . وقد ذكر الشاه ولى الله فى حجة الله وفى المصفى طائفتى أهل الحديث وأهل الرأى ، ونعلم من كلامه فى الكتابين أنه يعتبر الأئمة كلهم سوى أئمة الكوفة من أهل الحديث ، فهم يبنون اجتهادهم واستدلالهم على الكتاب والسنة لا على قواعد أساتذتهم وأساطينهم . أما عامة الناس من الشوافع والموالك والحنابلة فلا يرضاهم الشاه ولى الله ، فإن لديهم جمودا وتعصبا ، وانظروا على سبيل المثال إلى الإمام أبى بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن العربى ومكانته الرفيعة فى العلم ثم إلى أسلوب كلامه الخشن المر فى الإمام الشافعى فى كتابه أحكام القرآن ، وليس ذلك إلا من التعصب ، ونرى هـذا التعصب ومرارة الكلام فى جميع المذاهب .

ولذلك اختار الشاه ولى الله طريقة أخرى للعمل على النظرية السابقة، والحق أنه ليست هناك طريقة غيرها، يقول فى المقالة الوفية فى النصيحة والوصية: «وصية هذا الفقير الاعتصام بالكتاب والسنة فى العقيدة والعمل والتفكير فيهما دائما، وقراءة جزء منهما كل يوم، وإن لم يستطع القراءة فيسمع ترجمة ورقة من كليهما، واختيار مذهب قدماء أهل السنة فى العقيدة، والاعراض عن تفصيل ما لم يفعلوه، وعدم التوجه إلى تشكيك أهل المعقول، واتباع العلماء المحدثين فى الفروع، فهم قد جمعوا بين الحديث والفقه، وعرض الفروع الفقهية دائما على الكتاب والسنة، وقبول ما يوافقهما ورد ما لم يوافق، والأمة لا يمكن أن تستغنى فى أى وقت عن عرض مسائل الاجتهاد على الكتاب والسنة، وعدم الاستماع إلى أقوال الفقهاء المتقشفين الذين تمسكوا بتقليد عالم وتركوا اتباع السنة، وعدم الالتفات إليهم، وطلب تقرب الحق بدونهم[1]».

وتناسب طريقة الفقهاء والمحدثين من له إلمام بالشريعة، أما عامة الناس فينبغى أن يلفقوا بين الفقه الحنفى والفقه الشافعى عند مسيس الحاجة ويختاروا ما هو أوفق بالكتاب والسنة، يقول: «ونحن نأخذ من الفروع ما اتفق عليه العلماء، لاسيما هاتان الفرقتان العظيمتان: الحنفية

---

(١) التفهيمات الإلهية ٢/٢٤٠

والشافعية ، وخصوصا فى الطهـارة والصلاة ، فإن لم يتيسر الاتفاق واختلفوا فنأخذ بما يشهد له ظاهر الحديث ومعروفه[١]» .

ولو صرفنا النظر عن المنـافرة والمجافاة التى توجد اليوم وعن أسبابها ، لقلنا إن مسلك أهل الحديث بالهند كان يهدف إلى الوحدة التى سبقت الإشارة إليهـا ، ولكن العصبية الطائفيـة قد شوهتها ، والاهتمام بالتقليد الشخصى والجزئيات الفقهية فى دولة حرة ، ومطالبة الحكومة بأن تعتبر المذهب الحنفى مساويا للإسلام أمر يضر الإسلام والمسلمين . ولاشك أن الفتاوى العالمكيرية عمل دينى وعلمى كبير قام به العلماء فى ذلك الوقت ، وكان والد الشاه ولى الله الشاه عبد الرحيم مشتركا فى تأليفه وتشكيله ، ولكن الشاه ولى الله رأى بنظرته الثاقبة أن هذا العمـل لا يكفى لسد الفتن المنتظرة ، وكان لايحب أن يسمى الاستحسان الفقهى باسم الدين والشريعة وأن يعتبر أصول الفقه وثيقة شرعية . بل كان يهـدف إلى أن يلفق بين المذاهب الأربعة ومذهب الفقهاء المحدثين وتؤسس مدرسة فقهية لا تكون فيها ظاهرية الحافظ ابن حزم التى تشين النصوص وتبعـدها عن الفصاحة والبلاغة اللتين عهدناهما لدى النبى ﷺ وصحابته ، ولا الاهتمام البالغ بالقياس والرأى بحيث يتحكم فى النصوص تدقيق العلماء وافتراضهم الحيل ولايبقى لها

(١) التفهيمات الالهية ٢/٢٠٢

معنى واضح كما نرى لدى الفقهاء المتأخرين الذين أنشأوا قصرا جديدا للدين بالفروض و التخييل مثل فتاوى قاضى خان والشامى والأشباه والنظائر حيث لم يبق معنى لتوجيهات تلك العلوم ومستنبطاتها .

مغالطة كبيرة وأهل الحديث :

منذ زمن قليل نرى مغالطة تنتشر بين عامة النـــاس ، حتى قد أصيب بها المثقفون أصحاب الجد ، وهى أن أهل الحديث لا يكـّونون مدرسة فكرية فى الإسلام بل قد أطلق هذا الاسم على حفظة الحديث والنابغين فى فنه . وقد ساند هذه المغـــالطة بعض الحركات فى بلادنا وكذلك من له معرفة ناقصة بالمذاهب ومبادئهـــا ، وهو مصاب على ذلك بالعصبية الطائفية .

ومما لاشك فيه أن الاشتغال بفن الحديث وحفظه وضبطه كان معروفا ومستمرا فى المذاهب الأربعة ، وقد خدم أصحاب هذه المذاهب علم الحديث وأصوله وعلم أسماء الرجال ولكن كان هؤلاء العلماء يتبعون إمامهم ويسيرون على منهاجه فى فهم الحـــديث ، وعلى سبيل المثال نذكر أسماء العلماء الآتية : الحافظ الطحاوى ، والعلامة التركمانى، والحافظ البيهقى ، والحافظ بدر الدين العينى ، والحافظ ابن حجر العسقلانى ، فهؤلاء الأعلام مع إسهامهم الكبير فى خدمة الحديث كانوا متمسكين بالمنهج الفكرى الخاص بالحنفية أو الشافعية ، وكذلك الحال

فى المالكية والحنابلة ، ففيهم من خدم الحديث مع تمسكه بمذهبه التقليدى ، وهؤلاء لم يتقدموا خطوة فى فهم الحديث ولم يتجاوزوا الحدود التى وقف عندها أئمتهم . ثم إننا نرى أن بحوثهم وأقوالهم تتسم أحيانا بالشدة ضد مخالفيهم ولكنهم مع ذلك يعدون خداما للحديث .

مدرسة أهل الحديث :

ولكن مدرسة أهل الحديث تختلف عن ذلك تماما ، وأصحابها أحرار فى تفكيرهم من هذه الالتزامات الشخصية ، وهم ليسوا متقيدين بالاجتهاد الشخصى سواء كانوا مجتهدين أم لا ، بل يبحثون عن الأدلة والأصول ، ويفكرون فى المسائل التى تواجههم فى ضوء الكتاب والسنة وأقوال الأئمة ، ولا يبالون سواء خالف موقفهم اجتهاد الأئمة الأربعة أو وافقهم ، بل ينظرون إلى المصالح . وقد عقد الشاه ولى الله فى حجة الله بابا عنوانه « باب الفرق بين أهل الحديث وأهل الرأى » وبهذا يتبين أنه يريد ذكر مدرستين فكريتين ، وفى هذا الباب يذكر أصولا[١] ثم يقول : فإن عجزوا عن ذلك أيضا تأملوا فى عمومات الكتاب والسنة وإيماءاتها واقتضاءاتها وحملوا نظير المسألة

---

(١) وقد سبق ذكر هذه الأصول ، وقد نشر أصحاب الجماعة الإسلامية هذه المغالطة كثيرا ، ولعلها تنفعهم ، ولكن أدلة العلم والتحقيق تنفى ذلك .

عليها فى الجواب إذا كانتا متقاربتين بادىء الرأى لايعتمدون فى ذلك على قواعد من الأصول ولكن على ما يخلص إلى الفهم و يثلج بـه الصدر ، كما أنه ليس ميزان التواتر عدد الرواة ولاحالهم ، ولكن اليقين الذى يعقبه فى قلوب النـاس ، كما نبهنـا على ذلك فى بيان حال الصحابة[1]» .

وهذه القطعة تصرح بأن اسم أهل الحديث لايطلق على الذين يكتفون بحفظ الحديث ، بل لديهم أصول لفهم الأحاديث والاستدلال بهـا ، وهى مأخوذة من الكتاب والسنة ، وليست تقليدية بل يحصل بها اليقين والطمأنينة ، ثم يقول : « ومنها أنى وجدت بعضهم يزعم أن هناك فرقتين لا ثالث لها ، أهل الظاهر ، وأهل الرأى ، وأن كل من قاس واستنبط فهو من أهل الرأى ، كلا والله ، بل ليس المـراد بالرأى نفس الفهم والعقل ، فإن ذلك لا ينفك من أحد من العلماء ، ولا الرأى الذى لايعتمد على سنة أصلا ، فإنه لاينتحله مسلم ألبتـة ، ولا القـدرة على الاستنباط والقياس ، فإن أحمد واسحاق بل الشافعى أيضا ليسوا من أهل الرأى بالاتفاق وهم يستنبطون ويقيسون ، بل المراد من أهل الرأى قوم توجهوا بعد المسائل المجمع عليهـا بين المسلمين أو بين جمهورهم إلى التخريج على أصل رجل من المتقـدمين ، فكان

(١) حجة الله البالغة : ١٤٩/

أكثر أمرهم حمل النظير على النظير و الرد إلى أصل من الأصول دون تتبع الأحاديث والآثار ، والظاهرى من لا يقول بالقياس ولا بآثار الصحابة والتابعين مثل داود وابن حزم ، وبينهما المحققون من أهل السنة»[1] .

وتستنبط النتائج التالية من كلام الشاه ولى الله هذا :

١ — إن اسم «أهل الحديث» لا يطلق على أصحاب فن الحديث فقط ، بل هو اسم لمدرسة فكرية .

٢ — سائر الأئمة المجتهدين سوى فقهاء الكوفة منضمون إلى أهل الحديث ، وإن لم نسم أتباعهم ومقلديهم باسم أهل الحديث .

٣ — إن أهل الحديث يسلمون بحكم النظائر والقياس الجلى ويقولون بالاجتهاد والاستنباط .

٤ — أهل الحديث وأهل الظاهر مدرستان مختلفتان ، وأهل الرأى مختلفون عنهما .

٥ — إن أهل الحديث يعدون أقوال الصحابة والسلف مع الكتاب والسنة أيضا أصلا من الأصول ويبنون عليه فهمهم واستنباطهم .

٦ — إن أهل الرأى يأخذون بأصول علماء معينين فى استنباط المسائل ولا ينظرون إلى الكتاب والسنة .

---

(١) حجة الله البالغة ١٦١/١

٧ — إن مدرسة أهل الحديث تختلف عن أهل الرأى وأهل الظاهر.

وقد صرح الشاه ولى الله بمثل هذه التصريحات فى تصانيفه الأخرى سوى حجة الله مثل التفهيمات، والإنصاف، وعقد الجيد وغيرها.

وقد كثرت كتابات الشاه عبد العزيز على هذا الموضوع فى الفتاوى العزيزية وتفسير فتح العزيز، وقد فصل السيد أحمد الشهيد الكلام عن الجمود والتقليد الشائع فى كتاب الصراط المستقيم، وأيد الشاه اسماعيل الشهيد ما ذهب إليه السيد أحمد، وكذلك وضح العلامة الشوكانى فى القول المفيد مسلك أئمة الحديث، وأيد الامام صالح بن محمد الفلانى (م ١٢١٨ هـ) مذهب المحدثين فى كتاب إيقاظ همم أولى الأبصار، وذكر ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله أهل الحديث وأهل الرأى وصحح مسلك أهل الحديث ورجحه، والكلام عن هذه التصريحات يحتاج إلى وقت ومناسبة، ومن يطلع عليها من محبى الحق والواقع يصل إلى أن أهل الحديث ليس اسما لحفظة الحديث فقط، بل هو يدل على أنهم أصحاب فكرة ومدرسة، يبنون فقههم واجتهادهم على الكتاب والسنة وأقوال سلف هذه الأمة رحمهم الله، بحيث لايسع مذهبهم التقليد الشخصى والجمود أصلا.

والعلامة الشهرستانى المتوفى سنة (٥٤٨ هـ) قد عاش فى عصر قريب جدا من عصر الجمود؛ وله نظرة عميقة واسعة فى موضوع

اجتماع الفرق والمذاهب وافتراقهما ، وكتابه الملل والنحل يعد وثيقة قيمة فى هذا الموضوع ، ويبدو من تصريحاته أيضاً أن أهل الحديث مدرسة فكرية ، ولها أهمية كبرى فى المدارس الفقهية ، وليس يعنى هذا الاسم خدام الحديث فقط ، يقول : « ثم المجتهدون من أئمة الأمة محصورون فى صنفين لا يعدوان إلى ثالث : أصحاب الحديث ، وأصحاب الرأى ، أصحاب الحديث — وهم أهل الحجاز — هم أصحاب مالك بن أنس وأصحاب محمد بن ادريس الشافعى وأصحاب سفيان الثورى وأصحاب أحمد بن حنبل وأصحاب داود بن محمد الأصفهانى ، وإنما سموا « أصحاب الحديث » لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص ، ولا يرجعون إلى القياس الجلى والخفى ما وجدوا خبرا أو أثرا[١] » .

وبعد ذلك يقول: « أصحاب الرأى — وهم أهل العراق — هم أصحاب أبى حنيفة النعمان بن ثابت ، ومن أصحابه محمد بن الحسن وأبو يوسف يعقوب بن محمد القاضى و زفر بن هذيل والحسن بن زياد اللؤلؤى وابن سماعة وعافية القاضى وأبومطيع البلخى وبشر المريسى ، و إنما سموا أصحاب الرأى لأن عنايتهم بتحصيل وجه من القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها ، و ربما يقدمون القياس

(١) الملل والنحل للشهرستانى بهامش الفصل فى الملل لابن حزم ٤٥/٢

الجلى على آحاد الأخبار[١]».

ويبدو أن الشاه ولى الله أراد شرح كلام الشهرستانى المذكور آنفا فى «باب الفرق بين أهل الحديث وأهل الرأى» فى كتابه حجة الله. ونحن الآن نريد أن نصحح الخطأ الفاحش الذى نشره بعض الأوساط العلمية والذى يذهب إلى أن «أهل الحديث» اسم أطلق بناء على خدمة فن الحديث. ولكن كلام الشهرستانى يدل على أنهما مذهبان فكريان قديمان، كان كل منهما يستفيد من الآخر مع الخلاف القائم بينهما بدون أن يكفر أحدهما الآخر.

والشهرستانى فى العبارتين يصرح بأن أصحاب الحديث مدرسة فكرية قامت بحفظ الأحاديث متونها وأسانيدها، وبوبتها فقهيا، واستدلت بها فى العقائد والفروع، وهى لم تكن تهتم بالآراء الشخصية، فلم تجمع لها مجموعة فقهية يقلدها الناس ويعتمدون عليها، ولكنها سنت طريقة الاستنباط من الكتاب والسنة وأوضحت منزلة النصوص الشرعية من الآراء الشخصية و أوصلت إلينا ذخيرة علمية كبيرة هى فقه الحديث النبوى.

وإليكم كلام إمام التأريخ ومؤسس النقد التاريخى العلامة عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة (٨٠٨ هـ) يقول: «وانقسم الفقه

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى بهامش الفصل فى الملل لابن حزم ٢ /٤٦

فيهم إلى طريقين : طريق أهل الرأى والقيـاس ، وهم أهل العراق ، وطريق أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز . وكان الحديث قليلا فى أهل العراق لما قـدمناه ، فاستكثروا من القياس ومهروا فيه فلذلك قيل لهم أهل الرأى ، ومقدم جماعتهم الذى استقر المذهب فيه وفى أصحابه أبو حنيفة[1]» .

ان منزلة ابن خلدون فى علم التأريخ ليست خافية على أهل العلم ، وهو فى كلامه يصرح بأنه لو قصر اسم أهل الحديث على حفاظ الحديث لكان ذلك جهلا بالتأريخ أو نقصا فى الأمانة بسبب التعصب .

وهكذا قد مر كلام العلامة أبى المنصور عبـد القاهر البغدادى المتوفى (٤٢٩ هـ) .

وللعلامة حاجى خليفة بصر بأصحاب المذاهب ومؤلفاتهم كما يدل عليه كتابـه « كشف الظنون » وهو يقول : « وأكثر التصانيف فى أصول الفقه لأهل الاعتزال المخالفين لنا فى الأصول ، ولأهل الحديث المخالفين لنا فى الفروع[2]» .

ومن البين أن المؤلفين فى أصول الفقه ليسوا مقصرين على حفظ الألفاظ بل لهم نظرة علمية إلى فهم الألفاظ ، وبصر بأصول الفقه ، ولذلك لا يسميهم بأهل الفن إلا متفنن ، أما العالم فلا يجترىء عليه .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٩

(٢) كشف الظنون ١/١١٤ ، وانظر أبجد العلوم أيضا ١/٣٢٥

أهل الحديث والمتكلمون :

لايخفى على علماء تأريخ المذاهب ما قام به الفلاسفة والمتكلمون نحو صفات الله تعالى فى القرن الثانى من الدجل والتلبيس ، وقد قاوم أهل الحديث فى ذلك العصر هذه الفتنة مقاومة جريئة سجلها التأريخ ، وليست مصائب الضرب والحبس التى نزلت بأهل الحديث وتحملوها بصبر واحتساب درسا ينسى . وقد بدأت هذه الفتنة فى القرن الثانى الهجرى واستمرت إلى القرن الثـــامن . وقد ورد ذكر أهل الحديث كثيرا فى مؤلفات المتكلمين وفقهاء المحدثين فى ذلك العصر . ولم يكن التمسك بظواهر النصوص أمام أرباب التأويل ومواجهة المخالفين أمرا هينا ، ولكن أهل الحديث قـــد أبلوا فى ذلك بلاء حسنا ، والذين يدرسون التأريخ يعرفون جيدا ما لاقته هذه الجماعة منذ عصر المأمون إلى عصر المتوكل على الله ، وقد سجلت مؤلفات ذلك العصر الموضوعات التى تناولها الفريقان ، و ورد فيها ذكر أهل الحديث بطريقة لا تدع مجالا للشك فى أن المراد بهم ليس من يقتصر بحفظ الألفاظ ، بل الذى ينظر إلى معانيها وينزل فى أعماقها .

والحافظ العلامة ابن القيم وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله من جنود تلك المعركة الحادة ، وهما قد تناولا فى مؤلفاتهما ذكر أهل الحـــديث باحترام واعتقاد مما يدل على أنهم ليسوا حفظة

الألفاظ فقط، بل هم الذين سدوا باب فتنة الاعتزال والتجهم والتشبيه والتعطيل، وذلك عمل عظيم.

وكتاب الحافظ ابن القيم « الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية » يعتبر رجز هذه المعركة ونشيدها، يذكر فيه أهل الحديث ضمن العلماء الذين وقفوا أمام الفلاسفة والمتكلمين وجها لوجه ودافعوا عن السنة وأنقذوا عامة المسلمين من تلبيس التأويل، يقول:

لا تبهتوا أهل الحديث به فـا ... ذا قولهم تبا لذى البهتان

هذا هو الحشوى لا أهل الحـ ... ـديث أئمة الاسلام والايمان

أسماء سميتم بها أهل الحـ ... ـديث وناصرى القرآن والايمان

من سبهم أهل الحديث ودينهم ... أخذ الحديث وترك قول فلان

وكذاك أصحاب الحديث فإنهم ... ضربت لهم ولكم بذا مثلان

وإلى أولى العرفان من أهل الحـ ... ـديث خلاصة الانسان والأكوان[1]

وهكذا لا توجد ورقة من القصيدة النونية إلا وفيها يذكر مدرسة أهل الحديث.

ويقول العلامة البزدوى فى خبر الواحد: « قال بعض أهل

---

(١) شرح القصيدة النونية ص ٣٣٠-٣٤٣

الحديث : يوجب علم اليقين[١] » .

ويقول العلامة عبد العزيز البخارى (م — ٧٣٠ ﻫ) شارح أصول البزدوى : « ذهب أكثر أصحاب الحديث إلى أن الأخبار التى حكم أهل الصنعة بصحتها توجب علم اليقين[٢] » .

والعلامة عبد العزيز البخارى يطعن فى أهل الحديث وهو يذكر حجية المرسل فيقول : « وإنهم سموا أنفسهم أصحاب الحديث وانتصبوا أنفسهم لحيازة الحديث والعمل بها ثم ردوا منها ما هو أقوى أقسامها[٣] » .

ومن المعلوم أن هذا الكلام لم يوجه على أساس حفظ الألفاظ ، بل على أساس مسألة علمية ذهب فيها أهل الحديث إلى خلاف ما ذهبت الحنفية إليه .

وفى موضع آخر من كشف الأسرار نفسه يذكر جواز استعمال الرأى والاجتهاد فيقول : « هو منقول عن أبى يوسف من أصحابنا ، وهو مذهب مالك والشافعى وعامة أهل الحديث[٤] » .

---

(١) أصول البزدوى ١٩٠/٢

(٢) ” ” ١٩٢/٢

(٣) ” ” ٢٢٥/٢

(٤) ” ” ١٢٥/٣

وهكذا ورد فيه ذكر مذهب أهل الحديث فى مواضع كثيرة، ومثله فى كتاب غاية التحقيق شرح الحسامى.

ومؤلفات القدماء تذكر مع المذاهب الأخرى مذهب أهل الحديث وخاصة فى أصول الفقه فإنه — كما قال العلامة حاجى خليفة — من إنشاء المعتزلة لا أهل الحديث، أما المتأخرون فقد ازداد تعصبهم، وانتقلت السلطة إلى أهل العصبية، وفتنوا بها فأقلوا ذكر أهل الحديث وتنفروا منهم، وهذا كله يدل على أن حصر أهل الحديث فى حفاظ الألفاظ نوع من الجهل والسذاجة.

وكان مذهب أهل الحديث سائدا فى فارس كلها إلى القرن الثالث وفيها نشأ أكثر أصحاب الحديث من مؤلفى الصحاح والسنن وغيرهم، وفقهم الله تعالى لأن ينقلوا العلوم إلى الأجيال القادمة فنقلوا وأدوا واجبهم، جزاهم الله عن المسلمين أحسن الجزاء.

وكان هؤلاء الأئمة على منزلة رفيعة من العلم فقد ذكرت آراؤهم فى تجويد القرآن على أساس مذهب مستقل. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾[1]. فقد اختلف أهل العلم فى الوقف على كلمة إلا الله، ويقول العلامة محمد بن محمد الدمشقى المتوفى (٨٣٣ هـ) فى كتابه القيم المعروف «النشر فى القراءات العشر»: «إن الوقف على كلمة إلا الله تام، وهو مذهب أبى حنيفة وأكثر أهل

(١) آل عمران: ٧

الحديث[١]» . ومعنى ذلك أن قدماء أهل الحديث كانوا يجيدون العلوم التى يفتخر بها الفقهاء المتأخرون .

الفقه وأهل الحديث :

كنا نسمع أيام الصبا أن مثل أهل الحديث مثل الصيادلة ، ومثل الفقهاء مثل الأطباء . وكنا نفهم من هذا أن هناك فرقتين ، ففرقة الفقهاء لا تشتغل بالصيدلة ، وفرقة أهل الحديث لا تشتغل بالطب ، ولكن الفرصة متى سنحت لدراسة علوم الحديث والاطلاع على كتبه تبين لنا أنهما ليستا فرقتين ، بل الكل سائر فى مجال العمل على طريقة خاصة تلائم وطبيعته ، وليس معنى ذلك أن المحدثين لا يعلمون الفقه ، والفقهاء لا يعلمون الحديث . فالله تعالى قد وهب الجميع عقلا واستعدادا فكريا ، ومن استخدمه لأمر أعطى إياه .

وحينما ندرس أحوال أئمة الحديث نشعر أنهم كانوا شاهدى مجلس الرسول ﷺ ، فالاشتغال بكتابة الحديث وحفظه وضبطه والتفقه فيه كان موجودا ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحفظون الحديث ويعاودونه كما يفعل حفظة القرآن ، وكذلك كانوا يجتهدون لفهمه وتفقهه ، ولكن جهودهم بهذا الصدد لم تكن مدونة مثل الكتب ، بل كانت مثل المذكرات والتعليقات ، وهم كانوا يحلون غوامضه بدون أن يروا

(١) النشر ٢٢٧/١

الحاجة إلى كتابته مثل كتب الفقه وشروح الحديث، وهم بعد ذلك كله كانوا يوصفون بالفقه وبالحديث فكانوا أهل الحديث وأصحاب الفقه. ومن المعلوم أن هناك فرقا بين جمع العلم وبين فهمه الصحيح، وقد نقل الامام أحمد بن حنبل فى مسنده مذكرة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده كاملة، وقد طبع مسند أبى هريرة عن وهب بن منبه. وفى عصر التابعين قد ازداد المجهود فتضخمت المذكرات وكثرت التعليقات ونجد فى عصرنا هذا مذكرات الامام الزهرى وابن عيينة وعمر بن عبد العزيز، وقد جمعت هذه المذكرات فى مسند الامام أحمد بن حنبل فى صورة المسانيد، وهو موزع فى ستة أجزاء كبيرة مطبوعة أو غير مطبوعة منذ قرون. وكان ذلك العصر عصر الفقهاء والمحدثين، وهم جميعا كانوا يحفظون الحديث ويفهمون معانيه ويفتون، وبين أيدينا اليوم كتب كثيرة مثل المحلى لابن حزم والمغنى لابن قدامة والمصنف لابن أبى شيبة تروى لنا كمية كبيرة من آثارهم وأقوالهم، ولا فرق فى أن سميناها فقها أو أثرا، فهم قد تفقهوا فى القرآن والسنة ثم أصدروا هذه الفتاوى، وهى قد صارت أساسا لفقه المحدثين فى اجتهادهم واستنباطهم[1].

---

(١) حجة الله البالغة ١٤٩/١

عصر تدوين الحديث :

وقد بدأ بعد ذلك عصر تدوين الحديث ، فجمعت الأحاديث تحت الأبواب كما نرى فى الجامع الصحيح للبخارى وسنن النسائى والترمذى وموطأ الإمام مالك وسنن ابن ماجه ، فإن مؤلفيها قد قاموا بالتبويب وباستنباط المسائل من الأحاديث ، وذلك يورث قوة الاستنتاج فى الإنسان . أما الكتب الفقهية للمذاهب الأربعة فلم تتضمن إلا نقل المسائل ، وهى لا تؤدى إلى ملكة الاستنباط إلا فى القليل النادر . وبعد وجود كتب الحديث المذكورة كيف يسوغ لأحد أن يقول إن المحدثين ما كانوا فقهاء ، وإنهم كانوا يقتصرون على حفظ الحديث ؟ إن العالم الذى له إلمام بكتب الحديث لن يجترىء على القول بأن أئمة الحديث كانوا غير فقهاء . وهذا هو الإمام البخارى الذى بوب جامعه الصحيح فأدهش أصحاب الفقه وأهل النظر الكبار وأوقعهم فى حيرة واستغراب ، وكذلك قد دل تبويب سائر المحدثين الأئمة مثل أبى داود والنسائى والترمذى ومالك وابن ماجه لكتبهم على مكانتهم الفقهية وبصيرتهم النافذة ، ونظرا لاستخراج المسائل من الأحاديث وفهمها نضطر إلى أن نقول إن تبويب أئمة الحديث يشتمل على الفقه الحق الأصيل .

أما إذا كان الفقه عبارة عن الأمور الوهمية الفرضية ، ويتعلق

بالأعمال والأحكام النادرة التى لا يمكن وقوعها فلا شك أن مثل هذا الفقه لا يوجد فى الحديث ولا عند أهله، بل هو يوجد فى فقه العراق، ولكنه ليس بفقه حقا، أما أئمة الحديث فكانتهم أرفع بكثير من الفقهاء المصطلح عليهم.

أما ترتيب الأحكام على الصور الفرضية فليس بعسير، ولكن أهل الحديث لا يرضون بأن يسموا «علم ما لم يقع والجهل عما وقع» فقها.

ويريد الشاه ولى الله أن يكون الفقه الذائع مؤيدا من قبل الحديث النبوى وآثار السلف، وكذلك يوفق بين الظاهرية المحضة وبين التفقه والقياس الجلى. وإلى هذا تهدف حركة أهل الحديث الهندية فيبتعد عنها الآخرون ويتنفرون. وقد اشتركت الطائفتان الديوبندية والبريلوية فى بغض أهل الحديث، ولسنا نستغرب موقف البريلوية العدائى من أهل الحديث ولا نشكوه إلى أحد، فإنهم قد بنوا مذهبهم على العواطف والهتافات، وحسبوا أن الشريعة عبارة عن العادات والتقاليد التى اتخذها عامة الناس، وأن المظاهر المصطنعة هى تقديس واحترام، وهى التى تغنيهم عن الكتاب والسنة . . . فهؤلاء لو خافوا صوت التوحيد والسنة فلا غرابة فى ذلك، أما الديوبندية فلا نعلم سببا لابتعادهم وتوحشهم من كلمة «الوهابية».

وبعد مأساة «بالاكوت» حدث تحول ملموس فى المسلمين فانضم الديوبنديون إلى التصوف الشكلى، واشتغلوا بالبيعة والإرادة فاقتربوا

جدا من البريلوية ، وضعف تمسكهم بالأذكار والأوراد التى ثبتت بالسنة ، وقل اهتمامهم بأوقات الصلاة وأداء أفعالها بالسكينة والطمأنينة والخشوع والإنابة . وكان هذا الانحطاط قد بدأ بعد عصر الشاه اسحاق رحمه الله تعالى ، ولكنه ازداد فى العصور التالية ، ومع ذلك كان البعض متمسكا بعقيدة التوحيد الصحيحة ، ولكن أكثرهم استسلموا أمام القبوريين ، وهكذا قضى على القافلة التى نزلت فى عرصة بالاكوت لإعلاء كلمة الدين ولحماية التوحيد والسنة ، والتى التزمت بنشر رسالة الإسلام فى ضوء عوامل وأهداف الشاه ولى الله التجديدية وذلك لأنها خافت البريلوية وفظعت من تهمة « الوهابية » التى وجهت إليها ، وهكذا فارقت رفاقها الموحدين وحاولت الصلح مع البريلوية ، فاندحرت بعد ٦ مايو ١٨٣١ م ، ولم تنسحب عن ساحة الحرب فحسب ، بل تخلت عن مبادىء الحرية الفكرية ومقاومة الجمود .

وفى السطور الماضية قد ذكرت أهداف حركة الشاه ولى الله على لسانه وبكلماته ، والقارىء يستطيع بسهولة أن يحكم بأن الأمانة التى وصلت إلينا من الشاه لم يتم الحفاظ عليها مع كثرة الاحترام والاعتقاد له . نعم إن السيد نذير حسين رحمه الله ، وهو من تلاميذ الشيخ اسحاق ، وكذلك تلاميذه هم قد حافظوا على هذه الحركة وبذلوا الجهود لإحيائها إذا تحولت إلى حركة سرية خفية وصعب تحقيق أهدافها السياسية . ومن هؤلاء المخلصين الذين قدموا تضحيات

كبيرة رائعة فى سبيل إحياء هذه الحركة المقدسة : الشيخ ولايت على، والشيخ عنايت على، والحافظ عبد الله الغازيفورى ، والشيخ عبد العزيز الرحيم آبادى ، والشيخ ولى محمـــد ، والشيخ فضل إلهى ، والشيخ محمـــد حسين وغيرهم ، رحمهم الله تعالى . أما أصحاب ديوبند فكانوا يعملون فى حركات البلاد العامة لأهداف ، أما هذه الحركة الدينيـــة المحضة فلم تحظ منهم بعنـــاية وجهد كبيرين . وحينما تم انقسام شبه القـــارة إلى الهنـد وباكستان تغير الوضع وابتعد هؤلاء كثيرا عن منهج الشاه ولى الله ، والجمود الدينى الذى حاول الشاه ولى الله القضاء عليه وجد حماية من الديوبنديين وهم قد تبنوا الدعوة إليه ودعموه . والذى أرى وأؤمن به هو أن جماعة أهل الحديث هى التى حافظت على حركة الشاه ولى الله ، وحققت أهدافها العلميـــة والفقهية والسياسية والاقتصادية حسبما ساعدتها الظروف :

« عاهدت الحبيب بأنى كلما حييت أحب محبيه مثل حبي لنفسى[1] » .

وقد نتج عن مجاراة الديوبنديين للمصلحة أنهم لقبوا الدعاة إلى التوحيـــد بلقب « الخوارج » وأشاعوا عنهم أنهم ليسوا على مذهب الديوبندية . وتدعيما لموقفهم هذا وإشباعا لنزعتهم الانتقامية قد أبرزوا

---

(١) ترجمة بيت فارسى نصه :

در عهـــديست باجانان كه تا جان در بدن دارم
هوا خواهان كويش را چون جان خويشتن دارم

مسائل جديدة لم تكن لها أهمية أو شهرة فيما قبل .

انفصال عن الشاه ولى الله :

وفى هذه الأيام ظهرت طائفة جديدة من الشبان لا تؤمن بأهداف الشاه ولا ترضاها ، بل تثير فيه الشكوك وسوء الظن بصورة غريبة ، ويبدو أن هؤلاء متأثرون بالمدعو محمد زاهد الكوثرى المصرى ، ومن أكبر ميزاتهم أنهم يثيرون الشكوك فى أئمة الحديث ويحملون على إساءة الظن إليهم ، إنهم يزيدون ويحذفون فى تذاكر الرجال حتى يتسنى لهم الطعن فى أئمة الحديث ، ومنهم شخص محترم يقول فى الشاه ولى الله :

« وأما ما قال رحمه الله وإن شئت حقيقة ما قلناه فلخص أقوال ابراهيم من كتاب الآثار لمحمد وجامع عبد الرزاق إلخ ، فهذا دأبه فى تصانيفه إذا أتى بدعوى يأتى بكلام يدهش الناظر إلخ[1] » .

وبعد ذلك يقول : « فنحن بحمد الله قد طالعنا كتاب الآثار ولخصنا أقوال ابراهيم النخعى رضى الله عنه ثم قايسناه بمذهب الامام فوجدنا الامام يجتهد كما اجتهد النخعى وأقرانه ، ونراه فى كثير من المواضع يترك رأى ابراهيم وراءه ظهريا[2] » .

---

(١) ما تمس إليه الحاجة ص ١٤

(٢) نفس المصدر

وهذا الكلام صادر عن «حب على» كما يقال ، ولكن الحقيقة هى ما صرح به الشاه ولى الله ، وهذا المؤلف نفسه قد اعترف بها فقال : «وإن كان لا ينكر أن لآراء ابراهيم النخعى أثرا خاصا فى تفقيه الامام أبى حنيفة واجتهاده[٣]» .

والشاه ولى الله حينما يعقد هذه المقارنة فى حجة الله لا يقصد القلة والكثرة فى العدد والحساب ، بل يريد تقرير ما أشرنا إليه من تأثر الامام بآراء النخعى . فالصاحبان (محمد وأبو يوسف) نعدهما مقلدين للامام أبى حنيفة مع اختلافهما معه فى ثلثى المسائل للمذهب ، فماذا لو تأثر الامام بالنخعى ؟ ولو كان التقليد عبارة عن هذا التأثر فهو أمر تقتضيه الطبيعة الانسانية .

وإنى أرى أن هذا هو تغير ثالث طرأ على موقف الحنفية (الديوبندية) من طائفة الموحدين ، فقبل ٦ مايو ١٨٣١م كان هؤلاء قريبين من أهل الحديث ، ومع تمسكهم بالمذهب الحنفى كانوا يكرهون الجمود الفقهى بل يحاولون القضاء عليه ، وكان هذا هو العمل التجديدى للشاه ولى الله وأسرته .

وبعد سنة ١٨٣١م انفصل أكثرهم عن حركة التوحيد وإقامة الدين واكتفوا من خدمة الاسلام بنشر الفقه الحنفى والجمود عليه .

---

(٣) ما تمس إليه الحاجة ص ١٤

وهؤلاء لم يستطيعوا مجاراة خلفاء الشاه ولى الله فإنهم لم يكونوا من حماة التقليد الجامد. وكان قد تم إنشاء مدرسة دار العلوم الديوبندية لنشر الحنفية المحضة، ولكن هؤلاء المؤسسين كانوا قد ورثوا احترام المحدثين من حركة الشاه ولى الله. أما الذين تأثروا بالكوثرى فيدعون إلى الجمود ويكرهون أئمة الحديث متبعين إياه ومترسمين خطاه وهم مع ذلك يرون الحديث حجة شرعية، وهذا نوع من التضاد والتناقض، ولكنهم يدفعونـــه مستندين إلى علمهم ومطالعتهم لتطمئن قلوبهم، والحقيقة أنهم لا يحترمون الأعمال التجديدية للشاه ولى الله مثل قدماء الديوبنديين. وفقهم الله للقضاء على الجمود الفقهى بفضل سعة علمهم ودراستهم حتى يبنوا آرائهم على العلم والتحقيق بدل التقليد، فهذا يؤيد ويقوى مسلك المحدثين مع ما فيه من المنقصة الظاهرة، ونحن مهتمون بهذه الحركة الجديدة، وفقنا الله للإخلاص فى العمل.

✲●✲◇✲●✲

الفصل الثـانى

فى

الموقف التـأريخى لحركة

أهل الحديث وخدماتهـا

الموقف التأريخى لحركة أهل الحديث وخدماتها

لاتزال الحركات الطيبة والخبيثة تنشأ وتفنى فى هذا العـالم ، وقـد بلغت بعض الحركات من القوة بحيث زلزلت الحكومة المعاصرة لها ، فالحسن بن الصباح والحشاشين كانوا قد أقضوا مضاجع الملوك . وكذلك كانت الحركات الطيبة مستوليـة على النفوس حتى ان الناس كانوا يتعاونون معها رضوا أم لا .

إن حركة المعتزلة كانت قـد استهوت الخليفة العباسى المأمون الذى اشتهر بعلمه وذكائه ، فتعرض أئمـة أهل السنة للخطر إلى أيام المتوكل على الله ، وابتلى الامام أحمد بن حنبل والامام عبـد العزيز الكنـانى رحمهما الله وأمثالهما من الأئمـة الكبار بأنواع من البلايا والمحن ، ويدل على تأزم الموقف حينذاك قول الأئمة الكبار فى حق الامام ابن حنبل : « فاز أحمد وخسرنا » .

حركة أهل الحديث :

وهذه أيضا حركة من الحركات نشأت فى وقتها وتبنت رسالة ملخصها :

١ — المحافظة على بساطة العقيدة والعمل فى الإسلام واتباع المنهج الوسط وقت الإفراط والتفريط .

٢ — التوسط والاعتدال فى الحب والبغض ، فإنهما ربما يؤديان الإنسان إلى الغلو .

٣ — جمع ونشر تعاليم الكتاب والسنة وعلومهما .

٤ — التمسك بمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى نواحى الحياة كلها .

وعلى سبيل المثال كان الروافض يغلون فى حب أهل البيت ، والخوارج فى بغضهم ، ولكن أهل السنة قد اختاروا الطريق الوسط . وهكذا كان من الناس من يذهب إلى التجسيم ، ومن يذهب إلى نفى الصفات عن الله تعالى ، ولكن أئمة الحديث قد اعترفوا بماهية الصفات ونفوا التشبيه والمماثلة ، وهذا هو المنهج السليم الوسط .

وقد أبطل أثر القياس الشامل النصوص والأحاديث الصحيحة ، وقد طغت الظاهرية فرفضت القياس رفضا باتا ، مع أن الأشباه والنظائر ينبغى أن تكون متشابهة الأحكام ، فالعقل السليم يقضى بذلك ، والقرآن الكريم يوضح هذه النقطة فيقول : ﴿أنزل الكتاب بالحق والميزان[1]﴾ .

---

(١) الشورى : ١٧

وكتاب المحلى للحافظ ابن حزم (م — ٤٥٦ هـ) رحمه الله، يتضمن عدة مباحث قيمة تقر بها عيون أهل الحق، ولكنه فى نفس الوقت يأتى بتعليل يحمل العلماء على الضحك، ومن ذلك أنه يمنع البول فى الماء الراكد، ولكن يبيح فيه البراز. وقد أيد الحافظ ابن القيم (م — ٧٥١ هـ) رحمه الله، موقف أهل الحق تاييدا تاما. وكان من فساد القياس أن الناس حاولوا تحليل الحرام بالاستناد إلى رخصة المحرمات والمسكرات الجزئية، فقد نرى مباحث النبيذ والطلاء وغيرهما فى مستندات الفقهاء، أما منكرو القياس فقد جعلوا البراز أخف نجاسة من البول. وهكذا ليس من العسير التأكد بأن أهل الحديث هم الذين يملكون الميزان، وهم قد استنبطوا حكم النبيذ والطلاء بقوله: «كل مسكر حرام». وإنهم كما منعوا من استعمال المسكر فكذلك منعوا من اتخاذ الخل من المسكر، أما النجاسات فقد جعلوا لها حكما واحدا، وهذا هو الذى يقتضيه القياس الصحيح وتفيده النصوص.

أهل الحديث والحركات الأخرى:

تنشأ الحركات فى الأغلب بالعوامل الزمنية، ولذلك يقضى عليها بالفناء بعد حصول الأغراض الموقتة الخاصة، فمثلا قد ظن محبو أهل

البيت النبوى أن حق الخلافة يجب أن يبقى فى هذه الأسرة، يرثه الواحد بعد الآخر، فغلوا فى طهارة أهل البيت وعصمتهم، وجعلوا على بن أبي طالب رضى الله عنه وصى رسول الله ﷺ حتى إنهم قد بدلوا كلمات الأذان والصلاة لهذا الغرض، ولكن السلطة الأموية قد أكرهت محمد بن الحنفية وغيره من رجال أهل البيت على ولاء يزيد فذهب الغرض المنشود من الحركة وذهبت عزائمها الثورية، والزعماء الفاشلون لهذه الحركة قد حولوا الحركة إلى عقيدة دينية، فأدى هذا الأمر الموقت إلى افتراق وعداء دائمين، وكان هذا هو السبيل لستر فشل الزعماء، فبولغ فى تقديس أهل البيت وعبدت القبور والمشاهد وأقيم مجلس العزاء بحيث قد تحول إلى مهرجان، والاجتماعات العزائية كانت تضارع الاحتفالات الملكية. إن الحركة قد انتهت بالنظر إلى أهداف الحياة، ولكنها زرعت فى القلوب عاطفة العداء والفرقة الدائمة التى بعدت بين أهل السنة والشيعة من المسلمين.

والخوارج قد حاولوا القضاء على هذا الغلو، وكان مرادهم أن أهل البيت ليسوا فوق المقتضى البشرى ولا معصومين مبرأين من الأخطاء، بل الواقع أن الأخطاء قد وقعت منهم. والخوارج فى هذا التصريح لم يسلموا من الغلو مثل الشيعة حتى كفروا أهل البيت، وحينما انتهت سلطة أهل البيت انتهت معها حركة الخوارج، وقد حولها الزعماء الفاشلون إلى دين وفلسفة، وأسسوا مذهبا جديدا

لا يمت إلى الإسلام بكثير من الصلة .

المتكلمون والمبتدعون :

وهكذا حاول بعض العقليين خلط الإسلام بالعقـل المصطلح والفلسفة العرفانيـة ، فنشأ الاعتزال والجهمية ، وظهرت مسألة خلق القرآن والعينية والغيرية فى الصفات مما لا حاجة إليه . ثم انتهى الأمر إلى أن كفر أهل البيت ببعض الأمور الأساسيـة للإسلام ، مع أن المتكلمين كانوا قد ادعوا أنهم يريدون فهم الإسلام فى ضوء العقل ، وما أصوب ما قاله الحافظ ابن القيم رحمه الله ضاحكا على المتكلمين :

« لا للإسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا » .

ولما هب علماء الإسلام وأئمـة الحديث يردون على الفلسفة اليونانية ويهزمون محاميهم ويهاجمون الفلسفة بعد ما كانوا فى موقف الدفاع ، رأينا أن حركات الاعتزال والجهمية وتدقيقات المتكلمين كلها قـد ذهبت مع الزمن ولم يبق منها إلا اسمهـا فى أوراق الكتب . وهكذا كانت نهاية كل حركة موقتة ، إنها قد لعبت دورها فى وقتها ، أو فقدت فعاليتها بعدم مساعدة الظروف .

أقدم حركة :

وكانت حركة أهل الحديث مستمرة فى العمل طوال هذه المدة ،

وكانت حركة عامة شاملة بحيث وجد رجالها دائما مجالا لعملهم وخدمتهم ، واحتاج الناس إليهم فى كل عصر ومصر . فكان هؤلاء الرجال يعملون فى القرن الأول الهجرى لحفظ الحديث وكتابته ، وفى القرن الثانى لجمعه وبداية التأليف فيه ، و بجانب هذا كانوا يقاومون البدع فى العقيدة وفى العمل ، ويسدون الطرق الخفية التى تتسرب منها إلى صفوف المسلمين ، وكذلك يحافظون على شمل المسلمين حتى لايتشتت فتذهب ريحهم . وهذه هى المصالح التى اضطرت العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن يرحب بحياة السجون عدة مرات ، ثم إنه بدافع من الظروف والأحوال قد نزل جنديا فى ساحة المعركة يدافع عن الدولة التى ألقته فى غياهب السجون ويناضل جيوش هولاكو وجنكيز خان . وهذه الأعمال الجليلة والمواقف الحميدة تدل على الاقتصاد الطبعى والمحافظة على المنازل ، ولعلها لا توجد إلا عند أئمة السنة وأصحاب الحديث ، فحركة أهل الحديث هى أقدم حركة خرجت حية سالمة من الفتن التى واجهتها ، وذلك لأنها لم تكن حركة موقتة ناشئة بالظروف والأحوال ، بل إنها حركة جاءت لخدمة الإسلام كافة .

فتح الهند وأهل الحديث :

إن أول ركب نزل على شاطىء الهند مظفرا منتصرا كان من أهل الحديث ، وتتجدد حتى اليوم فى السند ذكرى القرون الماضية

بالشيخ الشاه بديع الدين الراشدى وأسرتـه وبالمكتبة العظيمة التى تضم كمية كبيرة من كتب الحديث وأسماء الرجال. والموحدون فى السند ليسوا أقوياء فى هذه الأيام ولكن صفحات التـأريخ لن تنسى خدماتهم أبدا. أما الفـاتحون المغول فكانوا إلى المدنية الإيرانية أقرب منهم إلى بساطـة الإسلام ونور دين الفطرة، ولذلك لم تطل سيادة تعاليم الكتـاب والسنة وبساطة الإسلام إلى زمن بعيـد فى الهند، ولم يكثر عدد المشتغلين بالحديث مثل البلدان الأخرى، وكانت شخصية الشيخ على المتقى صاحب كنز العمال، والشيخ محمـد طاهر صاحب مجمع البحار، والشيخ المجدد أحمد السرهندى، والقاضى ثناء الله البانى بتى رحمهم الله مغتنمة حينذاك. ومقاومة علماء الحق للفتن التى قامت فى عصر الملك أكبر كانت تشبه صيحة فى واد لا توجد لهـا أذن واعية، ولكن العلماء ما سكتوا وما استكانوا. حقا كان العلماء حينذاك ضعفاء، وقوى الشر كانت متجمعة ضدهم، وكانت الفتن تهددهم، والاتجاه الإلحادى للدولة كان يسبب لهم المحن، والأعراس والمواليد كانت تحتل محل المبادىء الإسلامية، ولكن العلماء قـد هاجموا مهاجمـة عنيفة البدع، حتى كان لأصواتهم ضد التقاليد والنظريات غير الإسلامية صدى كبير ودوى عظيم فى بيئة الهنـد، رضى الله عنهم وأرضاهم.

استيلاء البدع :

وفى تلك البيئة الفاسدة صادف ظهور الملك المغولى الملحد أكبر، فتكدر الجو تماما و واجه أهل الحق مشكلات عويصة ، وأسرة الملا مبارك كانت تزيد الطين بلة فهى ظلمات بعضها فوق بعض ، ونظرا لانتشار البدع فى ذلك العصر واستيلائها مست الحاجة إلى تطهير المجتمع ، وقد بدأ فعلا على يد الشاه ولى الله ، وأتمه بعده صاحب السيف والقلم الإمام الشهيد محمد اسماعيل الدهلوى رحمه الله، وبجهوده الطيبة قد تم تطهير المجتمع الإسلامى فى الهند وسرت فيه روح الإيمان من جديد .

وكانت تهدف جماعة أهل الحديث حينذاك إلى تأسيس دولة دينية فى الهند ، يمتاز القائمون بها باتباع الشريعة الإسلامية مثل صحابة الرسول عليه السلام ، وتعيش فيها أقليات غير إسلامية آمنة مطمئنة ، فإن الإسلام لا يبيح أن يقتص من المظلوم بدل الظالم ، والاجراءات التعسفية تقوم بها الحضارات غير الإسلامية ، أما الإسلام فلن يقبل ذلك أبدا .

والهدف الثانى هو مقاومة البدع العملية ، فحال أهل السنة فى ذلك كانت تبعث على الاستغراب ، فهم كانوا يحتفلون بمجالس العزاء ، ويخرجون التماثيل من بيوتهم ، ويظهرون الحداد والمأتم فى العشرة الأولى من شهر محرم ، مع أن الإسلام لا يبيح إقامة الحداد أكثر

من ثلاثة أيام ، وكذلك ليس من الإسلام فى شىء تقديم النذور فى شهر محرم ومنع الزواج .

أما المفاسد العقدية وعبادة القبور والمزارات فكانت متنشرة جدا ، وكذلك كانت الأخلاق قد فسدت ، فالنساء الفاهرات كانت تدخل بيوت الأشراف للغناء والرقص ، ولم يكن أحد ينكر عليه أبدا .

أما أركان الإسلام فكانت مهملة متروكة ، وطواف القبور والمشاهد كان يساوى طواف بيت الله الحرام !

والمؤسسات التعليمية كانت مهتمة بالمنطق والفلسفة اليونانية ، راغبة عن علوم السنة ، اللهم إلا ما كان من دراسة جزء ضئيل من مشكاة المصابيح ليتبرك به . وكأن مسئولية الاصلاح والتوجيه كانت على أسرة الشاه ولى الله فقط ، وقد أحدثت ترجمته لمعانى القرآن الكريم ضجة كبيرة وسببت له متاعب جمة ، فكانت قوى الشر متجمعة منتشرة فى جميع الأقطار ، وكان أهل الحق مضطرين إلى مراعاة الظروف والمحافظة على المصالح والمجادلة بالحكمة .

النتيجـــة :

وقد خاض السيد الشهيد رحمه الله المعركة مع الناس على طريقة السنة النبوية لإقامة النظام الإسلامى الحق ، ولكنها انتهت بانهزام المسلمين ظاهرا ، وبعد ذلك انتشرت بقايا الجيش الإسلامى فى ولاية بنجاب وسائر أقطار الهند ، وكان الإنجليز يكيدون لحركة المجاهدين

ويتابعون أفرادها، فاضطروا إلى الاختفاء والتستر، وتعطل نشاط جماعة أهل الحديث.

وكان عالم من علماء أهل الحديث فى بنجاب وهو الشيخ محمد حسين البتالوى يذهب إلى التعاون مع الحكومة الانجليزية ويثنى ظاهرا على نظامها، وكان سبب ذلك تصلب الانجليز وعنفهم من ناحية، ونشوء الحركات اللادينية من ناحية أخرى. فكانت طائفة القاديانية وطائفة «آرية سماج» (الطائفة الهندوسية) تنشط وتقوى بمساعدة الانجليز وتشى بأهل الحق لدى الحكومة الانجليزية. ولابد لى هنا من الاعتراف بأن المغفور له الشيخ محمد حسين مع كونه عالما كبيرا ومفكرا بصيرا لم يثبت على العزيمة كما ثبت أصحابه الآخرون. وقد انقطع الشيخ عبد الجبار الغزنوى، والشيخ الحافظ عبد المنان الوزير آبادى وعلماء الأسرة اللكهوية وغيرهم من العلماء وأصحاب الفكر إلى نشر الكتاب والسنة، وبتأثير من هؤلاء الصالحين قد انتشرت دروس القرآن والسنة فى الأقطار واختفت البدع والعادات العقدية والعملية، فلله الحمد على ذلك.

وقد مرت حركة أهل الحديث فى تلك الأيام بمرحلة خطيرة جدا، وواجهت المصائب والآلام، فنفى أهلها إلى البحر المالح، وعذبوا فى غياهب السجون بأنواع من التعذيب التى لا يمكن أن يتصورها الناس اليوم.

جماعة المجاهدين :

ومن العلماء الذين استمروا فى بذل الجهود لإقامة النظـام الإسلامى : الشيخ عبد العزيز الرحيم آبادى ، والشيخ الحافظ عبد الله الغازيفورى ، والصوفى ولى محمـد الفيروز فورى ، والشيخ أكبر شاه السخانوى ، والشيخ عبد القادر القصورى ، والشيخ فضل إلهى . رحمهم الله تعالى . وكانت جهودهم سرية ، ومعظم أفراد الجماعة كانوا يعملون مع حركات التحرير الأخرى ، فكان انضمام جماعة أهل الحديث إلى حركة الخلافـة ، وحزب المؤتمر ، وحزب الأحرار ، والرابطة الإسلامية وغيرها على أساس إعلاء كلمة الله فى البلاد . وكان الساسة الأوربيون يركزون نشاطهم للقضاء على هذه الحركة المجاهدة من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت جهود الشاه ولى الله وأسرته تبذل لإقامة الدين وإعلاء كلمة الله ، وكانت مسئولية الإصلاح والتطهير على هذه الفئة القليلة التى لم تكن تملك شيئا سوى الإيمـان بالله ، أما المنهزمون فكريا فكانوا يتحاشون من كلمة « الوهابى » ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة[1] ﴾

النشاط الجدلى :

ومن العلماء من مال إلى الجدل والمناظرة ، وكان هذا علاجا

---

(١) المدثر : ٥٠ ، ٥١

ناجحا موقتا ، ومن الممكن أن يشك بعض الأصحاب فى نفعه ، ولكن الظروف والأحوال قد برهنت على نجاحه . فالقاديانية وغيرها من الفرق كانت تبذل جهودا جبارة لنشر الآراء البدعية بين الناس بحيث لو لم يقاومها العلماء لاستفحل أمرها وعظم خطرها وعم ضررها ، وكانت جهود العلماء ضد القاديانية مستمرة حوالى نصف قرن ، ونجحت حقا فى سد أبواب الفتن ، ولولا هذه الجهود لصارت هبة النبوة التى وهبها الحكام الانجليز مصيبة عظيمة للسلمين !!

وكان الهدف من هذا الكلام استعراض خدمات الجماعة التى قامت بها فى مختلف المجالات حتى يعرف عامة المسلمين دور هذه الجماعة وميزتها بين الحركات والجماعات التى تعاصرها ، وفقنا الله تعالى للاخلاص والعمل الصالح حتى ينتفع بنا الاسلام وأهله .



الفصل الثالث

فى

نشاط الموحدين

فى شبه القارة الهندية

نشاط الموحدين فى شبه القارة الهندية

إن المبتدعين فى باكستان بدؤا نشاطهم وتحركهم منـــذ قليل ، وقد عهدنا أهل البدع والشرك فى بلاد العرب والعجم يمارسون أعمال الشرك باسم الأدب ، وعبادة غير الله باسم التوسل ، ودعاء غير الله باسم الشفاعة ، وهذا الذى يتكرر فى باكستان .

إن البدع وتقاليد الشرك قد عمت وشاعت فى كل عصر بسبب التقليد الجامد للآباء وبسبب جهل العامة ، وعادات الأسرة وتقاليدها تكون دائما موضع تمسك العامة والنسوان، وهم لايريدون أن ينفكوا عنها ، بل يحسبونها حياة لهم ولآبائهم فيعضون عليها بالنواجذ ، حتى لاينفعهم الكتاب والسنة وتوجيهات الأنبياء عليهم السلام فى الابتعاد عن هذه العادات ، وهذا هو التقليد الجامد الذى اعتبره أئمة الإسلام وقادة المسلمين من السلف نوعا من الشرك .

ومنذ أن هدم النبى ﷺ بناء الشرك وفرق جمع المشركين وكسر شوكة تقليد الآباء وجمود الشرك لم تقم للشركين وأهل البدع والعادات قائمـــة ولم تتوحد كلمتهم . وكان للشرك والبدعة انتشار قبل الإسلام

وبعده على أيدى أتباعهما وأنصارهما ولكنهم لم يستطيعوا أن يواجهوا أهل الحق بالأدلة والبراهين.

وفى الأيام الأخيرة للملوك المغول قد صار الجو ملائما للعادات الهندوكية وأعمال الشرك والبدعة فى القصور الملكية، وواجه المتمسكون بالكتاب والسنة ومذهب السلف مشاكل كبيرة بسبب تواطؤ أهل الرفض والبراهمة ضدهم، وكان الفساد قد عم حتى فشلت جهود العلماء العادية، ومست الحاجة إلى تضحية كبرى، وكانت مؤامرة أهل الرفض قد ظهرت، وتولى الجيش الإنجليزى المحتل دفاعه وحمايته لأهل البدع والشرك، وهكذا قوى أولياء الشيطان وأساطين الشرك والبدعة ولم يمكن العلماء العاديين مقاومة الفتن، وإذا وصلت الحالة إلى ما ذكرنا لوجب أن ينزل العلماء إلى ساحة النضال، أو ينتظروا قوة خارقة تغير الحال.

أسرة قرشية:

وفى معترك الموت والحياة هذا أصغت أسرة قرشية كريمة الطرفين إلى نداء الوقت وسيطرت على جو المقتل كله، وقد سن سنة التضحية هذه رجل عمرى فاروقى فى بداية القرن الحادى عشر، فبارز جنود الشيطان شأن المجددين، وحرك بقوته البالغة سرير الملك شاه جهان والملك جهانكير، وصرح لدى حكام عصره بأن الملك

ليس إرث آبائكم، بل إنه هبة الله الرحمن القهار، فلو لم تؤدوا واجبكم نحوه لسلب وفوض إلى غيركم، ﴿إن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم[١]﴾ وتظهر قوى الرحمن فى صورة القهر.

وأعلن هذا الرجل المخلص بجد تام أن الملك لحماية حقوق الشعب، وللحافظة على كتاب الله وسنة محمد ﷺ، ومن لا يستطيع من الملوك القيام بما ذكر، فعليه أن يتخلى عن كرسى الحكم، فإن هدفه الخدمة لا الرئاسة، وتطلب فيه العبودية لا الإمارة، وهذا الملك ليس لأن يسجد لكم خلق الله، وتتعالى رقابكم فى ترفع، ولأن تتلهوا فى الرقص والغناء والمجون وينحنى الشعب أمامكم.

وقد واجه صاحب هذا النداء المخلص سجنا فى حصن «جواليار» وحبسا لمدة سنوات، ولكن هذا الابتلاء لم يدم، واضطرت السلطات لفتح باب السجن ورفع القيود المفروضة والاستسلام للصدق والحق.

واليقظة الدينية التى بدأت برسائل الإمام الربانى وتعاليم المجدد الأعظم قد عمت وقويت حتى استعدت أسرة هندية وتحملت مسئولية الإصلاح وتحدت قوى الشر وأنذرتها بأن تتنحى عن الطريق فإن محاربة الله لا تحسن عاقبتها.

(١) سورة محمد: ٣٨

حكيم الأمة الشاه ولى الله :

كان الشاه ولى الله رحمه الله تعالى قائد العساكر الإسلامية فى تلك المعركة ، فقد ألقى نظرة حكيمة على بيئته ، وتألم مما رأى من مظاهر المجون والدعة فى قصور الملوك ، ومن مظاهر البدع والعادات ، وانحلال الخدم والحرم ، وكان ينظر بعينه الثاقبة أن الأسرة المغولية قد أوشكت على الانهيار والانقراض ، وهى تنقضى عاجلا أو آجلا .

ومن ناحية أخرى كان يعرف عذر هؤلاء الملوك الجهلة ، فأهل الرفض كانوا يخدعون الناس — وفيهم الملوك وأسرتهم — بادعائهم حب أهل البيت النبوى ، فكانوا بمثابة « البراهمة الحسينية » ، وكان معظم علماء ذلك العصر والفقراء المحترفين على شاكلتهم .

وفى بداية القرن الحادى عشر كان عدد حزب الشيطان قليلا ، ولكنه ازداد وكثر بعلماء السوء الذين كانوا مستعدين للنيابة عن سلفهم فى نشر وتعميم الشر والفساد ، وكأن الفتن كانت على وشك الانفجار فى ثانية وأخرى . وقد ترك هذا الوضع على الشاه ولى الله أثرا مزيجا من التألم والترحم ، ولذلك نادى بصوت لين لا خشونة فيه ولا زجر ، بصوت هادىء لا تحدى فيه ، كان يرثى لحال الإنسانية ويستعرض البيئة التى يعيش فيها فيتكلم مرة بلغة التصوف حتى يحسب الناس أن الإمام الغزالى قد جاء برسالة تزكية القلوب ، ويتكلم أخرى بلغة الفقهاء الجامدين فى القرن الرابع حتى يحسب الناس أن فقيها

نابغا يخاطبهم، ويتكلم مرة فيقول: «إن مذهب الفقهاء المحدثين صار مرضيا عندى» حتى يحسب الناس أن الداعى إلى مذهب السلف قد جاء مع رسالة القرون المشهود لها بالخير لهداية الناس، وهكذا قد تيقنت كل طائفة بأنه منها، وحاولت الاستفادة من توجيهاته. ولذلك سموه بـ «حكيم الأمة».

وكان الشاه ولى الله يحاول توضيح الطريق الوسط مجتنبا الإفراط والتفريط، ويهدف إلى أن يعلى كلمة الإسلام بدون إثارة الفتن والفوضى، وأن يعود الناس إلى التمسك بالكتاب والسنة حتى ييأس منهم الشيطان، ويخلى سبيلهم.

ومعنى ذلك كله أنه كان يرمى إلى إصلاح التصوف وإلى القضاء على الجمود الفقهى، حتى يتمكن الناس من العمل بسنة النبى ﷺ وبطريقة أصحابه. ولاشك أن فهم الدين يتأتى بالأئمة المجتهدين ولكنهم لايصلون قط إلى منزلة الشارع، بل يبقى الكتاب والسنة المصدر الأصلى الدين، نعم يستأنس بمذاهب وأقوال الأئمة المجتهدين، وإلى هذا الاقتصاد والتوسط أشار الشاه ولى الله فى حجة الله البالغة والمصفى والمسوى وإزالة الخفاء من كتبه القيمة الفريدة، مما يدل على أن حكيم الأمة كان يرمى إلى ثورة تكون أساسا لإحياء الكتاب والسنة حتى تشرق أرض الهند بنور الله.

جنود إبليس :

طبعا كان حكيم الأمة يرغب فى السلام ، ولكن قوى الشر كانت تقصد الفوضى والفساد ، فإنها بذلك تنجح وبه تحقق أهدافها الخبيثة.
إن الشاه ولى الله ترجم معانى القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية فقامت الدنيا وقعدت ، واغتاظ أهل الفساد ، ورد على عباد القبور فاستعدوا للجدال ، وحاول أهل التشيع أن يجعلوا الاحتفال بيوم شهادة الحسين رضى الله عنه من شعائر الإسلام ، وكان هؤلاء المبتدعون يدعون بأن الشاه ولى الله لايستطيع أن يفهم كتاب الله ، وإنه بترجمة معانيه إلى لغة أعجمية قد أساء إليه ، وكيف يستطيع الإنسان أن يصل إلى مقاصده والمراد منه ؟

ولتذليل هذه العقبات قد استعان الشاه ولى الله بالمدرسة الرحيمية ، ولم تكن مدرسة تقليدية يشتغل فيها الأساتذة كأنهم أدوات الانتاج وآلات المعامل ، ولا الطلبة كأنهم منتوجات تعرض فى السوق للبيع غاليا أو رخيصا ، بل كانت مدرسة فكرية تدرب الطلاب على المزج بين التصوف والسنة ، وبين فقه العراق وفقه الحديث ، وفى الظاهر كانت مدرسة لفقه العراق ، ولكن الشيخ طاهر المدنى كان قد أضاءها بنور الحديث ، فكانت تناضل ضد البدع وتقضى على الجمود الفقهى

بالاجتهاد ، وتحي مذهب الفقهاء المحدثين . ومن الفحول الذين تخرجوا فيها صاحب دراسات اللبيب ، والشاه عبد العزيز والشاه عبد القادر والشاه رفيع الدين والشاه عبد الغنى رحمهم الله ، وكان كل منهم أمة واحدة وعلما فى رأسه نار، وكانوا يدعون إلى طريقة شيخهم وسندهم .

« بعـد دراسة كتب المذاهب الأربعة وكتب أصول الفقـه والأحاديث التى يتمسك بها يميل القلب بتأييـد من الله وهدايته إلى الفقهاء المحدثين[1]» .

‡ ※●※◇※●※ ‡

(١) اتحاف النبلاء ص ٤٢٩

الفصل الرابع

فى

بيان حكم التقليد

وتحقيق القول فيه

ترك التقليد وأهل الحديث :

تجرى هاتان الكلمتان (ترك التقليد وأهل الحديث) على لسان العامة منذ مدة، ويظن على الأغلب أن بينهما ترادفا، وهما قد استعملتا فى الهند ضد الأئمة الأربعة رحمهم الله والتمسك بالمذاهب التى تنسب إليهم، ولكن الحقيقة أن هؤلاء الأئمة الكرام وأتباعهم أيضا قد خالفوا الجمود، ثم إن المحققين من العلماء قد أبدوا خلافهم مع الأئمة المجتهدين فى المسائل الفرعية مع احترامهم وعقيدتهم للأئمة الأربعة .

ونرى أن الإمام أبا جعفر الطحاوى (م — ٣٢١ ﻫ) والإمام أبا ابراهيم اسماعيل بن يحي المزنى (م — ٢٦٤ ﻫ) وشيخ الإسلام محمد بن قدامة الحنبلى (م — ٦٠٧ ﻫ) وشيخ الإسلام ابن تيمية (م — ٧٢٨ ﻫ) وغيرهم من الأئمة الأعلام مع انتسابهم إلى أحد من الأئمة الأربعة كانوا يختلفون معه فى المسائل، ولم يكن هذا الخلاف سببا للنافرة وتحاشى الأفكار لهؤلاء الأئمة ولا لأتباعهم، ولا يزرى بمكانتهم العلمية .

وقد ذكر العلامة أبو زيد عبيد الله بن عمر بن عيسى الدبوسى (م — ٤٣٠ ﻫ) فى كتابه « تأسيس النظر » صورا عديدة لاختلاف الأئمة المجتهدين رحمهم الله تعالى فمثلا :

١ ــ الخلاف بين الامام أبي حنيفة وبين صاحبيه .

٢ ــ الخلاف بين الامام أبي حنيفة والامام أبي يوسف وبين الامام محمد رحمهم الله .

٣ ــ الخلاف بين الامام أبي حنيفة والامام محمد وبين الامام أبي يوسف .

٤ ــ الخلاف بين الامام أبي يوسف وبين الامام محمد .

٥ ــ الخلاف بين أبي يوسف ومحمد والحسن بن زياد وبين الامام زفر .

٦ ــ الخلاف بين الحنفية وبين الامام مالك .

٧ ــ الخلاف بين الحنفية وبين الامام ابن أبي ليلى .

٨ ــ الخلاف بين الحنفية وبين الامام الشافعي .

وقد ذكر العلامة الدبوسي أصول هؤلاء الأئمة . وبه نعرف أن الأئمة المجتهدين كانوا مختلفين فيما بينهم في الأصول ، والظن بأن الأئمة الشافعي وأبا حنيفة وأحمد بن حنبل ومالكا رحمهم الله كانوا مختلفين في الأصول ولكن لايوجد بين تلاميذهم خلاف أصولي ، ظن سطحي لايستند إلى تحقيق .

بل الواقع أن التلامذة كانوا يختلفون مع أساتذتهم مثل خلاف الأساتذة فيما بينهم ، والخلاف بين الأئمة وتلاميذهم خلاف أصولي مثل الخلاف بين الأئمة المجتهدين ، فكميتهما قد تختلف ولكن النوعية هي هي .

اختراع كلمة « غير المقلد » :

ويبدو أن كلمة «غير المقلد» لم تكن اخترعت بعد، أو لم تستعمل للطعن، ولم تنتشر لدى أئمة الإسلام وصلحاء الأمة، أو لم تدع حاجة سياسية إلى اختراع هذه الكلمة.

وكذلك لم يكن التقليد لقبا يفتخر به ويعاب من يتركه أو يتأسف له، نعم كان أئمة المعقول من الفلاسفة والمتكلمين يلقبون أئمة السنة من الفقهاء وغيرهم ومن المجتهدين وغيرهم بالمقلدين، وينظرون إليهم نظرة الازدراء والاحتقار، وذلك أن منزلة النقليات عندهم لم تكن أعلى من الظن قط وكانوا يحصرون الدليل فى العقليات. ويقول الإمام الغزالى فى كتابه: «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» بصدد المقارنة الايجابية بين آراء المعتزلة والأشاعرة وما هم فيه من الإكفار والتفكير: فإن تخبط فى جواب هذا أو عجز عن كشف الخطاء فيه فاعلم أنه ليس من أهل النظر، وإنما هو مقلد، وشرط المقلد أن يسكت أو تسكت عنه[1]».

ونرى تضاربا واضطرابا غريبين فى عالم العمل والعقيدة بعد قرون الخير، فلم يكن هناك تقليد أو جمود، بل نجد فى العقيدة والفروع أن الفكر والنظر وكذلك الفقه والاجتهاد قد انقسما إلى نواح عديدة، فمثلا: كان غسان بن أبان الكوفى مرجئا وإماما للطائفة

(١) ص ١٨

الغسانية مع كونه تلميذا للإمام محمد بن حسن الشيبانى، ثم إنه كان ينكر نبوة عيسى عليه السلام[١]، مع موافقته للإمام أبى حنيفة فى زيادة الايمان ونقصانه. أى كان يقول إن الايمان لايزيد ولاينقص.

ويقول المقريزى عن بشر بن غياث المريسى امام الفرقة المريسية: «كان عراقى المذهب فى الفقه، تلميذا للقاضى أبى يوسف ويعقوب الحضرمى». وكان الإمام الشافعى قد ناظر معه، وقال ساخرا منه: «نصفك كافر، لقولك بخلق القرآن ونفى الصفات، ونصفك مؤمن لقولك بالقضاء والقدر وخلق اكتساب العباد[٢]».

مصطلح «المقلد» و«غير المقلد»:

ومع هذا الانقسام والتضارب فى العقائد والفروع لم يستعمل مصطلح المقلد وغير المقلد حينذاك، مع أن الناس كانوا مقلدين وغيرهم، وكان يجرى بينهم بحث ومناقشة للمسائل، ولعل الواحد كان يفتى ضد الآخر على أساس الخلاف فى المسائل، ولكن مع ذلك كله لم يكن بينهم تنافر ولاتنابز بالألقاب مع الاختلاف الجذرى فى وجهات النظر.

الدولة ونشر المذاهب:

إن قبول المذاهب السائدة بعد انتشار التقليد لم يكن يتوقف على

---

(١) المواعظ والاعتبار للقريزى ١٧١/٤

(٢) نفس المصدر

العلم والتفقه والتعليم والتلقى فحسب ، بل الدولة واتجاهها وكذلك العوامل السياسية قد لعبت دورا هاما فى هذا المجال ، ومنصب القضاء أيضا قد أسهم كثيرا فى نشر العقائد والآراء ، ففى إفريقيا كانت الأغالبة متمسكة بالسنن والآثار وبمذهب أهل الحديث ، ولكنه حينما ولى الخليفة المرتضى بن هشام بن عبد الرحمن فى سنة (١٨٠ﻫ) إمارة إفريقيا عين يحيى بن يحيى قاضيا فيها ، وكان يحيى هذا تلميذا للامام مالك وابن وهب (م — ١٩٧ ﻫ) وابن قاسم (م — ١٩١ ﻫ) ، وكان محترما فى الأندلس ولايعين القضاة إلا بأمره ، فكان يختار القضاة من الذين يعتقدون فى الامام مالك ، يقول المقريزى : « وعادت الفتيا إليه ، وانتهى السلطان والعامة إلى بابه ، فلم يقلد فى سائر أعمال الأندلس قاض إلا بإشارته واعتنائه ، فصاروا على مذهب مالك ، بعد ما كانوا على رأى الأوزاعى[1] » .

أين التقليد ؟

قام الشيخ محمد تقى العثمانى بن المفتى محمد شفيع بإبداء رأيه السامى حول مسألة التقليد الشائع، فى مجلة « فاران » عدد مايو سنة ١٩٦٥م، وقد التزم فى مقاله بمنهج سليم واجتنب الطعن والأسلوب النابى وإنى أشكر فضيلته على هذا الموقف .

---

(١) المواعظ والاعتبار ١٤٤/٤

وقد أعلن الشيخ براءته من التقليد بمعناه اللغوى، وأرجو أن ينظر فيه بمعناه العرفى والمصطلح عليه بين أهل العلم أيضا، هو وغيره من العلمـــاء المحققين، فإن الموضوع قد قتل بحثا وكتابة، ولم يبق منه إلا أن يقال إنه خلاف لفظى. والمعنى الاصطلاحى أيضا ليس جديرا بأن يقبله أصحاب العلم بطيب النفس، نعم إنه مناقشة ولاندرى إلى متى تستمر؟ أما نظرية التقليد فلا تحظى بقبول فى أى وسط من الأوساط، فإن العـالم يتطلع الآن إلى التحقيق ويأبى قبول المسموع المحض ويستثقله.

والشيخ اقترح فى مقـاله اتخصيص لفظ آخر، وإنى أقول إنه لا حاجة إلى ذلك، فإن كلمـة «الاتباع والإطاعة» تعبر عن فطرة إنسانية وهى تكفينا، ولا يمكن الفصل بين معنى التقليد اللغوى ومعناه الاصطلاحى، وكذلك يجب اعتبار الجهل أو قلة العلم فيه.

تعريف التقليد:

ورد فى تعريف التقليد فى مسلم الثبوت[١]: «التقليد: العمل بقول الغير من غير حجة». وفى مختصر ابن الحاجب[٢]: «التقليد: العمل بقول غيرك من غير حجة». وفى أصول الفقه للخضرى[٣]: «التقليد

(١) فواتح الرحموت ٦٢٤/٢

(٢) مختصر ابن الحاجب ص ٢٣١

(٣) أصول الفقه ص ٤١٨

هو قبول قول بلا حجة ، وليس من طريق العلم ، لا فى الأصول ولا فى الفروع » . وفى الأحكام لابن حزم[1]: « التقليد اعتقاد الشىء لأن فلانا قاله مما لم يقم على صحة قوله برهان » .

وليس القصد من هذه التعريفات بيان فوائد القيود أو التحليل النحوى ، بل أريد أن أشير إلى أن القدر المشترك فى جميع التعريفات هو أن التقليد عبارة عن الإطاعة والاقتداء بدون دليل ، ويحل فيه حسن الظن (برجل) محل العلم والاستدلال والنظر والبحث ، والعلماء لايرونه علما .

ومن البـديهى أن الإنسان مجبول على حب العلم والتحقيق ، ولا يحب أن يتبع أحدا بدون علم وتفكير ، وكذلك لا يكره أحد أن يرجع إلى العلماء فى الأمور التى لايعلمها ، وأن يحققها . ولكن تستعمل كلمة الشرك وما يماثلها إذا صرف النظر عن الدلائل ويعتمد على حسن ظن محض ، ويستدل بما لا يكون دليلا ، فمن البين أن هذا محاولة لتسوية النبى ﷺ بمن يتبعه فى الإطاعة والاتباع .

ونجد فى فقه المذاهب السائدة اليوم مسائل لا يؤيدها الدليل ، ولكن الناس سلموها وجرى العمل بها بمجرد حسن الظن أو التزام الطاعة ، ومن ذلك إرسال اليد فى الصلاة عند المالكية ، ونكاح الزانى

---

(١) الأحكام لابن حزم ص ٤٠

بنته التى ولدت بالزنا عند الشافعية ، و وجوب قنوت الوتر واتخاذ الخل من الخمر واعتبار مدة الرضاعة سنتين ونصف عند الحنفية . وتدقيق أصحاب المذاهب فى هذه الفروع معروف لدى الجميع ، ولكن لا يوجد فيها نص ، وإنما شاعت هذه المسائل بناء على أصول أصّلها العلماء أو على حسن الظن بهم ، نعم يوجد فى كتب المذاهب مايسمى إلزاما أو لطائف جدلية ، ولكنها لا تسمى دلائل لهذه المسائل .

متى استعمل لفظ التقليد :

قال الشيخ العثمانى : « لا نعلم متى بدأ استعمال كلمة « التقليد » ، ولوعلم فيما سبق أنها تؤدى إلى سوء التفاهم لما أجيز استعماله . ونرى أن كلمة التقليد كانت تستخدم فى عصر الأئمة الأربعة ، والصحابة رضى الله عنهم ، كما فى سنن الدارمى وعقد الجيد وحجة الله البالغة ودراسات اللبيب والميزان للشعرانى وجامع بيان العلم وفضله وغيره من الكتب ، فعن عبد الله بن مسعود أنه قال : « لايقلدن رجل رجلا دينه ، إن آمن آمن ، وإن كفر كفر » .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : « لا يقلدن رجل رجلا دينه ، إن آمن آمن ، وإن كفر كفر» .

وفى عقد الجيد[١] : « لا تقلدنى ولا تقلدن مالكا ولا الأوزاعى ،

(١) عقد الجيد ص ٤٩

وخذ الأحكام من حيث أخذوا».

وهذا يدل صريحا على أن كلمة التقليد لم تستعمل آنذاك للدلالة على معنى مستحسن، وكذلك يستعمل لفظ «غير المقلد» للجمل الذى لا زمام له، فكلاهما لا ينبئان عن معنى حسن.

الميل الطبيعى إلى التحقيق:

ومع الانتماء إلى الأئمة المجتهدين رحمهم الله ومع التصلب البالغ فيه نجد فى أتباع الأئمة من العلماء من لا يقلدهم فى كل مسألة بل يختلفون معهم على أساس التحقيق، وفى مختصر الطحاوى مسائل كثيرة اختلف فيها الطحاوى مع الامام أبى حنيفة رحمه الله، وفى معانى الآثار أيضا أمثلة لهذا الخلاف. وفى ضوء تعريف التقليد المصطلح عليه نرى أنه لايصح إطلاق كلمة «المقلد» على مثل هؤلاء الأئمة، فإن اتجاههم يدل على عدم اهتمامهم بالتقليد.

ونرى فى العلماء الأئمة المرغينانى صاحب الهداية، والكاسانى مؤلف بدائع الصنائع، والسرخسى، وقاضى خان، والنسفى، وابن قدامة، وابن تيمية، وأبا اسحاق ابراهيم بن على بن يوسف صاحب المهذب، والزرقانى، والباجى، وابن رشد، والشاطبى وغيرهم، وهم جميعا يقررون مذاهب أئمتهم فى ضوء الرواية والدراية، ولو جاز الاختلاف معهم فى طرق الاستدلال فلا يجوز أن يشك فى كونهم محققين، فتعريف

التقليد لا ينطبق عليهم بعد ممارستهم عمل التحقيق والاستدلال. والشيخ العثماني نفسه قد سلك مسالك التحقيق لإثبات التقليد، وإذا كان كذلك فأين التقليد؟

أهل الحديث أو معارضو التقليد:

إن الذين يدعون ترك التقليد يسمون «غير المقلدين» أو «اللا مذهبيين» أو «الوهابيين»، ولا فرق بين موقفهم وبين موقفكم (خطاب للشيخ العثماني) والفريقان يؤيدان مواقفهما بالرواية والدراية فلا تفريق في العمل.

والحقيقة أنه لا غنى عنهم للفقهاء المحدثين وأئمة الدراية وحفاظ الحديث وأئمة الأصول، فالجميع يستفيدون من علومهم، فكيف تسمون «مقلدين» وهم «غير مقلدين»، وهذا كما يقال:

«تكره الخمر وتعيش كالسكران[1]»

وعلى هذا يسأل مخاص: أين التقليد؟

وقد قلتم عن كلمة التقليد انها لم تستعمل في محلها، ولكن الواقع أن المصطلح بأسره ليس في محله، فإن «عدم العلم» قد أخذ بجزء

---

(١) ترجمة شطر فارسي نصه:

منكر مے بودن وهم رنگ مستاں زیستن

فى تعريف التقليد، و ورد التصريح بذلك فى أقوال الأئمة، يقول ابن القيم:

«قال أبو عمر وغيره من العلماء: أجمع الناس على أن المقلد ليس معدودا من أهل العلم، وأن العلم معرفة الحق بدليله. وهذا كما قال أبو عمر رحمه الله، فإن النـــاس لايختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدليل، أما بدون الدليل فإنما هو التقليد[1]».

وجمهور الشافعية يرون أنـــه لايجوز للمقلد أن يفتى فإنه ليس بعالم: «أحدها أنه لا يجوز الفتوى بالتقليد، لأنه ليس بعلم، والفتوى بغير علم حرام، ولا خلاف بين الناس أن التقليد ليس بعلم، وأن المقلد لا يطلق عليه لفظ العـــالم، وهو قول أكثر الأصحاب وقول جمهور الشافعية[2]».

وقد ذكر ابن القيم بهذا الصدد مذاهب أخرى، يقول الغزالى: «إنمـــا شأن المقلد أن يسكت أو يسكت عنه[3]». والتقليد ليس بعلم باتفاق أهل العلم[4]. وفى الكافية الشافية لابن القيم:

---

(١) إعلام الموقعين ١ / ٧

(٢) نفس المصدر ١ / ٤٥

(٣) فيصل التفرقة

(٤) إعلام الموقعين ٢/١٦٩

العلم معرفة الهدى بدليله ما ذاك والتقليد يستويان
إذ أجمع العلماء أن مقلدا للناس والأعمى هما أخوان

وأنتم — بحمد الله — علمـــاء ولكنكم مصابون بشعور النقص. ولو أثبتم وجود التقليد فى عصر الصحابة والتابعين فهذا يعنى أن ذلك العصر أيضا كان خاليا من النظر والتفكير والعلم والبصيرة، وأى هدية هذه تهدونها إلى الصحابة والتابعين وأئمة الهدى؟ كان ينبغى بدل ذلك أن يعترف بالتقصير وقلة العلم بالنسبة للأجيال القادمة، أما ادعاء التقليد لجميع الناس وأكابر الأمة فهذا موقف لايستحسنه أهل المعرفة.

حال القدماء والعلماء:

هذا هو تصريح العلماء، المتقدمين منهم والمتأخرين عن التقليد، ومن ناحية أخرى نرى أن أهل العلم يستدلون بالكتاب والسنة لتأييد مذهبهم فى متون كتبهم وشروحها. وهم يختلفون مع أئمتهم بجراءة فى المواضع التى خالفت فيها آراء أئمتهم الكتاب والسنة. ففى مؤلفات الإمام محمد والإمام أبى يوسف وحسن بن زياد وتلامذة السرخسى والطحاوى وغيرهم رحمهم الله مسائل كثيرة اختلفوا فيها واختاروا لهم طريقـــا آخر، وأحيـانا تمسكوا برأى إمامهم فى فهم النصوص ولم يلتفتوا إلى إمام آخر مجتهد، وهذا لا يكون إلا من المحقق. ونراهم يسلكون مسلك التحقيق فى شروح الحديث وشروح المتون

الفقهية ، و يوردون على معارضيهم ايرادات واعتراضات ، فهل هذا تحقيق أو تقليد ؟

أما ميلهم إلى التقليد فمرجعه إلى أن المقلدين لا يثقون بعلمهم فلا يقدمون على الخروج من وحول التقليد ، ويسمون العلم والفهم تقليدا ليطمئنوا عامتهم ، أما تسميتهم « مقلدين » بالمعنى الاصطلاحى للتقليد فيبدو عسيرا .

حقيقة الحاجة إلى التقليد :

إن الأئمة المجتهدين ليسوا فى حاجة إلى التقليد ، فمنزلتهم أرفع من قيود التقليد ، أما العامى فمحروم وقيل فيه : العامى لا مذهب له . يقول الشامى : « قلت : وأيضا قالوا : العامى لا مذهب له ، بل مذهبه مذهب فقيهه ، وعلله صاحب التحرير بأن المذهب إنما يكون لمن له نوع نظر واستدلال وبصر بالمذاهب على حسبه ، الخ[1] » .

أما المدرسون الذين يدرسون فى المدارس ويملكون كفاءة حسنة فقد قيل لهم إنكم لستم بحيث تأخذون الأحكام وتستدلون بمصادر الشرع بعد الأئمة الأربعة ، فعلمكم ليس بعلم ، وأنتم مقلدون . وهؤلاء لا يبلغون إلا خمسة فى كل ألف ، وهم يصيرون ضحايا للتقليد ، ومعنى ذلك أن عدد المقلدين ينحصر فى مئات أو ألوف من الأشخاص فقط .

---

(١) رد المحتار ٤/٢٩٤

ولمتعلم أن يسأل : متى انعقد الاجماع على التقليد ؟ ومن أجمع وأين ؟ وأين يوجد الشيء الذى يتصل وجوده فى الخارج بآفاق العدم، ويحرم منه العلمــاء والعامة معا ؟ وماذا يترتب على الاجماع الذى انعقد على إيجاب علم أو معرفة ليس لفحول العلماء فى حاجة إليهــا ، ولا تستطيع العامة الوصول إليها ؟ وماذا يحدث لو رفضنا مثل هذا الشيء ؟ إن المجتهد والعامى لا يتأثران به فمن يبقى بعــدهما ؟ وما هى نوعية هذا الوجوب ، شرعى أو اضطرارى ؟

مرونة فى المعنى :

كان المظنون أن الشيخ العثمانى يساعد فى إصلاح الحال بالتنازل عن موقفه قليلا كمــا أحدث مرونة فى لفظ التقليد ، ولكن كلامه لم يزل ذا عنف جدلى كما عهدناه من العلماء ، إن طائفة من العلماء تعتبر التقليد بدعة ، والشيخ العثمانى يوجبه ، فكيف الموافقة ؟

سهل وصعب :

وبعد ذلك قال الشيخ العثمانى إن الحاجة إلى التقليد لا تمس فى المسائل السهلة ، ولكن لابد منه فى المسائل الصعبة ذات الوجوه المختلفة . وبهذا الصدد جاء من الشيخ كلام غريب ، يقول : « إن الطاعة فى هذه الأمور كلها لله ولرسوله فقط ، ومن يقول بطاعة أحد غير الرسول ﷺ ويرى أنه مطاع بنفسه فهو خارج عن الدين » .

وهذا كما تقول البريلوية (عباد القبور) إننا لا نقول إن أصحاب القبور والزوايا آلهة بالذات، بل هم نواب أو مجازون من الله. ثم يفتحون عليهم أبواب الشرك باسم الأدب والوسيلة والشفاعة وغيرها. وهكذا أنتم تؤولون النصوص فى دروسكم، وتبقى أقوال الأئمة على مواضعها، وهذا اتباع للأئمة فى الحقيقة. والرسول ﷺ ينظر يوم القيامة كيف أنهم لووا أعناق الحديث وحافظوا على أقوال أئمتهم، فما الفائدة من قول «بالذات» بصدد الكلام عن المطاع؟

«سلام على الصوفيــة والعلمــاء، فقــد بلغونا رسالة الله
ولكن تأويلهم قد أوقع الله ورسوله وجبريل فى الحيرة[1]»

أما أمر السهولة والصعوبــة فمن المتضايفين، فكل صعب سهل بالنسبة إلى ما هو أصعب منه، وكذلك كل سهل صعب بالنسبة إلى مــا هو أسهل منه، فهــذا التقسيم لايحدث أثرا ملموسا فى التقليــد، ولايكون ميزانا لحقيقة.

وكما قال الشيخ العثمانى إن القــرء تدل على الحيض والبعوض ومضاربة الأرض، وبعض الأئمة يجوز معنى وبعضهم يرده. وكذلك

---

(١) ترجمة بيت فارسى نصه:

زمن بر صوفى وملا ســلامــے كه پيغــام خدا گفتند مارا
ولــے تاويل شان درحيرت انداخت خــدا وجبريل ومصطفى را

يعسر الجمع بين حديثين مختلفين فى الفاتحة ، أولها حديث : من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة ، وهو يقتضى أن لا تقرأ الفاتحة خلف الإمام ، وحديث : لاصلاة بفاتحة الكتاب ، وهو يوجب قراءة الفاتحة خلف الإمام .

وهذا إشكال ، فالحديث يحتمل وجوها ، فما هى السهولة التى جاء بها التقليد ؟

إنكم (الحنفية) فهمتم من القرء معنى الحيض بناء على قول الإمام ، وتجاهلتم المعنيين الآخرين ، والشافعية فهموا منه معنى البعوض بناء على قول إمامهم ، متجاهلين المعنى الآخر ، ولكن هذا الصنيع لم يوضح معنى الآية ولا حل مشكلة لغوية ، بل الذى رأينا هو أن الحنفية والشافعية قد تكتلوا فى كتلتين قويتين وقام بينهم مجادلة دائمة ومعارك طاحنة ساحتها بطون الكتب الفقهية وشروحها وهوامشها . أما الكتاب والسنة واللغة العربية فلم تحصل منها على طائل ولا انتفعت فى شىء . إن المسائل السهلة لم تكن فى حاجة إلى التقليد ، ولكن المعركة استمرت فى المسائل الصعبة بعد التقليد أيضا ، فما الذى نستفيده من التقليد ؟

ولو نظرنا بعين العدل والحق لقضينا بأن جميع الجهود قد ذهبت سدى ، وبقيت المعركة كما كانت ويئس الناس من الصلح .

وهكذا كانت الحال فى المعركة التى قامت حول وجوب قراءة

الفاتحة ، فالنزاع دام واستمر ، ولم ينفع فيه التقليد وتركه ، فلوكان التقليد حاسما للنزاع فلماذا بقيتم فى جبهاتكم متحاربين ؟

«لوكنت تحسن نظم حبات سبحتك فى سلك الألفة فلماذا بقيت منثورة مشتتة[1]» ؟

واعلم أيها الشيخ ! أن مجرد استفهام العلماء وقبول آرائهم فى ضوء الكتاب والسنة لا يعتبره أحد شركا أو إثما ، ولكن النقاش يقوم حينما يوجب اتباع رأى عالم ويحرم الاختلاف معه ولا يسمع قول عالم أو مجتهد غيره ، وبعد هذا كله ما الذى بقى له فعلا من منصب الرسالة ؟

التقليد المطلق والشخصى :

إن الشيخ العثمانى قسم التقليد فى قسمين ، وقد اضطر لإثبات كل قسم إلى تركه . ونحن نشكر الشيخ على صراحته ، ونتساءل أين التقليد ؟ ثم نقول باحترام : إن التقليد الذى تسمونه « مطلقا أو عاما » ليس محل النزاع حتى يحتاج فيه إلى البحث والنظر .

ومن البديهى أن كل متعلم يتأثر بمعلمه ، وكل جاهل — أو قليل

(١) ترجمة بيت بالأردية نصه :

رشتۂ الفت میں گر ان کو پرو سکتا تھا تو

منتشر کیوں پھر تری تسبیح کے دانے رہے ؟

العلم — يحتاج إلى عالم، بل كل عالم يرجع إلى من هو أعلم منه، وكل مفضول عليه إلى من هو أفضل منه، وهذا من سنة الله وهداية القرآن، ولا يستطيع أحد أن ينكره، وكذا تأسس علم المتأخرين على علم المتقدمين، وهذا لا يسمى تقليدا، بل هو استفادة علمية، فكل فكر يؤيد و يطمئن الآخر، وهذا يقبله على التحقيق لا على التقليد، فمخطئ من يسمى هذا تقليدا، ولو أصررتم على تسميته تقليدا فهذا أمر لا يدخل فى نطاق بحثنا ومناقشتنا، ونحن على يقين أن الامام أبا يوسف والامام محمدا رحمهما الله تعالى ما قلدا قط الامام أبا حنيفة، وكذلك لم يكن المزنى مقلدا للشافعى، ولا الأشهب وابن وهب للامام مالك، ولا أبوداود وابن قدامة وابن تيمية للامام أحمد رحمهم الله. وكل ما كان بينهم هو تأثر التلميذ بشيخه، فاتفقوا مع شيوخهم فى مسائل، واختلفوا فى أخرى، فسموه بما شئتم ولكن الحقيقة أنه استفادة علمية، وهذا لا خلاف فيه.

ثم قول الشيخ العثمانى بأن «التقليد بقسميه ليس إلا أن الرجل لايستطيع استنباط المسائل من الكتاب والسنة، فيرجع إلى من يراه ماهرا فى الكتاب والسنة ويعتمد على فهمه وبصيرته وفقهه ويعمل حسب تصريحاته» ليس إلا كما يقال: كلمة حق أريد بها التمويه. إن المستفيد إذا كان جاهلا كيف يعلم نبوغ الامام أو المسئول؟ ولوكان قادرا على اختبار قدرة المسئول فلماذا يعتمد على فقهه،

وبعد ذلك كله لايبقى إلا أن نقول: إن الذى يعتمد على غيره فى معرفة الأحكام هو من لم يعط من التفقه والبصيرة الذاتية حظا.

وبعـــد ذلك استدل الشيخ العثمانى بآيات وأحاديث على إثبات التقليـــد المطلق، ولا نرى حاجة إلى البحث عنه، فإن نوع الاتباع والاطاعة الذى أراده الشيخ صحيح، ولو لم تؤيده آية، ولـكن الشيخ العثمانى قد أصيب هنا بضيق فى التفـكير ولم يبق وسيع الذهن كما كان فى بداية بحثه، إنه نزل إلى المنزلة التى كان عليها الشيخ مرتضى حسن الديوبندى رحمه الله ومن كان مثله فى الكلام على هذا الموضوع.

١ — قال الله تعالى: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم[1]﴾.

وفى شرح هذه الآيـــة ونقل الأقوال ذكر العلامة الجصاص وغيره، العلماء والفقهاء، ولـكن السياق يأبى هذا العموم والشمول، فمن الظاهر أن عددا كبيرا من المرجفين والمنافقين كان فى المدينة المنورة، وكان ينشط فى نشر اشاعات الأمن والخوف، مما يؤدى إلى تكدر الجو والفساد، وكان المسلمون أحيانا يصدقون هذه الإشاعات فتضطرب حالة الأمن، فنهى الله تعالى المؤمنين عن ذلك وأمرهم بأن يردوا مثل هذه الأمور إلى الله تعالى وإلى رسوله وإلى أولى الأمر من الصحابة.

---

(١) النساء: ٨٣

وقد يسع معنى «أولى الأمر» اتجاه العلامة الجصاص، ولكن القرائن فى آيــة سورة النساء تدل على إحباط مؤامرة الإرجاف والإشاعات السياسية بدل التدقيق الفقهى فى المسائل الشرعية. وعلى هذا لا تدل الآية على قسم من أقسام التقليد المصطلح، وكل ما فيها هو الإذن لاستنباط الأحكام، وأنه واجب على أولى الأمر وأصحاب الحل والعقــد، وبعد ذلك ورد ذكر آثار الحرب وفساد المنافقين، ولذلك لا يبدو صحيحا أن يفسر قوله «أولى الأمر» بالعلماء والفقهاء. وقد دافع العلامة الجصاص بأسلوب جدلى عن موقفه، ولكنه ليس بقوى. ولو تدبر الشيخ العثمانى فى الآيات التى تأتى بعد الآية السابقة لصدق ما أقول، وإن أراد حمل حالــة الحرب الخاصة على الحالة السلمية لنشر الدين فله حريته.

٢ — قال الله تعالى: ﴿فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، لعلهم يحذرون[1]﴾

وهى تدل على أن أمر التعليم والتدريس ونشر الدين والتفقه فيه يجب أن يستمر فى زمن الحرب والسلم كليهما، وعلى العلماء أن يقوموا بتعليم أحكام الدين للغزاة الذين يرجعون من جبهة القتال، وليس فى هذا مجال للتقليد السائد، نعم قد أمر بمواصلة نشر الدين وبالاستمرار

---

(١) التوبة: ١١٢

فى التعليم والتدريس حتى لا تضيع علوم الدين فى مشاغل الحرب ، ولا تختفى المجالس العلمية فى البلاد الإسلامية . وهذا نوع من توزيع الأعمال ، فطائفة تقوم بحماية المملكة الإسلامية ، وطائفة تقوم على فهم الكتاب والسنة والتفقه فيهما ، فحينما يرجع الغزاة من الجبهة يستفيدون من تعليم العلماء . فكيف تسمى مجالس التعليم والتدريس مجالس التقليد ؟ إنها ليست من التقليد فى شىء ، وكل من يغشاها يستفيد منها حسب فهمه وتفكيره .

وقال الجصاص : وفى هذه الآية دلالة على وجوب طلب العلم ، وأنه مع ذلك فرض على الكفاية لما تضمنت من الأمر بنفر الطائفة[1] ومعنى هذا أن الجصاص أيضا يرى أن الآية لا تفيد فى إثبات التقليد ، ثم أليس من الممكن أن تكون الطائفة كلها مجتهدة ؟ ولذلك نقول إن عاقلا لا يفهم من الآية التقليد المصطلح .

٣ — قوله تعالى : ﴿واتبع سبيل من أناب إلى[2]﴾ .

وإثبات التقليد العام أو المطلق بهذه الآية تعسف ومكابرة علمية لاشك أن قوله : « من » عام ، ولكن الموجب للاتباع هو الانابة إلى الله كما فى صلة من ، وهذا لا يفيد الوقوف على العلوم العرفية

---

(١) الأحكام ١٩٨/٣

(٢) لقمان : ١٥

فضلا عن الاجتهاد المصطلح ، فكيف ترونها نافعة للتقليد السائد ، عليكم بالفقه والدراية والإنابة إلى الله والابتهال إليه فى مثل هذه المسائل التى قد انشقت بسببها عصا الأمة المرحومة فصاروا أشتاتا .

٤ — قال النبى ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدى ، أبى بكر وعمر » (رواه حذيفة) .

والاستدلال على التقليد بهذا الحديث تكلف محض ، إنكم مع اجترائكم على الاجتهاد كيف تثبتون التقليد الشخصى وكيف تحملون الاقتداء على التقليد المصطلح ، وخاصة بعد أن ورد ذكر الإمامين المجتهدين فى الحديث ؟ ولو لم تستطيعوا ذلك فابتعدوا عن مثل هذا التكلف ، فإنه لا يليق بشأنكم . وصحيح قولكم: إن المراد بالاقتداء هنا ليس فى الشئون الحكومية فحسب بل فيها وفى الشئون الدينية ، فيقال : اقتدى بفلان ، أى تسنن به وفعل فعله ، فهذه الكلمة تطلق على الاتباع والتتبع فى الأخلاق والعادات والأفعال بدون تقليد ، فإن المقتدى يتبع إمامه فى أفعال الصلاة ، ولكن المعروف أن الإمام إذا حاد وانحرف عن الطريق المحدد فللمقتدى أن ينبهه بالتسبيح والتصفيق .

ومعروف لديكم ولدى أمثالكم من أهل العلم أن هذا يختلف تماما عن التقليد المصطلح ، فإن فى ذلك يمكن عاميا أن ينتقد على المجتهد وينبهه على خطئه فى العمل . ليتكم أيها الشيخ العثمانى ، ما سكتم إذ قمتم

للإصلاح ، طريقا غير الطريق الجدلية القديمة ، ولكن الأسف أنكم وطئتم السبيل الموطوء ومضغتم اللقم التى قد مضغها من قبلكم .

أمثلة التقليد المطلق :

قولكم « فى توفر أمثلة التقليد » صحيح ، ويمكن أن تجمعوا كتابا كاملا من أمثلة التقليد العام هذه ، ولكن أوضح لكم مع الاحترام أن كتابا مثله لا يساوى شيئا فى السوق ، والدلائل الأربعة التى ذكرتموها فى مقالكم لا تجدى ولا تزن شيئا لو حاسبناها محاسبة علمية مفصلة .

تقسيم الصحابى إلى فقيه وغير فقيه :

ومن المخجل المؤسف تقسيم جماعة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم إلى فقيه وغير فقيه ، وإبداء مثل هذه الآراء بقية من بقايا الرفض والتشيع ، وقد أيد أئمة الأصول رأى القاضى عيسى بن أبان هذا فساعدوا وشجعوا المعتزلة والروافض، وبعكس ذلك ينبنى رأى العلامة السرخسى على التحقيق والصواب ، وينبغى أن تراجعوا كشف الأسرار وغاية التحقيق شرح الحسامى وتدرسوا هذا الموضوع وتنبهوا الطلاب على هذه الإساءة إلى الصحابة . وغريب جدا أن تنشروا الاعتزال والرفض فى مدارسكم على حسابكم .

إن الله تعالى قال فى كتابه العزيز : ﴿وفوق كل ذى علم عليم[1]﴾ وهذا يصدق على الصحابة رضى الله عنهم أيضا ، وكان العالم منهم يرجع إلى أعلم منه ، والمفضول إلى من هو أفضل ، وبعد المراجعة والبحث كانت الأذهان أحيانا تتنبه والقلوب تتذكر فينتهى البحث ، وأحيانا كان البحث يطول ولا تتضح المسألة إلا بعد الاسناد والدلالة على مصدر الحكم ، فلا يصح قولكم : « إنه لا يوجد حادث واحد سأل فيه الصحابة دليلا لمسألة » .

ولا يجترىء متعلم عاقل خبير بدواوين السنة على ما اجترأتم عليه . ولعلكم تعرفون أن عمر و عائشة رضى الله عنهما لم يثقا بقول فاطمة بنت قيس بعد الاسناد ، وقالا: لا ندرى أحفظت أم نسيت ؟ وكذلك ما حدث بين عمار و عمر رضى الله عنهما فى التيمم من الجنابة ، فعمار كان يستدل ويسند ويشير إلى حضور عمر ، ولكن عمر رضى الله عنه لم يطمئن وكذلك لم يمنعه من إبداء الحق ، فمن الغريب أنكم تبحثون عن التقليد فى عصر التحقيق والتفقه هذا ، إنا لله .

ونرى فى متعة الحج أن اختلاف الصحابة عن رأى عمر وعثمان رضى الله عنهما ما زال قائما بعد سماع السند وبقى كل مجتهد على رأيه ، فكيف يصح القول بأن حادثا واحدا لم يدل على السؤال عن

---

(١) سورة يوسف : ٧٦

الدليل والسند فى عصر الصحابة ؟ .

وفى أمر الاستيذان سئل أبو موسى الأشعرى عن الشهادة ، فجاء إلى المسجد وأخذ معه أبي بن كعب وصدق قول أبي موسى وهنا انتهى الأمر(١).

وأظن أن مثل هذا الكلام قد صدر منكم لأنكم تدرسون الحديث سردا ولا تتدبرونه ، وإلا لم يمكن أن تقولوا مثل الكلام الذى قلتم ، أرجو أن تعيدوا النظر إلى موقفكم .

وكما أن الصحابة كلهم كانوا عدولا فكذلك كانوا فقهاء ، فلم يكن أحد فى مجلس رسول الله غير فقيه ولا غير عادل ، ومن أين يتأتى لمسكين مثل القاضى عيسى بن أبان أن يرمى الصحابة بعدم التفقه ، إنه بنفسه مغتر بالمعتزلة . وجراثيم الاعتزال كلها سرت بواسطة بشر المريسى والقاضى عيسى بن أبان وغيرهما. وقلوبنا ترتجف إذ نسمع مثل هذا الرأى من أهل العلم فى الصحابة رضى الله عنهم .

وقد ذكرتم نقلا عن موطأ الإمام مالك قول عبيد بن أبي صالح بأنه باع من أهل دور النخلة قمحا بالنسيئة ، ثم إنهم رغبوا فى أنه لو نقص فى الثمن المحدد أخذه نقدا ، ولكن زيد بن ثابت قد منعه من ذلك فامتنع(٢).

---

(١) راجع صحيح مسلم ٢١١/٢

(٢) الموطأ ، البيوع ، باب ما جاء فى الربا فى الدين .

وأقول: إن عالما إذا سأل عالمـا آخر عن مسألة فهو يهدف إلى الاطمئنان أو التذكر بعد النسيان أو مزيدا من البحث والتحقيق، وحينما يظهر القول الصحيح يقبله بدون جدال، وهذا لا يسمى تقليدا وخاصة لدى عالم مثلكم. والتقليد الذى تجيزونه للذين لا يقـدرون على استنباط الأحكام من الكتاب والسنة ليس شيئا مستحسنا يسوغ نسبه إلى الصحابة رضى الله عنهم، بل إنه نوع من الجهل كما يقول ابن القيم رحمه الله:

العلم معرفة الهـدى بدليله ما ذاك والتقليد يستويان
إذ أجمع العلماء أن مقلدا للناس كالأعمى هما أخوان

التقليد الشخصى فى عصر الصحابة:

إن الشيخ العثمانى قد ذكر تحت هذا العنوان ثلاثة أدلة، وقبل أن انتقدها أرجو من القراء أن يدرسوا معنى التقليد الشخصى كما أورده الشيخ العثمانى، ثم يتدبروا ما ذا تنفعه هذه الدلائل لإثبات مذهبه. والصورة الثانية أن يعين عالم أو مجتهد للتقليد ويؤخذ بقوله فى جميع المسائل.

الدليل الأول:

«إن أهل المدينة سألوا ابن عباس رضى الله عنهما عن امرأة طافت ثم حاضت، قال لهم: تنفر، قالوا: لا نأخذ بقولك وندع قول

زيد[١]». وكان أهل المدينـــة يرون على أساس فتوى زيد بن ثابت أن تلبث الحائضة إلى طواف الوداع، فأصروا على صحـة فتوى زيد وقالوا لابن عباس: لا نأخذ بقولك. قال: إذا قدمتم المدينة فاسألوا، فقدموا المدينة فسألوا، فكان فيمن سألوا أم سليم، فذكرت حديث صفية الذى يدل على أن طواف الوداع ساقط عنها.

وفى بعض الروايات أن هذا الخلاف كان بين ابن عباس وبين زيد بن ثابت، وأن زيد بن ثابت كان قد أخبر ابن عباس برجوعه.

ومن العجب أن رئيس المدرسين لدار علوم يرى فى ذلك دليلا للتقليد الشخصى، مع أنه نموذج رائع ومثال صارخ للتحقيق، فإنهم قـــد اطمأنوا على فتوى زيد قبـــل الاختلاف، أما الاصرار على المعلومات والاعتماد عليهـــا فهو شىء طبيعى، ولم يكن هذا الاصرار تقليديا، فقـــد مالوا بعـــد ذلك إلى التحقيق ورجعوا إلى أم سليم وغيرها من فقهـــاء الصحابة، واستفادوا من آراء عائشة وأم سليم وصفية وابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم. فكيف يسمى الشيخ العثمانى الاعتماد على العلم تقليـــدا؟ ولو كانوا مقلدين ما سمعوا قولا سوى قول إمامهم، بل كانوا على ذروة التحقيق، ولذلك استعدوا للتحقيق بمجرد أن حصل لهم الشك فى الأمر، وبحثوا عن آراء المجتهدين، فتبين لهم خطأ قول زيد، وقبلوا فتوى ابن عباس، ثم

(١) صحيح البخارى ١/٢٣٧

إن زيد بن ثابت نفسه قد أخبر ابن عباس برجوعه. وينبغى أن تراجعوا عمدة القارى، ففيه أشياء أخرى سوى كلام ابن حجر، تساعد فى فهم الموضوع. ويبدو أن الحافظ العينى قد قصر عما بلغ إليه أستاذ دار العلوم.

ثم إن البحث فى الموضوع المذكور لم يكن عن رأى حتى يقلدوه، بل المجتهدون كانوا يبحثون عن النص، فيقول العينى عن الثقفى: «فرجعوا إلى ابن عباس وقالوا: وجدنا الحديث كما حدثتنا[1]». وفى فتح البارى: «أننا وجدنا نصا يؤيد ما أفتيت به، فلم تبق أهمية ما أفتى به زيد».

وقد قلتم فى التقليد المختلف فيه: «ينبغى تعيين عالم يقلد ويعمل برأيه فى كل مسألة[2]». فلله دركم. قد أثبتم تقليد زيد بن ثابت فى مسألة ثم أثبتم التقليد الشخصى، وبما أن الأمر كان خاصا بالبحث عن النص فلا يسمى «ذنبا أو شركا».

التماس مع احترام:

إن الفطن الذكى الذى يرى التقليد حيث لم يره الحافظ ابن حجر والحافظ بدر الدين العينى كيف يتطفل للمجتهدين السابقين ويسيء

---

(١) عمدة القارى ٧٧٧/٤

(٢) مجلة فاران عدد مايو ١٩٦٥ م

الظن إلى نفسه بأنه لايملك صلاحية ، وأقول : قوموا ولا تسيئوا الظن إلى نفوسكم ، فلو لم تكونوا مجتهدين كاملين فعلى الأقل تتجنبون التقليد ، إن شاء الله :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

هذا ، وعليكم أن تتدبروا علة إصرار أهل المدينة على فتوى زيد بن ثابت ، إنه كان فى ذاك الوقت أكثر علما من ابن عباس ، وذلك لأمور :

الأول : أن النبى ﷺ حينما هاجر إلى المدينة كان زيد بن ثابت ابن احدى عشرة سنة ، أى أسن من ابن عباس ، فإنه كان ابن ثمانى أو تسع سنين وقت وفاة النبى ﷺ .

والثانى : أن زيد بن ثابت كان يكتب الوحى ، وكان يشتغل مع النبى ﷺ كأمين عام طوال حياته ، وكان يكتب رسائل النبى ﷺ الخارجية ، وقد تعلم العبرانية بأمره عليه السلام حتى يؤمن من مكائد اليهود .

والثالث : أن أبا بكر الصديق قد كلفه بجمع القرآن لعلمه وخبرته الدينية وسعة اطلاعه بحضرة الصحابة الكبار ، رضى الله عنهم .

والرابع : أن زيد بن ثابت كان تلميذ النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم مباشرة .

والخامس : أن أبا هريرة وأنسا وأبا سعيد الخدرى وسهيل بن

حنيف وطاؤسا وعطاء بن يسار من الصحابة والتابعين كانوا من تلاميذه.

والسادس: أن سعيد بن المسيب قال: شهدت جنازة زيد بن ثابت، فلما وضع فى قبره قال ابن عباس: من أراد أن ينظر مشهد فقد العلم فلينظر اليوم، فدفن فيه قدر كثير من العلم. وقد قال أبو هريرة يوم وفاته: مات اليوم عالم هذا الزمان، ونرجو أن يخلفه ابن عباس[1].

وطبيعى أن يتأمل أهل المدينة فى الرجوع إلى ابن عباس فى مسألة و زيد بن ثابت فيهم، وهذا الذى جعلتموه تقليدا.

الدليل الثانى:

و ذكر الشيخ العثمانى قول أبى موسى الأشعرى الذى قاله فى عبد الله بن مسعود كدليل على التقليد الشخصى، وهو: «لا تسألونى ما دام هذا الحبر فيكم». وشرحه الشيخ بأن أبا موسى الأشعرى قد أشار على الناس بالرجوع إلى عبد الله بن مسعود فى جميع الشئون والمسائل. و إنى أطلب منه إعادة النظر فى القول حتى يرى هل يدل على ما ذهب إليه؟

صحيح أنه لا يسأل أبو موسى ما دام عبد الله بن مسعود، ولكن كيف يفهم منه أن يسأل عبد الله نفسه فى كل مسألة ولا يرجع إلى غيره؟ إنه معنى سخيف لا يتوقع أن يصدر من أبى موسى، وكيف

---

(١) تهذيب التهذيب ٣/٣٩٩

يمنع من الرجوع إلى كبار الصحابة الذين كانوا حينذاك ، وكل ما يقال أنه لايرجع إلى المفضول مادام الأفضل موجودا ، ولكن لا تخصيص لأحد أو لكل مسألة فى قول أبى موسى ، ولعله من اجتهاد الشيخ العثمانى ، ويصعب إثبات التقليد الشخصى بدون أن يثبت تخصيص ابن مسعود وكذلك تخصيص كل مسألة .

ويبـدو أن الناس فى عصر الصحابة كانوا يستفتون العلماء فى المسائل بدون تقليد وتحديد ، كما رجعوا إلى أبى موسى وإلى ابن مسعود وهـذا ما يجب على العامى بأن يرجع إلى العلماء وهم يحولونه إلى أعلمهم إذا رأوا ذلك ، ثم ان قول عبـد الله بن مسعود قد رجح لأنه ذكر حديثا ولم يفت برأيه ، فكيف يسمى هذا دليلا على التقليد ؟ وكيف ينبغى لمدرس دار علوم أن يقول هذا الكلام ؟

وهنا نقطـة أخرى للبحث ، وهى ان المجتهـدين الذين كانوا فى عصر الصحابة مثل عبـد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وغيرهما ، من عزلهم عن منصبهم وأى رسول أحل محلهم الأئمة الأربعـة ؟ إن الصحابة أرفع منزلة من جميع الوجوه ، فهل كان المجتهدون منهم أقل منزلة من الأئمة الأربعة ؟

الدليل الثالث :

وقـد استدل الشيخ العثمانى بالكلام الذى دار بين النبى ﷺ

وبين معاذ بن جبل حينما كان متوجها إلى اليمن . ولا شك أن فيه هداية قيمة للقضاة ، وأساسا عظيما للحكام ، ولكن لا موضع فيه للتقليد ، فان النبي ﷺ لو بعث معاذا إلى اليمن لأن يقلده أهلها على أنه مجتهد لم يكن فى حاجة إلى أن يسأله « كيف تقضى » ، بل يعطيه وثيقة رسمية تنص على أن المجتهد (معاذا) يتوجه إليكم ، وعليكم أن تقلدوه ولكن قول النبي ﷺ على خلاف ذلك ، فانه ﷺ يقول : « عن معاذ أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله ، قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ ، قال فان لم يكن فى سنة رسول الله ﷺ ؟ قال اجتهد برأئى ولا آلو ، قال : فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى به رسول الله[1] » .

وهذا يتعلق بالحكم والقضاء ، لا بالافتاء ، والتقليد يتعلق فى الظاهر بالافتاء ، يقول ابن القيم : « قد جوز النبي ﷺ للحاكم أن يجتهد رأيه وجعل له على خطئه فى اجتهاد الرأى أجرا[2] » . فالنبى ﷺ قد أذن للحاكم أن يقضى باجتهاده . ثم إن تعريف التقليد الذى ذكرتموه يقتضى أن يتقيد المقلد برأى الامام فى كل مسألة ، وهذا

(١) إعلام الموقعين ٢٠٢/١

(٢) أيضا ٢٠٣/١

لا يوجد هنا . نعم يجب قبول حكم الحاكم فى القضاء لحسم النزاع ، أما الرجوع إلى العلماء الآخرين للرافعة ضده فلم ينه عنه فى أثر معاذ البتة .

ولمعاذ أثر آخر يوضح ذلك ، وفيه : « تكون فتن فيكثر فيها المال ، ويفتح القرآن حتى يقرأه الرجل والمرأة و الصغير والكبير والمنافق ، والمؤمن ، فيقرأه الرجل فلايتبع ، فيقول : و الله لأقرأنه علانية ، فيقرأه علانية فلايتبع ، فيتخذ مسجدا ، ويبتدع كلاما ليس من كتاب الله ولا من سنة رسول الله ﷺ ، فإياكم وإياه . فانه بدعة وضلالة ، قاله معاذ ثلاث مرات[1] » .

وهذا يدل على أن الرأى فى غير القضاء بدعة عند معاذ ، فلايصار إليه إلا عند ضرورة القضاء والحكم .

صاحبى ! إن معنى إثبات التقليد فى القرون المشهود لها بالخير أن قلة العلم كانت عامة فيها . وهذا ظلم عظيم بالنسبة للصحابة والتابعين ومن تبعهم . إنكم أهنتموهم حيث ارتبتم فى علمهم وتفقههم ، فلو سلمنا وجود التقليد المصطلح فى تلك الأيام أيضا فأى عصر يكون مثاليا للعلم والاجتهاد ؟ يقول ابن القيم : الذى يختلف معكم فى المذهب ولكن تشهدون له بالغزارة العلمية والدقة : « فانا نعلم بالضرورة أنه لم يكن فى عصر الصحابة رجل واحد اتخذ رجلا منهم يقلده فى جميع

---

(١) اعلام الموقعين ١/٦٠

أقواله فلم يسقط منها شيئا وأسقط أقوال غيره فلم يأخذ منها شيئا ، ونعلم بالضرورة أن هذا لم يكن فى التابعين ولا تابعى التابعين ، فليكذبنا المقلدون برجل واحد سلك سبيلهم الوخيمة فى القرون الفضيلة على لسان رسول الله ﷺ ، وإنما حدثت هذه البدعة فى القرن الرابع المذموم على لسانه ﷺ[1] » .

أيها الشيخ ! أنتم من العلماء ، وتدرسون فى معهد علمى ، فلكم الحرية فى القول ، ولكن لا تستهزؤا بالصحابة والتابعين وتابعيهم ، إنكم بررتم للتقليد بأن الذى لا يستطيع استنباط الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة يجوز له التقليد بقسميه[2].

وكأنكم تحسبون مزية للقرون المشهود لها بالخير أن يحرم أهلها النظر والاستنباط ويتلطخوا بالحشوية مثل أتباع الكنز والقدورى ، ويعيشوا عالة على الفقهاء والعلماء . إن اتباع نصوص الفقهاء وآراء الصلحاء ظاهرية محضة ، والصحابة منها براء ، فكانت أنظارهم عميقة ، ولم تكن فيهم ظاهرية ولا حشوية .

قيد التقليد العام :

قد مدح الشيخ العثمانى التقليد العام كثيرا ، ودعا للأئمة المجتهدين بالرحمة المتوالية بسبب أنهم سدوا باب التقليد العام . وهذا الجزء

(١) اعلام الموقعين ١٨٩/٢

(٢) مجلة فاران ص ١٧ عدد مايو ١٦٥ م .

من المقال يحملنا على الاستغراب من عالم كبير يتفوه بمثل هذا الكلام ، «ونود لو قاله غيرك».

يحسب الشيخ أن اتباع باب الهوى قد انسد بمنع التقليد العام ، فلو أجيز لعم هذا الفساد فى المستقبل.

ولكن هذا الرأى مجانب للصواب من وجوه ، وأرجو أن الشيخ يفكر وينظر فيها :

١ — ما ذكرتم من الأئمة الكبار من منع منهم من التقليد العام ، ومتى؟ وقد أحلتم فى موضع على شيخ الإسلام ابن تيمية . ومن المصادفات السارة أن تعدوا ابن تيمية من الأئمة المجتهدين ، وإلا ما سمعنا أكابر ديوبند يقولون بذلك ، بل كانوا يستفيدون بكلامه وعلومه بدون أن يعترفوا له بهذه المنزلة الدينية .

٢ — والعبارة التى ذكرتموها تدل على أن اتباع الهوى لا يجوز فى الدين ، وأنه يجب على الإنسان أن يكون متقيا لا متبعا للهوى . ولكن اتباع الهوى هذا يمكن أن يوجد فى التقليد الشخصى أيضا ، فمن الممكن أن يختار أحد المذهب الحنفى لأنه يعامل بمرونة فى تعاطى المسكرات والمخدرات ، فإنه يحرم أربعة أو خمسة أنواع من المسكرات ، أما الأنواع الأخرى فلا يشدد فيها كثيرا ، فيقول العلامة الشيخ حسن الجبرتى مفتى الديار المصرية (م — ١١٨٠هـ) : إن لخمر العنب أسماء ، ويباح منها تعاطى

الأنواع الآتيــة : « أما الجهورى فهو نسبة إلى الجمهور، نظراً إلى الاستعمال. والحميدى نسبة إلى حميــد لكونــه صنعه، واليعقوبى ويسمى أبا يوسفى لأن أبا يوسف رحمه الله اتخذه لهارون، وكأنه اتخذه له تخلصا مما هو حرام الشرب، فهو اسم للمثلث إذا صب عليــه ماء حتى أدق وترك حتى اشتد، فعلم مما ذكر أن المثلث خالص العصير، وأن البختج وما عطف ممزوج بالمــاء بعد ذهاب ثلثيه وصيرورته مثلثا، وهى حلال الشرب بعد الاشتداد والقذف بالزبد إذا شربت دون القدر الميسر للتقوى للعبادة لا من سبيــل اللهو والطرب وإلا فهى حرام الشرب[1].

وهذه الرسالة تحتوى على عدة صفحات، وتتناول تفصيل أنواع الخمر وأحكامها من الحلة والحرمة، وفيها سعة كافية لتعاطى الخمر.

وهكذا نجد فى شرح الوقاية : فإن أقر به أو شهدا عليه بعد زوال الريح أو تقيأها أو وجد ريحها منه أى علم الشرب بأن تقيأ أو وجد ريح الخمر منه بلا إقرار أو شهادة أو رجع عن إقرار شرب الخمر أو السكر أو أقر سكران لا[2]».

ثم إن الامام رحمه الله تعالى قد وسع كثيرا فى تعريف السكر،

---

(١) الأقوال المعربة عن أحوال الأشربة. ص ٦٠

(٢) شرح الوقاية ص ٣٠٠

وفى ضوء ذلك يجد مدمنو الخمر سعة كبيرة فى المذهب الحنفى ، وفى الهداية والدر المختار والشامى نصوص كثيرة تؤيد ذلك ، ونظرا للايجاز نتركها هنا .

وقد قال ملك العلماء العلامة الكاسانى (م — ٥٨٧ هـ) بصراحة :

« وأما الأشربة التى تتخذ من الأطعمة كالحنطة والشعيرة والدخن والذرة والعسل والتين والسكر ونحوها ، فلا يجب الحد بشربها لأن شربها حلال عندهما وعند محمد ، وإن كان حراما ، لكن هى حرمة محل الاجتهاد ، فلم يكن شربها جناية محضة ، فلا تتعلق بها عقوبة محضة ولا بالسكر منها ، وهو الصحيح لأن الشرب إذا لم يكن حرامها أصلا فلا عبرة بنفس السكر كشرب البنج ونحوه ، والله سبحانه تعالى أعلم ، الخ [١] » .

وقد فرق بعض العلماء بأن حرم شرب بعض أنواع الخمر دون بعض ، ولكن السكر حرام ، والعقوبة تجب بالسكر . ولكن العلامة الكاسانى يجوز شرب هذه الأنواع أيضا ولا تجب العقوبة عنده على السكر .

ولا يهمنا هنا وجوه جواز هذه الأنواع وعدمه ، فإن كتب الحديث والفقه مع متونها وشروحها قد فصلت القول فى ذلك ، بل

(١) البدائع والصنائع للكاسانى ٤٠/٧

نريد الإشارة إلى المرونة التى توجد فى المذهب الحنفى بصدد الأشربة.

فلو اختار أحد المذهب الحنفى لهذه المرونة فى باب الأشربة والمسكرات لوجب أن يحرم عليه التقليد الشخصى أيضا حسب كلام الشيخ العثمانى.

ويبدو أنكم ما تأملتم فى كلام شيخ الإسلام، فإنه قد ذكر التقليد فى موضع وآخر، ولكنه يرمى إلى منع اتباع الهوى، سواء كان بالتقليد أو تركه، ولكنكم أعجبتم به ظنا بأنه يمنع عن التقليد العام، مع أن كلام الشيخ لايومىء ألبتة إلى أن اتباع الهوى يأتى من التقليد العام أو التقليد الشخصى أو من تركه. ويظهر أنكم ما استوعبتم كتب شيخ الإسلام وإلا ما وقفتم هذا الموقف.

وقد فصل العلامة قاضى خان القول فى باب الأشربة تفصيلا يوهم أنه كان فى معمل المشروبات، فقد تكلم عن أنواعها العديدة وصفاتها المختلفة وما لها من الأحكام، وقد استغرق هذا البحث فى الطبعة المصرية الصفحات ٢٠٨—٢٢٠ فى الجزء الثالث من الكتاب وأنا شخصيا أميل إلى رأى الإمام الشافعى رحمه الله، فأدنى ارتباط ببنت الكرم يأباه الطبع، ولكن مع ذلك لا أرى مبررا لإساءة الظن إلى الأئمة المجتهدين، وقد فصلت هنا بعض التفصيل لأن كلام الشيخ العثمانى كان يوقع فى المغالطة. والشيخ يظن أن التقليد الشخصى يقفل باب اتباع الهوى، ولكن جذوره توجد فى هذا التقليد، وكذا

نجد فى سائر المذاهب الفقهية فروعا تؤدى إلى اتباع الهوى .

وكذا توجد مرونـة فى عقوبات الفواحش والأعمال السيئة ، فالفقه الحنفى لا يحد فى اللواطة وفى ارتكاب الفـاحشة مع البهائم ، ومع المحرمات الأبدية بعد النكاح . وقد تركت النصوص الدالة على ذلك نظرا للايجاز وإلا فمن المعلوم أن الفقه الحنفى قد يفتح أبوابا سرية لاتباع الهوى . وعلى ذلك لا يمكن القول بأن التقليـد يمنع من الهوى ، فإن ذلك يتوقف على النية ، فإن لم تصح ينفتح باب الهوى على مصراعيه .

الفواحش فى باكستان :

ومن المعلوم أن أغلبية المسلمين فى باكستان من الحنفية ، وهم منتشرون فى بعض المنـاطق من هنا إلى هناك ، وهؤلاء جميعا متمسكون بالتقليد الشخصى ، ولكن دور السينما والمسارح والنوادى للرقص والغناء التى توجد فى البلاد كلهـا تدار وتنظم بالأشخاص الأحناف على الأغلب . فإن كان التقليد الشخصى مانعا من اتبـاع الهوى فلماذا انتشرت معامل الشهوات هذه هنا وهناك حتى وقعت البلاد فريسة للأهواء والملذات ؟ وإن منع من التقليد العام حسب تعبير الشيخ العثمانى وساد التقليد الشخصى فى البلاد فلماذا هذه الفواحش ؟ وكذلك نرى فى الحجاز الشوافع وفى نجد الحنابلة وفى السودان

والجزائر وإفريقيا الموالك يملكون هذه المصانع ، وينتشر فى تلك البلاد التقليد الشخصى أيضا ولكن الفواحش مع ذلك تحيط بالسكان وتسيطر على الأرجاء والأقطار . ومعنى ذلك أن حل المشكلة بالامتناع عن التقليد العام وبانتشار التقليد الشخصى لم ينجح ألبتة . ثم نرى أن التميز بين الحلال والحرام قد انعدم اليوم ، فلو صح ما قلتم عن التقليد الشخصى لوجب أن يمتلىء العالم صلاحا وتقوى ، ولكن الواقع أن الدين قد اتخذ لهوا ولعبا .

مثال مضحك :

وقد ضرب الشيخ مثالين لمضرة التقليد العام ، الأول مثال انتقاض الوضوء بالدم ، فالحنفية ترى أن الوضوء ينتقض بالدم ، والشافعية لا ترى ذلك ، فالشيخ يحسب أن أصحاب الهوى يعملون فى ذلك على مذهب الشافعى فى أيام البرد ، والثانى مثال عدم انتقاض الوضوء بمس المرأة عند الحنفية ، وانتقاضه بمسها عند الشافعية ، فأهل الهوى يعملون فى ذلك على مذهب الحنفية فى أيام البرد . والطلبة قد يستسيغون مثل هذا التمثيل فى حلقات الدرس ، ولكن الواقع أن حنفيا متمسكا لا يقرب الصلاة ليلا أو نهارا ، وقد وقع بمناسبة مجالس الميلاد فى مواكب الليل من قبل المدعين لحب الرسول مع النساء ما تقشعر الجلود بذكره . واستمعوا إلى المشاهدين لمعرفة ما يجرى فى مدن مونتجمرى وگوجرانواله ولاهور . والذين يقومون بهذه

الرذائل يتمسكون بالتقليد ويسبون الوهابيين (السلفيين) . إن المس الذى اختلفت حوله الحنفية والشافعية ليس بشىء ازاء ما يجرى فى تلك المدن ، وبعد القيام بهذه الأعمال نام محبو الرسول وعشاق التقليد عن الصلاة ولم يمنعهم التقليد عن اتباع هذا الهوى .

وليتهم صلوا على مذهب أى إمام من الأئمة ، فالتقليد الشخصى لم ينجح مطلقا فى المنع من اتباع الهوى .

فقد ظهر بهذا أن اتباع الهوى يرجع إلى النية ولا يتعلق بالتقليد أو بتركه ، والنية الفاسدة يمكن أن تأتى من المقلد ومن غيره ، وكلاهما يندفعان إلى الهوى .

أما رأى شيخ الإسلام فى مثل هذه الأمور فواضح ، يقول ابن القيم : « وقد سمعت شيخنا رحمه الله يقول : جاءنى بعض الفقهاء من الحنفية فقال : أستشيرك فى أمر ، قلت : ما هو ؟ قال : أريد أن أنتقل عن مذهبى ، قلت له : ولم؟ قال : لأنى أرى الأحاديث الصحيحة كثيرا تخالفه ، واستشرت فى هذا بعض أئمة أصحاب الشافعى فقال لى: لو رجعت عن مذهبك لم يرتفع ذلك من المذهب ، وقد تقررت المذاهب ، ورجوعك غير مفيد ، وأشار علىّ بعض مشايخ التصوف بالافتقار إلى الله والتضرع إليه وسؤال الهداية لما يحبه ويرضاه ، فماذا تشير به أنت علىّ ؟ قال : فقلت له : اجعل المذهب ثلاثة أقسام ، قسم الحق فيه ظاهر بين موافق للكتاب والسنة فاقض به

وأفت به طيب النفس منشرح الصدر ، وقسم مرجوح ومخالفه معه الدليل فلا تفت به ولا تحكم به وادفعه عنك ، وقسم من مسائل الاجتهاد التي الأدلة فيها متجاذبة ، فإن شئت أن تفتى به وإن شئت أن تدفعه عنك ، فقال : جزاك الله خيرا[1] .

فانظروا إلى شيخ الإسلام يشير على عالم حنفى بأن يفحص المذهب ويجعله ثلاثة أقسام ويعمل منشرح الصدر بما يوافق الكتاب والسنة بصراحة . ولو طلبنا فى الجمود الذى يدعو إليه أهل ديوبند اليوم العمل بمشورة شيخ الإسلام لارتعش كل صغير وكبير منكم . أما المنشورات التي ينشرها (انظر شاه) ابن المغفور له أستاذ الأساتذة الشيخ أنور شاه عن أبيه فهى مختلق عليه ، ولوسلمنا صحتها فهذا يحملنا على الشك فى منزلته الرفيعة وفى علمه وفضله .

إن التقليد أو الحنفية ليسا محل النظر ، بل النظر فى الجمود الذى تعودتم عليه ، وهو يوجد على السواء لدى أهل بريلى وأهل ديوبند كبارهم وصغارهم . وأتوقع أن الملامة قد انصبت أو ستنصب عليكم ، على أسلوبكم اللين الذى اخترتموه .

وانظروا إلى قول آخر لشيخ الإسلام وقد سئل هل يقلد الشافعى حنفيا أو الحنفى شافعيا فى صلاة الوتر أو جمع الصلاة من

---

(١) اعلام الموقعين ٤/٢٣٧

المطر؟ فقال: «الحمد لله، نعم يجوز للحنفى وغيره أن يقلد من يجوز الجمع من المطر لاسيما وهو مذهب جمهور العلماء كمالك والشافعى وأحمد وقد كان عبد الله بن عمر يجمع مع ولاة الأمور بالمدينة إذا جمعوا فى المطر، وليس على أحد من النـــاس أن يقلد رجلا بعينه فى كل ما يأمر به وينهى عنه ويستحبه إلا رسول الله ﷺ. وما زال المسلمون يستفتون علماء المسلمين فيقلدون تارة هذا وتارة هذا، فإذا كان المقلد يقلد مسألة يراها أصلح فى دينه أو القول بها أرجح أو نحو ذلك جاز هذا باتفاق جماهير علماء المسلمين، لم يحرم ذلك لا أبوحنيفة ولا مالك ولا الشافعى ولا أحمد، الخ[1]».

وهكذا ذكر الإمام التقليد، فانظروا فى الجزء الثانى من فتاواه الصفحات ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٣ وغـــيرها يتضح لكم مذهب الإمام. ولن تبقى هذه المسألة موضعا للنزاع إذا عالجتموها مراعين رأى ابن تيمية وكونه حنبليا. أما الأسلوب الذى اتخذه أهل ديوبند نحوها كرهه الإمام أبوحنيفة لو كان حيا.

أما النقل الذى أوردتموه عن الشيخ ابن تيمية فهو نقل فى ذكره الإمام لضرورة خاصة، ولايدل على تحقيقه الذاتى، بل يحسن لذلك المراجعة إلى ما ذكرناه. إن المنزلة العلمية للإمام عالية جدا، والنقل

---

(١) فتاوى ابن تيمية ٣٨٧/٢

المذكور لا يدل على منع التقليد العام ألبتة ، ولو تأملتم لظهر أنه لا ينفعكم قطعا ولا يمت إلى الموضوع بصلة . والغرض الأصلى أن لا يتخذ الدين وأئمته وسيلة للتلعب والهوى ، وهذا أمر يرجع إلى النية ، فلا يمنعه التقليد الشخصى ولا يوجبه تركه . ولو تأملتم فى الأحداث لظهر أن التقليد الشخصى قد ساد وانتشر ، حسب تصريح الشاه ولى الله والحافظ ابن القيم ، بعد القرن الرابع ، وفى القرون المشهود لها بالخير كان مدار الفتوى على ترك التقليد أو على التقليد العام فى قوله . وهذا هو العصر الذى كثر فيه أهل الله وأئمة الاجتهاد والأئمة المحدثون والصلحاء والمتقون . ومنذ أن بدأ تنفيذ ما اقترحتم بدأ عصر الفتن الذى أشار إليه النبى ﷺ وجعله عصر الفواحش والفتن ، ولكنكم تستنزلون عليه الرحمة وتدعون له ، والظاهر أن هذا الدعاء لا يقبل لكونه خلاف ما صرح به النبى ﷺ ، وكذلك لا يمتنع اتباع الشهوات بالوصيفة التى ذكرتم .

الشاه ولى الله والتقليد:

قال الشيخ فى صفحة ١٩ : إن العمل فى عصر الصحابة والتابعين كان على التقليد العام وعلى التقليد الشخصى كليهما (أى كما زعم ، وإلا فالأمر على العكس) ثم لما أحسوا بالخطر المذكور (وهو اتباع الهوى) حصروا التقليد فى التقليد الشخصى . ثم أورد نقولا من كلام الشاه ولى الله أجاز فيها التقليد أحيانا وأوجبه أحيانا أخرى .

والحقيقة أن لحياة الشاه ولى الله مراحل عديدة ، وكان قلمه السيال يعمل فيها على السواء ، ويعبر عن اتجاهه فى كل وقت . فكلامه الخاص بالتصوف يتضمن ما يؤيد البريلوية ، ولكنهم لا يثقون بالشاه وأسرته ، وإلا فيشجع شفاء العليل وغيره من كتبه الاتجاهات البدعية تشجيعا قويا .

أما أهل الحديث وأهل ديوبند فمن معتقدى الشاه . والأولون لا يغيرون موقفهم معه مع معرفة ميلان الشاه إلى الحنفية بارزا فى بعض المواضع ، فالشاه يعارض الجمود معارضة قوية ، واليقظة التى نراها اليوم فى البلاد قد بدأت بمجدد الألف الثانى ، ولكن الشاه ولى الله هو الذى أبرزها ودعمها ، وحينما وصلت هذه اليقظة إلى الشاه اسماعيل الشهيد وأصحابه المخلصين تحولت إلى ترك التقليد ، وقد دعم هذا الاتجاه العلامة السيد نذير حسين وتلاميذه ، ويتمسك به اليوم مئات الألوف فى الهند وخارجها ، وهم يقومون بنشر الحرية الفكرية وطريقة السلف فى البلاد . وقد أورد الشيخ العثمانى ثلاثة نقول عن الشاه ، اثنين من كتاب الإنصاف ، وواحدا من حجة الله البالغة . ولكن الشاه قد أوجب التقليد فى الإنصاف موقتا لا شرعيا ، مما يدل صريحا على أنه يقصد وجوب التقليد فى ظروف مماثلة ، فيقول : «لم يجمع الناس فى القرن الأول والثانى على تقليد رجل معين ، وقد ازداد الأثر بعد القرن الثانى ، وكان هو الواجب

فى هذا الزمان. فانظروا وقولوا هل تجب الواجبات الشرعية موقتا أم دائما؟ أما النقل الثانى فيذكر فيه الشاه النحو والصرف مما لم يكن واجبا فى أول الأمر ثم صارت معرفته واجبة فى يومنا هذا، فكأن وجوب التقليد الشخصى موقت مثل وجوب الصرف والنحو. وإذا كان الوجوب موقتا فلو أنكره أحد بناء على أن الأحوال تغيرت فكيف يكون آثما؟ ولو نظرنا إلى الظروف المعاصرة اوضح لنا أن المفاسد التى كانت نخشاها من ترك التقليد فى تلك الأيام قد زالت اليوم، والتغير الذى نلمسه فى أسلوبكم اليوم قد نتج من تغير الأحوال، وذلك بجهود أصحاب الهمم والعزائم. أما كلام الشاه فى حجة الله فلا يدل إلا على الجواز، ولو تأملتم فيه و وصلتم إلى مغزاه لتبين لكم أنه يدل صريحا على معارضة وجوب التقليد، ﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[1]﴾.

وإنى أعتبر مثل هذه النقول مؤيدة لترك التقليد، فلا أرى حاجة للكلام عليها.

وأذكر هنا قولا آخر للشاه معارضا تماما للقول الذى ذكرتموه من أن التقليد قد انحصر فى التقليد الشخصى، يقول الشاه نقلا عن

---

(١) سورة ق: ٣٧

الشعرانى «ثم نقل عن جماعة عظيمة من علماء المذاهب أنهم كانوا يعملون و يفتون بالمذاهب من غير التزام مذهب معين عن زمن أصحاب المذاهب إلى زمانه على وجه يقتضى كلامه أن ذلك أمر لم يزل العلماء عليه قديما وحديثا حتى صار بمنزلة المتفق عليه فصار سبيل المؤمنين الذى لا يصح خلافه[1]». ومثل ذلك قال فى ص ٢٨، وهكذا نقل عن العز بن عبد السلام فى ص ٤٠

وقد قلت آنفا إن مراد الشاه من وجوب التقليد ليس وجوبا شرعيا بل يريد الحاجة الموقتة، فانظروا إلى قوله الآتى: «وأشهد لله بالله أنه كفر بالله أن يعتقد فى رجل من الأمة ممن يخطىء ويصيب أن الله كتب علىّ اتباعه حتما، وأن الواجب علىّ هو الذى يوجبه هذا الرجل علىّ، ولكن الشريعة الحقة قد ثبت قبل هذا الرجل بزمان[2]».

وقد ذكر الشاه بعد ذلك الصورة المباحة للتقليد، ولكن ليس ذلك وجوبا شرعيا، وهذا الذى نقصد من هذا القول.

أما نوع التقليد الذى يرتضيه الشاه فهو كما يصرح بنفسه: «وانشأ فى قلبى داعية من جهة الملأ الأعلى تفصيلها أن مذهبى أبى حنيفة والشافعى هما مشهوران فى الأمة المرحومة، وهما أكثر المذاهب

---

(١) عقد الجيد ص ٥٢

(٢) التفهيمات الإلهية ٢١١/١

تابعا وتصنيفا ، وكان جمهور الفقهاء المحدثين والمفسرين والمتكلمين والصوفية متمذهبين بمذهب الشافعي ، وجمهور الملوك وعامة اليونان متمذهبين بمذهب أبي حنيفة ، وإن الحق الموافق لعلوم الملأ الأعلى اليوم أن يجعلا كمذهب واحد يعرضان على الكتب المدونة في حديث النبي ﷺ[1] » .

ولولا خوف الإطالة لجمعت أوراقا من آراء وأقوال الشاه التي تقرر ذلك . والشاه يكره قطعا التقليد الذي يدعو له معسكر الديوبنديين اليوم . ثم إنه يستعمل كلمة التقليد في معان شتى ، ولا يتقيد بمعناه الاصطلاحي . ولو تأملتم في حجة الله وعقد الجيد والبدور البازغة والخير الكثير والتفهيمات الإلهية والانتباه والوصية من مؤلفاته لعلمتم قطعا صراحته في موقفه وكراهته للتقليد السائد :

« لا يعرف الأحباء أن ملك العالم معنا اليوم[2] » .

شبهات حول التقليد :

قد حاول الشيخ العثماني تحت هذا العنوان الرد على الشبهات التي تثار حول وجوب التقليد من قبل بعض الأوساط ، أو على

---

(١) التفهيمات الإلهية ١/٢١١–٢١٢

(٢) ترجمة بيت فارسي نصه :

عزيزان را ازين معنى خبر نيست   كه سلطان جهان با ماست امروز

الدلائل التى سبقت بالإيجاب ضد التقليد السائد.

الآية الأولى :

﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لوكان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون[١]﴾.

يقول الشيخ : هذا فى الآباء الذين يكفرون علانية بأحكام الله، ثم الآباء الذين كانوا مجردين من العقل والهداية. ثم يقول الشيخ فى الختام : لاينكر أحد من أهل الحق أن الأئمة المجتهدين الذين يقلدون تسلم لهم منزلتهم العلمية مهما اختلف معهم، فقياس هذا التقليد على تقليد الكافرين ظلم عظيم.

وأقول فى الجواب : أنا معكم يا شيخ فى أن التقليد السائد يختلف عن تقليد الكافرين قليلا، وكذلك لاشك أن علو منزلة الأئمة المجتهدين معترف به من جميع الوجوه، فعلمهم وزهدهم وتقواهم أرفع من الشبهات، وكذلك شخصياتهم مع علمهم وإيمانهم لا تدخل فى موضع المناقشة، بل بالعكس لهم أياد علمية على الأمة تجعل سوء الظن فيهم كفرانا لمعروفهم فضلا عن إساءة الأدب، ولكن بعد ذلك كله نود مناقشة النقاط الآتية :

١ — هل ورد فى الكتاب والسنة اسم مجتهد أو إمام صريحا ؟

(١) البقرة : ١٧٠

٢ — وهل كان علم هؤلاء الصلحاء كلهم سواء أم متفاوتا حسب تصريح القرآن : ﴿وفوق كل ذى علم عليم[١]﴾ ؟

٣ — وهل ظهرت لديهم جميع مجاميع الحديث التى كانت توجد فى البلدان المختلفة أم خفى بعضها ؟

٤ — ثم هل كان الجميع متفقين فى المسائل الاجتهادية ولم يكن خلاف بينهم فى الفروع ؟

والظاهر أن الاجابة على هذه الأسئلة بالنفى ، فالشارع لم يسم أحدا كإمام ، ولم يكن علمهم سواء ، ولم تكن مجاميع السنة كلها موجودة فى ذاك الوقت ، ولم يكن اجتهادهم خاليا من الخلاف . فكيف يقبل عامى لقلة العلم أو فقدانه ، اجتهادات إمام معين من الأئمة الذى اتخذه إماما ومقتدى ، ويصرف النظر عن اجتهادات غيره التى اختلف فيها مع إمامه . وقد سبق أن قلتم إن التقليد العام قد منع منه لأنه كان يؤدى إلى اتباع الهوى وقد يمكن أن يرتفع التمييز بين الحلال والحرام[٢].

وقولكم هذا يدل صريحا على أنه يوجد فى اجتهادات الأئمة وفروعهم ما يشجع اتباع النفس . حقا إن التقليد السائد يختلف عن تقليد عصر الوثنية ، ولكن يخشى منه أن يفقد المقلد التميز بين الحلال

---

(١) يوسف : ٧٦

(٢) مجلة فاران ، ١٧ مايو ١٩٦٥

والحرام بعد الابتلاء بعبادة النفس .

وكذلك يخشى أن يخالف العامى نصا صريحا لم يبلغ إمامه الذى يعتقد فيه وخفى عليه . ولو أجزناه أن يجتمع مع العلماء للتحقيق ، ولايحرم عليه المراجعة إلى العلماء بدون تخصيص فيما بينهم لنجا العامة والخاصة من هذه الأخطاء قطعا .

وعلى هذا تشمل الآية السابقة ﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا الخ﴾ لعموم ألفاظها هذا التقليد أيضا مع فرق فى الحكم والمنزلة . ويقول الشيخ صالح بن محمد بن نوح الفلانى بعد ذكر آيات كثيرة فى ذم التقليد : « ومثل هذا فى القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء ، وقد احتج العلماء بهذه الآيات فى إبطال التقليد ، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر ، وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد ، كما لو قلد رجل فكفر ، وقلد آخر فأذنب ، وقلد آخر فى مسألة دنياه فأخطأ وجهها كان كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة ، لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا وإن اختلفت الآثام فيه[1] » .

وليس الأمر أمر الكفر والاسلام ، بل السؤال هو أن الحاجة إذا مست للتحقيق ، وكان ممكننا نظرا للمقام فلماذا يسأل العامى عن

---

(١) ايقاظ الهمم للفلانى ص ٣٥

مذهب الإمام ولا يستنير بنور الكتاب والسنة ولا يسأل عن حكم الشرع ؟ وعلة الحكم فى قوله « لا يعقلون » و « لا يهتدون » تتحقق كلما حصلت شبهة فى إجابة السائل أو فهمه واهتدائه، وبذلك تظهر ناحية التقليد المذمومة . وقد أوضح الحافظ ابن عبد البر أيضا هذا الموضع هكذا[1].

الآية الثانية:

والدليل الثانى ضد التقليد هو قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ .

يقول العثمانى : « نحن نعتبرهم شارحين لا شارعين » .

ولكنى أقول — محترما — نحن لا نريد فى هذه الآية شيئا أكثر من رواية عدى بن حاتم، فانظروا — لله — جادين ولا تتخذوا أسلوب الجدل، فليس هناك فرق بين الحالتين. فنرى عندنا أن متون الفقه توضع موضع النصوص، وأهل التقليد من العلماء لا يأولون إلا النصوص، أما قول الإمام فيبقى دائما على الظاهر، والنصوص هى التى تكون هدف العمل والتجربة .

والشافعية تجيز نكاح بنت الزنا، مع وضوح شناعته. والحنفية توسع فى حد الخمر بحيث يندى له الجبين. أما الاحتيال فى ذلك بالقول

---

(١) راجع جامع بيان العلم ٢/١١٥—١١٨

« بالذات أو بالواسطة » فاستعير من البريلوية . والحقيقة أن المغالاة فى الاعتقاد فى الأئمة هى التى تصد عن التفكير والتأمل .

خطبة الجمعة :

من المعلوم أن الحنفية لا تجيز ترجمة خطبة الجمعة . وحينما بدأ أهل المذاهب الأخرى الخطبة فى اللغة المحليــة احتاجت الحنفية إلى إعادة النظر فى موقفها . وكان الأمر سهلا لو بدؤا ترجمة الخطبة نظرا للصالح ، أو بقوا على موقفهم متحملين الخسارة . ولكن الذى وقع هو أن أهل ديوبند قسموا خطبة الجمعة فى ثلاثة أقسام « الأولى بلغتهم ، والأخيرتان بالعربية . ولعل الأجيال القــادمة تحسبه بدعة حسنة ، ولكن الحقيقة أن هذا التقسيم قد جاء نتيجة للغلو فى احترام آراء الأئمة . ونظرا للاختراع فى الخطبة يتساءل الرجل الساذج : أين التقليد ؟ ولاشك أن الغلو فى حب الأئمة قد ساق إلى اختراع البدعة .

قيام رمضان :

يعلم بديهيا أن أعداد ٩ و ١١ و ١٣ لقيام رمضان مع الوتر قــد وردت فى الأحاديث الصحيحة ، أما العشرون ركعة وما فوقها فلم يرد فى حديث صحيح مرفوع . وكان بعض الصحابة والتابعين يصلى عشرين أو ثمانى وثلاثين أو إحدى وأربعين ركعة . والإكثار من

النوافل يستحسن ، ولم يعب أحد عليه[1]. وقد وفق ابن الهمام بأن

---

(١) قلت: لقد انصف المؤلف رحمه الله حينما قال . « وأما العشرون ركعة وما فوقها فلم ترد فى حديث صحيح مرفوع » وهذا هو الحق وأهل الحديث لا يلتفتون إلى غيره .

فقيام رمضان فضل مقيد وليس فضلا مطلقا، والدليل على ذلك حديث عائشة رضى الله عنها المروى فى الصحيحين ، عند ما سئلت عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى رمضان فأجابت : « ما كان يزيد فى رمضان ولا فى غيره على إحدى عشرة ركعة ، يصلى أربعا فلا تسئل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلى أربعا، فلا تسئل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثا» . أما قول المؤلف رحمه الله: « والإكثار من النوافل يستحسن ولم يعب عليه أحد » ، فليس هذا مكانه كما علمت من تقييد حديث عائشة رضى الله عنها لقيام رمضان، أما النفل المطلق فلا بأس . أما ما أورده من أن الصحابة زادوا على هذا العدد فصلوا عشرين أو أكثر ، فلا تصح رواية من هذه الروايات عنهم . (وقد حقق ذلك شيخنا المحدث محمد ناصر الدين الألبانى فى الرسالة الثانية من تسديد الاصابة وعنوانها : صلاة التراويح) .

وأما عن التابعين فإن صحت النقول عنهم ، فالمسلم لا يترك سنة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار لاجتهاد مجتهد أو أكثر أصاب أم أخطأ ، وهل لأحد قول مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ (الأستاذ على شامى) .

الثمانى ركعـات سنة، وما فوقها نافلة، وهذا توفيق لا كلام عليه، ولكن المتأخرين قد بالغوا فى ترجيح عمل الأئمة على السنة النبوية بدل أن يعملوا بها، فمرة فرقوا بين التهجد وقيام رمضان، ومرة اجترؤا على القول بأن الثمانى ركعات بدعة، وغير ثابتة. وقد صار البعض واقعيا فقال إن الصلاة واحدة (فى رمضان وغيره) فلا يثبت قيـام الليل فى رمضان منفصلا عن التراويح، ولكن السنة عشرون ركعة (الشيخ السيد أنور شاه).

وقد ابتلى بهذا الغلو والتشتت الفكرى كل من الشيخ حبيب الرحمن الأعظمى[1] ومن بعده من طلاب اليوم، وليس ذلك إلا بسبب اتبـاع الأكابر، وإلا فالأمر واضح، أى لا اعتراض على عشرين ركعة من النوافل فلا يعترض على ثمانى أو عشر ركعات، فكل يعمل على شاكلته.

ومن الممكن أن يكره الشيخ العثمانى وبعض أصحابه هذا الغلو فى اتباع الأكابر، فيستثنون من عموم الآية، ولكن الغلاة يدخلون

---

(١) عالم حنفى من الهند ألف كتابا بالأردية باسم «ركعات تراويح» حاول فيه اثبات أن السنة فى قيام رمضان هى عشرون ركعة. وقـد رد على هذا الكتـاب العلامة الشيخ نذير أحمد الأملوى رحمه الله ردا شافيـا قويا طبع باسم «أنوار مصابيح». وبذلك اتضح الحق فى المسألة وأفحم المعارضون.

فى عمومها ألبتة ، يقول العز بن عبد السلام : « ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا ، وهو مع ذلك يقلده فيه ، ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم جمودا على تقليد إمامه ، بل يتحيل لدفع ظاهر الكتاب والسنة ويتأولهـا بالتأويلات البعيدة الباطلة ، نضالا عن مقلده[1] » .

فيوجد مصداق الآيـة فى أهل التقليد ، ولو وقيتم لوفقكم الله لمزيد الوقاية ، ولكن النظرية الجامدة التى تدافعون عنها أو تدعون إليها لا توجد لدى قدماء الحنفية ، ولم يرضوا بقيد التقليد الشخصى الذى ذكرتموه . ويؤيد قولى قول الإمام الطحاوى (م — ٣٢١هـ) الذى يعد من كبار المؤيدين للحنفية ، يذكر قول الإمام محمد فى آداب القاضى فيقول : « وإن كان إنما قضى به بتقليد الفقيه بعينه ، ثم تبين له أن غيره من أقوال الفقهاء أولى مما قضى به ، نقضه وقضى بما يراه فيه ، وبه نأخذ ، ولا ينبغى له أن ينقض قضاء من تقدمه من القضاة إذا كان مما يختلف فيه الفقهاء[2] » .

وهذا يدل صريحا على أن التقليد الشخصى الجامد الذى دعوتم إليه لم يعرف لدى قدماء الحنفية ، وصفحة ٣٢٧ من مختصر الطحاوى

---

(١) حجة الله البالغة ١٥٥/١

(٢) مختصر الطحاوى ص ٣٢٧

بأسرها جديرة بالقراءة والتفكير، وإنى لم أنقلها خوفا من التطويل.

ثم إن دعوتكم إلى التقليد الشخصى تتضمن الصرامة والوثوق، وفيها مخاوف، فإنها تشجع العصبية والتباغض والعداء، وهذا شيء يحمل على التأمل:

فاحفظ، وقيت، فتحت قدمك هوة كم قد هوى فيهـا من الإنسان

الأئمة يردون على التقليد:

قد اتفق الأئمة المجتهدون على الرد على التقليد، وإنهم قد نهوا عن تقليدهم وتقليد غيرهم نهيا صريحا مؤكدا. ويقول الشيخ العثمانى: إن هذا الحكم ليس للذين حرموا أهلية الاجتهاد، بل للذين يتصفون بصفة الاجتهاد. وهذا القول باعث على الاستغراب، فإن المجتهد ليس مكلفا بالتقليد، فكيف يمنع منه؟ وعلى هذا فالخطاب متوجه إلى الذين لم يصلوا إلى درجة الاجتهاد، ولكنهم متصفون بالفهم الدينى، مثلكم ومثل العلماء أمثالكم. أما العامى فلا مذهب له، وهو يقلد إمام مسجده أكثر من تقليده للأئمة المجتهدين، ولا يعرف ماذا قال أبو حنيفة أو الشافعى. والمثال الحى لذلك شعبنا وعلماء البريلوية. فالشعب يحسب مزخرفات الفقه مذهبا حنفيا، ولكن الحقيقة أن الإمام أبا حنيفة لم يتفطن قط لهذه الآراء المضطربة، وقولكم يؤدى إلى أن الأئمة المجتهدين لا يحتاجون إلى التقليد،

أما أنتم ونحن وأمثالنا فقد منعنا من التقليد من قبل الأئمة، والعامى لامذهب له، بل إنه يقلد العلماء الذين نهوا عن التقليد، وهنا نتساءل: فأين التقليد؟

وفى الشبهة الرابعة أشرتم إلى الشاه ولى الله، وقد سبق أن وضحنا مذهبه، ومن استزاد فلدينا مزيد.

وفى جواب الشبهة الخامسة يقول الشيخ العثمانى: إن آيات التذكير سهلة، وآيات الأحكام صعبة. وهذه مغالطة قديمة، والحقيقة أن فى القرآن والسنة مواضع صعبة ومواضع سهلة، ولكن لايعنى ذلك أنها لا يفهمها إلا المجتهد، فإنكم تدرسون فى المدارس، وتعلقون الشرح والحاشية على الكتب، وكذلك يفعل من يخالفكم، وقد أمرهم أئمة الاجتهاد بأن يعملوا بالكتاب والسنة حسب الفهم، واجتنبوا تقليدنا، «خذوا الأحكام من الكتاب والسنة، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها» والمؤاخذة تكون حسب الأهلية والنية، سواء كانت المسألة صعبة أو سهلة.

وفى الختام نقل الشيخ العثمانى رواية من شرح السنة بخصوص كون القرآن صعبا: أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن، ولكل حد مطلع[1]. وقد نقله صاحب المشكاة عن شرح السنة،

---

(١) مشكاة المصابيح ١٩٢/١

والمخرجون نسبوه إلى الكبير أيضا، وهذا الأصل لم يطبع بعد، وقد ذكر له المفسر ابن جرير سندين، وكلاهما ضعيفان مقطوعان، وجزء سبعة أحرف يوجد فى الأحاديث الصحيحة، ولكنه لا ينفعكم، أما جزء « الظهر والبطن » فمخدوش.

الاعتدال أو الجمود فى التقليد:

إن الشيخ قد كره التقليد الجامد ورضى بالاعتدال:

« حياك الله، هذا مغتنم منك ».

وإنى قد تأملت كلامكم، وكذلك كلام الشيخ التهانوى (أشرف على رحمه الله)، (م ـــ ١٣٦٢هـ)، وأقول مع احترام: إن الاعتدال لم يوجد بعد فى آرائكم وأقوالكم. وحينما تفصلون بين الاعتدال والجمود نعود لكم هناك ولكن الاعتدال المنشود لايوجد لدى الشيخ التهانوى بل هو أيضا فى حاجة إليه. نعم نوافق على قولكم بأن الاعتدال خير فى جميع الأمور.

هل الفقه قانون مصطنع؟

قد تأسف الشيخ العثمانى على أن بعض الناس حينما يعارضون التقليد يتطرقون من ذلك إلى سب الفقهاء والطعن عليهم. ولو جاء ذلك من أحد لكان عيبا كبيرا. وكذلك نرى أن بعض الناس حينما يدافعون عن التقليد يطعنون فى الأئمة المحدثين. ولكن الحقيقة أن

العلماء الكرام أمانة مشتركة للأمة ، ولا يمكن أن نصبر على سبهم والطعن فيهم ، واليوم نرى أن الشيخ أنظر شاه بن الشيخ أنور شاه يحاول النيل من أئمة الحديث . وهذا محاولة لتنمية البذور التى بذرها الشيخ زاهد الكوثرى ، وأهل ديوبند من الأصاغر والأكابر مشتغلون بذلك منذ مدة طويلة . وموقفهم هذا لا يؤيد إلا منكرى الحديث النبوى . وفى باكستان يحاول بعض الشباب من الكتاب إحياء سنة السب والشتم ، وفى ذلك يحرفون النصوص ويخلطون بين المصادر ، هداهم الله تعالى للإصلاح .

وبعد ذلك ذكر الشيخ مسائل ، وحسنا كان لو بقى فى الأصول ولم يتجاوز إلى الفروع ، ولكنه أثار المسائل الفرعية أيضا ، وهذا يدل على أنه يريد إعادة المسائل التى كانت موضع جدل ومناقشة لمدة طويلة .

المسألة الأولى : وضع اليدين

ذكر الشيخ العثمانى أولا مسألة وضع الأيدى فى الصلاة ، وقد ذهب الأئمة المجتهدون فى ذلك ثلاثة مذاهب ، الأول وضع الأيدى فوق السرة ، وهو مذهب أهل الحديث والشافعية . والثانى إرسال الأيدى ، وهو عمل المالكية . والثالث وضع الأيدى تحت السرة ، وهو مذهب الحنفية .

وتصح الصلاة فى هذه الأوضاع جميعا ، حسبما أعلم . وليس

هناك حديث يؤيد عمل المالكية ، والإمام مالك نفسه ذكر حديث وضع الأيدى فى الموطأ ، ولم نعلم كيف شاع الإرسال فى الموالك ، ولكن لا أعلم أحداً وصفه بالعمل المصطنع .

وكذلك لا أعلم أحدا وصف عمل الحنفية بالاصطناع . نعم يرجح أهل الحديث وضع الأيدى على الصدر . والحديث الذى استدل به الشيخ العثمانى على وضع الأيدى تحت السرة ضعيف متفق على ضعفه ، والشيخ نفسه قد كاد أن يسلم ضعفه . والحديث فى بعض نسخ أبى داود ، وكذلك توجد رواية « على صدره » فى بعضها ، أما رواية تحت السرة فمرفوع حكما ، ولكنه ضعيف بجميع أسانيدها ، فأسانيدها ترجع إلى عبد الرحمن بن اسحاق الواسطى ، وهو ضعيف باتفاق أئمة الرجال .

وبعض روايات « فوق الصدر » أيضا ضعيفة ، ولكن قد صح من بينها حديثان ، الأول : حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان حدثنا سماك عن قبيصة بن هلب عن أبيه : رأيت رسول الله ﷺ ينصرف عن يمينه وعن يساره ، ورأيته يضع هذه على صدره ، ووصف يحيى اليمنى على اليسرى فوق المفصل[1] .

والثانى حديث ابن خزيمة ، وقد ذكره الحافظ ابن حجر فى

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢٢٦/٥

بلوغ المرام: عن وائل بن حجر قال صليت مع رسول الله ﷺ فوضع يده اليمنى على يده اليسرى على صدره. رواه ابن خزيمة[1]. وقد نقل تصحيحه أيضا عن ابن خزيمة.

والحديثان يدلان على أن النبي ﷺ قد وضع يده اليمنى على يده اليسرى على الصدر. ومن شاء المزيد من البحث فليراجع عون المعبود (٢٧٦/١).

والتحقيق أن أحاديث «فوق الصدر» أصح من أحاديث «تحت السرة» ولذلك يختار أهل الحديث مذهب فوق الصدر، وقد نقل عن الامام أحمد المذهبان، مذهب فوق السرة، ومذهب تحتها.

«واختلف فى مواضع الوضع، فعنه فوق السرة وعنه تحتها، وعن أبى طالب سألت أحمد: أين يضع يده إذا كان يصلى؟ قال: على السرة أو أسفل، وكل ذلك واسع عنده[2]».

والامام الشافعى أيضا يرجح فوق السرة، وآثار تحت السرة كلها غير صحيحة. ولكن مع ذلك لا يمكن أن يوصف مذهب الحنفية بالاصطناع والاختلاق، نعم يقال إنه مؤسس على الآثار الضعيفة، ولذلك يترجح مذهب أهل الحديث نظرا إلى الاسناد. ولكن البعض يغلو فى مثل هذه الأمور، وهم يوجدون فى الطرفين، وعلينا إصلاحهم. ومن

---

(١) سبل السلام ١٥٩/١

(٢) بدائع الفوائد ٩١/٣.

العاملين بمذهب تحت السرة من يرخى ويبالغ إلى أن تصل يده فوق العانة . ومن القائلين بمذهب تحت السرة من يرفع إلى أن يجعلهما تحت العنق . والصورتان تكرهان . أما أمر الأدب والتعظيم فيتحقق بوضع الأيدى على الصدر لا بارسالها ، فانه خلاف الأدب بل مكروه . والأيدى توضع فى الأغلب على الصدر وقت التلاوة وبعد السلام ، ولم نر أحدا يضعها تحت السرة إلى اليوم .

المسألة الثانية : رفع اليدين :

هى رفع اليدين عند الركوع ، وليس معكم دليل فى هذه المسألة ، سوى التحكم والتعنت ، وكنت أظن أن الشيخ العثمانى يعترف بذلك عادلا ، ويقول إن الحنفية لا يملكون الدليل فى هذا الباب ، ولكن أسلوب الكلام الذى اختاره الشيخ لا يزيده فضلا . والعلماء يعرفون أن المسائل التى بحثها وناقشها أعلام الأمة عبر القرون لابد وأن تؤيد بدلائل ، سواء كانت صحيحة أم ضعيفة وكنا نود إذا أثرتم المسائل القديمة أن تأتوا بجديد بدل إعادة ما قيل ؛ فان كلا من الفريقين يعلم ما عند الآخر من الدلائل . وباثارتكم هذه المسائل اضطررت إلى توضيح موقف أهل الحديث منها .

وكما قلت إنكم فارغو الأيدى فى هذه المسألة ، ودلائلكم ضعيفة . وفى الحديث الأول من الحديثين اللذين ذكرتموهما قد تجاسرتم فى تقليد بعض الأكابر من الحنفية ، وإلا لم يرد فيه ذكر رفع اليدين

عنـد الركوع البتة . إن الأحناف الكبـار يتجاسرون فيذكرونه ، وأنتم تعتمدون عليهم فتسلكون مسلكهم . والأمانة العلميـة تتطلب ألا يذكر هذا الحديث فى مبحث رفع اليدين عند الركوع ، ولكنكم قلتم ما شئتم .

الحديث الأول :

روى مسلم هذا الحديث بأربع طرق ، وصرفت النظر عن التحويلات وتفرع الأسانيد .

و وردت فى سنن أبي داود نفس هذه الأسانيد بخلاف يسير ، منها مختصر المتن ومنها مطول ، والحديث واحد ، وألفاظه واضحة : عن جابر بن سمرة قال كنـا إذا صلينا مع رسول الله ﷺ قلنـا السلام عليكم و رحمة الله ، السلام عليكم و رحمة الله ، وأشار بيـده إلى الجانبين ، فقال رسول الله ﷺ : علام تومون بأيديكم ، كأنها أذناب خيل شمس ، إنما يكفى أحدكم أن يضع يده على فخذه ثم يسلم على أخيه من على يمينه وشماله[١] » .

وجميع هذه الأحاديث مرويـة عن جابر بن سمرة ، ومعناها مماثل ، ومن البين أن الفرق ليس فى الحادث فإنه واحد ، فى الإجمال والتفصيل . وعلى المصلحين أمثالكم أن لا يقولوا مثل هذا الكلام

(١) صحيح مسلم ١٨١/١

الفارغ ، يقول الإمام البخارى : « لا يحتج بهذا إلا من لا حظ له من العلم » .

ولو سلمنا صحة هذا الاستدلال لوجب العمل بمقتضاه فى تكبيرات العيدين والافتتاح والقنوت ، يقول ابن حبان : « إنما أمروا بالسكون فى الصلاة عند الإشارة بالتسليم دون الرفع الثابت عند الركوع[١] » .

ويقول الإمام البخارى : « فليحذر امرؤ أن يتقول على رسول الله ﷺ[٢] » . فلو تأملتم فى الموضعين من صحيح مسلم وسنن أبى داود لوضح الأمر ، ﴿ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[٣] ﴾ .

الحديث الثانى :

هو مروى عن عبد الله بن مسعود ، يقول : « فلم يرفع يديه إلا مرة واحدة[٤] » . قال أبو داود : هذا مختصر من حديث طويل وليس هو بصحيح على هذا اللفظ » .

وعلى هذا ليس الحديث الأول فى الموضوع ، والثانى ضعيف باتفاق المحدثين ، قال ابن مبارك : لم يثبت عندى . قال أبو حاتم : هذا

(١) عون المعبود ٣٨٢/١

(٢) نفس المصدر

(٣) سورة ق : ٣٧

(٤) أبوداود ١٢٥/١

حديث خطأ . قال أحمد بن حنبل ويحيى بن آدم : هو ضعيف ، نقله البخارى عنهما وتابعهما على ذلك . وقال أبو داود : وليس هو بصحيح وقال الدارقطنى لم يثبت[١]. ويقول ابن حبان : ليس لدى الكوفيين فى عدم الرفع سوى هذا الحديث ، وهو ضعيف جدا .

وطريق عاصم بن كليب وطريق محمد بن جابر كلاهما ضعيفان باتفاق الأئمة ، أما تحسين الترمذى فمن عادته الخاصة ومصطلحه ، ولا يستلزم الاعتماد والوثوق ، كما هو مبسوط فى كتب المحدثين ، وهو (الترمذى) يقول فى حديث عبد الله بن مسعود : إنه لا يثبت . قال عبد الله بن المبارك : قد ثبت حديث من يرفع ، وذكر حديث الزهرى عن سالم عن أبيه ، ولم يثبت حديث ابن مسعود أن النبى ﷺ لم يرفع إلا فى أول مرة[٢].

يقول محمد بن نصر المروزى : أجمع علماء الأمصار على مشروعية ذلك إلا أهل الكوفة[٣].

وقد ذكر الإمام البخارى فى جزء رفع اليدين عن الحسن وحميد بن هلال أن الصحابة كانوا يرفعون ، ولم يستثن أحدا . ويقول

---

(١) عون المعبود ٢٧٢/١

(٢) جامع الترمذى ٣٥/١

(٢) تحفة الأحوذى ٢١٩/١

البخارى : لم يثبت ترك الرفع عن أحد من الصحابـة ، وهكذا نقل عن علماء الحجاز ومكة والعراق والشام والبصرة واليمن وكثير من علماء خراسان . وكان الرفع هو عمل سعيد بن جبير وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وقاسم و سالم بن عبد الله وعمر بن عبـد العزيز ونعمان بن أبى عيـاش والحسن وابن سيرين وطاوس ومكحول وعبد الله بن دينـار ونافع مولى عبد الله بن عمر وحسن بن مسلم وقيس بن سعد وكثير غيرهم . وكذلك روى عن الإمام الدرداء ، ولا أريد هنـا استيعاب أسماء القـائلين بالرفع ولا المناظرة ، بل أود استلفات انتباهكم ومن معكم من محبى العدل إلى أن استناد فقهاء العراق فى هذه المسألة بالتقليد أكثر منه بالدلائل . ومن سوء الحظ أن هذا الحـديث لم يتلق بالقبول لدى علمـاء العراق ، والقـدماء — رحمهم الله — لم يتفطنوا لأهمية هذه الدلائل ، ولكن لماذا تسلكون أنتم هذا المسلك فى البحث والمناقشة ؟ وقـد رفض المتأخرون من فقهـاء العراق — حبا للعدل — عدة مسائل المتقدمين منهم ، و ينبغى أن تضم هذه المسألة إليها . وجميع هذه التفاصيل توجد فى جزء رفع اليـدين للبخارى وعون المعبود وتحفة الأحوذى وغيرها من شروح الحديث .

وكذلك لم يثبت فى حديث براء بن عازب المروى عن يزيد بن أبى زياد قوله « لم يرفع يديه إلا أول مرة » .

الخلاصة :

قد علمنا حال الروايات التى عرفت ، أما الروايات السبع أو الثمانى التى أشرتم إليها فأين هى؟

إنكم على حرية فى ترك الرفع ، فإنه ليس بفرض ، ولكن القول بأن الترك قد ثبت بحديث يعتمد عليه خلاف العلم والرواية ، وكذلك لايصح القول بأن الترك سنة ، فإنه لا دليل عليه ، و وصف المتروك بالسنة موضع نظر. والغريب أن يكون فعل أمر وتركه كلاهما سنة . ولايعقل وصف الترك بالسنة حين توفر الأدلة على فعل الرفع . ومن كبار علماء ديوبند من وصف الأمرين بالسنة ، وهذا موضع عجب ، عفا الله عنهم . والشاه ولى الله أيضا يصفهما بالسنة ولكن يقول بعد ذلك: «والذى يرفع أحب إلى ممن لايرفع، فإن أحاديث الرفع أكثر وأثبت[1].

المسألة الثالثة : جلسة الاستراحة

إنها مستحبة، ولكن او نظروا بعين الإنصاف لما رجحوا تركه . وكان مقتضى العدل أن ينظروا فى معنى الحديثين وسندهما ، فحديث مالك بن الحويرث الذى يؤيد جلسة الاستراحة واضح فى معناه : إذا كان فى وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوى جالسا. ويقول

(١) حجة الله البالغة ٢ / ١٠

الإمام الترمذى : حديث مالك بن الحويرث حديث حسن صحيح[١].
فالفقه واضح ، والحديث صحيح .

أما حديث أبى هريرة الذى استدللتم به على ترك جلسة الاستراحة ، ليس واضح المعنى ، فهو يبين هيئة القيام فى الوقوف على صدور القدمين ، ولا ينفى جلسة الاستراحة ، والتطبيق ممكن ، وذلك بأن نقول إنه حينما كان يقوم معتمدا على صدور القدمين ، فلا تنتفى الجلسة بل تتضح هيئة قيام النبى ﷺ فقط ، ثم إن الحديث ضعيف ، ففيه خالد بن إياس ، ويقول عنه الترمذى خالد بن إياس ضعيف عند أهل الحديث[٢]. ومثل هذا الاستدلال يقبل ويستساغ عند أهل التقليد فحسب ، أما الذى يحب التحقيق فلا يعتمد على مثل هذه الأحاديث ، وقد أحلتم إلى صحيح البخارى أيضا ، فلو وجد حديث واضح صحيح ينبغى أن تشيروا إليه ، ولكن — كما أعلم — لا يوجد فى صحيح البخارى حديث يدل على ترك جلسة الاستراحة ، إلا أن يتعنت أحد شأن العلماء المتعصبين ، أما التصريح الذى ورد فى الأحاديث بخصوص جلسة الاستراحة فلا نعلم شيئا خلافه : عن مالك بن الحويرث الليثى أنه رأى رسول الله ﷺ يصلى ، فكان إذا كان فى وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوى جالسا . قال أبوعيسى : حديث مالك بن الحويرث حديث

---

(١) جامع الترمذى ٣٨/١

(٢) نفس المصدر ٣٨/١

حسن صحيح[١]. أما الحديث الذى ذكرتم ففيه إجمال، وحديث مالك ابن الحويرث فى جلسة الاستراحة واضح ومفصل.

المسألة الرابعة: التورك فى القعـدة الأخيرة

يستحب التورك عند أهل الحديث والشافعية والحنابلة وغيرهم من أئمـة السنة، وهو أن تفرش الرجل اليسرى فيجلس على الورك وتنصب الرجل اليمنى، وقد ورد ذلك فى حديث أبى حميد الساعدى: «افترش رجله اليسرى وأقبل بصدر اليمنى على قبلتـه، الخ[٢]» وفى باب وصف الصلاة ورد حديث أبى حميد هذا بتفصيل أكثر، وفيه: «حتى كانت الركعة التى تنقضى فيها صلاته أخر رجله اليسرى وقعد على شقه متوركا ثم سلم[٣]».

وبناء على هذه الأحاديث الصريحة يرجح أهل الحديث التورك، ولكنهم لا يقولون بفساد صلاة من يتركه. ويمكن أن قال لكم ذلك طالب سلفى فى كراتشى، أما العلماء وأصحاب الجد فلا يرون أن صلاة تارك التورك فاسدة، نعم، إن الحديث الذى استدللتم به مجمل، وروايات أبى حميد واضحة مفصلة، والمفصل يقضى على المجمل.

---

(١) جامع الترمذى ٣٨/١

(٢) " " ٣٩/١

(٣) " " ٤٠/١

المسألة الخامسة : قراءة الفاتحة خلف الإمام

يرجح أهل الحديث فرضية قراءة سورة الفاتحة على الإمام والمأموم . والخلاف قديم فى هذه المسألة ، وقد كتب فيها فقهاء العراق كثيرا ، ولكن بحوثهم تتسم بالسلبية ، أما الأحاديث التى يدور الكلام حولها فى طريقة إيجابية فبعضها صريحة غير صحيحة وبعضها صحيحة غير صريحة ، أى فى القراءة المطلقة وليست فى الفاتحة . وقد وضح المغفور له السيد أنور شاه الكشميرى هذه الآراء السلبية أو الالزامية ، ولكن الموضوع الرئيسى لا زال فى حاجة إلى البحث . وليس هناك دليل على ترك قراءة الفاتحة خلف الإمام سوى تقليد علماء العراق ، وتدبروا أنتم ، إنكم ذكرتم أثر جابر ، وما وجدتم رواية مرفوعة ، وقد ذكره الطحاوى رفعا ولكن لم يصح طريق من طرقه . وليس هذا محل السخط والغضب ، بل ينبغى توضيح الموقف ، وعلى هذا نبهكم أهل الحديث على بعض مواضع الضعف ، ثم الأمر موكول إليكم فى القبول والرد ولا حق لأحد فى السخط و الغضب . نعم يبدو موقفكم فى هذه المسألة أقوى منه فى مسألة رفع اليدين . ونظرا إلى كثرة الكتابات فى الموضوع أترك التفصيل والتطويل .

المسألة السادسة : الركعتان الأخيرتان

إن الشيخ العثمانى قد استجاب للعصبية فى بعض المواضع مع ادعائه العدل والحياد ، فكأنه لم يستطع ضبط نفسه . وقد سلم بأنه

لم يثبت السكوت فى الركعتين الأخيرتين بحديث ، ولكنه لم يرد حديث يدل على خلافه ، وقد استنبط الإمام أبو حنيفة بقوله تعالى : ﴿فاقرؤا ما تيسر من القرآن[1]﴾ ولكن الشيخ العثمانى لم يوضح استنباط الإمام أبى حنيفة ، فلا نستطيع أن نقول فيه شيئا ، ولكن الأحاديث تصرح بأن الفاتحة واجبة فى الركعات كلها ، وقد روى البيهقى فى جزء القراءة حديث مسىء الصلاة بطرق عديدة ، وقد صرح فى نهايتها بعد ذكر الفاتحة : « كذلك افعل فى صلاتك كلها » أى مع سورة الفاتحة .

وأثر جابر الذى أوردتموه من سنن الترمذى (١ / ٤٤) قد جاء فيه : « يقول من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن » . والتصريح بالركعة فيه يدل على أن القراءة تجب فى كل ركعة ، وعليكم أن تعيدوا النظر فى الموضوع ، فمذهب الإمام الشافعى ينبنى على النصوص ، ولا ينبغى أن تخلو ركعة من القراءة .

المسألة السابعة : النية باللسان

أظن أنه لا خلاف فى أن النية فعل القلب ، ولا صلة لها باللسان ، وقد اتفق على ذلك الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى . والالتزام بأداء كلمات النية باللسان يقتضى أن ينبه الناس على هذا الخطأ ، ولكن العجب من أن يتحمل الشيخ العثمانى مسئولية أفعال الجهال ويدافع

(١) سورة المزمل : ٢٠

عنهم . أما الاشتغال بالشئون الإنسانية فلا يلزم أن يخاص منه تفوه كلمات النية باللسان ، فضلا عن البدعة التى تسمحون بها ، فاحذروا من ذلك وحثوا العامة على التمسك بالسنة، فإن النية لا تتعلق بالجوارح: خصت النية فى غالب الاستعمال بعزم القلب على أمر من الأمور[1]. وفى التهذيب : نويت نية ونواة: عزمت[2].

إن الدفاع عن العامة من قبل الأوساط العلمية العالية يبعث على الاستغراب ، وإن ذلك من شأن البريلوية ، ولكنكم سلكتم مسلكهم. وليست فى قوله « حافظوا على نياتكم» زيادة على قوله « إنما الأعمال بالنيات » والنية على كل حال واجبة للعمل، ويراها العامة من واجبات الصلاة إلى الآن ، فلابد أن يكون أحد ينوب اليوم عن ابن القيم رحمه الله .

المسألة الثامنة : الأضحية قبل الصلاة

تناول الشيخ العثمانى هذه المسألة كأنه يجهل تماما موقف المعترضين ، والحقيقة أن أهل الحديث يرون صلاة العيد واجبة فى القرية والمدينة كلتيهما ، فهم مختلفون مع الإمام أبى حنيفة فى هذا الأمر أيضا ، والخلاف فى الأضحية فرع الخلاف المذكور. والحديث الذى ورد فيه عند مسلم. « من ضحى قبل الصلاة فإنما ذبح لنفسه ،

(١) المصباح المنير ٢/٦٠٣

(٢) تهذيب الصحاح ٣/١٠٨٢

ومن ذبح بعد الصلاة فقد تم نسكه» موجه عند أهل الحديث إلى أهل القرى والمدن جميعا ، وليس فيه عند الحنفية شيء أحسن من أثر علي، وهو كما ترى لا تقوم به حجة[1].

المسألة التاسعة : زوجة مفقود الخبر

إن المتقدمين من الحنابلة والامام ابن حزم الظاهرى مع قدماء الحنفية فى مسألة مفقود الخبر ، فيقولون مثل قول الحنفية ، ولكن الجدير بالملاحظة فى هذا الموضوع هو حقوق المرأة وعواطفها ، يقول تعالى : ﴿ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا[2]﴾ وكذلك لم تراع حقوق الزوج فى الايلاء أكثر من أربعة أشهر ، وهذا يدل على أن القرآن الكريم يراعى حقوق المرأة وعواطفها مراعاة كافية ، ولكن تدقيق الفقهاء قد أوقعها فى محنة الانتظار . ولولا جمود التقليد لم يقبل هذا الظلم الصريح . والآثار التى ذكرتموها فى تأييد مذهبكم تعارض مبدأ القرآن الذى هدانا إليه ، ثم إنه ليس هناك حديث مرفوع صحيح فى كتب السنة يحدد مدة تسعين سنة ، بل المعتمد هو آراء الأكابر فقط .

وندين بالفضل للشيخ التهانوى وأصحابه حيث أنهم قد تخلوا — فى

---

(١) والتفصيل فى « سر من رأى فى بحث الجمعة فى القرى » للعلامة عبد الرحمن بقا الغازيفورى رحمه الله .

(٢) سورة البقرة : ٢٣١

كتابه الحيلة الناجزة — عن الجمود القديم وقبلوا بعض الفروع من فقه الشافعية والمالكية والحنابلة ، مع أن الشيخ التهانوى كان شديدا فى الجمود ، والله تعالى هو وفقه لهذا ، جزاه الله تعالى أحسن الجزاء .

والدعوة إلى اتباع السنة وترك التقليد لا تعنى إلا أن يترك الجمود وتقدم المصالح البشرية على المصالح التقليدية ، وطريق استخراج الفتاوى فى الحياة الناجزة يتلخص فى أن معنى نصوص الكتاب والسنة — الذى يقره الشيخ التهانوى وأصحابه — لم يقبل إلا بعد تصديق من المالكية والشافعية ، وهذا أسوأ مثال للجمود . وبناء على دراستنا للمنهج النظامى نصرح بأنه ليس فهم الكتاب والسنة عسيرا كما ترون ، فاتركوا الحيل فى بيان المسائل ، واعدلوا فى حب الأئمة الأربعة رحمهم الله . إن المتأخرين من الفقهاء قد غيروا موقفهم فى مسألة مفقود الخبر، وقدامى الحنفية قد جوزوا أجرة تعليم القرآن والحديث والفقه ، ومثل هذا التغيير يتكرر فى كل عصر، وما أدرى ما الذى ساق اليوم إلى هذا الجمود ؟

ونرى فى الحيلة الناجزة الاستفادة من المذاهب الأخرى ، وهنا ينشأ سؤال . . . كم مسألة يجب فيها التحقيق والاستفادة من المذاهب الأخرى حتى يصير الرجل غير مقلد ؟ ولو صح قول الشيخ بأن الفقهاء قد نظروا فى مسائل الفقه وفى مسائل الاجتهاد الجديدة بأمانة تامة ، فكذلك يصح أن نقول إن أئمة الحديث والفقهاء المحدثين قد

استنبطوا فقه الحديث بأمانة كاملة، فلا يحسن الطعن عليهم أبدا. وقد ذكر الامام البخارى فى باب مفقود الخبر حديث اللقطة، ومعنى ذلك أن يسمح للزوجة بعدة الموت بعد سنة إذا دعت الحاجة واقتضت الحالة. ولو صار العمل بذلك ليرجى أن يتفكر فى ذلك الشيخ العثمانى ومدير مجلة فاران.

ونحن نشكر الشيخ العثمانى على عواطف الصلح والاخلاص التى أبداها فى بداية المقال وفى نهايته، وكذلك نقدر لمدير مجلة فاران موقفه فى الاصلاح، ثم نرجو أن يتكرر ذكر هذه الآراء فى حلقات الدرس ومجالس الوعظ وخطب الجمعة والجلسات العامة، حتى تصفو أذهان العامة وينظر فى الخلافيات فى ضوء الدلائل فقط، ولو قبل أحد آراء الآخر باخلاص ليعذر ولايلام، والأحداث تقرر أن العصبية تأتى من قبلكم، ونضرب لذلك مثالا: «وقف على أصحاب الحديث لايدخل فيه الشافعى إذ لم يكن فى طلب الحديث، ويدخل الحنفى كان فى طلبه أولا[1]». وأشار إلى دليله فقال: «لكونه يعمل بالمرسل ويقدم خبر الواحد على القياس».

وقيمة هذا الدليل لا تخفى على أهل العلم، وكذلك منزلة الحديث المرسل، أما موقف الأصوليين من خبر الواحد فمعلوم للجميع، ويختلف مذهب أهل الحديث عن الحنفية والشافعية جميعا، يقول العلامة

(١) الدر المختار ٤/٦٦٥

الشامى : « ذكر فى فتح القدير أن الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم ويكفرون الصحابة حكمهم عند جمهور الفقهاء وأهل الحديث حكم البغاة ، وذهب بعض أهل الحديث إلى أنهم مرتدون ، قال ابن المنذر : لا أعلم أحدا وافق أهل الحديث على تكفيرهم[١] » .

ويعلم من عبارة الشامى المذكورة أن أهل الحديث مدرسة فكرية مستقلة ، أفليس من العصبية أن تفصل الشافعية من الوقف مع أن عنايتهم بالسنة أكثر من الحنفية .

وهنا مثال قبيح آخر للعصبية ، وهو أن الشيخ أحمد حسن السنبلى قد ذكر فى حاشيته ، « نظم الفرائد » على شرح العقائد النسفية عقيدة تفويض الكيفية لأهل السنة نقلا عن الإمام الشوكانى ، فأغلظ القول وأفحش فى أئمة التفويض إذ اشتد غضبه ، ولم يسكت حتى قال : « وخلفاء هذه الملة أربعة ، ابن تيمية وابن القيم والشوكانى ، فيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، وإذا انضم إليهم ابن حزم وداود الظاهرى بأن صاروا ستة ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، وخاتم المكلبين مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث يشنع على أهل الحق فى التنزيه[٢] » .

وإنى لا أجد فى نفسى قدرة لترجمة هذه الشتائم التى وجهت إلى

---

(١) رد المحتار ٤/٤٥٢

(٢) " " ٤/١٠٢ .

ابن تيمية وابن القيم والشوكانى وابن حزم وداود الظاهرى والنواب صديق حسن خان إلى اللغة الأردية . ولغة الكوثر (أى اللسان المنظف بماء الكوثر) هذه قد جاءت من عندكم. ثم إن المعلق المذكور أكثر السب فى صفحة ١٤٥ من نفس الكتاب . وإنى أوكد بناء على تجاربى أن أعراض أهل العلم ومكانتهم لن تصان ما وجد التقليد الشخصى بين الناس ، فها هو الحافظ ابن العربى مع كونه مالكيا يوجه الشتائم إلى الشافعى ويحقره فى كتابه أحكام القرآن . وفى كتب الأصول رمى الإمام الشافعى وداود الظاهرى بالجهل[1] . وليس ذلك إلا أن التقليد يؤدى إلى الإفراط والغلو فى الحب ، ولا يخفى تأثير ذلك على الغير .

ولاشك أن تشدد «أهل الحديث الغرباء» وغلوهم والكلام النابى المتطرف من مؤلف كتاب «طلب الحق» غير مستحسن عند الناس ، ولكن فى خلفية هذا الموقف سلوك الأغلبية (الحنفية) الجافى ، وإلا يعلم الكل أن العلامة السيد نذير حسين رحمه الله كان يصلى الجمعة مع الإمام الحنفى ، وكانت صلاته مع العلماء الأحناف طيبة جداً ، ولكن الغريب أنه حينما سافر للحج لقى فى الحرم الشريف معاملة سيئة جداً من الحاج امداد الله ، والشيخ رحمة الله ، والشيخ خير الدين (علماء الحنفية) ، وهم قد اتهموه بما ورد فى كتاب «جامع الشواهد فى اخراج

---

(١) نور الأنوار ص ٢٩٨

الوهابيين من المساجد » فألقى عليه القبض ، ولما ثبتت براءته بعد البحث والتحقيق اضطروه لطلب العفو . وقد اشتركت فى هذه المحنة أسرة فطينة من لدهيانه ، فقد ظلم كل من الشيخ عبد العزيز والشيخ عبد القادر والشيخ محمد رحمهم الله تعالى . والحقيقة أننا لا نشكو اليوم من البريلوية كما نشكو من أهل ديوبند ، والمؤلفات التى تنشرها طائفة من الشبان الديوبنديين فى باكستان والتى تنشر من ديوبند نفسها لا تزيد أكابر ديوبند كرامة ، ولا تزن بشىء على ميزان العلم والأمانة ، فإنها تنطوى على بغض أئمة الحديث . ومن المعلوم أن الخلاف بين أئمة الحديث وبين فقهاء المذاهب هو خلاف فى الفهم ، وتقديمه للناس فى المجالس الشعبية فى صورة التنافر والمعاداة فيما بينهم ليس من المنطق فى شىء ولا أنه يأتى بنتيجة محمودة .

وصحيح ما قال مدير مجلة فاران بأن أحدا من الحنفية وأهل الحديث ليس مارقا من الدين ، وكل ما يقال فى الموضوع هو أن المذهب الفلانى أقرب إلى السنة من غيره ، والمباحث التى تتناول هذه الأمور لا تفيد إلا سكون القلب .

❋ ● ❋ ◇ ❋ ● ❋

الفصل الخامس

فى

الائتمام بأهل الحديث

ومناقشة آراء المعارضين له

(هذا البحث رد به المؤلف رحمه الله على العالم

البريلوى محمود أحمد الرضوى مدير مجلة الرضوان)

الائتمام بأهل الحديث :

قد ورد فى العدد الممتاز الخاص بالصلاة من مجلة رضوان بلاهور المؤرخ فى ٢٨ مارس ١٩٥١م ذكر بعض المسائل الخلافية فى صورة الفكاهة والمزاح تحت عنوان « زهر وشوك » والمزاح الجاد ليس قبيحا، ولكنه لايستحسن فى المسائل الدينية، وقد جعله القرآن جهلا، ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين[1]﴾. ولا أدرى لماذا اختارت مجلة الرضوان هذا الأسلوب؟

ومجلة الرضوان تمثل الحنفية الرضاخانية، وهؤلاء يعتمدون فى فهم المسائل على منهج الشيخ أحمد رضا خان البريلوى أكثر من الفقه الحنفى، و ارتباطهم بهذا الفقه لتدعيم ملتهم بالعامة لا لأنهم مهتمون بفقه الإمام أبى حنيفة. وماذا تكون قيمة منهج الإمام حيث يطغى الاجتهاد فتثبت العقائد بالقياس بل ترد النصوص القطعية؟ وكيف تضم الفوضى والإسراف فى المقاييس والأوهام إلى الموقف الذى يحتاط فى إثبات العقائد بالظن وفى النصوص الموجبة للعمل مثل أخبار الآحاد؟ رحمه الله و رضى عنه وعن سائر الأئمة المجتهدين والفقهاء والمحدثين الذين هم قادة الدين.

وكيف ينتسب إلى الإمام الذى يهتم فى أكل الحلال فلا يستظل بجدار المدين، الذين ينتظرون بفارغ الصبر من صبيحة الخميس ويرنون

---

(١) البقرة : ٦٧

إلى جدران المسجد لاستقبال الهدايا والنذور ليملأوا به البطون دون أن يميزوا بين الحلال والحرام ؟ وأى صلة تفرض بين الذين يدعون إلى تقديم النذور إلى الضرائح والمقابر إذا مرضت البهائم فى البيت وبين الإمام الذى ضرب أروع مثال للتخلى عن المطامع والآمال ؟ وكم بين الموت فى السجن وبين الطواف حول مجالس الغناء والمغنين ؟ وليعذرنا أهل التوحيد فى مثل هذا الكلام فإن الناس قد تستروا للطعن على أهل الحق بالفقه الحنفى واستخدموا الفروع الفقهية كحيلة لتحقيق أهدافهم . والذى نقصد هو توضيح المنهج الذى اختاره أهل الحديث وسائر أئمة السلف ، المنهج الذى حاول أصحاب مجلة الرضوان صرف النظر عنه بالهزل ، لا الطعن على أحد والنيل منه :

(كلام العشاق فى الله من عاطفة الحب لا التخلى عن الأدب[1])

الوهابى :

قد اختار مدير مجلة الرضوان لأهل الحديث (أهل الحق) لقب « الوهابى » ونحمد الله تعالى على أن صنيعه هذا قد صرف موجة الشتائم والسباب إلى جهة أخرى وسلم أهل الحق من البذاءة والفحش، وذلك كما قال عليه الصلاة والسلام : كيف يصرف الله عنى شتم قريش ، يسبون مذمما وأنا محمد !

---

(١) ترجمة بيت فارسى نصه :

گفتگوئے عاشقاں در باب رب جذبۂ عشق است نے ترک ادب

(تكفينى نسبة ما إليك، كما يكفى البلبل الانتساب إلى الورد[1])

ونحمد الله على أنه ليس عندنا أحد وهابيا ولا نجديا ولا حنفيا ولا سهروردیا، ولا نحب ولا نكره هذه النسب الموقتة المخترعة، ولا نميل إلى أحد ولا نسخط عليه، بل الحق أننا متمسكون بالكتاب والسنة بحيث لا نعتمد على أحد سوى النبى ﷺ فى رد أمر منهما أو قبوله، ولا يسود أذهاننا منهج فكر يصدنا عن فهم الكتاب والسنة، ولا نرى حاجة إلى واسطة للاتصال بالنبى ﷺ والعمل بأقواله وأحاديثه، بحيث تكون مقياسا للكفر والإسلام أو الفسق والتقوى، ولا ننكر نعمة الله التى أنعمنا بها فى الاستفادة من تفكير أئمة الهدى وسلف الأمة واستنباطهم واستدلالهم، وكل العلوم والمعارف التى توجد اليوم يرجع فيها الفضل إلى أئمة الفقه والحديث، وعلينا أن نشكرهم وندعو الله تعالى لهم أن يملأ قبورهم رحمة ونورا. ولمدير مجلة الرضوان فضل فى أنه لم يخرج كل ما فى قلبه من عواطف الكره والتكفير، بل اكتفى بمنع الناس عن اقتداء أهل السنة والحديث، جزاه الله عن كتمانه الكفر. ونحن هنا لا نخشى كفره بل نقلق من إيمانه

---

(١) ترجمة بيت فارسى نصه:

فى الجمله نسبتے به تو كافى بود مرا
بلبل همين كه قافيهٔ گل بود بس است

المصطنع ، فلعل الكفر بالإيمان البريلوى الرضائى حقيقة الإيمان . ومن الطبيعى أن حنفية مدير الرضوان قد بدأت بالمولوى أحمد رضا خان البريلوى (م — ١٣٤٠هـ) ، ولكن إيماننا بدأ بالنبى الأمى ﷺ فداه أبى وأمى . ولو لم يأت إلى مساجدنا مثل هؤلاء الناس لا نشتكى أبداً ، وتالله لا ندعوكم لأن تأتموا بنا ، كما لم ندع فى السنوات الماضية . فمساجدنا — ولله الحمد — عامرة أكثر من مساجدكم حتى فى هذا العصر ، ويكثر فيها أهل التوحيد بحيث لا نحتاج — بحمد الله — إلى أهل البدع وعباد القبور ، ثم إنكم لتستثقلون صلاة أهل السنة لأنهم يصلون بسكينة وطمأنينة ، وبناء على ذلك نرى بل نشير عليكم أن لا تقتدوا بأحد من أهل السنة ، وقد قال رسول الله ﷺ : لايقبل الله لصاحب بدعة صرفا ولا عدلا . فقولوا ما الذى نحصله بإمامة رجل لا تقبل صلاته ؟ فلولا تحبون اقتداء أهل التوحيد فاطمئنوا ، إننا لن نلتمس منكم أبدا أن تأتموا بنا. (فاذهب إلى من يشتريك[1]) .

الدلائل :

أما الكلام عن الدلائل التى قد تغالط بها العامة فواجب علينا ، وقد ذكر صاحب الرضوان المحترم بصدد عدم جواز الاقتداء بأهل

---

(١) ترجمة شطر فارسى نصه :

پيش آن كس برو كه خريدار تست

الحديث خمس مسائل ، مستفيدا فى ذلك من ترجمة أردية لكتاب « الروضة الندية » لمجدد الوقت ومجتهد العصر الشيخ السيد النواب صديق حسن خان . يقول الرضوانى : « مهما كان الماء قليلا لا ينجس من وقوع النجاسة فيه إلا أن يتغير لونه أو طعمه أو ريحه . اسمعوا هذه الفتوى ثم تفكروا ، إنهم يقولون بطهارة ماء الابريق الواحد إذا وقعت فيه قطرة من البول ، ويصلون بعد الوضوء به ، فكيف تصح صلاتنا بعد الوضوء بمثل هذا الماء » ؟

وإليكم الآن توضيحنا :

١ — ليس هناك كتاب اسمه « الدرر البهية » للنواب صديق حسن خان ، بل للإمام الشوكانى رحمه الله كتاب يحمل الاسم المذكور ، وقد شرحه النواب صديق حسن خان .

٢ — اتفق الأئمة على أن الماء ينجس بالنجاسة إذا تغير لونه أو ريحه أو طعمه ، قليلا كان الماء أو كثيرا . ويقول الإمام الشافعى : إذا كان الماء قلتين أو أكثر و وقعت فيه النجاسة يكون طاهرا إلا أن يتغير أحد أوصافه الثلاثة (اللون والريح والطعم) لأن هذا ماء كثير لا يحمل الخبث .

ومذهب الأحناف أن الماء إذا كان عشرا فى عشر فهو فى حكم الماء الجارى أو الماء الكثير ، ولا يتأثر بالنجاسة ، أى يكون طاهرا إلا أن تغير النجاسة لونه أو ريحه أو طعمه .

ويقول الإمام: لاعبرة بقلة الماء أو كثرته، بل الأصل هو تغير الأوصاف، فالماء لاينجس بوقوع النجاسة إلا إذا تغير اللون أو الريح أو الطعم.

وقال محى السنة: التقدير بالعشر فى العشر لايرجع إلى أصل شرعى يعتمد عليه[1].

ويقول الشيخ عبد الحى رحمة الله عليه: والتقدير الذى ذكره الحنفية فى عدم سراية النجاسة إلى العشر فى العشر ليس له أصل شرعى، بخلاف تقدير الشافعية بالقلتين، فإنه ثابت بالحديث الصحيح، وكذا تقدير المالكية بالتغيير[2].

والشيخ الرضوى ساخط على «الوهابيين» لأنهم لايقولون بنجاسة القصعة بقطرة من البول، ولوتم الوضوء بهذا الماء لاختلت صلوات الأحناف الرضائيين.

وأقول بأدب: إن كوبا من البول إذا وقع فى القلتين من الماء لا تتأثر صلاتكم بذلك، وتقتدون بمن توضأ بمثل هذا الماء، ومعنى ذلك أنكم ترضون بالتحديد بقلتين، فهل نطلب مجلسا للصالحة مع «الوهابيين».

---

(١) شرح الوقاية ٨٧/١

(٢) عمدة الرعاية على شرح الوقاية ٨٧/١

٣ — لو توضأ مالكى بماء طاهر على مذهبه فهل تجوز صلاتكم خلفه أم لا ؟ فلو قلتم بفساد هذه الصلاة فما معنى كون الأئمة الأربعة على الحق ؟

٤ — إن الكلام فى جواز الاقتداء لا يدور حول العقيدة بل حول الماء ، فلماذا لا نختار حلا آخر ، وهو أن يتوضأ وهابى بحوض أو نهر مسجدكم ثم يؤمكم فى الصلاة ، وأظن أنكم تقبلون ذلك ، كما هو المفهوم من كلامكم .

٥ — ولعلكم قد سمعتم أن الإمام أبا يوسف قد توضأ بحمام مات فيه فأر ، ثم صلى به وقال : نأخذ بقول إخواننا الحجازيين . فهل كان الإمام أبو يوسف وهابيا ؟

وقد صحح الشيخ عبد الحى رحمه الله حديث القلتين ، ولكن لا يخفى على أهل العلم ما فى سنده من الكلام ، والتعقيد المعنوى الذى أحدثه الأحناف فيه معلوم أيضا ، ومع ذلك يقول الشيخ عبد الحى بصحته ، فانتظر منكم إزالة هذا الاضطراب .

ولا شك أن الإمام الشوكانى والسيد صديق حسن خان رحمهما الله يميلان إلى مذهب الإمام مالك ، فلا يعتبران بكمية الماء فى النجاسة والطهارة بل يذهبان إلى الحكم على كيفيته ، فإذا تغير لون الماء أو ريحه أو طعمه لتنجس عندهما قليلا كان أو كثيرا ، وإن لم يتغير فهو

طاهر، ودليلهما نص الحديث الآتى : «الماء طهور لاينجسه شىء إلا ما غلب على طعمه أو ريحه أو لونـــه» . وما زيد بعد قوله «إلا» ضعيف باتفاق المحدثين، ولكن يؤيده إجماع الأئمة. فالنص الصريح الصحيح وكذلك الإجماع يؤيدان مذهب الإمام مالك والإمام الشوكانى والنواب صديق حسن خان. وطهارة المـــاء ثابتة بالنص الصريح الصحيح، والزيادة مؤيدة بالإجمـــاع، ولعل ذلك قد خفى على الرضائيين.

٦ — ولا ينتهى الأمر هنا، فحديث «المـــاء طهور لاينجسه شىء» يوجـــد فى سنن أبى داود ومسند أحمـــد وسنن الترمذى عن أبى سعيد الخدرى، وقد حسنه الترمذى، وصححه الإمام أحمد، وفى روايته «إنه يستقى لك من بئر بضاعة» وقد صححه الشافعى والنسائى وابن ماجه والدارقطنى والحـــاكم والبيهقى، وكذلك يحيى بن معين وابن حزم والحاكم. وقد قال ابن قطان بعد الكلام على بعض طرقه : «ولـه طريق أحسن من هذا». ويقول ابن منـــدة : سنده مشهور. وقد روى — سوى أبى سعيـــد الخدرى — عن جابر وابن عبـاس وسهل بن سعد وعائشة وثوبان. فكيف قلتم بعدم جواز الاقتداء إذا اختار النواب صديق حسن خان مذهبه بناء على الحديث الصحيح والإجماع؟ وماذا يضره موقفكم هذا؟

٧ — والأمر لايقتصر على النواب رحمه الله والوهابيين، بل تذهب إلى ذلك جماعة من أئمة السلف رحمهم الله، يقول الشوكانى: «والحديث يدل على أن الماء لاينجس بوقوع شىء فيه سواء كان قليلا أو كثيرا ولو تغيرت أوصافه أو بعضها، لكنه قام الإجماع على أن الماء إذا تغير أحد أوصافه بالنجاسة خرج من الطهورية، فكان الاحتجاج بـه لا بالزيادة كما سلف، فلا ينجس الماء بما لاقاه ولوكان قليلا إلا إذا تغير وقد ذهب إلى ذلك ابن عباس وأبو هريرة والحسن البصرى وابن المسيب وعكرمة وابن أبى ليلى والثورى وداود الظاهرى والنخعى وجابر ابن زيد ومالك والغزالى[1]».

فليتدبر الرضوى المحترم إذا وجد فرصة من الاشتغال بالفاتحة والمواليد والأعراس وبشئون البطن الأخرى أن عددا كبيرا من أئمة السنة مع النواب صديق حسن خان والوهابيين، بناء على الحديث الصحيح وإجماع الأمة، فماذا تقولون الآن فى الاقتداء بهم؟

٨ — الشيخ الرضوى المحترم! إن اختيار وترجيح مذهب أحد فى المسائل الاجتهادية شىء، والقول بتكفير المخالف فى المذهب

(١) نيل الأوطار ٣٦/١

وبعدم جواز الاقتداء به شيء آخر. ولاشك ان كثيرا من الأئمة يقولون بنجاسة الماء القليل، ثم هناك خلاف كثير فى تحديد الماء القليل، خلاف قد يمكن القطع فيه بأمر على أساس التقليد؟ ولكن يصعب جدا على أساس الدليل: «وللناس فى تقدير القليل والكثير أقوال ليس عليها أثارة من العلم[1]».

وإذا لم يوجد نص صريح من الكتاب والسنة يؤيد التقديرات المذكورة فلماذا يصر على موقف؟ ومما يجدر بالتدبر أن استعمال الماء النجس حرام، ولاثبات نجاسة ماء لابد من الدليل الذى ينفع فى إثبات الحلة أو الحرمة، أما الدلائل التى تكون موضع خلاف بين أئمة الاجتهاد من ناحية معناها وطرق ثبوتها وتعيين المراد منها لاتخولكم حق إصدار الفتيا بحرمة الاقتداء. هذا ليس من شأن العلم ومقتضى الامانة. وكل ما فى الباب أن لاتستعملوا الماء الذى تحسبونه نجسا وتمسكوا بمذهبكم جيدا، ولكن ليس لكم أن تكرهوا أحدا ولا تفتوا فيه بشيء. فإن الشوافع والموالك والحنابلة مع أئمتهم مثل الأحناف مع إمامهم، فالجميع يتساوون فى العقيدة ومنهج التفكير والايمان بصحة المذهب. فلو سلكوا المسلك الذى سلكتموه لفتح ذلك باب التفريق على الأمة ويضحك عليكم غير المقلدين، ولايبقى لكم

---

(١) نيل الأوطار ١/٣٧

وزن فى المحافل العلميــة ، فقد رميت طائفتكم من ذى قبل بضيق النظر وافتقاد التفكير ، وبطلب حلاوى ومشروبات النذور. فاجتنبوا عن تحمل مزيد من السمعة السيئة والفضائح ، وفقكم الله تعــالى للفهم الصحيح .

٩ — وهنا ينبغى أن نناقش مذهبكم أيضا ، حتى يتم اختبار صرحكم الزجاجى الذى ترمون النــاس منه ، وتصدرون فتوى حرمة الاقتداء ، والحقيقة أن مذهب الحنفية فى المــاء ليس صحيحا ، لا من ناحية الرواية ولا الدراية ، ولا تؤيده النصوص ولا العقل . وإنه بقى إلى الآن بسبب حماية العــامة واحترامهم . والعجب كيف تجترؤن على الافتاء فى مخالفيكم .

وتقدير الماء الكثير بالعشر غير ثابت أصلا ، إنه من اختراع الأحناف المتأخرين ، ولا دليل عليــه من القرآن والسنة . ومحاولة شارح الوقاية لاثباته غير مجدية فى الموضوع . ولو حاولتم إثباته لنتكلم عليه بتفصيل . وقد سبق أن ذكرنا قول محى السنة ، و وافقه صاحب الدر المختار (ص ١٦) على أن هذا التقدير غير ثابت ، بل إنه لم ينقل عن إمام الأئمة أبى حنيفة رحمه الله . وأئمة الحنفية مختلفون فى الماء الكثير والماء الجارى والغدير وغيره ، فقــال بعضهم : الماء الجارى هو الذى يسيل بالحشائش ، وقال البعض : هو ما لا يتكرر . وكذا قيل فى الغدير بأنه لو حرك من جانب لا يتحرك الجانب الآخر . ولكن

بماذا يكون التحريك ، بالغسل أو اليد أو الوضوء ؟ اختلف فى ذلك الإمام أبو حنيفة وأبو يوسف . وهذا يدل صريحا على أن المسألة ليست منصوصا عليها بل من صنع الاجتهاد والتفقه ، وهكذا مسألة العشر فى العشر أيضا من صنع المتأخرين . وعلى ذلك لا يحق لأحد أن يحرم الاقتداء بأحد بناء على هذه الفروع الفقهية ، فكما أن الأئمة توسعوا فى ذلك علينا أن نتوسع فيه ونتمسك بمذاهبنا ونسامح الآخرين فى التمسك بمذاهبهم . والمؤسف أن معظم البريلوية تسلك مسلك التضييق ، ومن الديوبندية ضيق وتعصب الشيخ التهانوى والشيخ أنور شاه رحمهما الله ، أما الشيخ عبد الحى اللكهنوى فمذهبه فى هذا الباب أوضح وأبين ، رحمه الله ورضى عنه .

ولعلكم تسمحون بأن يتبع أحد مذهب الإمام أبى يوسف أو الإمام محمد فى الصلاة ، وتحكمون بصحة صلاته وجواز الاقتداء به ، وكذلك تأذنون للملائكة بإيصال صلوات الأئمة الشافعى ومالك وأحمد رحمهم الله إذا صلوا على مذاهبهم فى طهارة الماء ، وتجوزون الاقتداء بهم ، وبعد هذه المعاملة المرنة مع الآخرين لا تفكروا فى الوهابيين فإنهم فى غنى عن وسائلكم ، ومعاملتهم مع رحمة الله مباشرة ، وإمامهم لن ينساهم وقت الشفاعة ، إن شاء الله تعالى .

اللهم صل على محمد وبارك وسلم .

١٠ ــ والتفرقــة بين البئر والغدير فى مسألة الطهارة غريب أيضا ، فكأن العبرة هنا فى الطهــارة والنجاسة بهيئة الظرف بدل كمية الماء ، ولنفرض بئرا فيهـا ماء يملأ غدرانا عديدة عشرا فى عشر ، فإذا كان هذا الماء فى الغدير لا تؤثر فيــه نجاسة ، أما إذا كان مثله أو أكثر منه فى بئر وسيعة عميقة لايتحمل نجاسة قليلة ، فكأن الظرف المدور يتنجس قبــل الظروف المربعة أو المستطيلة . يقول صاحب الهداية رحمه الله : «ومسائل البئر مبنية على اتباع الآثار دون القياس[1]» .

إن مسألة الطهارة والنجاسة تشبه مسألة الحلال والحرام ، فهل تكفى فيها آثار الصحابة فقط ، ويمكن الافتاء عليها بحرمة الاقتداء ؟ وهل يمكن أن لا يروى شىء فى هذه المسائل المهمة عن النبى ﷺ ويترك الأمر كله إلى الصحابة رضى الله عنهم ، الذين ليسوا معصومين حسب عقيدة أهل السنة ، فكيف تصدرون الفتوى بدون تفكير وتأمل؟

ما هكذا يا سعد تورد الإبل

وهل تدبرتم قط أسانيد هذه الآثار ، فمن العسير أن يتصل منها سند بصاحب القول على طريق صحيح ، ولو صحت لا تدل إلا على التنزيه لا الحكم التشريعى . ولكن الإكفار والتكفير والمنع من الاقتداء أمر

(١) الهداية ٢٠/١

فكاهى وشغل سار :

والكفر عندكم رخيص سعره حصوا بلا كيل ولا ميزان

فالمتمس أن هذه الفتيا بناء على الدلائل المذكورة ليست من الأمانة فى شيء ، وطائفتكم ليست فى مكانة علمية تستطيع بها القطع فى مثل هذه المسائل المهمة ، والمجال واسع فى الأعراس والمواليد والاسقاط والختم والسبع والأربعين والخميس ، ولا داعى لأن تدخلوا فى المجال العلمى الذى يحملكم المسئولية .

١ — والتفرقة بين كمية الدلاء وعددها فى طهارة البئر لا ترجع إلا إلى الآثار ، ولا دليل عليها من كتاب الله والسنة الصحيحة .

وعندكم فى المذهب أن طائرا أو فأرا إذا سقط فى البئر ومات ينزح منها عشرون دلاء . وهذا القول مسلم ومعمول به عندكم بناء على التقليد ، ولكن المقام جدير بالتفكير من وجهة أخرى ، وهى أن البئر لا تزال نجسة بعد نزح تسعة عشر دلوا منها (على القول المذكور) فهل الدلو العشرون هو الذى يزيل النجاسة كلها من البئر ؟ ثم ألا تنجس الماء قطرات الماء التى تنزل من الدلو إلى البئر ؟

والحقيقة أن أساس هذه الآثار على النزاهة والإرادة الذاتية ،

ولكنكم أنزلتموها منزلة الحكم الشرعى وجعلتم بين الطاهر والنجس حائلا بقطرات من الماء، وما أعجب ذلك!

وبهذه الدلائل الضعيفة تهاجمون أهل الحديث والموالك، مع أن موقفهم قوى جدا من ناحية الاستدلال. فما أوضح مذهبهم الذى يقول بأن الماء قليلا كان أو كثيرا، كان فى البئر أو الغدير، والغدير يكون عشرا فى عشر أو أقل، إذا وقعت النجاسة فيه وغيرت أحد أوصافه من اللون أو الريح أو الطعم لتنجس الماء، ولو أضيف إليه من الماء الجديد ما يصلح أوصافه أو زال أثر النجاسة بحيث يعود الماء صالحا لطهر الماء، ولكنكم تهاجمون هذا المذهب الواضح المعقول ولا تنظرون إلى مذهبكم، وهذا كما قيل:

يقاتل وليس فى يده السيف

ومن الممكن أن تسلم لكم ادارة المساجد وإمامتها بناء على الأخوة والمصالحة، وتتولوا أمر غسل الموتى وقراءة الفاتحة والاسقاط والأربعين، ولكنكم لو أكدتمونا عن قلوبكم بأنها تخلو من الشرك والبدع لنسلمكم الامامة ان شاء الله، ولكنها لا تكون إذا وسيلة للتكسب.

هذا هو الكلام الموجز فى مسألة الماء، ومن استزاد فلدينا مزيد.

طهارة الخمر:

والشيخ الرضوى غضب على النواب صديق حسن خان لأنه لايقول بنجاسة الخمر. وهذا هو الدليل الثانى لحرمة الاقتداء بأهل الحديث. وإنى أميل شخصيا إلى نجاسة الخمر وأرى مذهب الحنابلة والأحناف فى هذا الأمر صحيحا، ولكن المشكلة أن المسألة ليست قياسية بل تحتاج إلى نص. والنواب المغفور له ليس مصرا على موقفه بل إنه أيضا يريد الدليل الذى يكون مرجحا عند التعارض، يقول: «وبالجملة فالواجب على المنصف أن يقوم مقام المنع، ولايتزحزح عن هذا المقام إلا بحجة شرعية[1]».

وعلى هذا ينبغى أن يأتى الشيخ الرضوى بنص على نجاسة الخمر كما نص على حرمتها، وكذلك ينبغى أن يركز الاهتمام حول الدلائل أكثر من الفتيا، ونقطة الضعف فى أصحابنا البريلويين أنهم يتكلمون دائما بالعاطفة ويهتمون بالفتاوى، والسلاحان ساقطان لدى الرجل السليم.

والنواب صديق حسن خان لايرى الخمر طاهرة، بل إنه معكم فى أن الخمر نجس، وفى القرآن: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان[2]﴾. ولكن لايتنجس الجسم أو الثوب بلمس آلات الميسر والأنصاب مع كونها رجسا، فإن نجاستها

---

(١) الروضة الندية ص ١٢

(٢) المائدة: ٩٠

حكمية وليست حسية ، وفى القرآن : ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام[١]﴾ . وهذا الحكم عام لجميع المشركين ، فهم أنجاس ، هنودا كانوا أو باكستانيين ، عربا كانوا أو عجما ، ولكن المعلوم أن الثوب أو الجسم لايتنجس بلمسهم ، وفى ذلك يقول النواب : « وهذا يدل على أن تلك النجاسة حكمية لا حسية ، والتعبد إنما هو بالنجاسة الحكمية[٢] » .

وكان وفد ثقيف قد دخل المسجد النبوى ولكن النبي ﷺ لم ير الحاجة لغسله ، وكان المشركون يترددون إلى بيت الله ولم يمنعهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأن نجاستهم لم تكن حسية بل حكمية . وقد ثبت أن النبي ﷺ استعمل ماء المشركين والقرآن الكريم ذكر مفصلا محرمات النكاح ، ولكن ليست فى تلك القرابات نجاسة ما ، فإن الحرمة شىء ، والنجاسة شىء آخر . وقد سبق أن قلت إنى منساق من نفسى لترجيح مذهب الأحناف ، ولكن أخذ الإمام الشوكانى والنواب صديق حسن خان على مخالفيهم ليس بيسير ، فإنهم يطلبون دليلا على إثبات النجاسة الحسية فى الخمر وغيرها ، فتفكر ولا تكن من الغافلين .

إن الذهب والفضة والحرير حرام على الرجال ، ولكن لمسها

---

(١) التوبة : ٢٨

(٢) الروضة ص ١٢

لاينجس الجسم ولايفسد الصلاة ، وكذلك أنواع السموم كلها محرمة وليست بنجس ، وتشبهها المخـدرات : فإن حرمتها لا تعنى النجاسة . فكذلك يرى النواب الخمر حراما ونجسا ولكنه لايرى نجاستها حسية ، وليس هذا ذنبا يلام عليه ، وكل ما يمكن أن تقولوا له بعد الحصول على دليل بين أن النواب صديق حسن خان لم يصب فى الفهم .

ثم إن النواب رحمه الله لايجوز التداوى بالخمر ولا اتخاذ الخل منها ولا طبخ اللحم فيهـا ، ولكن الحنفية رحمهم الله يرون أربعة أنواع من الخمر حراما ، وأربعة أنواع منها حلالا : « والحلال منها أربعة أنواع ، نبيـذ التمر والزبيب إن طبخ أدنى طبخة يحل شربه وإن اشتد ، وهذا إذا شرب منه بلا لهو وطرب ما لم يسكر . والثانى الخليطان . والثالث نبيذ العسل والتين والبر والشعيرة ، طبخ أولا . والرابع المثلث[١] » .

فالمذهب الحنفى يسمح للشرب بقدر الحاجة إذا صلحت النية ، والوهابيون لا يذهبون إلا إلى طهارة الخمر مع حرمتها ، فكيف تصدرون الفتيـا ضدهم ولا تنظرون إلى موقفكم ؟ ألا يصدق عليكم ما قيل : فر من المطر وقر تحت الميزاب ؟

(أيتها الرحمة الكاملة اعفى عنى فإنى قد شربت راجيا عفوك ،

---

(١) الدر المختار ص ٤٣٨

واجلا عقوبتك[1]) .

ولا أقصد من هذا التوضيح طعنا أو عيبا ، بل الإشارة إلى أن الفقه يتضمن فروعا لها توجيه لدى العلماء ، خطأ كان أو صوابا ، وللخالف أن يرفضه ، ولكن لاينبغى أن يحرض العامة على أحد بسبب هذه الفروع ، فإنه ليس من دأب أهل العلم .

ولايخفى أن التوسيع الذى يوجد فى استعمال الخمر فى المذهب الحنفى ليس فى مذهب آخر . ودراسة الأبواب الأخيرة لسنن النسائى توضح موقف أهل العلم نحو أم الخبائث هذه وكيف أنها تؤدى الإنسان إلى الحضيض ، وتجره إلى المنكرات التى سبقت الإشارة إليها من النبى ﷺ . وأحوط مذهب فى الخمر هو مذهب أهل السنة والحديث ، فكيف يطعن عليهم بمجرد قولهم بطهارتها .

ثم إنه ليس من الضرورى أن يتمسك أهل الحديث بتحقيق الإمام الشوكانى والنواب صديق حسن خان فى أمر الخمر ، فإنهم لا ينزلون مؤلفاتهما المنزلة التى تنزلونها آراء أبى حنيفة وفقهه ، وها نحن نختلف مع الشوكانى والنواب فى عدة مسائل ، ولذا نلتمس أن لا تجعلوا رأيهما أمر جماعة .

---

(١) ترجمة بيت بالأردية نصه :

اے رحمت تمام میری ہر خطا معاف
تیرے عفو کی امید پہ تھرا کے پی گیا

ويحسن أن لا يضيع الوقت فى أمر الخمر لتوضيح لفظ النبيذ، فإن خمار العقل يلزم بعد الغليان والاشتداد. إنكم تسمونه نبيذا بخمرا، وأنا أسميه خمر النبيذ، وهنا يصدق قول النبي ﷺ: «يسمونها بغير اسمها[1]».

وخلاف الألفاظ لا يؤثر فى الحقيقة، حيث عبر عنه العلماء بالخمر، يقول الإمام خلف بن هشام بن ثعلب (م - ٣٢٩ ﻫ): «أعدت صلاة أربعين سنة كنت أتناول فيها الشراب على مذهب الكوفيين[2]».

ومذهب جمهور الصحابة والتابعين أن كل مسكر حرام، قليلا كان أو كثيرا وتؤيد ذلك رواية من أبى حنيفة، وقد اختاره الإمام محمد وجماعة من المشايخ. وقد روى مذهب آخر عن الإمام الشعبى والنخعى وأبى حنيفة وهو أن خمر الحنطة وغيرها سوى العنب والتمر حلال إذا لم تسكر.

ومن حديث الرسول ﷺ «كل مسكر خمر» و «ما أسكر كثيره فقليله حرام» وعليه فالمذهب الأول صحيح، وبناء المذهب الثانى على الخطأ فى الاجتهاد.

وبعد هذا الموقف المرن للأحناف فى الخمر كيف يلام النواب صديق حسن والوهابيون على جعلهم الخمر نجسا طاهرا؟

---

(١) سنن النسائى ٣٢٩/٢

(٢) راجع طبقات الحنابلة لأبى يعلى ص ١١٣

وبعد إثارة القضية القديمة اسمحوا لى حتى ينجلى الموضوع وتتمكنوا من التفكير، ويبدو موقف النواب صديق حسن والوهابيين ويعلم الناس ما للوضوع من الخطورة والأهمية.

يقول القاضى خان: «ذكر الناطق رحمه الله عن محمد إذا صلى على جلد كلب أو ذئب قد ذبح جازت صلاته[1]». ويقول «أما إذا ذبح بالتسمية وصلى مع لحمه أو جلده قبل الدباغة يجوز[2]». ومن المعلوم أن السباع حرام، ومع ذلك لو ذبحت باسم الله تصح الصلاة على جلودها. وهذا عين ما ذهب إليه النواب صديق حسن، فإنه يقول بطهارة الخمر مع حرمتها، وهنا نرى أن اللحم والجلد مع كونهما محرمين قد طهرا بالذبح. فما الفرق بينكم وبين النواب؟ ثم إنكم تقولون بصحة الصلاة بعد شرب النبيذ ووضع لحم الكلب فى الجيب وعلى المصلى المتخذ من جلد الكلب قبل الدباغة، ومع ذلك كله ترمون الوهابيين بالكفر، إنا لله.

وليس من العادة ما قلته، فلا أحب إبراز الأخطاء الاجتهادية، ولكن الفتوى التى أصدرتموها كانت مؤلمة جدا، وهى التى اضطرتنى إلى ما قلت وكنت كارها:

---

(١) ١ / ١١

(٢) منية المصلى ص ٤٩

(أنا أتأوه فيفضحوننى ، وهو يقتل فلا يشهرونه[1]) .

ولو تفكرتم لعرفتم أنه ليس هناك فرق بينكم وبين النواب رحمه الله من ناحية الأصول ، سوى الفرق بين الكلب والخمر ، فكيف تجوز سورة الغضب هذه على أساس الخلاف الجزئى بعد الاتحاد فى الأصول .

وكما قلت إن أهل الحديث لايتقيدون برأى النواب صديق حسن ، ففيهم من يرجح مذهب الحنفية والحنابلة ويرى فى الخمر نجاسة مغلظة . وعلى هذا ينبغى أن تسألوا الإمام الوهابى وقت الحاجة عما إذا يحسب الخمر طاهرا ؟ ولوكان متعصبا لأشار إلى مسائل الفقه التى أشرنا إليها فيما قبل .

أما مذهبنا فيختلف عن مذهبكم تماما ، فنحن نصلى خلف كل مسلم ، حنفيا كان أو سلفيا ، ولكن لا نرضى بامامة سلفى غير مسلم وحنفى غير مسلم . وهذان القسمان شائعان فى هذه الأيام ، فالناس يناقشون فى أمر الحنفى والسلفى ولكن أعمالهم وعقيدتهم تشبه أعمال وعقيدة غير المسلمين ، يكذبون ويخونون ثم يتخاصمون فى أمر الحنفية والوهابية ، وبأى اسم تسمى هؤلاء يشك فى صلاتهم والاقتداء بهم ،

---

(١) ترجمة بيت أردى نصه :

ہم آہ بھی کرتے ہیں تو ہو جاتے ہیں بدنام
وہ قتل بھی کرتے ہیں تو چرچا نہیں ہوتا

والمؤسف أن غير المسلمين فى الأحناف يكثرون اليوم.

المسح على العمامة:

المسح على الرأس فرض، والأحناف يريدون به ربع الرأس، فإنه ورد فى الحديث «مسح على ناصيته» ويريدون بالناصية ربع الرأس. ويرى الشوافع أنه مسح عدة شعور من الرأس على الأقل. والموالك يرون استيعاب الرأس فى المسح. وقد ورد فى الحديث ثلاث صور لمسح الرأس: الأولى المسح على جميع الرأس. والثانية المسح على بعض الرأس وعلى بعض العمامة. والثالثة المسح على العمامة كلها. أما الذى يعمل به الأحناف فلا يوجد فى الأحاديث صريحا، بل وردت فيه رواية المغيرة بن شعبة المختصرة، وجاءت الروايتان فى صحيح مسلم، أما إطلاق القرآن فيعمل به الموالك فقط، فالحنفية فسروا الآية بحيث جعلوا الرأس ربعا. والشافعية اقتصروا على عدة شعور فقط. وكل ذلك يحتمل ويسكت عليه، فأنتم على الحق، والشوافع على الحق، والموالك على الحق، ولكن أهل الحديث إذا قالوا بالمسح على العمامة بناء على السنة الصريحة وجهت إليهم الشتائم وعوتبوا فى ذلك. وإليكم الحديث: «عن عمرو بن أمية الضمرى قال رأيت النبى ﷺ يمسح على عمامته وخفيه[1]». ويقول

(١) صحيح البخارى ٢٣/١

الإمام النووى : « وذهب أحمد بن حنبل إلى جواز الاقتصار على العمامة ، و وافقه عليه جماعة من السلف[1] » .

وقد روى حديث المسح على العمامة عن بلال والمغيرة بن شعبة وسليمان وثوبان رضى الله عنهم . فتفكروا بعد ذلك فى الذين تحرمونهم الإمامة .

أيها الشيخ ! يبدو أن النبى ﷺ كان وهابيا متصلبا . وعلى أصحاب التفكير من بريلى ولاهور أن يفكروا ، فإن وجدوا فى أنفسهم جراءة للافتاء فى فساد الصلاة باقتداء النبى ﷺ لتسلم لهم مقاليد دار الندوة ، إرثا من السلف ، وذلك يرضينا نحن أيضا .

وجوب الغسل :

إذا حدث خال فى المجامعة ولم يخرج المنى فالجهور يقولون بوجوب الغسل ، وبه يقول الأحناف . ويذهب الإمام البخارى وبعض الأئمة من السلف إلى أن الغسل ليس بواجب ولكنه الأحوط .

وتؤيد الأحاديث المذهبين ، وحيث يجهل التأريخ لا تصح دعوى النسخ ، بل يعمل على المذهب الراجح ، ولكنه لا يؤثر فى جواز الاقتداء وعدمه . والتفصيل فى الجامع الصحيح للبخارى ونيل الأوطار وفتاوى ابن تيمية .

---

(١) صحيح مسلم مع شرح النووى ١٣٤/١

المسح على الرجل:

هذا هو الدليل الأخير للشيخ الرضوى، يقول: إن أهل الحديث يرون المسح على الرجل جائزا، كما فى الفتاوى الابراهيمية. ولا ندرى من هو ابراهيم هذا؟ وما هى فتاواه؟ ونود أن نصرح بأن مذهب أهل الحديث ليس ما ذكرتم، وأظن أن أحدا من أئمة السنة لايذهب إلى ما ذكرتم، بل هو مذهب الشيعة فقط.

نهاية القول:

كنا نعرض عن مجلة الرضوان وإدارتها ونود ألا نكلف هؤلاء المحترمين، وهذه هى المرة الأولى التى أجبنا عليهم فيها، ومن الممكن أن تتكرر نفس الغلطة فيما بعد، فليكن واضحا لدى الشيخ الرضوى وأصحابه أننا لسنا متقيدين بأقوال وآراء علماء أهل الحديث فليست أساسا لمذهبنا، ولا نحسبهم مثل أئمة الاجتهاد ولا نقلدهم، فلا تعترضوا علينا بأقوالهم وآرائهم، فإن المتبع عندنا هو الكتاب والسنة وآثار السلف، وفى الآثار نتمسك بالمسائل الاجماعية، وفى الباقى لا نتقيد بأحد. فالأحسن أن يكون هذا الأصل نصب أعينكم لئلا يطول البحث ولعلنا نتقارب هكذا.

⁑ ※●※◇※●※ ⁑

الفصل السادس

فى

الحركة المقدسة

التى تعرضت للمظالم

« أمارة أهل البدعة أنهم يسبون أهل الحديث »

(الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة)

كما أن الحكومات المادية تتعرض للخراب والدمار فكذلك الحركات الدينية والنظريات الفرعية والأصلية تستمر فى الكسر والانكسار. والحوادث فى ذلك متلاحقة فى مقدمة ابن خلدون وكتاب المواعظ للقريزى. إن الخلاف فى المسائل والمجافاة والمنافرة بين العلماء تحدث مدا وجزرا فى تأريخ المذاهب، ودراسة أسبابه المادية موضوع خاص للتأريخ، وكتب التأريخ والطبقات فى الملل والنحل تفصل القول فى ذلك.

والتأريخ قد أكثر من ذكر ما حدث من الانقلابات الدينية فى مناطق إيران وماوراءالنهر وكيف أن طائفة هاجمت على الأخرى وقضت عليها. فأولا كثر أئمة الحديث ثم قوى أئمة الشوافع، فعلماء الحنفية إلى أن تمت سيطرة الشيعة، وكل ذلك فى مدة وجيزة.

ويوجد اليوم أيضا أهل السنة بكثرة فى إيران والعراق، ولكن الحكومات الشيعية المستبدة كمت أفواه الجميع.

وقد مهدت الطائفية والاستبداد الدينى فى التركستان الروسية والأزبكستان وتاشقند، السبيل للالحاد والشيوعية إلى أن تم إجلاء

الإسلام من هذه البلاد ، وفى ذلك عبرة لأصحاب الفهم والتفكير : ﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[١]﴾.

وكان العلماء من أئمة السنة فى مصر والسودان مكرمون وطريقة الكتاب والسنة والسلف الصالح مقبولة شائعة بين الناس . وقد وصل الإمام الشافعى إلى مصر فى سنة (١٩٨هـ) فروى أرضها بعلمه المتبحر، وقد ساد مذهبه فى مصر بفضل الربيع بن سليمان ، والإمام اسماعيل ابن يحيى المزنى ، والحافظ يوسف بن يحيى البويطى وغيرهم[٢].

وبعد ذلك ساد الفاطميون فتغير الوضع تماما وسيطر الروافض فى مصر عام (٣٥٨ هـ) وقد استمر الفاطميون والروافض فى مؤامراتهم ودسائسهم ، حتى علقت لافتات السب والشتم ضد الصحابة وأئمة السلف . وحوالى سنة (٥٦٤ هـ) قضى السلطان نور الدين محمود بن زنكى وجيشه على عصر الفاطميين ، فبدأ عصر فقهاء المالكية والشافعية وانقضى عصر الرفض والتشيع ، وقد ذكر المقريزى هذا المد والجزر والرقى والانحطاط مفصلا فى الجزء الرابع من خططه ، ويدل كلام المقريزى على أن المناقشة كانت مستمرة بين أصحاب المذاهب الأربعة ، واشتد الصراع بسبب منصب القضاء . وكان من ضعف

---

(١) سورة ق : ٣٧

(٢) المواعظ والاعتبار للقريزى ١٤٥/٤

العلماء أنهم لم يعيشوا فيما بينهم مع كونهم مسلمين سنيين ، بل نظروا إلى منصب القضاء والوظائف الرسمية الأخرى كأنها سلع للبيع والشراء فتنافسوا بل تهالكوا للحصول عليها . وكانت الحكومات المعاصرة لهم قد استغلت هذه الفرصة وانتفعت بضعف العلماء وحصلت على مصالحها السياسية .

وكان أئمة الإسلام يحترزون فى البداية عن حضور بلاط الخلفاء والسلاطين ، فقد عرض القضاء على الإمام أبى حنيفة من البلاطين ، الأموى والعباسى ، ولكنه قد استمر فى رفضه حتى عوتب منهما سواء ، ولكن الإمام أبا يوسف والإمام محمدا قد قبلا هذا المنصب . فالمصالح تتغير ، ويمكن أن أحدث قبولهما ضررا ، ولكن الظاهر أن أبا يوسف قد انتفع بالقضاء فى دينه ودنياه ، وقد ساعد منصبه هذا كثيرا فى نشر الفقه الحنفى . وأينما توجد سيادة المذاهب الأربعة يرجع سببها إلى مثل ذلك دون قوة الدلائل . ويوجد تفصيل ذلك فى الخطط للمقريزى ومقدمة ابن خلدون والبداية والنهاية وغيرها من كتب التأريخ . ولو اتبع الإمام أبو يوسف سلوك الإمام أبى حنيفة فالأغلب أن الفقه الحنفى لم يكثر ولم ينتشر هذا الانتشار . وقد انتقد الناس موقف أبى يوسف هذا ، ووردت أخبار ملفقة بهذا الصدد فى تأريخ الخلفاء للسيوطى وغيره من الكتب ، وأيا كان الوضع ،

فلا يشك فى أن مكانة الامام أبى يوسف قد ساعدت كثيرا فى نشر المذهب، وكذلك انتشرت فى إفريقيا وفى الحجاز ونجد ومصر المذاهب التى تلقت المساعدات والتشجيعات من الحكومة.

وقلما حصلت مثل هذه الفرص لأهل الحديث، فإنهم كانوا يبتعدون من البلاط والقصور، فألقى التأريخ عليهم ستورا غليظة للنسيان والخمول، ولذلك نرى أن الأوساط العلمية المعتد بها تقول جهارا أن كلمة أهل الحديث لا تعنى مدرسة فكرية، بل هى عبارة عن جماعة حفاظ الحديث ينقصها التفقه والدراية، ولا تعرف الاجتهاد والاستنباط، وهكذا. ولكن الواقع أن جميع المذاهب، سنية كانت أو بدعية، تستند إلى مذهب المحدثين وتجعله سندا ومقياسا لصحة مذاهبها. وكان هؤلاء العلماء يحتلون درجة الاجتهاد أيضا فى علوم الكلام والفلسفة والفقه وأصوله والتجويد والنحو والمعانى والبيان والأدب والتأريخ. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا إجماع من جميع هذه الطوائف على تعظيم السنة والحديث، واتفاق شهاداتهم على أن الحق فى ذلك. ولهذا تجد أعظمهم موافقة لأئمة السنة والحديث أعظم عند جميعهم ممن هو دونه. فالأشعرى نفسه لما كان أقرب إلى قول الامام أحمد ومن قبله من أئمة السنة كان عندهم أعظم من أتباعه، والقاضى أبو بكر الباقلانى لما كان أقربهم إلى ذلك كان أعظم عندهم من غيره. وأما مثل الأستاذ أبى المعالى وأبى حامد ونحوهما ممن

خالفوا أصوله فى مواضع، فلا تجدهم يعظمون إلا بما وافقوا فيه السنة والحديث، وأكثر ذلك تقلدوه من مذهب الشافعى فى الفقه الموافق للسنة والحديث، ومما ذكروه فى الأصول مما يوافق السنة والحديث، وما ردوه مما يخالف السنة والحديث، وبهذا القدر ينتحلون السنة وينحلونها، وإلا لم يصح ذلك[1]».

فميزان الحق هو الحديث وأئمته. ومن الغريب أن يكونوا مجردين من الفقه والدراية ثم يصيروا مقياسا للحق والباطل.

آثار التقليد والجمود:

لم يقتصر أهل التقليد والجمود السائدين على ايذاء أئمة الحديث، بل إنهم بجمودهم على مذهبهم لم ينصفوا مع أتباع الأئمة الآخرين مع الاعتقاد بأن هؤلاء الأئمة على الحق. ولنأخذ مثالا لذلك موضوع الاقتداء بالمخالف، فمن المسلم به أن الأئمة الأربعة على الحق، ومنبع هذه المذاهب واحد، والأمة قد أجمعت على نقاء هذا المنبع. وبمراجعة الميزان للشعرانى نرى أن الأئمة يلاحظون باهتمام عمل الميزان وقت تقسيم الكوثر و وزن الأعمال، ويتتبعون بدقة سير أتباعهم عند الصراط. ويبدو أن موقف هؤلاء الأئمة يوم المحاسبة مقارب لموقف الأئمة رحمهم الله فى نظر الشعرانى رحمه الله. ومع

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية ٤/١٧–١٨

هذا الاحترام والارتباط بالحق نرى الفقهاء المتأخرين يحاسب أحدهم الآخر بدقة إذا سئل عن الاقتداء بالمخالف، كما يحاسب مسلم غير مسلم. والحق أن الأمر كان هينا مع وجود الخلاف فى الفروع. فكان من الممكن أن يقال بأن الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى يجوز أن يقتدى أحدهم بالآخر، ولا ينبغى أن ينظر إلى مذهب الإمام أو المأموم بعد الإيمان بأن المذاهب كلها حق، فالخلاف غير مؤثر فى ذلك، ولكن نرى بعد ذلك أن الفقهاء تحفظوا فى ذلك، ففى ذلك يقول العلامة حسن بن منصور (م-٥٩٢ هـ) والبرجندى (م-٩٣٢هـ): - وهما من أصحاب الترجيح - «أما الاقتداء بشفعوى المذهب قالوا: لا بأس به إذا لم يكن متعصبا ولا شاكا فى إيمانه ولا منحرفا تحريفا فاحشا عن القبلة، ولا شك أنه إذا جاوز المغارب كان فاحشا، وأن يكون متوضئا من الخارج النجس من غير سبيلين، ولا يتوضأ بالماء القليل الذى وقعت فيه النجاسة[1]». وعدم وجود هذه الشروط يعنى أن الشافعى لا يستطيع أن يؤم الأحناف.

وينقل العلامة الشامى[2] رحمه الله عن شرح الحنفية: «أما الاقتداء بالمخالف فى الفروع كالشافعى فيجوز ما يعلم منه ما يفسد الصلاة على اعتقاد المقتدى (شارح المنية).

---

(١) قاضى خان ٧٦/١

(٢) رد المحتار ٣٧٨/١

وفى نفس الصفحة ينقل عن رسالة الاهتداء فى الاقتداء لملا على القارى رحمه الله: «ذهب عامة مشايخنا إلى الجواز إذا كان يحتاط فى مواضع الخلاف وإلا فلا، والمعنى أنه يجوز فى المراعى بلا كراهة، وفى غيره معهـا، ثم المواضع المهمة للراعاة أن يتوضأ من الفصد والحجامة والقىء والرعاف ونحو ذلك[1]».

ويقول العلامة خير الدين الآملى: «الذى يميل إليـه خاطرى القول بعدم الكراهة إذا لم يتحقق منه مفسدة[2]».

ويذهب العلامة إبراهيم البيرى فى رسالته إلى أن الصلاة وحده أفضل من الاقتداء بالإمام الشافعى، لأنه يأتى فى صلاته بأفعـال تقتضى إعادة الصلاة على الوجوب أو الاستحباب.

وروى عن خير الدين الآملى الشافعى أنه إذا وجد الموافق فى المذهب يكره الاقتداء بالغير، نعم الاقتداء أفضل من الصلاة وحده، وهذه الفتوى نقلت من الرملى الكبير والأسنوى والسبكى.

ويقول أيضا: «والحاصل أن عندهم فى ذلك اختلافا وكل ما كان لنا لهم علة فى الاقتداء بنا صحة وفسادا وأفضلية كان لنا مثله عليهم[3]».

---

(١) رد المحتار ٣٧٨/١

(٢) نفس المصدر

(٣) نفس المصدر

والتصريحات السابقة تدل على أن الدين ليس بنـاء الفتاوى المذكورة بل المنافرة التى كانت بين الفقهاء الكرام.

وبعد ذلك ذكر العلامة الشامى الأقطار التى تتعدد فيها الجماعة للموافقين والمخالفين. قال البعض: إن كانت الجماعة الأولى للشوافع يلحق بهم، هذا هو الأفضل، ولكن يقول العلامة إبراهيم البيرى: صلاة الرجل منفردا أفضل إذا فاتته جماعة مذهبه، ولا يقتدى بالشافعى. ويقول العلامة السندى تلميذ الامام ابن الهمام رحمهما الله: من الأفضل أن يصلى منفردا ولايقتدى بالشافعى ولو يراعيه. وذكر بعد ذلك رأى العلامة على القارى وهو يقول: إن الاقتداء بالمخالف لايجوز إذ أمكن ادراك الجماعة (الحنفية) متقدما أو متأخرا. والحاصل أن العلامة الشامى قد فصل الكلام فى آراء الفقهاء وأصحاب المذاهب نحو الاقتداء، وحكم نظرا لما يجرى ويعمل به فى الحرمين بألا يصلى مع الشوافع إذا لم يكن إمام مذهبه.

وإزاء ذلك جعل إمامة الفاسق المبتدع يكره تنزيهيا، وفى الدر المختار: «ويكره تنزيها الخ[1]». ويقول القاضى خان: «ويصح الاقتداء بأهل الهواء إلا الجهمية والقدرية والرافضى الغالى ومن يقول بخلق القرآن[2]». ثم يقول: «إذا صلى الرجل خلف فاسق أو مبتدع

---

(١) رد المحتار ٣٧٨/١

(٢) نفس المصدر ٧٦/١

يكون محرزا ثواب الجماعة[1]».

ونفس التفصيل يوجد فى الشامى (١/ ٥٨٨)، والطحطاوى (١/ ٢٤٤) إلا أنه زاد فى البدعة ألا تكون مكفرة وإلا لا يصح الاقتداء، وللعلامة الكاسانى تفصيل أكثر فى البدعة فى كتابه بدائع الصنائع، يقول: يكره الامام أبو يوسف الصلاة خلف المبتدع مطلقا، ولكن الكاسانى يحمل كلامه على ما ذكر[2]: والصحيح أنها إن كان هوى يكفره لا تجوز، وإن كان لا يكفره تجوز.

وتصريحات الفقهاء الكرام تدل ظاهرا على أنهم لم يحتاطوا فى أهل البدع والأهواء كما احتاطوا فى المخالفين من أهل السنة وخاصة من الأئمة الشوافع وأهل الحديث، كما يفهم من التعريض الجارح غير الملائم بقوله: «ولا شاكا فى إيمانه». ولاشك أن الاقتداء بالامام الشافعى وأتباعه لا يجوز إذا شك فى إيمانهم أو شكوا فيه، ولكن الواقع أن جميع أئمة الحديث وأئمة السنة يقولون بالاستثناء فى الايمان: وهم الذين أشير إليهم بقوله: «شاكا فى إيمانه».

---

(١) رد المحتار ١/٧٧

(٢) نفس المصدر ١/١٥٧

كيان الشوافع :

وهذا مع أن الإمام الشافعى وأتباعه سنيون صادقون، وقد اعترف علماء الحنفية أيضا بكون مذهبهم حقا، يقول الشيخ عبد الحى اللكنوى رحمه الله : « فهذه المذاهب المختلفة للأئمة ومجتهدى الأمة كلها تتصل بأنهار الصحابة، وهى متصلة بمنبعها وهو حضرة الرسالة، فكلهم على هدى، من اقتدى بأيها اهتدى ومن توهم أن واحدا منها على هدى، وسائرها فى ضلالة فقد وقع فى حفرة الضلالة[1]».

وهذا الاحتياط فى الاقتداء بالشوافع بعد التوثيق المذكور لايترك موضعا للشروط السابقة البعيدة عن الإنصاف. ومن المعلوم أن الاعتزال والتجهم لم يتركا الأحناف ولا الموالك ولا الشوافع، بل إنهم تركوا طريق الأئمة المجتهدين فى العقائد، واتخذوا أئمتهم الأشعرى والماتريدى.

يقول الطحطاوى : ولا خصوصية لمذهب الشافعى بل إذا صلى حنفى خلف أى مخالف لمذهبه كذلك[2].

والتفصيل المذكور يوجد ببعض الإيجاز فى الهداية وشرحه الكفاية (طبعة بومباى) ولكن الهدف واحد.

---

(١) الفوائد البهية ص ٩

(٢) مختصر الطحاوى ٢٨١/١

مجال آخر للكلام :

وكانت الطبائع تكره الاحتياط وضيق النظر فى تحريم الاقتداء بالشوافع وغيرهم من أئمة السنة ، ففتحت جبهة أخرى للكلام ، وهى أن الإمام والمأموم إذا اختلفا فى الفروع فمن يؤثر ، وعلى من تقع مسئولية المراعاة ؟ يقول العلامة ابن عابدين : (الشامى) هذا بناء على أن العبرة لرأى المقتدى ، وهو الأصح ، وقيل لرأى الإمام ، وعليه جماعة[١].

وهذا هو رأى العلامة بدر الدين العينى وصاحب الهداية ، ولكن يقول ابن عابدين : الأول هو الصحيح ، أى على الإمام مراعاة المقتدى . إن جبهة الكلام لتغيرت ، والموضوع قد تحول من الأئمة إلى الإمام والمقتدى ، ولكن القبح قد تضاعف بحيث جعل الإمام تابعا للمقتدى ، وهذا يشبه أن نجعل العربة أمام الفرس ، وليس ذلك إلا من تأثير التعصب .

وقد سكت الشيخ عبد الحى رحمه الله بعد ذكر المذهبين فى الجزء الثالث[٢] من فتاواه . والمظنون أنه يميل إلى أنه لاينبغى أن يكون الإمام تابعا للمأموم ، وقد وضح ذلك فى تعليقه على الهداية . ويقول بعد ذكر شروط ومراعاة القاضى خان وغيره من الفقهاء :

---

(١) رد المحتار ٥٨٨/١

(٢) ص ٥٣

« قلت : هذا يرجع إلى أن يصير حنفيا » .

ثم استعرض شروط المراعاة استعراض محب الحقيقة وقال فى النهاية : وأما اشتراط مراعاة مواضع الخلاف كما اختاره أكثر أصحابنا فغير موجه ، إذ مراعاة ذلك مستحب ، وليس بواجب عند أحد ، فلو لم يراع وفعل ما فعل على طبق مذهبه لم يقدحه فى ذلك قادح ، فأى مانع فى جواز الاقتداء به ، فافهم هذا بنظر الإنصاف[١] .

فالأمر واضح جدا ، ولكن ماذا نفعل بقول الشامى « عند أكثر المشايخ » وقوله « على الأصح » ؟ وعلى كل لا يبدو هذا الموقف أيضا سليما .

جبهة أخرى :

قد ذكر الشيخ عبد الحى رحمه الله ستة مذاهب للفقهاء القدامى فى موضوع الاقتداء بالمخالف فى تعليقه على الهداية[٢] ثم رجح الجواز المطلق . وفى بلادنا (الهند وباكستان) احتل أهل الحديث محل الشوافع فى البلاد الأخرى ، (مع أننا ، أهل الحديث ، نحترم الأحناف والشوافع على السواء) فنحن وحدنا نتعرض لحكم حرمة الاقتداء ، بل نرى بعض الأكابر يتحمسون أكثر . أما البريلوية

---

(١) الهداية ١١٩/١

(٢) نفس المصدر ١٢٦/١

فيعملون بقوله : « لا مساس » ولا يقتـــدون بوحد ، حنفيا كان أو سلفيا. والدين عندهم عبارة عن عادات ومناسبات وهتافات ، وأسلوب الكلام والمناقشة فى الأمور الدينية لايعتمد على العلم والاستدلال بل على العاطفة . وأصحابنـــا الديوبنديون يحتمون بالمسائل التى يرجى مراعاتها من الشوافع ، ولـكن الخلاف فيها لايبـــدو الآن مناسبا ، ففتحت جبهة أخرى وقال أصحابنا : إن الاقتداء بأهل الحديث لايجوز لأنهم لا يستعملون التراب فى الاستنجاء فلا تصح طهـارتهم . وهذا العـذر ضعيف جدا مع كونه غلطا محضا . ومن المعلوم أن الطهارة واجبة لصحة الصلاة عنـد الجميع ، وهى واجبة عنـــد أهل الحديث وجوبها عند الحنفية ، والفرق بين الفريقين فى طرقها ، أى تكون بالماء وحده ، أو بالتراب وحده ، أو بهما جميعا . والأئمة متفقون على أنها تحصل بالطرق الثلاث ، واستعمال الماء والتراب جميعا أحسن . وليست طريقة من هذه الطرق الثلاث شرطا للإمامة والاقتداء ، بل الشرط هو الطهارة المطلقة . فالغريب إيجـاب استعمال التراب ، وليس ذلك إلا من البغض الذهنى والعصبية ، فلا يقول به أحد من الأئمة الأربعة بل هو اختراع بلادنا فقط .

طهارة أو وهم :

قد حصلت لى معرفة أقسام الطهارة وطرقها المختلفة التى يمارسها العلماء ويصرون عليها ، وذلك فى سنة ١٩٥٣م حينما صاحبت العلماء

أثناء حركة ختم النبوة . فرأيت البعض يمسك بعد البول نطاقه بفمه ويتمشى طويلا ، يمسك بيـــده اليسرى قطعـــة من تراب يجفف بها البول ، يقضى هكذا عشرين أو ثلاثين دقيقة إلى أن يقطع بالطهارة . والمظنون أن الطهارة لا تكمل إلا بعد هذا التمثيل . والبعض يستعين بفخذيه أيضا مع التراب ، والبعض يطرق رأسه مرة بعد أخرى ليرى هل جف التراب ، فكأنه يرى جفافـــه واجبا فى الطهارة . والبعض يتخذ التراب باهتمام بالغ ويجففها أياما فى الشمس ، وهى توزع هدايا بين الأتقياء المتوهمين ، وهم يفرحون بقبولها . ومن الظاهر أن شيئا من هذا وذاك ليس ضروريا فى المذهب الحنفى ولا فى غيره من مذاهب الأئمة ، بل إنه نوع من الوهم ، ومن ابتلى به يعمل ما يطمئن به قلبه ، ولكن ليس له أن يكره أحدا على التوهم . والاقتداء بأهل الحديث يجوز عند هؤلاء إذا مهروا فى طرق الطهـــارة المذكورة الشائعـــة عندهم ويحصلوا شهادة بذلك . ونرى البعض من إخواننا أهل الحـــديث أيضا أنهم يرون استعمال خمسة أو ستة من أباريق الماء واجبا للطهارة . وعلى مثل هؤلاء أن يطالعوا الأبواب الابتدائية من إغاثة اللهفان للحافظ ابن القيم ونقد العلم والعلماء (تلبيس ابليس) لابن الجوزى وذم الموسوسين للشوكانى ، فلعلهم يستفيدوا منها . أما أهل الحـــديث فلا يرغبون فى الإمامة ولا يرضون بالتمرين المذكور . والحقيقة أن مثل هذه الأمراض قـــد نشأت فى العصر الـذى كانت

البلاد تواجه فيه قلة الماء ، وإلا فليست مشكلة حقيقية ، بل نشأت من الوهم وقلة العلم وفى نفس الوقت هى وسيلة لإثارة العصبية والمنافرة فى أذهان العامة . وبعد هذا الغلو فى اتباع الأئمة مع التقليد وفى تشجيع عواطف المنافرة والبغض كيف يتوقع أهل الحديث أن تكون المعاملة معهم حسنة مرنة ؟ إن المخالفين لا يرضون بأن يبقى مذهب فى العالم غير مذهبهم . وهذه العصبية هى التى تحمل بعض المثقفين أن يتفوهوا بأن أهل الحديث لا تعنى حركة أو مدرسة فكرية ، بل هى عبارة عن طائفة من الحفاظ عارية من الفقه والدراية . وهذه العصبية ناشئة من تغلب أهل التقليد فى العصور الوسطى ومن المصالح السياسية لأصحاب السلطة . وأصحاب البلاط ومصاحبو الملوك قد ظلموا هذا المذهب فطووه فى ظلمات التأريخ و وحول العصبية .

أهل الحديث فى صفحات التأريخ المختلفة :

نظرة إلى سنوات ميلاد الأئمة و وفاتهم ترينا أنها تبدأ من سنة ٨٠ الهجرية وتنتهى بوفاة الإمام أحمد فى سنة ٢٤١ هـ . وبعد ذلك تمضى مدة كبيرة لا نجد فيها أثرا للجمود أو للتقليد الذى يوجبونه اليوم ويرمون من يعرض عنه بالإلحاد وغيره . ومهما يكن فان الافتخار بالتقليد أو الدعوة إليه لم تبدأ قبل القرن الرابع . وحينما

نزل الجيش الإسلامى الأول إلى شاطىء الهند قبل فتحها لم يكن للمذاهب الشائعة اليوم أثر ما، لا فى العرب ولا فى العجم، وكانت الأذهان خالية تماما من تقليد الأئمة الذى نراه اليوم.

ومن المعروف أن أول هجوم على الهند كان عام ٩٢ هـ، فى عهد الوليد بن عبد الملك، وكان العلماء من التابعين يكثرون حينذاك فى العرب، ولم يكن فى الامكان أن يفكر أحد فى الأئمة الأربعة. كان أئمة الحديث ينتشرون فى خراسان وإيران وفارس، وكانوا مركزين الاهتمام بحفظ الحديث وضبطه ونقله وروايته. وفى عصر تدوين الحديث هذا لم يستطع أحد أن يفكر ويشعر بفقه الأئمة، بل كان العلماء ينظرون إلى فتاوى الصحابة وتابعيهم بدون تخصيص، وهم كانوا مناط الاستناد بدون أثر للتقليد. كانت الحنفية والشافعية حينذاك عبارة عن مجرد الآراء الجزئية للأساتذة، وهذا هو هدف أهل الحديث. وكان مذهبهم سائدا فى البلاد الإسلامية كلها، وهو يعرف اليوم بمذهب أهل الحديث. ويكثر ذكر هذه المدرسة الفكرية فى كتب المتقدمين من الأحناف. يقول الشيخ عبد العزيز بن أحمد البخارى المتوفى (٤٨١ هـ) مؤلف كشف الأسرار فى شرح أصول البزدوى فى تعريف الصحابى: «اختلفوا فى تفسير الصحابى فذهب عامة

أصحاب الحديث وبعض أصحاب الشافعى إلى أن من صحب النبى ﷺ لحظة فهو صحابى[١].

وفى أصول البزدوى وكشف الأسرار[٢]: ذهب أكثر أصحاب الحديث إلى أن الأخبار التى حكم أهل الصنعة بصحتها توجب علم اليقين.

ومع ذلك كان يوجد فى العالم صلحاء يكرهون العصبية مع ارتباطهم بالمذاهب الشائعة واحترامهم للأئمة. فقد كتب الشيخ أحمد بن مصطفى طاشكبرى زاده (م — ٩٦٢ هـ) فى مفتاح السعادة والسيادة مقالا علميا نافعا عن الفقه والفقهاء، اشتكى فى نهايته من فقهاء المذاهب وتعصبهم الطائفى. والجيل الجديد المتخرج فى مدرسة ديوبند يسير على الطريقة التى اشتكى منها المؤلف المذكور. ومنهاج الدراسة ونظامها فى ديوبند والمدارس التابعة لها قد انحرفا عن الجادة، فهى تشجع التعصب والطائفية بدل أن تنشر العلم والإخلاص لدين الله. والكتابة فى المسائل الخلافية ردئت بحيث تنم عن الخيانة والكذب. تركز الاهتمام حول الجدل والمناقشة بدل العبادة والتقوى. والطلاب يتلقون فى مجالس الدروس ما ينمى فيهم التعصب. والأحداث يسلكون فى هذا الطريق بحيث يؤثرون فى الكبار. ومدارس أهل الحديث أيضا تنحو نفس المنحى وتسرى فيها جرثومة الفساد.

---

(١) كشف الأسرار ٧٠٤/٢

(٢) نفس المصدر ٢٩١/٢

ولا فائدة من شكوى البريلوية ، فإنه ليس لديهم برنامج إصلاحى كما يبدو ، بل الدين عندهم عبارة عن آراء بدعية وأن يرضى العامة. أما أهل الحديث والديوبندية فيمكن أن يستفيدوا كثيرا من مقال العلامة طاشكبرى زاده فى الإصلاح فى المستقبل. والحقيقة أن العصبية ترادف القضاء على العلم والمعرفة. يقول:

« واعلم أن من تدبر قوله ﷺ « اختلاف أمتى رحمة[1] » وعرف أن مبنى مسائل الفروع على الظن لا يسوغ لـه التحكم بين المذاهب

---

(١) قلت : سكوت المؤلف رحمه الله عن هذا الحديث الذى لا أصل له يوحى بأنه صحيح ، بل ذهب يبنى أفكارا معتمدا صحة الحديث . والأمر غير ذلك .

قال الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألبانى فى السلسلة الضعيفة والموضوعة (٧٦/١ رقم ٥٧) « ... ولقد جهد المحدثون فى أن يقفوا له على سند فلم يوفقوا ، حتى قال السيوطى فى «الجامع الصغير» . « ولعله خرج فى بعض كتب الحفاظ التى لم تصل إلينا » ، وهذا بعيد عندى إذ يلزم منه أنه ضاع على الأمة بعض أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا مما لا يليق بمسلم اعتقاده . ونقل المناوى عن السبكى أنه قال : « وليس بمعروف عند المحدثين ، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع » وأقره الشيخ زكريا الأنصارى فى تعليقه على تفسير البيضاوى (٩٢/٢) ، ثم إن معنى هذا الحديث =

....

= منكر عند المحققين من العلماء ، فقال العلامة ابن حزم فى « الإحكام فى أصول الأحكام » (٥/٦٤) بعد أن أشار إلى أنه ليس بحديث : وهذا من أفسد قول يكون ، لأنه لوكان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق سخطا ، وهذا ما لا يقوله مسلم ، لأنه ليس إلا اتفاق أو اختلاف ، وليس إلا رحمة وسخط » .

وبسبب هذا الحديث ونحوه ظل أكثر المسلمين بعد الأئمة الأربعة إلى اليوم مختلفين فى كثير من المسائل الاعتقادية والعلمية ، ولو أنهم كانوا يرون الخلاف شر كما قال ابن مسعود وغيره رضى الله عنهم ، ودلت على ذمه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الكثيرة ، لسعوا إلى الاتفاق ، ولأمكنهم ذلك فى أكثر هذه المسائل بما نصب الله تعالى عليها من الأدلة التى يعرف بها الصواب من الخطأ ، والحق من الباطل ، ثم عذر بعضهم بعضا فيما قد يختلفون فيه ، ولكن لماذا هذا السعى وهم يرون أن الاختلاف رحمة ، وأن المذاهب على اختلافها كشرائع متعددة ! ! وإن شئت أن ترى أثر هذا الاختلاف والاصرار عليه ، فانظر إلى كثير من مساجد المسلمين ، تجد فيها أربعة محاريب يصلى فيها أربعة من الأئمة ، ولكل منهم جماعة ينتظرون الصلاة مع إمامهم كأنهم أصحاب أديان مختلفة ! ! وإن نسينا فلا ننسى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ .

(الأستاذ على شامى) .

ولا العصبية لواحد من المجتهدين ضد الآخر، وإنما قصارى أمر المقلد أن يعتقد صحة مذهبه، وإلا لما صح تقليده، وأن يعتقد خطأ مخالفه فى موضع خلافه، وإلا لم يصح مذهبه، لا أنه يعتقد خطأ من يخالفه مطلقا، إذ كم من مسائل اتفاقية بين الأئمة، وإذ كان مسائل الفروع ظنيات يلزم أن يكون صحة مذهبه محتمل الخطأ، وخطأ مخالفه محتمل الصحة، فلا يكون الصحة والخطأ هناك أمرا يقينيا، بل راجعا إلى ظن المجتهد والمقلد، فحينئذ لا يبقى مزيد مجال للعصبية والجدال إلا أن بعضا من فقهاء زماننا أخذتهم الحمية لبعض المذاهب وبركب الصعب والذلول فى العصبية، وهذا من سوء أخلاقهم، ولقد يوجد فيهم من يبالغ فى العصبية حتى يمتنع من الصلاة خلف بعض إلى غير ذلك مما يستقبح ذكره. وياويح هؤلاء، أين هم من الله، ولوكان الشافعى وأبوحنيفة حيين لشددا النكير على هذه الطائفة وتبرءا منهم فيما يفعلون؛ فلعمر الله لا أحصى عدد من رأيته يشمر عن ساعد الاجتهاد فى الانكار على شافعى يذبح ولايسمى، أو حنفى يلمس ذكره ولايتوضأ، أو مالكى يصلى ولايبسمل، أو حنبلى يقدم الجمعة على الزوال، وهو يرى من العوام ما لايحصى عدده إلا الله تعالى يتركون الصلاة، بل يرى كثيرا من أهل بيته يتركونها وهو ساكت عنهم. مع أن جزاء من تركها عند الشافعية ومالك وأحمد ضرب العنق، فيا لله والمسلمين، أهذا فقيه على الحقيقة، قبح الله مثل هذا الفقيه.

ثم ما بالكم تنكرون مثل هذه الفروع ، ولا تنكرون المكوس والمحرمات المجمع عليها ، ولا تأخذكم الغيرة لله تعالى فيها ، وإنما تأخذكم الغيرة للشافعى وأبى حنيفة حتى يؤدى ذلك إلى افتراق كلمتكم وتسلط الجهال عليكم وسقوط هيبتكم عند العامة وقول السفهاء فى أعراضكم ما لا ينبغى فيهلكون لكلامهم فيكم. لأن لحومكم مسمومة على كل حال لأنكم علماء وإنما تهلكون أنفسكم بما تركبونه من العظائم ، تاب الله عليكم وأرشدكم طريق الصلاح والفلاح بحرمة العلم الذى منحه الله إياكم وبحرمة العلماء[1] الذين أخذتموه منهم ، عصمنا الله وإياكم عن التعصب فى الدين[2]» .

---

(١) قلت : وقع طاش كبرى زاده فى توسل بدعى غير مشروع ، حيث توسل بحرمة العلم والعلماء ، وهذا توسل لم يرد فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» رواه مسلم. والامام أبو حنيفة وصاحباه رحمهم الله يقولون : « يكره أن يقول الرجل : أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك و رسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام ونحو ذلك ، إذ ليس لأحد على الله حق » .

(الأستاذ على شامى)

(٢) مفتاح السعادة ٢/٩٦-٩٧

فانظروا كيف نبه العلامة طاشكبرى زاده علماء عصره المتعصبين بأسلوب موجع، وكره ترك الاقتداء والاشتراط فيــه! واسمعوا الآن إلا طاهر آخر رزقه الله فكرا صافيا فنظر إلى مصالح الشريعة مع احترام الأئمة، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، الذى يعرفه الجميع فى الأوساط العلمية.

سئل هل يقلد الشافعى حنفيا، وعكس ذلك فى الصلاة الوترية، وفى جمع المطر، أم لا؟

فأجاب: الحمد لله. نعم! يجوز للحنفى وغيره أن يقلد من يجوز الجمع من المطر، لاسيما وهذا مذهب جمهور العلماء: كمالك والشافعى وأحمد. وقد كان عبد الله بن عمر يجمع مع ولاة الأمور بالمدينة إذا جمعوا فى المطر. وليس على أحد من الناس أن يقلد رجلا بعينه فى كل ما يأمر به، وينهى عنه، ويستحبه إلا رسول الله ﷺ، وما زال المسلمون يستفتون علماء المسلمين فيقلدون تارة هذا، وتارة هذا. فإذا كان المقلد يقلد فى مسألة يراها أصلح فى دينه، أو القول بها أرجح، أونحو ذلك، جاز هذا باتفاق جماهير علماء المسلمين، لم يحرم ذلك لا أبو حنيفة ولا مالك ولا الشافعى ولا أحمد.

وكذلك الوتر وغيره ينبغى للمأموم أن يتبع فيه إمامه، فإن قنت قنت معه وإن لم يقنت لم يقنت، وإن صلى بثلاث ركعات موصولة فعل ذلك، وإن فصل فصل أيضا. ومن الناس من يختار

للمأموم أن يصل إذا فصل إمامه، والأول أصح، والله أعلم[١].

وعلى القارى أن يتدبر ويقرر هل يساعد فى الاتحاد بين المسلمين رأى ابن عابدين والطحطاوى أو رأى شيخ الإسلام ابن تيمية وطاشكبرى زاده؟

ويرى المعتزلة أن الرسول لايستحق الاجتهاد، ويوافقهم على ذلك الأشاعرة وبعض المتكلمين، وذهب عامة الأصوليين إلى أن الرسول يستطيع أن يجتهد وقت الحاجة، وله أن يعمل بالوحى والاجتهاد كليهما: وهو منقول عن أبى يوسف من أصحابنا، وهو مذهب مالك والشافعى وعامة أهل الحديث[٢]. وليلاحظ أن ذكر أهل الحديث قد ورد هنا مع ذكر المذاهب الأربعة ضمن علماء الأصول.

ويطعن على أهل الحديث عند ذكر حجية الحديث المرسل بأنهم لايقولون بحجيته: وفى رد المرسل تعطيل كثير من السنن فإن المراسيل جمعت فبلغت قريبا من خمسين جزءا، وهذا تشنيع عليهم، فإنهم سموا أنفسهم أصحاب الحديث وانتصبوا أنفسهم لحيازة الأحاديث[٣].

ولأهل الحديث هنا أيضا وضع مستقل. أما موضوع حجية المرسل فأمر آخر، فالمرسل الذى يقولون بحجيته ليس حديثا فى الأصل،

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٣/٣٨١–٣٨٢

(٢) كشف الأسرار ٣/٩٢٥

(٣) أيضا ٣/٧٢٥

فرفضه لا يعنى رفض الحديث . فافهم .

ويقول العلامة ابن عابدين فى رد المحتار عند تناوله موضوع ياء النسبة فى كلمة « الحنفى » : إن النسبة إلى مذهب أبى حنيفة وإلى القبيلة — وهم بنو حنيفة — بلفظ واحد ، وإن جماعة من أهل الحديث منهم أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسى ، يفرقون بينهما بزيادة ياء فى النسبة إلى المذهب[١] . ورأى المقدسى هنا أخذ كمتخصص فى اللغة .

ويقول عند ذكر اعراب كلمة « أكبر » فى الأذان والإقامة : وثانيها مخالفة لما فسره أهل الحديث والفقه[٢] .

ولو وقف أحد شيئا على أهل الحديث يدخل فيه الشافعى إذا كان طالبا للحديث ، أما الحنفى فيدخل فيه دائما ، يدرس الحديث أم لا :

(لتسلم رؤوس الأحبة حتى تتمكن من الطعن[٣])

ويقول لدى ذكر خلاف العلماء فى الخوارج : ذكر فى فتح القدير أن الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم ويكفرون الصحابة حكمهم عند جمهور الفقهاء وأهل الحديث حكم البغاة ، وذهب بعض

---

(١) رد المحتار ١٦/١

(٢) أيضا ٦٦٥/٣

(٣) ترجمة شطر البيت الفارسى الذى نصه :

سر دوستان سلامت كه تو خنجر آزمائى

أهل الحديث إلى أنهم مرتدون ، قال ابن المنذر: ولا أعلم أحدا وافق أهل الحديث على تكفيرهم[١].

وورد ذكر هؤلاء الفقراء (أهل الحديث) هنا أيضا مع جمهور الفقهاء كمدرسة فكرية مستقلة. وفى نفس الصفحة يذكر رأى المحدثين المؤيد لمذهبه فى أهل الأهواء فيقول: وكذا نص المحـدثون على قبول رواية أهل الهواء[٢]. ويقول فى موضع آخر: حكى أن رجلا من أصحاب أبي حنيفة خطب إلى رجل من أصحاب الحديث ابنته عهد أبي بكر الجوزجانى فأبى إلا أن يترك مذهبه فيقرأ خلف الإمام ويرفع يديه.

ويقول الشيخ الجوزجانى «إن النكاح قد صح، ولكن المظنون أن إيمانه يذهب عند النزع. ولو ترك مذهبه واختـار مذهب أهل الحديث بنـاء على الأدلة فلا بأس به بل يستحسن». وبهذا تعين كون أهل الحديث مدرسة فكرية. وإذا استحسن الجوزجانى اختيار مذهب أهل الحديث بناء على الأدلة فلا معنى لسخط أهل ديوبند على أهل الحديث.

ويتكلم «بحر العلوم» عن شهادة عثمان وظلمه وأن أحدا من

(١) رد المحتار ٤٥٣/١

(٢) نفس المصدر ٤٥٣/٣

الصحابة لم يشترك فى هذه المأساة ذاكرا مشاجرات الصحابة، أثناء بحث التعارض بين الجرح والتعديل فى شرح مسلم الثبوت : ولم يكن فيهم واحد من الصحابة كما صرح به غير واحد من أهل الحديث(١).

وهنا وضح الموقف التأريخى لأهل الحديث وبين أن رأيهم فى مشاجرات الصحابة يصل إلى القطعية.

وقد ذكر العلامة عبد العزيز بن أحمد بن محمد البخارى المتوفى (٤٨١ هـ) مؤلف كتـــاب التحقيق فى شرح الحسامى، عبد الله بن مسعود فى تعيين العبادلة ثم يقول بعد ذلك : وعند المحدثين عبد الله ابن الزبير مقام عبد الله بن مسعود(٢).

وهنـا ورد ذكر المحدثين إزاء الفقهـــاء، وهذا يدل على أن للمحدثين منزلتهم ورأيهم فى تعيين الرجال.

وهذا المؤلف نفسه يذكر إذن الاجتهـاد للرسول فيقول مثل شارح البزدوى : هو منقول عن أبى يوسف من أصحابنا، وهو مذهب مالك والشافعى وعامة أهل الحديث(٣).

---

(١) فواتح الرحموت ص ٤٤٢

(٢) كتاب التحقيق ص ١٦٣

(٣) أيضا ص ٢٠٠

رأى المؤرخين والمتكلمين :

يعد ابن خلدون مؤرخا ناقدا فى عصره ، فهو قد نظف فن التأريخ من وحول القصص والأساطير ومنحه حياة جديدة وأرشد إلى أساليب النقد . وهو يقول فى مقدمته عند ذكر الفقه : وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين ، طريقة أهل الرأى والقياس ، وهم أهل العراق . وطريقة أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز . وكان الحديث قليلا فى العراق لما قدمنا ، فاستكثروا من القياس ومهروا فيه ، فلذلك قيل لهم أهل الرأى . ومقدم جماعتهم الذى استقر المذهب فيه وفى أصحابه أبو حنيفة[١] .

وينقل الحاج خليفة عن كتاب ميزان الأصول للإمام علاء الدين الحنفى عند ذكر أصول الفقه : وأكثر التصانيف فى أصول الفقه لأهل الاعتزال المخالفين لنا فى الأصول ، ولأهل الحديث المخالفين لنا فى الفروع ، ولا اعتماد على تصانيفهم[٢] .

وقد أورد النواب صديق حسن خان فى أبجد العلوم عبارة كشف الظنون هذه وذكر فقه العراق وفقه الحديث ، ثم علق بالايجاز على التقليد والعمل بالحديث ، وألقى ضوءا على انتشار مذاهب الأئمة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٩

(٢) كشف الظنون ٢ / ٨٩

وانحياز كتب الطبقات، فمؤلفوها يعدون أصحاب التراجم ضمن جماعتهم بأدنى صلة وتوافق. وكذا ذكر الأقطار والبلدان التى انتشرت فيها هذه المذاهب وكيف تنوسيت فيها مؤلفات أهل الحق، يقول: فلم يبق إلا مذهب أهل الرأى من العراق وأهل الحديث من الحجاز[١].

وقال تقى الدين أحمد بن على المقريزى (م ــ ٨٥٤ ﻫ): إن الملك الظاهر بيبرس البندقدارى قد أسس المدرسة الظاهرية عام (٦٦٢ ﻫ) ووقف عليها أملاكا طائلة، وقد بنى فيها زوايا عديدة لتدريس المذاهب المختلفة، وهى كما يأتى: «وجلس أهل الدروس كل طائفة فى إيوان منها، الشافعية بالإيوان القبلى، ومدرسهم تقى الدين محمد ابن حسن بن رزين الحموى. والحنفية بالإيوان البحرى، ومدرسهم الصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحلبى. وأهل الحديث بالإيوان الشرقى، ومدرسهم الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى[٢]».

وهذا عن القرن السابع، وفيه نرى أن لأهل الحديث إيوانا مستقلا فى المدرسة الملكية.

وقال المقريزى إن هذه المدرسة توجد إلى الآن، ولكنها قد تدارست قليلا، ويجرى الصراع بين الحنفية والشافعية حول نظارتها.

---

(١) أبجد العلوم ٢/٥٦٥ــ٥٦٦

(٢) المواعظ والاعتبار للمقريزى ٢/٢٧١

ثم يتكلم عن مذاهب أهل مصر وعن تغييرات أصحاب المذاهب وأسبابها فيقول: «وكانت أفريقية الغالب عليها السنن والآثار، إلى أن قدم عبد الله بن فروج أبو محمد الفارسى بمذهب أبي حنيفة[1]».

ويقول المقريزى عن انتشار مذهب مالك فى افريقيا: «وصار القضاء فى أصحاب سحنون دولا يتصاولون على الدنيا تصاول الفحول على الشول[2]».

ويقول بعد ذلك عن انتشار المذهب الحنفى إنه مدين للقاضى أبي يوسف. وأما أهل الحديث فكيف يفوزون فى هذه المعركة إذا لم يتقبلوا حماية حكومة؟

والشعرانى يحترم جميع أئمة السنة، ويتوسع فى إبداء تكريمه لهم، إنه ينقل عن الامام الشافعى فى الميزان الكبرى:

«كان رضى الله عنه يقول: أهل الحديث فى كل زمان كالصحابة فى زمانهم، وإذا رأيت صاحب حديث فكأنى رأيت أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان يقول: إياكم والأخذ بالحديث الذى أتاكم من بلاد أهل الرأى إلا بعد التفتيش[3]».

---

(١) المواعظ والاعتبار للقريزى ١٤٤/١

(٢) نفس المصدر

(٣) الميزان ص ٦٥

وقال أبو بكر بن عياش : « أهل الحديث فى الإسلام كالإسلام فى سائر الأديان[1] » .

وقال أبو العباس بن شريح : « أهل الحديث أعظم درجة من الفقهاء[2] » .

وللإمام أبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى كتاب جامع للأديان والفرق المختلفة ، يقول فيه عن مذاهب أهل السنة المختلفة : « والصنف الثانى منهم أئمة الفقه من فريقى الرأى والحديث من الذين اعتقدوا فى أصول الدين مذاهب الصفاتية فى الله وصفاته الأزلية[3] » .

وفيه يقول عن أهل التصوف :

« كلامهم فى طريق العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث ، دون من يشترى لهو الحديث » .

وكذا ورد ذكر هذين الفريقين فى الصفحات : ٧، ١١٤، ٣٠٢، ٣١٣، ٣١٤ ، وقد ورد ذكر أهل الحديث فى مواضع عديدة من هذا الكتاب ، حينا كرواة الحديث وآخر كأصحاب مدرسة فكرية :

خذا جنب هرشى أو قفاها فإنه ‏ ‏ كلا جانبى هرشى لهن طريق

---

(١) الميزان ص ٦٣

(٢) نفس المصدر ص ٥٤

(٣) الفرق بين الفرق ص ٣٠٠

وكان أهل الحديث يقومون بأعمال الدين دون أن يؤسسوا فرقة أو يدعوا إلى طائفية أو يغلوا فى حب رجالهم أو يحطوا من شان الآخرين . كانوا ينظرون إلى الدلائل بدل الأشخاص ، ويهتمون بتحقيق المسائل دون النقد الذاتى .

يقول الإمام أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى (م—٣٣٠ هـ) فى مقالات الإسلاميين : «جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ ، لايردون من ذلك شيئا ، وأن الله سبحانه واحد صمد لا إله غيره[1]» .

وبعد ذلك بين عقائد أهل الحديث فى عدة صفحات . ووضعهم فى هذا البيان مقابل المعتزلة وغيرها من الفرق الضالة ، مما يدل على أن أهل الحديث بازاء أئمة الاعتزال والمتكلمين .

وذكر ابن النديم فقهاء المحدثين وأصحاب الحديث بعد ذكر علماء العراق وأئمة الشوافع والموالك والإمام داود الظاهرى وفقهاء الشيعة باسهاب . وكلامه عن فقهاء الحديث يستغرق نحو ٦٤ صفحة ، ورد فيها ذكر الإمام البخارى ، وسفيان الثورى ، وابن أبى ذئب ، وسفيان بن عيينة ، وابن أبى عروبة ، واسماعيل بن عبيد ، وعبد الله

---

(١) مقالات الاسلاميين ص٢٢

ابن مبارك ، والإمام أحمد ، وعثمان بن أبي شيبة الترمذى ، وعلى بن المدينى ، ويحيى بن معين ، وأبوداود ، ومسلم ، وغيرهم من العلماء . ومن الظاهر أن فقهاء الحديث لو لم يكونوا أصحاب مدرسة فكرية لم يذكرهم منفصلين عن أئمة العراق وغيرهم تحت عنوان مستقل، والحال أنه يوجد الإمام أبوجعفر الطحاوى وغيره من حفاظ الحديث ، ولكن حافظ الحديث لايلزم أن يكون أهل الحديث .

ويقول الإمام محى الدين يحيى بن شرف النووى فى شرحه لصحيح مسلم : « إن الواجب ضربة للوجه والكفين ، وهو مذهب عطاء ومكحول والأوزاعى وأحمد واسحاق وابن المنذر وعامة أصحاب الحديث[١] » .

ويرى فى طلاق الحائض أنه ينبغى أن يرجع المطلق، ثم يقول: « هذا مذهبنا ، وبه قال الأوزاعى وأبوحنيفة وسائر الكوفيين وأحمد وفقهاء المحدثين وآخرون[٢] » .

ويقول الذهبى فى ترجمة أبى محمد الفضل بن محمد : « ولقد كان فى هذا العصر (٢٨٢ هـ) وما قاربه من أئمة الحديث النبوى خلق كثير، وما ذكرنا عشرهم ، وأكثرهم مذكورون فى تاريخى ، وكذلك كان فى هذا الوقت خلق من أئمة أهل الرأى والفروع وعدد من أساطين

(١) صحيح مسلم مع شرح النووى ١٦٠/١

(٢) نفس المصدر ٤٧٥/١

المعتزلة والشيعة وأصحاب الكلام الذين مشوا وراء العقول وأعرضوا عما عليه السلف من التمسك بالآثار النبوية ، وظهر فى الفقهاء التقليد وتناقض الاجتهاد[1] » .

ويقول فى نهاية هذه الشذرة :

« فإنى أحسبك لفرط هواك تقول بلسان الحـال إن أعوزك المقـال : من أحمد وما ابن المدينى ، وأى شىء أبو زرعة وابوداود ؟ هؤلاء محدثون ، ولايدرون ما الفقه وما أصوله ، ولايفقهون الرأى ، ولا علم لهم بالبيان والمعانى والدقائق ، ولاخبرة لهم بالبرهان والمنطق ، ولا يعرفون الله تعالى بالدليل ، ولا هم من فقهـاء الملة . فاسكت بحلم أو انطق بعلم ، فالعلم النافع هو ما جاء عن أمثال هؤلاء[2] » .

وقد ذكر فى هذا الموضع أئمة الحديث مقابل الفقهاء المجتهدين ، و وصف تفقههم وعلمهم بالحق ثم قال إن التقليد والاجتهاد المتناقض ينتشران فى المستقبل و يتطرق النـاس إلى الطعن على العـلوم الحقة وأهل الفن .

وذكر فى ترجمة بقى بن مخلد : « وقد تعصبوا على بقى لإظهاره مذهب أهل الأثر ، فدفع عنه أمير الأندلس محمد بن عبـد الرحمن

(١) تذكرة الحفاظ ١٨٢/٢

(٢) أيضا ١٨٣/٢

المروانى ، واستنسخ كتبه ، وقال لبقى : انشر علمك[١] » .

وقال فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى : « كان ورعا ثقة إماما فى الحديث وعلله و رواته ، متحققا فى علم التحقيق والأصول على مذهب أصحاب الحديث بموافقة الكتاب والسنة[٢] » .

ويقول الإمام النووى فى شرح باب المساقاة من صحيح مسلم : « وبه قال مالك والثورى والليث والشافعى وأحمد وجميع فقهاء المحدثين[٣] » .

وذكر فى نفس الصفحة : « وقال ابن أبى ليلى وأبو يوسف ومحمد وسائر الكوفيين وفقهاء المحدثين وأحمد وابن خزيمة » .

ويقول فى أبواب الشفعة : وقال الحكم والثورى وأبو عبيدة وطائفة من أهل الحديث : ليس له الأخذ[٤] » .

ويقول فى وضع الخشب على جدار الجار : « والثانى الايجاب ، وبه قال أحمد وأبو ثور وأصحاب الحديث[٥] » .

وفى جميع هذه المواضع ورد ذكر أهل الحديث كمدرسة فكرية .

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢٠٤/٢

(٢) أيضا ١٨/٤

(٣) صحيح مسلم ٣٢/٢

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر .

وذكر الحافظ ابن حجر جواز ضربة واحدة للوجه والكفين فى التيمم فقال: وإليه ذهب أحمد واسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن خزيمة، ونقله أبو الجهم وغيره عن مالك، ونقله الخطابى عن أصحاب الحديث[1]».

وقد ذكر الإمام النووى فى تهذيب الأسماء واللغات والإمام الشافعى بأسلوب أخاذ فى صفحات عديدة، وذكر فيه قول الإمام محمد بن الحسن، قال محمد بن الحسن رحمه الله: إن تكلم أصحاب الحديث يوما فبلسان الشافعى[2]».

ويقول الحسن بن محمد الزعفرانى: «كان أصحاب الحديث رقودا فأيقظهم الشافعى[3]».

وورد فى ذكر الإمام أحمد: فهذا قول إمام أصحاب الحديث وأهله[4]».

وهذه التصريحات تدل على أن أهل الحديث كانوا قبل الإمام أحمد والشافعى ومحمد. وهؤلاء الأئمة أيضا كانوا أهل الحديث،

---

(١) فتح البارى ١/٣٠٤
(٢) نفس المصدر ١/٥٠
(٣) فتح البارى ١/٥٠
(٤) نفس المصدر

وأفادوا بعلومهم أهل الحديث . وقال فى موضع: لقب تلاميذ الإمام الشافعى بأهل الحديث عند عامة العلماء وفقهاء خراسان.

عصر التقليد والجمود:

إن معرفة تاريخ التقليد والجمود فى القرون الثلاثة عشر الماضية، والوصول إلى رأى صحيح قطعى فيهما، واستعراض ما طرأ عليهما من التطور والتقلص، كل ذلك يحتاج إلى دراسة عميقة شاملة. وإذا نظرنا إلى تصريحات الأئمة وإلى تاريخ نهضة الفرق وانحطاطها وإلى كتب الفرق والأديان المختلفة علمنا أن جميع العلماء فى قرون الخير لم يكونوا مجتهدين، نعم كان عدد كبير منهم متمتعا بمنزلة الاجتهاد، وبجانب هؤلاء كان كثير من العلماء الذين لم يبلغوا إلى درجة الاجتهاد، ولكنهم كانوا يعرفون المسائل ودلائلها حسب الحاجة، ثم إن الله منحهم نعمة التفقه بجانب حفظ الأحاديث. أما عدد العامة الذين لم يستطيعوا الاشتغال بالعلم بسبب المشاغل الدنيوية فكان كبيرا أيضا، وكان هؤلاء يرجعون إلى أفضل علمائهم وقت الحاجة، فإن العامى ليس مكلفا بأن يبحث عن مجتهد للاستفتاء، فلو أمكنه ذلك لم يحتج إلى أن يسأل أحدا. والناس كانوا يسألون من يحسبونه عالما بدون أن يختبروا الاجتهاد أو يحددوا المجتهد، بل ما عرفوا انقسام التقليد إلى الشخصى وغيره. وكانوا يسألون من يرونه مشتغلا

بتدريس الكتاب والسنة، فلو اطمأنوا بالفطرة الدينيـة عملوا وإلا رجعوا إلى عالم آخر بدون شرط الاجتهاد وتحديد العالم. وهذه طريقة مألوفـة طبيعية اتبعوها فتجنبوا الافتراق والطائفية، وإلى هذا أشار الشاه ولى الله فقال: «اعلم أن الناس كان قبـل المائة الرابعة غير مجمعين على التقليد الخالص لمذهب واحد بعينه[1]». وينقل بعـد ذلك عن قوت القلوب لأبى طالب المكى[2]: «إن الكتب والمجموعات محدثة».

وبعد ذلك يقول الشاه ولى الله: «وبعد القرنين حدث فيهم شىء من التخريج، غير أن أهل المائة الرابعة لم يكونوا مجتمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله، كما يظهر من التتبع، بل كان فيهم العلماء والعامة، وكان من خبر العامة أنهم كانوا فى المسائل الاجماعية التى لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل والصلاة والزكاة ونحو ذلك من آبائهم أو معلمى بلدانهم فيمشون حسب ذلك[3]».

---

(١) حجة الله البالغة ١٥٢/١

(٢) نفس المصدر

(٣) نفس المصدر

وإذا وقعت لهم واقعة استفتوا فيها أى مفت وجدوا من غير تعيين مذهب، وكان من خبر الخاصة أنه كان أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث، فيخلص إليهم من أحاديث النبى ﷺ وآثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شيء آخر فى المسألة من حديث مستفيض أو صحيح قد عمل به بعض الفقهاء، ولا عذر لتارك العمل به، أو أقوال متظاهرة لجمهور الصحابة والتابعين مما لا يحسن مخالفتها[1]».

وكان أثر أئمة الحديث غالبا إلى القرن الثانى، والعامة متمسكين بمذهبهم، واختلط معه التقليد فى القرنين: الثالث والرابع، ولكنه لم يكن تقليدا جامدا بل طابعه التتلمذ والتدريس، وكان فيهم احترام لا عصبية، وبدأ العلم ينقص، والعامة يتكاسلون من حفظ الحديث وضبطه، والعمل بآراء الأئمة الكبار واجتهادهم يزداد يوما بعد يوم، إلى أن عم التقليد فى أواخر القرن الرابع فظهرت آثار الجمود والتعصب. وهكذا صور الأمر كل من تناول هذا الموضوع من ابن حزم وابن القيم وأبى طالب المكى وأبى شامة مؤلف المؤمل والشاه ولى الله، رحمهم الله تعالى.

وادرسوا المختصر ومعانى الآثار للإمام أبى جعفر الطحاوى (م — ٣٢١ هـ) يعترض عليه الإمام ابن تيمية على منهجه فإنه يدافع

---

(١) حجة الله البالغة ١٥٣/١

عن الحنفية دفاعا غير سليم، ولذلك يعده أئمة الحديث متعصبا، وكان البيهقى ألف السنن الكبرى ردا عليـــه. ولكن مع ذلك يتضح من دراسة الكتابين للإمام الطحاوى أن صنيعه يختلف تماما عن صنيع ديوبند اليوم، فإنه يخالف الإمام أبا حنيفة صريحا، ويختـــار قول الصاحبين حينا وقول أحدهما حينا آخر، ويتفق مع الشافعى فى بعض المواضع، فالإمام وصاحباه يحرمون الضب، ولكن الإمام الطحاوى يقول: «ونحن لا نرى بأكله بأسا[1]». وكذا يستحل بول الإبل، والفرس[2]. وهذا صنيع إمام عاش فى القرن الرابع ووصف بالتعصب، فلينظر أهل ديوبند اليوم أين يذهبون؟

والحاصل أن سحاب الجمود والعصبية قد ازداد تكاثفا فى القرنين: الخامس والسادس، وقل أهل التحقيق قلة ملموسة، وصار مناط العلم على التدقيق الفقهى والألقـاب الظاهرة. وقد استمر هذا الوضع فى الازدياد إلى القرن الثامن. يقول الشيخ عبـــد الحى اللكنوى عن استعمال لقب «شيخ الإسلام» نقلا عن السخاوى: «ثم اشتهر بها جماعة من علماء السلف حتى ابتذلت على رأس المائة الثامنة فوصف بها من لا يحصى، وصار لقبا لمن ولى القضاء الأكبر، ولو عرى من العلم والسن، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

(١) مختصر الطحاوى ٤٤١

(٢) أيضا ٤٣٤

وهذا رأى السخاوى، ويقول الشيخ عبد الحى: «ثم صارت الآن لقبا لمن تولى منصب الفتوى وإن عرى عن لباس العلم والتقوى[1]».

وبالجملة انتشر الجمود وساد فى القرن الثامن، وكان أهل الحق موجودين حينذاك، ولكن لم يسمع صوتهم ولم تقدر جهودهم، إلى أن أحرق بعض كتبهم أو منع الناس من قراءتها. وهم ضربوا وأوذوا ايذاء شديدا وسجنوا. وفى نفس القرن ظهرت جهود ضد الجمود السائد، وزلزل بعض المجددين الحكومة مع أصحاب الجمود الذين كانوا يمالئونها بناء على المصالح السياسية وقد أحدث شيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ ابن القيم والعلامة ابن دقيق العيد رحمهم الله ثورة ضد الجمود ووجهوا الناس إلى خطة الإصلاح العامة، إنهم كشفوا عن مذهب أهل الحديث ودلوا الناس على طريقة أئمة الحديث والفقهاء المحدثين. فإنهم قد ذكروا مذهب أهل الحديث فى كتبهم مرة بعد أخرى.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة: «ومن أهل السنة مذهب معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكا والشافعى وأحمد، فإنه مذهب الصحابة تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان

---

(١) الفوائد البهية ص ١٠١

مبتدعا عند أهل السنة والجماعة[١]».

ويقول فى بيان أفعال البارى: «وهذا جواب كثير من الحنفية والحنبلية والصوفية وأهل الحديث[٢]».

ويقول بعد سطور: فإن أهل الحديث من أعظم الناس بحثا عن أقوال النبى ﷺ وطلبا لعلمها وأرغب الناس فى اتباعها[٣]».

«فهم (أهل الحديث) فى أهل الإسلام كأهل الإسلام فى الملل، يؤمنون بكل رسول وبكل كتاب، لايفرقون بين أحد من رسل الله، ولم يكونوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا[٤]».

ويقول فى موضع آخر: «وأما أهل الحديث والسنة والجماعة فقد اختصموا باتباع الكتاب والسنة الثابتة عن نبيهم ﷺ فى الأصول والفروع[٥]».

وذكر بعد ذلك اختلافات الفرق المختلفة ثم قال: «ثم بعد ذلك اختلاف أهل الحديث، وهم أقل الطوائف اختلافا فى أصولهم[٦]».

---

(١) منهاج السنة ٢٥٢/٢

(٢) أيضا ١٧٩/٢

(٣) نفس المصدر

(٤) نقض المنطق ٧٩/٢

(٥) أيضا ١٠٣/٢

(٦) أيضا ٢١١/٢

وهنا ورد ذكر أهل الحديث ضمن علماء العقائد بأن الاختلاف فيهم قليل جدا.

ويقول شيخ الإسلام موضحا الموضوع أكثر: «فليس الضلال والبغي فى طائفة من طوائف الأمة أكثر منه فى الرافضة، كما أن الهدى والرشاد والرحمة ليس فى طائفة من طوائف الأمة أكثر منه فى أهل الحديث[1]».

ويتكرر ذكر أهل الحديث فى منهاج السنة فى موضع وآخر بحيث يقف عليه الانسان لدى النظرة العابرة، ولكن إمعان النظر يدل على أن الكتاب كله مملوء بذكر أهل الحديث الطيب. وقد بدأ شيخ الإسلام رسالته «نقض المنطق» بالسؤال الآتى، والكتاب عبارة عن الرد عليه:

سؤال: ما قولكم فى مذهب السلف فى الاعتقاد، ومذهب غيرهم من المتأخرين؟ ما الصواب منهما؟ وما تنتحلونه أنتم من المذهبين؟ وفى أهل الحديث: هل هم أولى بالصواب من غيرهم؟ وهل هم المرادون بالفرقة الناجية؟ وهل حدث بعدهم علوم جهلوها وعلمها غيرهم؟ وهل من قال إن المنطق فرض كفاية، مصيب أم مخطىء؟

والكتاب يستغرق ٢١١ صفحة، يجيب على الأسئلة المذكورة.

---

(١) نقض المنطق ٢٤٢/٢

وقد ذكر شيخ الإسلام فى البداية مذهب تفويض الكيفية فى صفات الله تعالى ونفى التشبيه والتجسيم والتعطيل ، وأكد أن مذهب الأئمة الأربعة وأهل السنة فى هذا الباب هو المنسوب إلى أهل الحديث ، وطريق الاعتزال والتجهم والتعطيل والتشبيه والتجسيم بدعة . والفلاسفة والمتكلمون يحتج عليهم بالعقل والنقل ، والجماعة التى تصدت للرد على بدعهم هى أهل الحديث .

وذكر بعد ذلك : « وثبت عن اسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى (م – ٤٤٩ هـ) أنه قال : إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة يعرفون ربهم – تبارك وتعالى – بصفاته التى نطق بها كتابه وتنزيله ، وشهد له بها رسوله ، على ما وردت به الأخبار الصحاح ، ونقله العدول الثقات . ولا يعتقدون تشبيها لصفاته بصفات خلقه ، ولا يكيفونها تكييف المشبه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه تحريف المعتزلة والجهمية[1] » .

وفى نفس الكتاب يقول فى موضع آخر : « من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال ، ويمتازون عنهم بما ليس عندهم . فإن المنازع لهم لابد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقا أخرى ، مثل المعقول ، والقياس ، والرأى ،

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٥

والكلام، والنظر، والاستدلال، والمحـاجة، والمجادلة، والمكاشفة، والمخاطبـة، والوجد، والذوق، ونحو ذلك. وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها[١]».

ثم يقول في النهاية: «وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل[٢]».

ثم قال في صفحة (٦–١١): وكذلك الشافعي واسحاق وغيرهما إنما نبلوا في الإسلام باتباع أهل الحديث والسنة. وكذلك البخاري وأمثاله إنمـا نبلوا بذلك، وكذلك مالك والأوزاعي والثوري وأبوحنيفة وغيرهم، إنما نبلوا في عموم الأمة وقبل قولهم لما وافقوا فيه الحديث والسنة، وما تكلم فيمن تكلم فيه منهم إلا بسبب المواضع التي لم يتفق له متابعتها من الحديث والسنة[٣]».

وكذلك حال الفرق البدعية، فإنما يحمدون بمـا وافقوا فيـه مذهب أهل السنة والحديث، «وكذلك ما يذم من يذم من المنحرفين عن السنة والشريعة وطاعة الله ورسوله إلا بمخالفة ذلك[٤]». ومعنى

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤ / ٩

(٢) أيضا ٤/١٠

(٣) أيضا ٤/١١

(٤) أيضا ٤/١٤

ذلك أن أهل الحديث كانوا ميزان الحق والباطل فى كل عصر.

ويقول شيخ الإسلام فى توضيح هذا اللقب: «ونحن لا نعنى بأهل الحديث المقتصرين على سماعه أو كتابته أو روايته، بل نعنى بهم كل من كان أحق بحفظه ومعرفته وفهمه ظاهرا وباطنا، واتباعه باطنا وظاهرا، وكذلك أهل القرآن[1]».

ثم يقول[2]: «إن علامة الزنادقة تسميتهم لأهل الحديث حشوية».

إلى أن قال[3]: «فقهاء الحديث أخبر بالرسول من فقهاء غيرهم، وصوفيتهم أتبع للرسول من صوفية غيرهم، وأمراؤهم أحق بالسياسة النبوية من غيرهم، وعامتهم أحق بموالاة الرسول من غيرهم».

ثم قال[4]: «ولهذا لما بلغ الإمام أحمد عن (أبى قتيلة) أنه ذكر عنده أهل الحديث بمكة، فقال: قوم سوء. فقام الإمام أحمد، وهو ينفض ثوبه، ويقول: زنديق، زنديق».

وقال فى موضع: «إن الذين يعيبون أهل الحديث ويعدلون عن مذهبهم جهلة زنادقة منافقون بلا ريب[5]».

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩٥/٤

(٢) أيضا ٨٨/٤

(٣) أيضا ٩٥/٤

(٤) أيضا ٩٦/٤.

(٥) نفس المصدر

ثم قال : « والمقصود التنبيه على أن كل من زعم بلسان حاله أو مقاله أن طائفة غير أهل الحديث أدركوا من حقائق الأمور الباطنة الغيبية فى أمر الخلق والبعث والمبدأ والمعاد ، وأمر الايمان بالله واليوم الآخر، وتعرف واجب الوجود والنفس الناطقة والعلوم، والأخلاق التى تزكو بها النفوس وتصلح وتكمل دون أهل الحديث ، فهو — إن كان من المؤمنين بالرسل — فهو جاهل ، فيه شعبة قوية من شعب النفاق[1]» .

« والثانى أنا ذكرنا من نقل مذهب السلف من جميع طوائف الفقهاء الأربعة ، ومن أهل الحديث والتصوف ، وأهل الكلام كالأشعرى وغيره[2]» .

وهكذا ذكر فى الكتاب كله مذهب أهل الحديث بنفس الأسلوب مما يدل على أن هذه مدرسة فكرية قديمة ، ولها أعمال تحقيقية جديرة بالتقدير والاحترام ، فى فنون الفقه ، والتصوف ، والحديث ، وأصوله ، وأصول الفقه ، والكلام ، والتجويد .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤٠/٤

(٢) أيضا ١٥٢/٢١

القواعد النورانية :

قد ذكر شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله (م — ٧٢٨ هـ) فى «نقض المنطق» المسائل المختلف فيها بأسلوب كلامى ، وفى الفروع الفقهية له كتاب «القواعد النورانية» وقد ذكر فيه الشيخ المسائل الخلافية للمذاهب الفقهية ، وحقق القول فى فقه المحدثين . وقد ورد بهذا الصدد ذكر أهل الحديث كمدرسة فكرية مرة بعد أخرى . وفى بداية الكتاب ذكر الآراء الفقهية لأهل الحجاز ، وهناك أيضا ورد ذكر أهل الحديث ، ويقول فى أهل المدينة :

« فإن أهل المدينة — مالكا وغيره — يحرمون من الأشربة كل مسكر ، كما صحت بذلك النصوص من النبى ﷺ من وجوه متعددة ، وليسوا فى الأطعمة كذلك ، بل الغالب عليهم فيها عدم التحريم ، فيبيحون الطيور مطلقا وإن كانت من ذات المخالب ، ويكرهون كل ذى ناب من السباع ، وفى تحريمها عن مالك روايتان . وكذلك فى الحشرات عنه ، هل هى محرمة أو مكروهة ، روايتان .

« وأهل الكوفة فى باب الأشربة مخالفون لأهل المدينة ولسائر الناس ، ليست الخمر عندهم إلا من العنب ، ولا يحرمون القليل من المسكر . وهم فى الأطعمة فى غاية التحريم ، حتى حرموا الخيل والضباب[1]» .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/٢١

ويقول شيخ الإسلام عن أهل الحديث: «ومذهب أهل الحديث فى هذا الأصل العظيم الجامع وسط بين مذهب العراقيين والحجازيين[١]».

وفيه يقول: «فأخذ أهل الحديث فى الأشربة بقول أهل المدينة وسائر أهل الأمصار، موافقة للسنة المستفيضة عن النبى ﷺ وأصحابه فى التحريم».

وفصل ذلك فى سطور ثم قال: «وأخذوا فى الأطعمة بقول أهل الكوفة، لصحة السنن عن النبى ﷺ بتحريم كل ذى ناب من السباع، وكل ذى مخلب من الطير، وتحريم لحوم الحمر[٢]».

فالقرآن والسنة سواء عندهم فى هذا الموضوع، قال فى النهاية: «لكن لم يوافق أهل الحديث الكوفيين على جميع ما حرموه، بل أحلوا الخيل لصحة السنن عن النبى ﷺ بتحليلها يوم خيبر. وأحلوا الضب لصحة السنن عن النبى ﷺ بأنه قال «لا أحرمه». فنقصوا عما حرمه أهل الكوفة من الأطعمة، كما زادوا على أهل المدينة فى الأشربة، لأن النصوص الدالة على تحريم الأشربة المسكرة أكثر من النصوص الدالة على تحريم الأطعمة[٣]».

ثم بحث الشيخ مذهب أهل الحديث مفصلا فى المسائل المذكورة،

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/٢١

(٢) أيضا ٨/٢١

(٣) أيضا ص ٩

وتركناه نظرا للايجاز، فإن المقال قد طال، ومن أراد التفصيل فعليه مراجعة القواعد النورانية فى صفحات ١٠، ١١، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٣[١].

فشيخ الإسلام ذكر أهل الحديث وفقهاء أهل الحديث هنا وهناك كمدرسة فكرية كما ذكر المدارس الأخرى.

وذكر الحافظ جلال الدين السيوطى أهل الحديث بما يأتى: «فهم حملة علمه ونقلة دينه وسفرته بينه وبين أمته وأمناؤه فى تبليغ الوحى منه، فحرى أن يكونوا أولى الناس به فى حياته ووفاته، وكل طائفة من الأمم مرجعها إليهم فى صحة حديثه وسقيمه، ومعولها عليهم فيما يختلفون فى أمره، ثم كل من اعتقد مذهبا فإلى صاحب مقالته التى أخذ بها ينتسب، وإلى رأيه ينتسب أصحاب الحديث، فإن صاحب مقالتهم رسول الله ﷺ، فهم إليه ينتسبون، وإلى علمه يفزعون، وبرأيه يقتدون، وبذلك يفتخرون، انتسابهم إلى القرآن فإنه أحسن الحديث، وإلى الحديث فإنهم حفظته وحملته[٢]».

وبعد ذلك يقول: «فهى الطائفة المنصورة والفرقة الناجية والعصبة الهادية والجماعة العادلة المتمسكة بالسنة التى لا تريد برسول الله

---

(١) وهى فى المجلد الحادى والعشرين من مجموع فتاوى ابن تيمية.
(٢) صون المنطق والكلام ص ١١٠

ﷺ بديلا ، ولا لقوله تبديلا ، ولا عن سنته تحويلا[١]» .

ولخص السيوطى بهذا كتاب أصول السنة للحافظ هبة الله بن حسن أبى القاسم اللالكائى ، وينقل كذلك عن « الانتصار لأهل الحديث » للسمعانى (م — ٤٨٩ هـ) : « قد لهج بذم أصحاب الحديث صنفان : أهل الكلام ، وأهل الرأى ، فهم فى وقت يقصدونهم بالثلب والعيب وينسبونهم إلى الجهل وقلة العلم[٢]» .

وقرر فى خبر الواحد بأنه يفيد العلم ثم قال : « هذا قول عامة أهل الحديث والمتيقنين من القائمين على السنة ، وإنما هذا القول الذى يذكر أن خبر الواحد لا يفيد العلم بحال ، ولابد من نقله بطريق التواتر لوقوع العلم شىء اخترعته القدرية والمعتزلة ، وكان قصدهم منه رد الأخبار وتلقته بعض الفقهاء الذين لم يكن لهم فى العلم قدم ثابت[٣]» .

وهذا الكتاب تلخيص لعدة كتب ، وقد ذكر فيه السيوطى مدرسة أهل الحديث كثيرا[٤] ، وموضوع الكتاب هو أخطاء المنطق والكلام ، وفيه تلخيص لكتب أئمة السنة ، وورد فيه ذكر مذهب

---

(١) صون المنطق والكلام ص ١١١

(٢) أيضا ص ١٤٧

(٣) أيضا ص ١١٦

(٤) تراجع الصفحات ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧١

أهل الحديث فى مواضع عديدة. وهذا يدل على أن فقهاء الحنفية حيثما زلوا فى أصول الفقه فبتأثير من المعتزلة، فإن فقهاء العراق كانوا متأثرين فى البداية بالمعتزلة، وهم قد ألفوا بعض الكتب فى أصول الفقه، وفيها يبدو أثر الاعتزال هنا وهناك. وقد أورد فى الجواهر المضيئة وفى الفوائد البهية ذكر كثير من الأحناف الذين تأثروا بالاعتزال. والمتأخرون من علماء الأصول يعتمدون عليهم فى الغالب. وكتب أصول الفقه التى تدرس اليوم تحمل أثر الاعتزال، ومن المعتزلة يتلقى الشيخ الملاجيون والعلامة نظام الدين الشاشى.

وقد ألف الحافظ ابن قتيبة الدينورى (م — ٢٧٦ هـ) كتابه «تأويل مختلف الحديث فى الرد على أعداء أهل الحديث» دفاعا عن مذهب أهل الحديث، وفيه دافع عن الحديث وأهله كليهما، يقول:

(ذكر أصحاب الحديث) قال أبو محمد: «فأما أصحاب الحديث فإنهم التمسوا الحق من وجهته وتتبعوه من مظانه، وتقربوا من الله تعالى باتباعهم سنن رسول الله ﷺ وطلبهم لآثاره وأخباره برا وبحرا وشرقا وغربا إلى أن قال: وعرفوا من خالفها من الفقهاء إلى الرأى، فنبهوا على ذلك حتى نجم الحق بعد أن كان عافيا وبسق بعد أن كان دارسا، واجتمع بعد أن كان متفرقا، وانقاد للسنن من كان عنها معرضا، وتنبه عليها من كان عنها غافلا، وحكم بقول رسول الله ﷺ بعد أن كان يحكم بقول فلان وفلان، وإن كان فيه

خلاف على رسول الله ﷺ[1]».

وقال فى موضع: «وقال كل فريق منهم لأهل الحديث مثل الذى قالته القدرية، والأسماء لا تقع غير مواقعها، ولا تلزم إلا أهلها. ويستحيل أن تكون الصياقلة، هم الأساكفة، والنجار هو الحداد[2]».

فأهل الحديث لايصيرون حشويين أو ظاهريين بالتلقيب، فللأسماء ماهيات تطلق عليها.

وقد عرف العلامة أبو بكر محمد بن حسن بن فورك (م — ٤٠٦ هـ) بالملاحدة فى كتابه «مشكل الحديث» فقال: «وخصوا بتقبيح ذلك الطائفة التى هى الظاهرة بالحق لسانا وبيانا وقهرا وعلوا ومكانا، الطاهرة عقائدها من شوائب الأباطيل وشوائن البدع والأهواء الفاسدة، وهى المعروفة بأنها أصحاب الحديث[3]».

ثم قسمهم فى قسمين: قسم يشتغل بالأسانيد وضبط المتون. وقسم يبحث فى الأحاديث عن الأسباب والعلل والقياس والنظر.

وهكذا ذكر مدرسة أهل الحديث أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى (م — ٥٤٨ هـ).

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٧٣—٧٤

(٢) أيضا ص ٨١

(٣) مشكل الحديث ص ٣

والحافظ ابن حزم الأندلسى الظاهرى (م — ٤٥٦ هـ) مع كونه ظاهريا يعد نفسه من أهل الحديث، وينتقد التقليد والجمود انتقادا شديدا، ويقول عن الخلافات الفرعية بين علماء عصره من الموالك، وبين الصحابة: «فأما ما اجتمعوا عليه فنحن الذين اتبعوا إجماعهم، ولله الحمد كثيرا، وإنما خالف إجماعهم من دعى إلى تقليد انسان بعينه، كما فعل هؤلاء فى تقليدهم مالكا دون غيره، ولم يكن قط فى الصحابة ولا فى التابعين ولا فى القرن الثالث واحد مما فوقه فعل هذا الفعل ولا أباحه لفاعل[1]». وللحافظ ابن حزم كتاب الأحكام، وكتاب المحلى، وكتاب الفصل، وهى جميعا مملوءة بمثل ما ذكرنا.

وكان القرنان: السابع والثامن متأثرين بالأعمال التجديدية لشيخ الإسلام ابن تيمية (م — ٧٢٨ هـ)، وكان صدى صوته يسمع فى كل من المدارس وإيوان الحكومة. فأصحاب البلاط الملكى ترتعد فرائصهم من انتقاد الشيخ، وزوايا المتصوفة تخضع لخطته الإصلاحية، وهكذا كانت أعمال الشيخ الإصلاحية تستوعب جميع النواحى الدينية للحياة وتؤثر فيها.

توسعت حلقة درسه وعمت جهوده فى مجال الدعوة فتوسع نطاق تلاميذه وأصحابه، فقد استفاد من علومه الحافظ ابن قيم

---

(١) التصنيف ص ٨٩

الجوزية ، والحافظ جلال الدين المزى ، والحافظ الذهبى ، والحافظ عماد الدين ابن كثير ، ومحمد بن أحمد ابن عبد الهادى المقدسى وغيرهم من كبار الأئمة ، وهذا يؤكد أن أثر الشيخ الإمام كان باقيا ملموسا بعده بسنوات .

وقد اتصلت الاستفادة من علوم الشيخ ، واغترف من بحر علومه — مباشرة أو بواسطة — كل من الأئمة ابن القيم ، والشيخ محمد بن يعقوب الفيروز آبادى (م — ٨١٧ ﻫ) والحافظ ابن حجر (م — ٨٥٢ ﻫ) والمؤرخ أحمد بن على المقريزى (م — ٨٤٥ ﻫ) . ثم بقى هذا الأثر فى تلاميذ الحافظ ابن حجر ، وظل مصباح التحقيق منيرا ، بدون أن يسيطر الجمود ، نعم كان هناك صدام بين النظريات والآراء نرى آثاره اليوم . فلم يكن أحد من الأئمة : السيوطى (م — ٩١١ ﻫ) وعلى المتقى (م — ٩٧٥ ﻫ) وعبد الوهاب المتقى (م — ١٠٠١ ﻫ) ، ومحمد طاهر الفتنى صاحب مجمع البحار (م — ٩٨٦) ، وأحمد بن عبد الأحد السرهندى (م — ١٠٣٤ ﻫ) ، وثناء الله البانى بتى (م — ١٢٢٥ ﻫ) ، والميرزا مظهر جان جانان (م — ١٢١٨ ﻫ) ، والفاخر الإله آبادى (م — ١٢٦٤ ﻫ) ، والشاه ولى الله (م — ١١٧٦ ﻫ) ، والشاه عبد العزيز (م — ١٢٣٩ ﻫ) ، والشاه اسماعيل (م — ١٢٤٦ ﻫ) داعيا إلى التقليد والجمود ، سوى أنهم كانوا يميلون إلى الحنفية بضغط من البيئات التى يعيشون فيها . وكل ما نراه اليوم من الآثار المعارضة

للتقيد والجمود فى شبه القارة (الهند وباكستان) فهو بفضل جهودهم وإخلاصهم ، رحمة الله عليهم . وكتابات هؤلاء الأعلام توضح الموضوع جيدا ، وهى وكذا أعمالهم ليست خافية على أهل العلم . فقد أتى الشاه ولى الله فى هذا الموضوع بما لا مزيد عليه فى كتبه حجة الله البالغة ، والإنصاف ، وعقد الجيد ، والخير الكثير ، والتفهيمات ، والمقالة الوضيئة والانتباه ، وغيرها . ويقول فى حجة الله[1] نقلا عن العز بن عبد السلام : « ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا ، وهو مع ذلك يقلده فيه ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم جمودا على تقليد إمامه ، بل يحيل لدفع ظاهر الكتاب والسنة ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلده . وقال : لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقييد لمذهب ولا إنكار على أحد من السائلين إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين »

وقال فى موضع آخر[2] : « وفيمن لا يجوز أن يستفتى الحنفى مثلا فقيها شافعيا وبالعكس ، ولا يجوز أن يقتدى الحنفى بإمام شافعى مثلا .

(١) حجة الله البالغة ١٥٥/١

(٢) نفس المصدر

فإن هذا قد خالف إجماع القرون الأولى وناقض الصحابة والتابعين».

ويقول[١]: «وكان صاحب الحديث أيضا قد ينسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له كالنسائى والبيهقى ينسبان إلى الشافعى».

ويرشد فى التفهيمات إلى أن يعرض مجموع الفقه الحنفى والشافعى على الكتاب والسنة، فيعمل بما يوافقهما، وتقبل المسائل المختلف فيها كروايات. ونرى أن الشاه ولى الله يميل على الأغلب فى الفروع العملية إلى الشوافع، ويرجح مذهبهم فى التأمين بالجهر ورفع اليدين وزيارة القبور وقراءة الفاتحة وغيرها. وقد أثنى على الإمام الشافعى بصورة عجيبة فى الخير الكثير: «أما المتعمقون فى الرأى فليسوا من أهل السنة فى شىء، وأما هذه المذاهب الأربعة فأقربها إلى السنة مذهب الشافعى المنقح والمصفى، وكان نظره يصل إلى حقيقة العلل والأسباب[٢]».

وذكر فى التفهيمات[٣] العقائد وأكد أن يتبع مذهب السلف مبتعدا عن التأويل، ثم يقول فى الفروع: ويتبع فى الفروع مذهب الفقهاء المحدثين، وتعرض التفريعات الفقهية على الكتاب والسنة،

---

(١) حجة الله البالغة ١/١٥٣

(٢) الخير الكثير ص ١٢٤

(٣) التفهيمات الإلهية ٢/٢٤٠

فيقبل ما وافقهما ، ويرد ما خالفهما ، فليس للأمة ، فى وقت ما ، غنى عن عرض المجتهدات على الكتاب والسنة . ثم الابتعاد عن الفقهاء المتقشفين الذين تمسكوا بتقليد عالم وتركوا اتباع الكتاب والسنة ، فإن قرب الله فى الابتعاد عنهم » .

ومشاعره نحو التقليد الجامد جديرة بالتفكير ، يقول : « وترى العامة سيما اليوم فى كل قطر يتقيدون بمذهب من مذاهب المتقدمين ، يرون خروج الانسان من مذهب من قلدوه ، ولو فى مسألة كالخروج من الملة ، كأنه نبى بعث إليه وافترضت طاعته عليه ، وكان أوائل الأمة قبل المائة الرابعة غير متقيدين بمذهب واحد[1] » .

وليتفكر أصحاب ديوبند فى الأسلوب الذى يدعون به إلى التقليد اليوم ويعارضون به ترك التقليد ، فلعله نفس الأسلوب الذى اشتكى منه الشاه ولى الله .

وكذلك ذكر فى (١ / ١٥٢) المحققين الذين لم يكونوا يقلدون مثل ابن العربى ، وأبى محمد الجوينى .

وقال أيضا[2] : « إن آمنتم بنبيكم فاتبعوه ، خالف مذهبا أو وافقه » .

وكتاب التفهيمات يمتلىء بمثل هذه التصريحات .

---

(١) التفهيمات الإلهية ١٥١/١

(٢) أيضا ٢٥١/١

التفقه والظاهرية:

يرى الشاه ولى الله أن الحق بين التفقه والظاهرية، فيقول فى التفهيمات[1]: «ومنها أنى أقول لهؤلاء المسلمين بالفقهاء الجامدين على التقليد يبلغهم الحديث من أحاديث النبى ﷺ باسناد صحيح، وقد ذهب إليه جمع عظيم من الفقهاء المتقدمين، ولا يمنعهم إلا التقليد لمن لم يذهب إليه، ولهؤلاء الظاهرية المنكرين للفقهاء الذين هم طراز حملة العلم وأئمة أهل الدين أنهم جميعا على سفاهة وسخافة وإلى ضلالة، وإن الحق أمر بين بين».

وهذا هو عين مذهب أهل الحديث.

ثم يقول[2]: «وأشهد لله بالله أنه كفر بالله أن يعتقد فى رجل من الأمة ممن يخطىء ويصيب أن الله كتب علىّ اتباعه حتما، وأن الواجب علىّ هو الذى يوجبه هذا الرجل علىّ، ولكن الشريعة الحقة قد ثبتت قبل هذا الرجل بزمان قد وعاها العلماء وأداها الرواة وحكم بها الفقهاء، وإنما اتفق الناس على تقليد العلماء على معنى أنهم رواة الشريعة عن النبى ﷺ، وأنهم علموا ما لم نعلم، وأنهم اشتغلوا بالعلم ما لم نشتغل، فلذلك قلدوا العلماء، فلو أن حديثا صح،

(١) التفهيمات الالهية ٢٠٩/١

(٢) أيضا ٢١١/١

وشهد بصحته المحدثون، وعمل به طوائف فظهر فيه الأمر ثم لم يعمل به لأن متبوعه لم يقل به فهذا هو الضلال البعيد».

ويقول الشاه فى موضع آخر[١]: «ونشأ فى قلبي داعية من جهة الملأ الأعلى، تفصيلها أن مذهبي أبي حنيفة والشافعى هما مشهوران فى الأمة المرحومة، وهما أكثر المذاهب تابعا وتصنيفا. وكان جمهور الفقهاء المحدثين والمفسرين والمتكلمين والصوفية متمذهبين بمذهب الشافعى، وجمهور الملوك وعامة اليونان متمذهبين بمذهب أبي حنيفة. وإن الحق الموافق لعلوم الملأ الأعلى اليوم أن يجعلا كمذهب واحد يعرضان على الكتب المدونة فى حديث النبي ﷺ من الفريقين، فما كان موافقا بها يبقى، وما لم يوجد له أصل يسقط. والثابت منها بعد النقد إن توافق بعضه فذلك الذى يعض عليه بالنواجذ، وإن تخالف تجعل المسألة على قولين ويصحح العمل عليهما».

فما صلة آراء الشاه ولى الله هذه مع دعوة ديوبند إلى الجمود على التقليد؟ على أصحاب الفكر أن يتدبروا هذه النقطة. وما يتطلبه مذهب أهل الحديث هو التخلى عن الجمود تماما، والنظر إلى النصوص. وقد ذكر الشاه ولى الله هذه الدعوة فى موضع فقال: «أما تعرفون

---

(١) التفهيمات الإلهية ٢١١/١

أن الحكم ما حكمه الله ورسوله، ورب إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به ويقول إنما عملي على مذهب فلان لا على الحديث، ثم احتال بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن الكمل المهرة، وإن الأئمة لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث، فما تركوه إلا لوجه ظهر لهم فى الدين من نسخ أو مرجوحية. اعلموا أنه ليس هذا من الدين فى شيء، إن آمنتم بنبيكم فاتبعوه، خالف مذهبا أو وافقه، كان مرضى الحق أن تشتغلوا بكتاب الله وسنة رسوله ابتداء، فإن سهل عليكم الأخذ بهما فبها ونعمت، وإن قصرت أفهامكم فاستعينوا برأى من مضى من العلماء ما تروه أحق وأصرح وأوفق بالسنة».

ويقول: «أما تعلمون أن الرحمة كل الرحمة والهدى ما جاءكم به محمد ﷺ[1]»؟

ولا فائدة من الخوض فى بحث الألفاظ، فالحقائق قد وضحت، وعرف الجميع أن مذهب أهل الحديث لا يقول عن الجمود الدينى فى الهند أكثر مما قال الشاه ولى الله، وسواء أن تسموه تقليدا أو عدمه، وحنفيا أو أهل حديث، ولكن الحقيقة أن مذهب أهل

---

(١) التفهيمات الالهية ٢١٥/١

الحديث ليس فيه الجمود الذى يدعو إليه أصحاب بريلى وديوبند.
وجميع ما قاله أهل الحديث عن التقليد الشائع يوجد فى تصريحات الشاه ولى الله. أما ما قاله أصحاب ديوبند وبريلى فيخالف روح تصريحات الشاه، فكيف يربط بين الانتساب إلى الشاه وبين الدعوة إلى التقليد والجمود. وقبل مدة اكتشف بعض الكبار من ديوبند أن الشاه إسماعيل كان يميل فى البداية إلى ترك التقليد، ولكن ذهب هذا الميل بعد إفهام السيد أحمد الشهيد فترك الشاه إسماعيل رفع اليدين وغيره من الأفعال المسنونة. ولكنى أرى أن هذا إساءة ظن فى الشهيد — رحمه الله — لا دليل عليه.

وللشهيد إسماعيل — رحمه الله — كتاب معروف اسمه «ايضاح الحق الصريح فى أحكام الميت والضريح» وهو آخر مؤلف له ناقص، كان ينوى أن يبين فيه حكم العادات الخاصة بالتجهيز والتكفين، ولكن وافته الشهادة بعد أن تناول موضوع البدعة.
وطبع هذا الكتاب فى المطبعة الأشرفية بدهلى، ومع النص الفارسى ترجمته الأردى، ويقول فيه الشهيد[1]: «ليس واجبا على كل رجل أى يعرف الأحكام القياسية والقواعد العربية وأشغال الصوفية، وكذلك

---

(١) إيضاح الحق الصريح ص ٨٨

لايجب تقليد أحد من المشايخ والمجتهدين ، بل يكفي أن يسأل علماء وشيوخ عصره عند الحاجة ، ولايرى التقليد مثل الإيمان بالأنبياء ، ولا الانتساب إلى الحنفيـــة والقـادرية مثل الانتساب إلى الإسلام وأهل السنة ».

وقال فى صفحة ٩٠ : « ينبغى أن يجعل شعاره المحمدية الخالصة والتسنن القديم، ولايتمذهب بمذهب خاص، ولايتمسك بطريق معينة » .

فهو لايجب اختيـار إمام معين فى الفروع ، ولا طريقة خاصة من طرق الصوفية وسلاسلها ، بل يختار المحمدية المحضة ، وذلك لأنه كان يرى أمامه الدعوة التى قام بها الشاه ولى الله من قبله ونشرها أبناؤه وأحفاده من بعده ، حتى ضحوا فى سبيلها بأنفسهم وأموالهم. فكلهم كانوا يرمون إلى القضـاء على الجمود الفقهى والصوفى بدون الوقوع فى النزاع اللفظى والبحث المعقد ، وبدون إثارة الخلاف والمنـــافرة بين المسلمين . وفى سنة (١٢٤٦هـ) حينما حدثت مأساة بالاكوت لم يكن أحد يحسب أن ترك التقليد بالقصد يمنع الانضمام إلى الحركة . ويمكن اختلاف الرأى حول شك الموحدين هذا، ولكنه لم يجد جوا ملائما للظهور. وبعد حادث الشهادة بشهور تحمل أصحاب صادقفور مسئولية تنظيم المجاهدين كلهم، وقد أدى الشيخان الشقيقان : ولايت على، وعنايت على مسئوليـــاتهما نحو الجهـــاد ونشر الدعوة

الإسلامية بنجاح تام . وبما أن تأثرهما بالشهيد كان أقوى وأكثر لم يغلب اتجاه التقليد والجمود على اتباع السنة فى عصرهما ، فانكمشت طبقة المقلدين فى سنة ١٢٤٦ هـ وتراجعت إلى الصفوف الخلفية . وكان الشيخان ينتقدان فروع الفقه لا شخصيات الفقهاء ، وموقفهما مع الأئمة الأربعة موقف احترام وتقدير ، فكانا يطلبان لاجتهادهم المحل الصحيح دون الفزع من الاتجاه الحنفى ، ويكرهان التقليد والجمود . وبعد السيد الشهيد قد تعين الشيخ ولايت على (م ـ ١٢٩٦هـ) فى سنة ١٢٦٢هـ أمير الجماعة . وكتابه « العمل بالحديث » بين يدىّ الآن ، يقول فيه[1]: « او لم يستطع العامى أن يحصل العلم لأشغاله فعليه أن يرجع إلى العلماء المحدثين المعروفين بعلمهم وأمانتهم ويطالب أن يعلموه طريقة النبى ﷺ . ولوكان الرجل راغبا فى التعليم فعليه مراجعة الكتاب والسنة ، فلا حاجة للتقليد فى النصوص الظاهرة » .

وهذا هو نفس الأسلوب الذى نجده لدى الشاه ولى الله والشاه عبد العزيز وأصحابهما وتلاميذهما . وقد تحول هذا الأسلوب بعوامل سياسية فى القرن الثالث عشر الهجرى إلى حركة الجهاد وإلى الجهود البدائية لتحرير الهند ، وذلك بسبب قيام الوحدة بين السيخ وبين الإنجليز وبسبب معارضة العلماء الهنود الأغبياء ، وقد تم إعداد

---

(١) العمل بالحديث ص ١٦

خطة الجهاد تحت إشراف الشاه عبد العزيز وقيادة السيد أحمد الشهيد وتوجيه الشيخين: إسماعيل الشهيد وعبد الحى البدهانوى، وقد اختار هؤلاء «إقليم الحدود» مسرحا لجهودهم التحريرية ظنا منهم بأن كثرة المسلمين فى المنطقة تساعدهم فى تحقيق أهدافهم، ولأن مدينة كلكته وضواحيها كانت تحت سيطرة الانجليز وإقليم بنجاب تحت سيطرة السيخ.

أهداف حركة الجهاد والتحرير:

كان المجاهدون يهدفون إلى أمرين، الأول تحرير الهند وتطهيرها من الانجليز والسيخ، والثانى إقامة حكومة فيها على أساس الكتاب والسنة. وبجانب هذا كانوا يرمون إلى القضاء على بدع المجتمع وعادات الشرك وآثار الرفض الفتاكة التى تسربت إلى حياة الناس بسبب إهمال السلطات المغولية الحاكمة. ولإقامة الحكومة على الطريقة السلفية كانوا يقومون بالوعظ والارشاد وبالدرس والتدريس وبنشر الكتاب والسنة من ناحية، وبالجهاد ضد الانجليز والسيخ من ناحية أخرى. وكانت حركة الجهاد مستمرة فى أعمالها بالسرية إلى أن انتهت بانقسام الهند فى سنة ١٩٤٧م وقيام دولة مسلمة باسم باكستان. وتفصيل ذلك موضوع مستقل يحتاج إلى وقت ومناسبة. وكانت جهود النواب صديق حسن خان والشيخ السيد نذير حسين الدهلوى

لتنشيط شئون الوعظ والارشاد والطبع والنشر نعمة كبيرة للبلاد ، وقد تم حينذاك نشر مطبوعات لا تحصى من مدن بوفال ، وبنارس ، وكلكته ، ودهلى ، ولاهور . وبشاور ، وراولبندى وغيرها ، وتراكمت مجموعات الحديث وشروحها وتراجمها إلى اللغات الهندية . وامتلأت رفوف العلماء بكتب فقه الحديث . وكان الشاه ولى الله وأعماله التجديدية متجلية فى جميع هذه الجهود ، التى بذلت للقضاء على الجمود بدون منافرة ، ولإنارة سبيل العلم والتحقيق ، وكان شيخ الإسلام السيد نذير حسين وتلاميذه يسيرون على نفس الطريق ، ساعين لتثبيت الحق فى القلوب بدون إثارة المنازعات والفتن .

طريق اليمن :

وهكذا سمع صوت ضد التقليد والجمود من قبل اليمن . فكان أسلوب الإمام الشوكانى وتلاميذه فى كتبهم عنيفا ضد الجمود . وكان الشيخ ولايت على تلميذا للشوكانى ، ولكن غلب عليه طريقة الشاه ولى الله . ثم قد أحدث عنف العلماء الجامدين سورة فى حركة المجاهدين فتم تبادل الرسائل العنيفة بين الفريقين واستمرت مجالس الدرس والوعظ سنوات عديدة و وصلت القضايا إلى محاكم الإنجليز .

والشاه ولى الله مع معارضته للتقليد والجمود لم يكره ألقاب « الحنفى » و « الشافعى » وأمثالها ، بل ربما كان يحبها ، ولم يكن هو

وأتباعه ليعيبوا على الانتساب إلى الحنفية والشافعية على أن لا يصرف النظر عن الكتاب والسنة وفقه الحديث بتأثير من التقليد والجمود.
وبعد هذه الدعوة الصريحة الحكيمة للشاه ولي الله يجب على أهل بريلى وديوبند أمران:

إما أن يتركوا الجمود والدعوة إلى التقليد تماما، وإما يقطعوا صلتهم بالشاه ولي الله ومدرسته، والجمع بين الأمرين يرادف ما قيل:

«إنكار الخمر والتعايش مع السكارى[1]»

وعلى هذا ينبغي ألا يساء فهم حقيقة موقف الشاه ولي الله الممزوج بمراعاة المصلحة.

---

(١) ترجمة شطر فارسي نصه:

منكر مے بودن وهمرنگ مستاں زيستن



الفصل السابع

فى

مسألة حيـــاة النبي ﷺ

فى ضوء الأدلة الشرعية

الحمد لله كبيرا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا، وصلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا كثيرا، أما بعد:

ألقى عالم موحد خطابا قبل مدة حول موضوع التوحيد فى مدينة ملتان، وقد أعجب به العامة والخاصة، ولكن اعترض على هذا الخطاب بعض من جماعته، مع الاستقامة فى عقيدة التوحيد، ثم بذل الجهد لإزالة تأثير الخطاب.

وقد تناول الخطيب ضمن كلامه على التوحيد موضوع وفاة الرسول ﷺ، وانتقد آراء الذين يرونه حيا مثلما يحيون هم وغيرهم، وقال: لوكانت حياة النبى ﷺ حياة دنيوية لما دفنه الصحابة، فإنه ليس من الممكن أن يروه حيا ثم يدفنوه فى الأرض. (وهذه حكاية عن معنى الخطاب، وليست عن ألفاظه).

وهذه المعارضة كانت من قبل الديوبنديين، والخطيب أيضا كان ينتمى إليهم فقد ظهر صدى لهذا الخطاب فى أقطار باكستان الأخرى، وحاول الناس مقاطعة مثل هؤلاء الخطباء. وقد وصل تأثير الخطاب المذكور إلى الهند أيضا، فقد نشر فى مجلة دار العلوم فى ديوبند مقال للشيخ زاهد الحسينى بتعليق من السيد الشيخ محمد أنظر، ولكنهما لا يتضمنان شيئا جديدا، بل عرض الكاتبان وجهة نظر البريلويين بنوع من الشرح والتفصيل، وأسلوب الاستدلال أيضا يشبه أسلوب

البريلوية ، إلا أنهما قد اهتما بشرح المسألة ولم يتعرضا للشخصيات ، وهذا هو المطلوب والمأمول من العلماء .

ومهما كانت الأدلة من الجودة والرداءة ولكن جذور المقال تصل إلى باكستان ، ثم انه نشر فى مجلة مدرسة مركزية لأهل ديوبند . والمقال ينم عن أن عقلاء باكستان استخدموا كبار مركزهم للصالح المحلية ، وهؤلاء الكبار قد نزلوا عند رغبتهم دون تحقيق وتبيين ، وهذا الاختلاف ينفع طبقة البريلوية ، ومن هنا يجب توضيح هذه المسألة .

وكاتب هذه السطور لايعرف شخصيا الشيخ محمد أنظر ولا الشيخ زاهد الحسينى ، ولذا أعتذر عن هذه المخاطبة وآمل أن المناقشة لا تتعدى حدود الموضوع . وما توفيق إلا بالله .

ولعل أكابر الهند لايفهمون نشاط البريلوية بعد نشأة باكستان وانتشار القاديانيـة والرفض ، وكذلك الآثار التى ترتبت على ذلك والعراقيل التى تعترض سبيل الدعاة الموحدين فى هذه البيئة .

ان أكابر ديوبنـد فى باكستان يتشبثون بالمصالح والمتطلبات الراهنة يوما بعد يوم ، وتؤثر جرائيم « الطرقيـة » فى هذه البيئة . ولايفهم هذا الوضع إلا من عرف هذا الجو . ولذا يحسن أن لايتدخل فى هذه الأوضاع من يعيش على بعد عنها . وإننا نعرف التوافق

الذى يوجد عند حكومة باكستان وعند أهل الأهواء فيها . والقضاء على ذلك لايتم بمراعاة المصالح ولا بكراسى التدريس ، إن هذه الفتنة الشعبية يخشى أن تقضى على الدعاة أنفسهم .

وتثار هذه المسألة الآن بحيث تنفتح بها كثير من أبواب البدع الشركية ، ولذا يحسن أن نلقى نظرة على الحركة الاصلاحية التى قامت للقضاء على هذه البدع ، فإن ذلك يوضح خلفية هذه المسألة ولو طال البحث قليلا .

تطور الحركات الاصلاحية :

كانت قوى الطواغيت جد قوية منـــذ القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر الهجرى ، ولكن الرحمة الربانية أيضا عمت وشملت ، فمنح الله تعـالى جماعة رزينة من المصلحين همة العمل فى هذه الفترة ، فظهرت جماعات نشيطة من المصلحين فى أطراف العالم . ومع اختلاف آثار ونتائج الانتصار والانهزام نحمد الله تعالى على أنه وفق هذه الجماعات لأن تترك آثارا قوية ثابتة فى العالم بصبرهم وعزيمتهم ، ذلك فضل الله تعالى : ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون[1]﴾ .

فقد بذل كل من شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب والأسرة السعودية فى نجد ، والشيخ جمال الدين الأفغـانى وتلاميذه فى إيران

---

(١) المطففين : ٢٦

وأفغانستان ومصر وسوريا[١]، ومجدد الألف الثانى، والشاه ولى الله وأسرته وتلاميذه فى الهند، جهودهم فى أوساطهم، وكتب الله لهم النجاح حسب سعيهم. وتجلى مظهر نجاح الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى المجال العلمى والسياسى. وقد نجح الشيخ جمال الدين فى اعداد جماعة من العلماء المخلصين أصحاب المواهب الذين جعلوا بجهودهم مصر والشام مهدا للعلم والاصلاح، وأثروا فى الأفكار والأذهان، وجهودهم أقامت فى مواجهة الخطط الأوربية المادية سدودا عجزت قوى الشيطان عبورها.

والجهود التى بدأها مجدد الوقت الشيخ جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده لها تأثير قوى فى استقلال مصر وسوريا وحركاتهما الدينية. وقد واصل الجهد فى نفس الطريق السيد رشيد رضا والعلامة المراغى وسعد زغلول والأمير شكيب أرسلان وغيرهم من النابهين، وأحرزوا النجاح إلى حد كبير.

---

(١) منهج الشيخ جمال الدين الأفغانى وأتباعه صار الآن موضع نقاش طويل بين العلماء والباحثين، وقد برهن بعض الكتاب على عدم إخلاصه للاسلام والمسلمين، ولذا يحسن أن يرجع القارىء إلى ما كتب عن منهج الأفغانى فى الاصلاح وعن مدرسته وآثارها. وللمؤلف رحمه الله عذره فى عدم توفر المراجع وعدم وضوح الرؤية فى ذلك الوقت. (المترجم).

حركة الهند الجديدة :

وحركة الاحياء والتجديد فى الهند ، التى ابتدأت بيد السيد أحمد السرهندى ، وأتمها الشاه اسماعيل الشهيد والسيد أحمد الشهيد وأتباعهما ، كانت فى بدايتها علمية اصلاحية ، ولكن تواطئو علماء السوء مع الانجليز قد دفعهما إلى السياسة ، واضطر حمق السيخ جماعة المتقين هذه لاقتحام نار الحرب وتضحية نفوسهم الغالية فى سبيل الحق .

ولعل مداد الفتاوى المضلة كان قد شوه وجه الملة تشويها لا تزول آثاره إلا بدماء الشهداء ، وكانت تهمة الوهابية المستعارة قد شلت الأذهان ، وتراكم عليهم غبار الالحاد تراكما لم ينفع فى إزالته إلا دماء الشهداء .

ففى صباح من شهر مايو (١٨٣١م) نزلت هذه الجماعة بكل جهدها وعتادها فى ساحة بالاكوث ، وقبل أن تزول الشمس أثبتت آثارها الدائمة لصدقهم واخلاصهم فى صفحات التأريخ وأخلدت إلى النوم الأبدى : ﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء عند ربهم يرزقون[١]﴾ .

طبيعة الحركة :

قبل الخوض فى مسألة حياة النبى ﷺ يجب أن نحاول فهم اتجاه الحركة وطبيعتها .

---

(١) البقرة : ١٥٤

كان المصلحون العظام من عصر المجدد السرهندى إلى عصر الشاه ولى الله وأبنائه يتبعون الفقه الحنفى فى الأعمال الظاهرة، ولكنهم كانوا يهدفون من الناحية الفكرية إلى تحقيق أهداف ثلاثة:

١ – تعديل واصلاح اتجاه التصوف الغالى.

٢ – اصلاح الجمود الفقهى والعقدى، وإزالة العراقيل التى خلقها فقه العراق مع الأشعرية والماتريدية فى سبيل التحقيق والاستنباط وابعاد الحواجز التى قامت فى سبيل الفكر والنظر بسبب الجمود والاستكانة، وتوفير الحرية الفكرية والنظرية على ميزان الكتاب والسنة وأئمة السلف رحمهم الله تعالى.

٣ – مقاومة البدع والعادات، التى حلت محل السنن بسبب ابتعاد المسلمين عن العمل أو اساءتهم إلى جوانب السلوك، وحصل لها التشجيع بجوار الوثنيين وبمغالاة ملوك المغول فى اتباع الهوى وعيشة الترف.

أى تغيير هذه الأوضاع الفاسدة رأسا على عقب، واحلال الإسلام الصافى النقى محلها: تركتكم على ملة بيضاء ليلها كنهارها[١].

---

(١) جزء من حديث مرفوع صحيح ورد من حديث العرباض بن سارية، وأبى الدرداء عند أحمد ١٢٦/٤، وابن ماجه ١٦،٤/١، والسنة لابن أبى عاصم ٢٦/١، ٢٧، والحاكم ٩٦/١

وإنى لا أريد هنا التفصيل ولا تضييع الوقت بذكر الشواهد من تصانيفهم ، بل أود أن ألفت الأنظار إلى أمور عديدة فحسب :

إن المجدد السرهندى كان قد انتقد فى رسائله البدع أشد النقد ، وانه لما أحس أن تقسيم البدعة إلى الحسنة والسيئة ينفع المبتدعين فى سبيل الحفاظ على البدع عارض هذا التقسيم بقوة ، منذ أن دل عليه العز بن عبد السلام ، وكان فى موقفه هذا فريدا فى الهند .

وإنه قد تحمل أذى الحبس فى قلعة كواليار لمدة ثلاث سنوات ، ولكن لم يلطخ جبينه برجس سجود التعظيم . وكانت له ترجيحات فى المسائل الفقهية ، وإنه قد أبى أن يسلك سبيل المتقدمين والمتأخرين رجما بالغيب ، مع معارضة العلماء له .

والشاهد الحى لذلك تلميذه الرشيد المرزا مظهر جان جانان رحمه الله ، الذى اختار سبيل فقهاء المحدثين فى قراءة الفاتحة خلف الامام ورفع اليدين عند الركوع و وضع اليدين على الصدر وغير ذلك من المسائل الشهيرة ، ورفض المطابقة الكلية مع فقه العراق[1] .

وقد استفاد الشيخ القاضى ثناء الله البانى بتى رحمه الله من المرزا مظهر جان جانان ومن الشاه ولى الله ، ويشهد كتاب إرشاد الطالبين والتفسير المظهرى من مؤلفاته أن موقفه كان صارما

(١) أبجد العلوم ٩٠٠/٣ ، ومحبوب العارفين ص ٧٦

ضد البدع وعباد القبور، وإنه مع كونه حنفيا كره العادات البدعية أشد الكراهية.

وقد وقف الشاه ولى الله فى مؤلفاته حجة الله البالغة والبلاغ المبين والمصفى والمسوى والانصاف وعقد الجيد وتحفة الموحدين، من الجمود الفقهى والبدع والعادات الشركية موقفا حكيما وضح الحقائق توضيحا كبيرا، وانتقد بعض مسلمات أصول الفقه انتقادا رزينا قد شجع النابهين. وقد فضح فى إزالة الخفاء بدعة التشيع بطريقة سدت باب خدع العقلاء باسم حب أهل البيت.

وأظن أن هذه الاشارات الموجزة تكفى لتوضيح طبيعة هذه الحركة التى هدفت للإصلاح وإقامة الدين.

أهل ديوبند وأهل الحديث:

هاتان المدرستان تتبعان من الناحية الفكرية الحركة المذكورة وتمثلان عنها أو تدعيان انضمامهما إليها. وكلام الشاه ولى الله الآتى يوضح كل التوضيح اتجاه هذه الحركة وطبيعتها:

«وصية هذا الفقير الأولى هى الاعتصام بالكتاب والسنة فى العقيدة والعمل، والاشتغال الدائم بتوجيهاتهما، وقراءة جزء منهما كل يوم، وإن لم يستطع القراءة فاستماع ترجمة ورقة منهما، واختيار مذهب قدماء أهل السنة فى العقائد، والاعراض عن التفصيل والبحث

اللذين أعرض عنهما السلف ، ونبذ تشكيكات أهل المعقول الزائفة ، واتباع العلماء المحدثين فى الفروع الذين جمعوا بين الفقه والحديث ، وعرض التفريعات الفقهية دائما على الكتاب والسنة ، ثم قبول ما وافقهما ونبذ ما خالفهما ، فإن الأمة لا تستغنى أبدا عن عرض المجتهدات على الكتاب والسنة ، وعدم الاستماع إلى قول المتقشفين من الفقهاء الذين تشبثوا بتقليد عالم وتركوا تتبع السنة ، وعدم الالتفات إليهم ، وطلب قرب الله تعالى بالابتعاد عنهم[1] » .

ويقول فى موضع آخر : « انتساب الصوفية غنيمة كبرى ، ورسومهم لا تليق بشىء ، وهذا القول يثقل على كثير ، ولكنى أقول ما كلفت به ولا ألتفت إلى قول زيد وعمرو » .

ويقول أيضا : « نحن لا نرضى بهؤلاء الذين يبايعون الناس ليشتروا به ثمنا قليلا أو ليشتروا أغراض الدنيا بتعلم علم ، إذ لا تحصل الدنيا إلا بالتشبه بأهل الهداية . ولا بالذين يدعون إلى أنفسهم ويأمرون بحب أنفسهم ، هؤلاء قطاع الطريق ، دجالون كذابون مفتونون فتانون ، إياكم وإياهم ، ولا تتبعوا إلا من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله[2] » .

---

(١) التفهيمات الالهية ٢٤٠/٢

(٢) أيضا ٢١٤/١

والظاهر أن الشاه ولى الله يكره التصوف المشوب بالرياء، وسلاسل البيعة لكسب الدنيا، ويرى الذين يفعلون ذلك دجالين فتانين، فأى قيمة عنده لنظام الخوانق اليوم ولمؤسسات عبادة المرشدين، حينما يكره الدعوة إلى عبادة المرشدين ألبتة.

أما نظرته إلى المذاهب الفقهية السائدة وإلى الجمود عليها فتتضح بما يأتى:

«رب انسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به ويقول إنما عملى على مذهب فلان لا على الحديث، ثم احتال بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن الكمل المهرة، وإن أئمته لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث فما تركوا إلا لوجه ظهر لهم فى الدين من نسخ أو مرجوحية.

وليس ذلك من الدين، والايمان بالرسول يوجب اتباعه سواء كان مخالفا للمذهب أو موافقا، وارادة الله تعالى هى التعلق بالكتاب والسنة[1].

والشاه ولى الله يكره بشدة الجمود المذهبى فى الفروع الفقهية، وكذلك يكره الظاهرية المحضة (أى مذهب الامام داود الظاهرى) ويقول:

«من الضلال البعيد ترك العمل بحديث صح بشهادة أئمة الحديث

(١) التفهيمات الالهية ٢١٤/١.

وعمل به أهل العلم، بحجة أن الإمام الفلانى لم يعمل به[1].

ومثل هذه الأقوال توجد بكثرة فى مؤلفات الشاه ولى الله الأخرى أيضا، وإنى قد أطلت فى هذا المقام حتى يُعرف اتجاه هذه الحركة، وبالتالى آثارها طوال القرنين.

ولو وُجد فى مؤلفات هؤلاء الصالحين شىء يعارض الأهداف المذكورة لوجب حمله على معنى يلائم أهداف الحركة بحجة أنهم نظروا إلى المصالح الوقتية، فإنهم قد مارسوا نشاطهم فى ظروف صعبة كانت تتغير فيها المصالح والمقتضيات، ونحن لا نستطيع أن نتصور تلك الصعوبات التى واجهتهم، شكر الله مساعيهم.

موقف الشاه ولى الله الدهلوى:

ويعتبر الشاه ولى الله نقطة اتصال فى هذه الحركة، فإنه قد تأثر تماما بالجهود العلمية للمجدد السرهندى وتلاميذه وأتباعه، ثم إنه أتاح لأبنائه وأتباعه فرصة الاستفادة من هذه الفوائد، ولذلك عرضت موقفه بنوع من التفصيل.

مسألة حياة النبى ﷺ:

وما قاله كاتب بمجلة «دار العلوم» فى مقاله عن مسألة حياة النبى ﷺ فإنه لم يرد فيه التصريح بالحياة الدنيوية إلا لدى أكابر ديوبند بعد

(١) التفهيمات الإلهية ٢٠٩/١، ٢١١/٢

الشيخ عبد الحق الدهلوى، نعم قد ألف الحافظ البيهقى والسيوطى فى هذا الموضوع رسائل مستقلة قبل الشيخ عبد الحق، ولكن الأسف أنهما لم ينقحا الموضوع، و يبدو أنهما قد جمعا ذخيرة ليست متأكدة لديهما، إنهما يثبتان الحياة ولكن لا يحددان نوعيتها.

ولم يرد فى رسالة السيوطى ذكر الحياة الدنيوية إلا عند السبكى، بل يبدو فى بعض المواضع أن السيوطى يميل إلى الحياة البرزخية، ولكنه لم يستطع مع جهده البالغ أن يوفق بين قوله تعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون[1]﴾، وبين حديثى «فيرد الله على روحى[2]»، و «الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون[3]».

ثم إن السيوطى كحاطب ليل قد جمع ذخيرة غير موثوق بها قد تساعد القبوريين وتورث الشبهة فى قلوب الموحدين السذج.

وهكذا حال كتاب الروح للحافظ ابن القيم، ونحن لا نخشى على فحول أهل الحديث والرجال المهرة من مثل هذه الأشياء، ولكنها تكون مزلة الأقدام للعامة بدون شك.

---

(١) الزمر: ٣٠

(٢) رواه أحمد ٥٢٧/٢، وأبوداود ٥٣٤/٢، وحسنه الألبانى.

(٣) رواه ابن عدى فى الكامل ٧٣٩/٢، وفى إسناده ضعيفان، وانظر: أيضا الميزان ٤٦٠/١

كيف يحسم النزاع؟

وينبغى لحسم النزاع أن يحاول المتصلون بالشاه ولى الله والمعتقدون فى أسرته فهم هذه المسألة فى ضوء اتجاه الحركة. فإن كان القصد فهم هذه المسألة باتباع الأكابر وتقليدهم، وإن تقرر صرف النظر عن الكتاب والسنة والبحث والاستدلال . . . فلماذا لا يستفاد بنظريات أكابر الأكابر ومؤسسى الحركة؟ وإن رأينا أن رأى الشيخ حسين أحمد والشيخ محمد قاسم حاسم فلماذا لا نحكّم مؤسسى الحركة ومدارجها فى هذه المسألة؟

الشاه محمد اسماعيل رحمه الله:

إن عبقرية الشاه محمد اسماعيل وشهادته قد حول الحركة بتمامها من عالم النظريات والتصورات إلى ميدان العمل، وحل التصريح مكان التعريض والاشارة، وقد وضع على رأس الثمام كل ما انطوت عليه أوراق الكتب والمؤلفات. وقد برهن المجاهدون أمام السيخ على أن معانى الحق والصدق والايثار والتضحية لا تتجلى بالمناظرة والحوار فقط، بل من أكبر وسائل ظهورها السيف وساحة الحرب أيضا. وإن مداد القلم يفصح عن كثير، ولكن قطرات الدماء تملك قوة أكبر للتعبير والتوضيح. وإن أصحاب التدريس والتأليف لا يستطيعون التأثير فى القلوب والأفكار، مثلما يستطيع أصحاب السيف والسنان،

خبراء ساحة الحرب والنضال .

وقد ألف الشاه محمد اسماعيل قبل استشهاده كتابه «تقوية الايمان» لنشر أهداف الحركة ونشره بمشورة أصحابه ، وكذلك جمع مسودة تذكير الاخوان ، ورد على المعترضين ، لتأييد الحركة وتدعيمها . فلو قال اليوم أكابر ديوبند وعلماء أهل الحديث قولا يعارض اتجاه الحركة فلا يلتفت إليه .

موقف ثالث :

وبينما قدم الشاه ولى الله تضحيات جسيمة فى سبيل حركة احياء السنة وتجديد الدين ، ظهرت حركة معارضة لهذه الجهود ، واحتالت للبحث عن الأدلة التى تبرر البدع وسوء تصرفات العامة . ولا شك أن البدعة وجدت فى كل عصر ، وتغيرت أشكالها بتغير الأحوال ، ولكن لم ينتظم وجودها قط ، وكانت البدع منتشرة فى عهد المغول ، ولكن لم تسخر جهود العلماء لتبريرها .

وبعد سقوط المغول حاول كل من السيخ والمراهتا والانجليز وأهل التوحيد الوصول إلى السلطة . ولما انهزم جيش الموحدين سياسيا انجمد المبتدعون وسكتوا ، ولكن الباطل تسلم زمام السلطة . وأحس فى معركة التحرير عام ١٨٥٧ م ، أن الوصول إلى السلطة وطمأنة المسلمين لا تتيسر إلا بجهود العلماء . وكما قيل : من جد وجد ، ظفر الباطل بأهل علم صلح بهم أمر الانجليز . والجدير بالذكر هنا أن

حركة التوحيد كانت قد نشأت على يد فقير من مدينة رائى بريلى، بينما ظهرت موجة الشرك والبدع وانتشرت بجهود أسرة من مدينة بانس بريلى.

فقد ولد المولوى أحمد رضا خان عام ١٢٧٢هـ فى أسرة عرفت بالاشتغال بالدراسة والتعليم، ولما بلغ سن الرشد جلس باذن والده عام ١٢٨٢هـ على كرسى الافتاء.

وما لبث أن بدأ يؤيد البدع ويحمى الشرك، فوقف حياته للاستدلال على الشرك ولتنظيم صفوف المبتدعين، وحاول أن يجد دليلا لجميع ما يوجد فى العامة من سوء العمل والابتداع الشنيع، وشجع العامة على المعاصى وحاول أن يجعل كل بدعة حلالا.

ولو نظرنا إلى مؤلفات أحمد رضا خان لوجدنا أنها تهدف إلى الفساد فى سبيل الله، ولا نجد منها مؤلفا يهدف إلى تغيير حالة المسلمين من الناحية الدينية أو السياسية أو الاقتصادية، وإنه لم يساهم مدة عمره فى حركة سياسية أو علمية، نعم كتاباته قد كفّرت ألوفا من المسلمين، وكانت يد الانجليز العطوف تؤيد وتنصر المولوى أحمد رضا خان فى جميع هذه الجهود.

فشل الحركة المعارضة للتوحيد:

والحقيقة أن حركة أحمد رضا خان كانت فى مواجهة مباشرة مع الكتاب والسنة، وفى محاربة مع مجاهدى الاسلام وشهداء الحق.

وكان شهداء بالاكوت هدفا لتكفيرها، وكان الشغل الشاغل لأتبـاع هذه الحركة هو الرد على الكتب مثل تقوية الايمان ونصيحة المسلمين وطريق السنة (راه سنت) وكتاب التوحيد، بل كانوا يردون أحيانا على الأجزاء الأساسية للقرآن الكريم.

والذين كانوا فى مواجهتهم هم أكابر أوليـاء الله الذين نذروا حياتهم لنشر الكتـاب والسنة ولإحياء روح الجهاد فى المسلمين. ومن الظاهر أن المعارضين لهذه النفوس الطاهرة كيف يسعدون بنصر الله تعالى، فقد قال الرسول ﷺ: «من عادى لى وليـا فقد آذنته بالحرب» (مشكاة[1]).

وحقا قد أخذت هذه الحركة بسخط من الله تعالى، فظهرت فيها ميزات وخصائص أبعدتها عن النجاح والفوز. وهذه الخصائص كما يلى:

١ — بغض أهل الحق والتقوى.

٢ — السب والشتم.

٣ — تكفير المسلمين.

٤ — الاهتمام بأمور غير ضرورية، مثل أن النبى ﷺ لايزال يحيى الحياة الدنيوية، وغير ذلك.

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق ٣٤٠/١١ مع الفتح

٥ – إن الرسول ﷺ حاضر وموجود فى كل مكان.

٦ – إن الله تعالى قد أعطى جميع قدراته وخصائصه عباده، أى جميع أولياء الله آلهة وهبية (معاذ الله).

٧ – إن جميع الزعماء السياسيين والجماعات السياسية كافرة مرتدة[1].

والوقائع تشهد أن هؤلاء يسيرون على خطى الفرقة الباطنية، وقد أقلقتهم نهضة التوحيد والسنة وغمرهم اليأس. واساءتهم إلى مثل الشاه محمد اسماعيل الشهيد وغيره من الشهداء والصلحاء قد أدى إلى أن سلب منهم العلم وقل فيهم أهل العلم والفهم، ولم يبق لهم اتصال إلا مع الجهال، وليس لهم هم إلا فوضى العامة وافساد الأشرار وشغلهم الشاغل فى باكستان هو احتلال مساجد أهل التوحيد والهجوم المميت على الأشراف وكسب القضايا فى المحاكم برشاوى وتوصيات مجاورى التكايا والخوانق وما إلى ذلك. وأكابر هذه الفرقة يتحرزون من مشاركة العامة فى الأمور المشتركة، ومن الاجتماع بهم فى منصات الاجتماعات، ومن الدخول معهم فى المفاوضات، ومن حل الأمور المتنازع فيها، وعامتهم مصابون بمركب النقص و يختارون طريق «اللامساس».

---

(١) ينظر: الفتاوى الرضوية ومؤلفات البريلويين الأخرى.

وأسأل الله تعـــالى التوفيق لإصلاح ذات البين حتى تجتمع الجماعات المختلفة فى الآراء والأفكار وتحاول حل أمورها ومنازعتها بالعدل والصلح. ولكن المؤسف أن هذه الفرقة ترى الفساد متاعا لحياتها مثل الفرقة الباطنية.

محل النزاع:

لم يتم تعيين محـــل النزاع فى كل ما كتب فى هذا الموضوع من عصر الإمام البيهقى رحمه الله تعالى إلى الآن، وقد جمع الإمام البيهقى مثل أئمة الحديث المواد فى هذا الموضوع، وقـــد استفاد الحافظ السيوطى من كتـــاب الروح وحياة الأنبيـــاء، وقام بتوجيه بعض الأحاديث أيضا، ولا نعرف كيف أن السيوطى فاته الالتفـــات إلى القصيدة النونية بعد أن استفاد من كتـــاب الروح؟ مع أن الحافظ ابن القيم قد نقح هذا الموضوع جيدا فى القصيدة المذكورة.

أهل الحديث والفقهاء:

قد اتفقت مدرستـا أهل السنة، أصحاب الرأى وأهل الحديث، على أن الشهداء والأنبياء أحياء، وهم يعبدون ويسبحون ويهللون فى البرزخ، ويرزقون حسب أحوالهم وحاجاتهم. وقـــد ورد التصريح بحياة الشهداء فى القرآن الكريم، ونجد الشواهد فى السنة على حيـاة الأنبياء، وقد وردت أحاديث صحيحة عن عبادة الأنبياء عليهم السلام.

والخطباء الذين يلقون خطبهم حول التوحيد فى باكستان يقومون بالأسفار طوال الشهور لإصلاح العقيدة، وعقائدهم سليمة حول حياة الأنبياء والشهداء فى البرزخ وحول تفاوت مراتب هذه الحياة.

والذى يؤمن بعذاب القبر ونعيمه فى ضوء الأحاديث الصحيحة، كيف يقول عن هؤلاء الصلحاء بالعدم المحض والفقدان الصرف؟ نعم تفاوت المراتب أمر يقينى، فمنزلة الأنبياء لابد أن تكون أعلى وأرفع من الشهداء.

والبحث فى أن هذه الحياة هل هى حياة دنيوية، ومقتضى لوازم الحياة الدنيوية وتكاليفها؟ أم هى نتيجة التكاليف الشرعية؟

ونحن نختلف فى الواقع مع الذين يقولون بالحياة الدنيوية، وفى السطور التالية نناقش آراء الشيخ أنظار والشيخ محمد زاهد بناء على هذا المعنى.

أما سلامة جسد النبى ﷺ الشريف وعدم تأثره بالتراب فأمر لا خلاف فيه، وكذلك ليس النزاع فى كل ما ثبت فى الكتاب والسنة بصراحة ونطقت به الأحاديث الصحيحة.

عقيدة البريلوية عن حياة النبى ﷺ:

ونحن نشكر المولوى أحمد رضا خان فى هذا الأمر فإنه قد عرض الموضوع بوضوح، فبصرف النظر عن وجود الدليل وعدمه

إنه قد قال قولا حاسما فى هذا الموضوع ، يقول :

« فإنهم (الأنبياء) صلوات الله تعالى وسلامه عليهم طيبون طاهرون أحياء وأمواتا ، بل لا موت لهم إلا آنيا تصديقا للوعد ، ثم هم أحياء أبدا بحياة حقيقية دنياوية روحانية وجسمانية ، كما هو معتقد أهل السنة والجماعة (البريلوية) ولذا لا يورثون ويمتنع تزوج نسائهم، صلوات الله وسلامه عليهم، بخلاف الشهداء الذين نص الكتاب العزيز أنهم أحياء ونهى أن يقال لهم أموات[1]» .

ومثل هذا التصريح يوجد فى الفتاوى الرضوية فى موضع آخر أيضا[2].

موافقة الديوبنديين للبريلويين :

يقول الشيخ حسين أحمد فى رسائله :

« ليست حياة النبى ﷺ روحانية فحسب ، مثل التى للشهداء ، بل هى جسمانية أيضا ومن قبيل الحياة الدنيوية ، بل أقوى منها بوجوه[3]» .

وقد بلغنا أن الشيخ محمد قاسم النانوتوى وغيره من أكابر

---

(١) الفتاوى الرضوية ٦١٠/١

(٢) أيضا ٦١١/١

(٣) مكاتيب ١٣٠/١

ديوبند أيضا قد قالوا بمثل هذه الحياة. وقد اعترف الشيخ عبد الحق (م — ١٠٥٢ هـ) أيضا فى مدارج النبوة بالحيـاة الدنيوية، وحكى الحافظ السيوطى والسبكى أيضا كلمات مثل ذلك، ولكن لم يرد تصريح بمثل ذلك عن عامة الفقهاء والمحـدثين والحنفية والشافعية والمالكية والحنـابلة، رحمهم الله تعـالى، وكذلك صرح بخلاف ذلك الشيخ حسين على رحمه الله، من علماء ديوبند، وتلميذه المولوى نصير الدين وغيره.

نقـاط للنظر والتدبر:

١ — القول بالحياة الدنيوية لم يصرح به نحو عشرة من أفراد الأمة، فلا يليق بأهل العلم أن يصفوه بأنه عقيدة جماعية.

٢ — ولا يصح وصفه بالمتواتر أيضـا، لأنه لا يوجد فيه شرط من شروط التواتر، ولابد فى التواتر من لزوم إدراك الحواس على الأقل، والحيـاة التى يصفها القرآن بأنها خارجة من الشعور كيف يتحقق فيها إدراك الحواس واستخدامها؟

٣ — إن الحركة الإصلاحية التى رُميتم بالوهابية بسبب الانتماء إليها، طبيعتها تأبى القول بسماع الموتى، فكيف تسع القول بالحيـاة الدنيوية؟ وقد عرف الشيخ حسين على رحمه الله، وجمعية أهل الحديث كلها مقتضى الكتاب والسنة ومقتضى هذه الحركة المقدسة،

ولذا رفضوا تلك « الأوهام الالهامية ».

٤ — قد جعل المولوى أحمد رضا خان والشيخ حسين أحمد رحمه الله حياة الأنبياء متميزة عن حياة الشهداء المنصوص عليها ، بأن حياة الأنبياء أقوى ، ولكن لايصح جعلُ الشهداء مقيسا عليهم هكذا ثم إثبات حياة الأنبياء ، فإن قياس الأقوى على الأضعف معارض لتصريحات الأصول .

٥ — إن كانت علة تحريم نكاح الأزواج وتقسيم تركتهم هى الحياة الدنيوية فى الواقع ، فينبغى أن يكون نفس هذا الحكم لأزواج الشهداء وتركتهم ، ولكن صرح أحمد رضا خان وحسين أحمد بخلاف ذلك ، ولذا لاينبغى جعل آيات سورة البقرة وآل عمران[1] أساسا لحياة الأنبياء .

٦ — لايصح وصف مثل تلك الأوهام بأنها عقيدة ، فلم يرد ذكرها فى كتب العقائد مثل شرح العقائد النسفية والعقيدة الطحاوية وشرح العقيدة الأصفهانية والعقيدة الصابونية وغيرها ، مع أن

---

(١) آية البقرة : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون ـ ١٥٤ ﴾ ، آية آل عمران : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ـ ١٦٩ ﴾ .

كون جميع محتويات كتب العقائد عقيدة مستقلة أمر فيه نظر، فالعقيدة فى حاجة إلى أدلة قطعية كما صرح به المتكلمون والأشاعرة والماتريدية. وأحاديث حياة الأنبياء أقل منزلة من أخبار الآحاد الصحيحة من ناحية الإسناد، كما لا يخفى على من له نظر فى فن الرجال.

٧ — كان عمر بعض أمهات المؤمنين عند وفاة النبى ﷺ أقل جدا، ففتح أحمد رضا خان طريق الجماع أيضا مع إثبات الحياة الدنيوية لأهل الله[١]، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وأكابر ديوبند يقولون بالحياة فقط ويرون أن الحياة تكفى عقلا، مع أن الحياة وحدها لا تكفى لحقوق الزوجية، أفلم يكن الابتعاد عن مثل هذا الاستدلال المضحك أنسب؟

٨ — لا نعلم حقيقة الموت الكاملة، والظاهر أنه اسم لفوت الجسم وانفصال الروح، وكما نعلم أن الشريعة رتبت على ذلك أحكام العدة وتقسيم الميراث، ويقول أهل السنة بالاتصال بين الجسم والروح بعد الموت اتصالا غير شعورى، فلامجال للعدم المحض والفقدان الكلى، وعلى هذا لا حاجة إلى الجزء الأخير لكتابة الشيخ محمد زاهد، فإن أهل التوحيد فى باكستان لا يقولون

---

(١) ملفوظات ٣/٣٦

بقسم جديد للموت فى حق الأنبياء عليهم السلام .

٩ – والقول بالحياة الدنيوية لا يحل مشكلة عقلية ألبتة ، ولكن تقوم بذلك عشرات من المشكلات التى يتعذر حلها .

فالعقلاء يسألون القائلين بالحياة الدنيوية عن حكمة ستر النبى ﷺ الحى وراء الجدار وعن فائدة ذلك .

وكيف أن أبا بكر جلس فى مجلس الخلافة فى حياة النبى ﷺ ؟

ولماذا طلبت فاطمة رضى الله عنها ميراث أبيها ؟ ألم تعلم أن هذه المطالبة لا تجوز فى حياة الوالد ؟

وقد طمأنها أبوبكر بقول النبى ﷺ : نحن معاشر الأنبياء الخ ، ولماذا لم يقل إن هذه المطالبة قبل أوانها ؟

والصحابة رضى الله عنهم لم يرجعوا إلى النبى ﷺ فى فتنة الارتداد وغيرها ، ولا أشار النبى ﷺ عليهم بما ينفع ، مع أن الطرفين كانا يرجعان ، بعضهم إلى البعض ، فى حياة النبى ﷺ . وما أحسن ما قال الحافظ ابن القيم رحمه الله :

لوكان حيا فى الضريح حياته	قبل الممات بغير ما فرقان
ما كان تحت الأرض بل من فو	قها والله هذا سنة الرحمان
أتراه تحت الأرض حيا ثم لا	يفتيهم بشرائع الايمان

ويريح أمته من الآراء والـ ـخلف العظيم وسائر البهتان
أم كان حيا عاجزا عن نطقه وعن الجواب لسائل لهفان
وعن الحراك فما الحياة اللات قد أثبتموها أوضحوا ببيان[١]

وهكذا ترد مئات الأسئلة العقلية إذا قلتم بالحياة الدنيوية، ويصبح التأريخ الإسلامى معمعة.

أفلم تكن حاجة لتدخل الرسول ﷺ فى مثل أحداث: شهادة الحسين، وصلح الحسن، وخداع مختار بن عبيد الثقفى، وفتنة الحرة، وادعاء مسيلمة وأسود للنبوة، وظلم الحجاج بن يوسف الثقفى، وثورة العباسيين، وسقوط بغداد، وظلم الأتراك، وتنبؤ القاديانى وغيره من الحوادث؟

إن النبى ﷺ الذى قد حزن لموت خادم المسجد وصلى على قبره، لماذا لم يأت ولو معزّيا لدى استشهاد عمر وعثمان وعلى؟

جدير بالعاقل أن يسأل: لماذا كان هذا؟ وحق لابن القيم أن يغلظ القول لمن زعم الحياة الدنيوية للنبى ﷺ، يقول:

يا قومنا استحيوا من العقلاء والمبعوث بالقرآن والرحمان
والله لا قدر الرسول عرفتم كلا ولا للنفس والانسان

---

(١) القصيدة النونية ص ١٤١، طبعة مصر.

من كان هذا القدر مبلغ علمه فليستتر بالصمت والكتمان

ولقد أبان الله أن رسوله ميت كما قد جاء فى القرآن[1]

حياة الأنبياء الدنيوية مذهب أهل البدعة :

ويتضح من كلام ابن القيم أن القول بالحياة الدنيوية هو مذهب أهل البدعة والمعطلة ، يقول :

إنا تحملنا الشهادة بالذى قلتم نؤديها لدى الرحمان

ما عندكم فى الأرض قرآن كلا م الله حقا يا أولى العدوان

كلا ولا فوق السماوات العلى رب يطاع بواجب الشكران

كلا ولا فى القبر أيضا عندكم من مرسل والله عند لسان

ولا عجب من أحمد رضا خان إذا قال قولا فيه الزيغ والضلال ، ولكن العجب من أهل التوحيد ومدرسى الحديث أنهم يقولون مثل هذا القول ! !

هل الموت مهانة ومذلة للأنبياء ؟

لا نستطيع أن نفهم أن الناس لماذا يتوحشون من الموت إذا طرأ على الأنبياء وأهل الله ؟ ان الموت ليس شيئا قبيحا ، وللحياة مراتب ، فإنها تبدأ بالنطفة وتنتهى بقبض الروح بعد مرورها

(١) القصيدة النونية ص ١٤٢

بالطفولة والصبا والمراهقة والشباب والكهولة والشيخوخة ، وفى ذلك ما يكره ويحب ، ولكن على كل من الأنبياء والصلحاء وأهل الله أن يمروا بهذه المراحل ، ولذا ليست مرحلة من هذه المراحل مستعذبة لأحد ولا مهينة له ، والحياة عبارة عن هذه المراحل . قال الله تعالى: ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا[١]﴾ .

فالموت جسر يصل به المرء من الحياة الدنيوية إلى الآخرة ، وليس فيه مذلة ولا نقص . وإن كان الموت شيئا قبيحا لوجب أن لا يطرأ على الأنبياء والصلحاء ولو لحظة ، وإن كان مرحلة لسفر الآخرة ، فلا داعى لأن يتململ له الانسان ويتلوى، إنه يأتى بالقانون الذى قدر الله تعالى لجميع الخلق .

والنبى صلى الله عليه وسلم كان قد قال لمعاذ : لعلى لا ألقاك بعد عامى هذا[٢].

وقال ﷺ : لامرأة : ان لم تجدينى فأتى أبا بكر[٣].

---

(١) سورة الملك : ٢

(٢) أخرجه أحمد ٢٣٥/٥

(٣) متفق عليه من حديث جبير بن مطعم ، البخارى : فضائل الصحابة ١٧/٧ ، ومسلم فضائل الصحابة ١٨٥٦/٤

ولما نزلت سورة النصر فهم أبوبكر أن النبي ﷺ سوف ينتقل من الدنيـا فبكى، وسمع ذلك النبي ﷺ ولكنه لم يكرهه. وقـد امتلأت كتب التـأريخ والسيرة والسنة بحوادث الموت، فلا ندرى لماذا تقشعر جلودنا بذكره؟ ولماذا يسيطر جو الارتعاش من ديوبند إلى بريلى؟

وهكذا توجد عنـاوين وفاة النبي ﷺ وتجهيزه وتكفينه، فلماذا يستوحش الناس به؟

وقد قصرت بعض أزواج النبي ﷺ شعر رأسها بعـد وفاة النبي ﷺ فلم تبق له حاجة.

وقد حلقت بعضهن الرأس كله لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد ارتحل.

ولنختر أى اسم لهذه الحالة ولكن الحقيقة أن صلة الجسم مع الروح التى كانت فى الدنيا قد انقطعت، وهذا هو الموت، ولامنافاة بينه وبين أحوال البرزخ وحياة القبر، بل إنه وسيلة صحيحة للوصول إلى تلك المرحلة. واوقلتم هل هناك ترادف بين الموت والحياة فى عالم البرزخ؟ فإنى لا أرفض هذا الاعتراض، ولكن انكار الموت من أهل العلم مأساة محزية.

الحقيقة لا تتغير بتغير العنوان :

تغير العنوان والتعبير لا يغير الحقيقة ، ولذا فإن عظم قـدر الشيخ حسين أحمد وغزارة علم الشيخ محمد قاسم النانوتوى و بساطة الشيخ عبد الحق لا تستطيع أن تغير الحقيقة التى أقرها القرآن الكريم فى محكم آياته وأجمع عليها الصحابة وصدقها تأريخ العالم .

والحاصل أنه ليس هناك داع للقلق من الموت ، أو يجب عليكم التصريح بأن الموت شىء قبيح وفيـه مهانة ، وهناك يحق لكم أن تنفوه ، فإن الإساءة إلى النبى ﷺ كفر .

كراهيـة الموت :

ويبين لنا القرآن أن كراهية الموت أمارة الكفر، وكان اليهود والمشركون يكرهون الموت : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة[١] ﴾ .

وفى غزوة أحد كان المنافقون يقلقون من الموت ، يقول تعالى: ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة[٢] ﴾ .

(١) البقرة : ٩٦

(٢) النساء : ٧٨

دعوة النبي ﷺ للمباهلة :

فلماذا يقلق منه الأنبياء عليهم السلام وصلحاء الأمة الذين ينتظرهم مستقبل مزدهر وسعيد، والنبي ﷺ كان قد دعا معارضيه إلى المباهلة، فلو نفينا عنه الموت فإن ذلك يصدق المثل القائل : المدعى متكاسل، والشاهد نشيط .

ومن منزلة أهل التوحيد أنهم راضون بذلك مثل الأنبياء، لا يفرحون بالحياة ولا يخافون الموت، بل يستعدون لكل ما يأتى من الله تعالى.

وما الذى يدعو البريلوى أن يقول بالموت الآنى، إن الموت إن كان منافيا لمنزلة النبوة فلماذا نثبته للرسول ﷺ ولو للحظة؟ وإن لم يكن منافيا فلماذا نحاول تغيير سنة الله تعالى؟

ثم إننا لا نعرف مدى طول هذه اللحظة عند رضا خان البريلوى، فالنبي ﷺ توفى يوم الاثنين ودفن يوم الأربعاء، وأهل البيت قاموا بأمور التكفين والتدفين، والصحابة اتخذوا قرارهم للخلافة فى سقيفة بنى ساعدة، وصلى على النبي ﷺ الملائكة وأكثر من مائة ألف صحابى ولم تنته بعد هذا اللحظة التى أثبتها رضا خان البريلوى، أو إن الملائكة والصحابة لم يشعروا بهذه الحياة الدنيوية للنبي ﷺ، حتى أنهم دفنوه فى اليوم الثالث وهو حيّ، ولم يشعر بهذه الحياة أزواجه ولا بنته فاطمة !! وحق لشيعة « مشهد » أن يسألوكم : إن الذين دفنوا النبي

ﷺ حيا هل كانوا صحابته الصادقين ؟ و يسأل علماء الهيئة : كم ساعة تمتد هذه اللحظة ؟ يا للعقول الطائشة ويا للضحكات !

وقد صدق ابن القيم :

والله ما قدر الرسول عرفتم كلا ولا للنفس و الانسان

تحقيق حياة الشهداء ونوعيتها :

كان الكفار يرون الموت عدما محضا وفقدانا كليا ، والقرآن قد أنكر هذا المعنى الاصطلاحى فى حق الشهداء ، وذلك حق ، ولكنه اعترف بالقتل وهو عبارة عن الانفصال بين الجسم والروح .

وكانوا يرون أن الجزاء لايترتب على الأعمال بعد الموت ، فنفى القرآن هذا المعنى وأعلن للشهداء الرزق والحياة الجديدة بعد الانتقال من هذه الدنيا ، وهذه الحياة تكون مختلفة عن حياة الدنيا حتى إن أهل الدنيا لايستطيعون أن يشعروا بها ، وهذا صحيح جدا ، ولكن لا يمكن أن ننكر الموت بمعنى الانفصال بين الجسم والروح ، إن ذلك غلط محض وانكار للبداهة الحسية .

ثم إن هذه الحياة إن كانت حياة دنيوية فلماذا قال تعالى : ﴿ ولا تشعرون ﴾ ؟ إن الانسان منشغل دائما بتحسين حياته الدنيوية فكيف لايستطيع فهم هذه الحياة ؟ هذه سفسطة لا يتحملها العقل ولا يؤيدها النقل .

وبعد الكلام السابق العام لا تبقى حاجة للكلام على هذا الموضوع بصفة خاصة، فإن الأدلة التى ساقها الشخصان تذهب بعد تحديد محل النزاع، لأنه لم يرد ذكر الحياة الدنيوية ألبتة فى الآيات والأحاديث وأقوال أئمة السلف، وآراء علماء مع كونها محترمة ليست حجة فى الشرع. ولكن مع ذلك ينبغى أن نلقى ضوءا على المتمسكات الضعيفة أيضا.

إن القرآن قد ذكر حياة الشهداء فى سورة البقرة وسورة آل عمران، يقول تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات، بل أحياء ولكن لا تشعرون[١]﴾.

ويقول: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون[٢]﴾.

والآيتان تنصان على حياة الشهداء، ولم ينكر أحد من مذاهب أهل السنة هذه الحياة. يقول الشيخ حسين أحمد: ليست حياته ﷺ روحانية فحسب، التى حصلت لعامة الشهداء، جسمانية أيضا من قبيل الحياة الدنيوية، بل أقوى منها بوجوه[٣].

---

(١) البقرة: ١٥٤

(٢) آل عمران: ١٦٩

(٣) مكاتيب ١٣٠/١، نقلا عن مجلة دار العلوم، عدد نوفمبر ١٩٥٧ م

ومعنى ذلك أن الشيخ حسين أحمد يرى حياة الشهداء روحانية، وحياة الأنبياء جسمانية دنيوية أقوى من الروحانية.

والظاهر أن هذه الآية، كما قال الشيخ: دليل على الحياة الروحانية البرزخية التى هى أضعف. ولكن الحقيقة أن الحياة الدنيوية الجسمية الأقوى تختلف تماما عن تلك الحياة، فالآية لا تكون دليلا عليها، ولا يصح أن تقاس هذه على تلك.

وإنكم تعلمون أن أزواج الشهداء يحل لهن أن ينكحن مع حياتهم، ويقسم ميراثهم، وحيث أن حياة الأنبياء أقوى فإن أزواجهم لاينكحن، ولا يقسم ميراثهم، فى مثل هذه الصورة كيف تكون هذه الآية دليلا عليها؟

وقال فى سورة البقرة عن حياة الشهداء ﴿لا تشعرون﴾ أى هذه الحياة أعلى من شعوركم. وقال فى آل عمران ﴿أحياء عند ربهم يرزقون﴾ فمحط الفائدة قيد زائد، وقوله: «عند الله» سواء تعلق بـ «أحياء» أو بـ «يرزقون» كلاهما عند الله، لا فى الدنيا، ولذا فإن حياة الشهداء هى عند الله بنص القرآن، وحياة الأنبياء البرزخية جسمية دنيوية، وبينهما بون، ولذا لايصح الاستدلال بهذه الآيات على حياة الأنبياء.

فأنتم لو أتفقتم مع هذا القول فلا يكون هناك خلاف فى حياة

الشهداء، ويكون الاستدلال بها على الحياة الدنيوية غير صحيح، فإذا كانت الحياتان مختلفتين لا تقاس إحداهما على الأخرى، ولا يكون الدليل على إحداهما دليلا على الأخرى.

ولو فهم الإمام الشوكاني رحمه الله بالرزق المعتاد الدنيوى فليس ذلك صحيحا، لأن حياة الشهداء إذا كانت عند الله فكيف يتأتى الرزق الدنيوى هناك؟ وإن كان المراد المعتاد البرزخى فلايكون هذا الرزق دليلا على الحياة الدنيوية.

فالاستدلال بمثل هذا الرزق على الحياة خطأ ليس له معنى، فإن الرزق يحصل فى البرزخ لسائر الأموات من المؤمنين غير الأنبياء والشهداء، انظروا إلى قول الله تعالى: ﴿والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا، وإن الله لهو خير الرازقين[١]﴾.

ففى الآية وعد الرزق على الموت والقتل كليهما، فإن كان الرزق يحصل لمن يموت موتا طبعيا أيضا فلايصح به الاستدلال على الحياة. ويلزم بناء على نظرياتكم أن أحدا لايموت، وأن كلمة الموت وردت فى اللغة بدون جدوى!

---

(١) الحج: ٥٨

تحقيق الشاه عبد العزيز:

يقول الشاه عبد العزيز: نعم وقعت أرواح الشهداء بعيدة عن متع هذه الدنيا وتكاليفها، ولكن لهم تمتع جسدى، ولا يرون ما يحزن ويؤلم ألبتة، فحياتهم فى الحقيقة أتم من الحياة الدنيوية[١].

ويقول فى موضع آخر: والتعلق الذى يحصل لأرواح الشهداء مع الطيور أيضا خارج عن عالم العناصر[٢].

ويقول: فحياة الشهداء فى عالم البرزخ حياة جزائية لا ابتدائية[٣].

ويعلم من تصريح الشاه عبد العزيز أن حياة الشهداء ليست حياة هذه الدنيا العنصرية، بل هى حياة عالم البرزخ ودار الجزاء. ولا نعلم من أين فهم هؤلاء الأكابر الحياة الدنيوية، ولماذا يحبون هذه الحياة الدنيوية، إن إيثار الحياة الدنيا من رأى الكفار ودأبهم: ﴿قالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا[٤]﴾.

أما الأنبياء والشهداء فإنهم لا يتصورون ذلك، وما أصوب قول ابن القيم:

---

(١) التفسير العزيزى ص ٤٧١

(٢) نفس المصدر

(٣) أيضا ص ٤٧٢

(٤) الأنعام: ٢٩

والله لا الرحمان أثبتم ولا أرواحكم يا مدعى العرفان
عطلتم الأبدان من أرواحها والعرش عطلتم من الرحمان

وكما سبق هذه العقيدة لفرقة المعطلة كما حقق ذلك ابن القيم، وكانت هذه الفرقة مبتدعة فى العقائد. وعقيدة أهل السنة لا ترى للشهداء والأنبياء حياة دنيوية، بل ترى لهم حياة برزخية، كما صرح بذلك الشاه عبد العزيز.

تصريح العلامة الآلوسى الحنفى:

وقد فصل محقق عصره ومفتى العراق الشيخ شهاب الدين أبو الفضل السيد محمود الآلوسى البغدادى (م — ١٢٧٠ه) وكان حنفيا الكلام على هذا الموضوع فى تفسيره روح المعانى ﴿سورة البقرة﴾ فذكر خمسة مذاهب فى حياة الشهداء.

الأول: أنها جسمانية.

والثانى: أنها روحانية.

والثلاثة الأخرى باطلة.

ويقول عن المذهب أنه راجح اختاره ابن عباس وقتادة ومجاهد والحسن وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء والجبائى والرمانى وجماعة من المفسرين.

واختلف أهل العلم فى الجسم، فقال بعضهم بهذا الجسم الذى

استشهد به ، وقال البعض إن هذه الحياة تتعلق بالطيور التى يكون لونها أخضر وحواصلهم قناديل . والمذهب الثالث أنهم يعطون جسما يشبه الجسم الدنيوى ، ثم يقول : وعندى أن الحياة ثابتة لكل من يموت من شهيد وغيره ، وأن الأرواح وإن كانت جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما حس به من البدن لكن لا من تعلقها ببدن برزخى مغاير لهذا البدن الكثيف(١).

ثم يقول : وإن أرواح الشهداء يثبت لها هذا التعلق على وجه يمتازون به عمن عداهم ، أما فى أصل التعلق أو فى نفس الحياة بناء على أنها من المشككات لا من المتواطىء .

ويقول عن الجسم الدنيوى : وإن أرواح الشهداء يثبت لها هذا التعلق على وجه يمتازون به عمن عداهم إما فى أصل التعلق أو فى نفس الحياة بناء على أنها من المشكك لا المتواطىء(٢).

والشيخ الآلوسى قائل بالحياة البرزخية ، ويرى الشهداء وعامة الموتى شركاء فى هذه الحياة ، لكنه يرى فى هذه الحياة تشكيكا بدل التواطؤ حتى يتحقق الفرق بين الشهداء وسائر الموتى . ويتضح ببيانه المفصل هذا أن أحدا من عصر أئمة السنة إلى عصره (١٢٧٠هـ)

---

(١) ص ١٨ جزء (٢)

(٢) ص ١٩ " "

لم يقل بالحياة الدنيويـــة ، والذين يقولون بالتعلق مع الجسم الدنيوى هم أيضا يرون نوع هذا التعلق برزخيا ، ولا نعلم من أين تسربت هذه العقيدة الخاطئة إلى أكابرديوبند ؟ .

ويقول العلامة الآلوسى فى نهاية بيانه : «وما يحكى من مشاهدة بعض الشهداء الذين قتلوا منذ مئات السنين وأنهم إلى اليوم تشحب جروحهم دما إذا رفعت العصابة عنها فذلك مما رواه هين بن بيان ، وما هو إلا حديث طرفة وكلام يشهد على مصدقيه تقديم السخافة» .

والعجب أن ثقـــة مثل الشيخ بدر عالم أيضا قـــد ذكر هذه الروايات بنقد إجمالى ، مع أنه كان ينبغى نقد هذه الروايات على طريقة المحدثين . ردا على مزخرفات المولوى أحمد رضا خان وفرقته ، حتى لا تفسد الشكوك أذهان عامة المسلمين .

تصريح الحافظ ابن جرير:

يرد الحافظ ابن جرير فى تفسير سورة البقرة على سؤال : إن الحياة البرزخية ثابتة للجميع فما وجه تخصيص الشهداء بها ؟ يقول : «إنهم مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها فى برزخهم قبل بعثهم ، ومنعمون بالذى ينعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر من لذيذ مطاعمها الذى لم يطعمها أحد فى برزخه قبل بعثه[1]» .

---

(١) تفسير ابن جرير ٢/٣٩–٤٠ طبعة الحلبى البابى .

أى حياة الشهداء برزخيـة وليست دنيوية، وبرزخهم نظير الجنـة، فلذائذ الجنة تعطى لهم فى القبر، هذه هى مزيتهم التى عبر عنها بالحياة ومنع من أن يقال لهم «أمواتا».

والشيخ النواب صديق حسن خان حاكم ولاية بوفال كان من أهل الحديث مذهبا، ويمكن أن تختلفوا معه من هذه الناحية، لكن منزلتـه رفيعة جدا من ناحية دقـة النظر وسعة الاطلاع والزهد والتقوى، وفكره واضح جدا فى فهم القرآن، ورأيه يبدو أصوب من كثير من أكابر القدماء، يقول:

«بل هم أحياء فى البرزخ تصل أرواحهم إلى الجنان، فهم أحياء من هذه الجهة، وإن كانوا أمواتاً من جهة خروج الروح من أجسادهم[1]».

ويقول: «وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لمـا يحس من البدن تبقى بعد الموت دراكة، وعليه جمهور الصحابة والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن[2]».

وقـد أطال العـالم الشهير الملاجيون صاحب نور الأنوار فى

(١) فتح البيان ٢٠٤/١

(٢) أيضا ٢٠٥/١

التفسيرات الأحمدية[1]. الكلام على حياة الشهداء، ووصل إلى أنها حياة برزخية.

نظرة على الأحاديث المذكورة:

ذكرت عشرة أحاديث فى هذا الموضوع من كتاب حياة الأنبياء للبيهقى، وبعد تحديد محل النزاع لا يصلح واحد منها للاستدلال، ثم انه لم يذكر فى واحد منها حياة الدنيوية. ونظرا إلى أهمية اسم الحديث وعلو مكانته فى الإسلام نذكر عنها بإيجاز وبما أن صاحب المقال ينتمى إلى مدرسة ديوبند العلمية نستحسن أن نلقى نظرة نقد إلى بعض هذه الأحاديث من ناحية الجرح والتوثيق.

١ — الحديث الأول: الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون (الخصائص الكبرى للبيهقى).

فى سند هذا الحديث حسن بن قتيبة الخزاعى، ونقل الذهبى فى ميزان الاعتدال قول ابن عدى فيه: لابأس به، ثم ذكر رأيه ورأى الأئمة الآخرين فيه. قلت: بل هو هالك. قال الدارقطنى فى رواية البرقانى: متروك الحديث. قال أبوحاتم[2]: ضعيف. قال

---

(١) ص ٣٩، طبعة مطبع كريمى بيومباى.

(٢) الجرح والتعديل ٣/٣٣

الأزدى : واهى الحديث . قال العقيلى[1] : كثير الوهم[2].

وقد نقل الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان[3] كلام الذهبى بكامله ثم وثق جرحه ، وقد جعله الخطيب البغدادى أيضا واهى ومتروك الحديث[4].

أما قول الشوكانى فى تحفة الذاكرين ضمن شرح حديث «رد الله علىّ روحى» لأنه ﷺ حى فى قبره ، وروحه لا تفارقه لما صح أن الأنبياء أحياء فى قبورهم ، فإنه يصعب أن يراد بقوله : «صح» الصحة المصطلح عليها بعد وجود الجرح السابق المفصل ، فيمكن أن يكون صح بمعنى ثبت . ويجوز عند المحدثين التعبير به «ثبت» ما لم يحكم على الحديث بالوضع قطعا ، وقد اختار الشوكانى فى نيل الأوطار هذا اللفظ : وقد ثبت فى الحديث أن الأنبياء أحياء فى قبورهم[5].

ومثل هذه الأحاديث يمكن أن تذكر فى مجالس الوعظ والفضائل ، ولكن لا يقام عليها أساس العقيدة ، فإن أهل الحديث

---

(١) الضعفاء ٢٤١/١

(٢) الميزان ٥١٨/١–٥١٩

(٣) أيضا ٢٤٦/٢

(٤) تأريخ بغداد ٤٠٥/٧

(٥) تحفة الذاكرين ٣٠٥/٢

وأئمة الفن يوجبون وجود الخبر الواحد الصحيح للعقيدة، كما ذكره ابن القيم فى الصواعق المرسلة، ويقول ابن القيم عن الحديث المذكور:

وحديث ذكر حياتهم بقبورهم لمـا يصح وظاهر النكران
فانظر إلى الاسناد تعرف حاله إن كنت ذا علم بهذا الشأن
هذا ونحن نقول هم أحياء لـ ـكن عندنا كحياة ذى الأبدان
والترب تحتهم وفوق رؤوسهم وعن الشمائل ثم عن أيمان
مثل الذى قد قلتموه معاذنا بالله من افك ومن بهتان

صلاة موسى:

وفى الأحاديث رقم ٢، ٣، ٤، ورد ذكر موسى عليه السلام، بأنه ﷺ رآه فى قبره يصلى، وهذه الحياة أيضا ليست دنيوية، بل برزخيـة. رآه فى القبر، وكذلك اشترك فى الصلاة مع الأنبياء فى بيت المقدس، ثم قابله فى السماء وأرشده إلى ما ينفع.

وهكذا رأى ﷺ يونس عليه السلام محرما ملبيـا راكبـا على الابل، ورأى الدجال محرما ذاهبـا للحج، ورأى عمرو بن لحى فى جهنم. فهذه أجسام برزخيـة، ورؤية كشفية. ولو عبرنا عن ذلك بالحياة الدنيوية التى حصلت للخبيث مثل الدجال، فأية فضيلة تبقى للأنبيـاء؟

إن حياة الأنبياء عند أهل السنة أحسن وأقوى من حياة

الشهداء ، وقد حصل لهم فى البرزخ العبادة والتسبيح والتهليل ورفع الدرجات . وبعض الوقائع لايعدو أن تكون مثالية أريت للنبى ﷺ كالآيات الكبرى ، ولا تلزم منها الحياة . والشيخ كاتب المقال قد نقل بعض الحكايات من كتاب الروح لابن القيم ، والعجب من أنه كيف فاتته المباحث الهامة لهذا الكتاب !

وقد نقل الحافظ ابن القيم قولا لابن حزم من كتابه الفصل ، وانتقد بعض أجزائه ، وقد ذكر فيه هذه الحياة بوضوح ، يقول : « قلت ما ذكره ابن حزم فيه حق وباطل . أما قوله : « من ظن أن الميت يحيا فى قبره فخطأ » فهذا فيه اجمال إن أراد به الحياة المعهودة فى الدنيا التى تقوم فيه الروح بالبدن وتدبره وتصرفه ويحتاج معها إلى الطعام والشراب ، فهذا خطأ كما قاله ، والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص ، وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة بل تعاد الروح إليه غير الاعادة المألوفة فى الدنيا ليسأل ويمتحن فى قبره ، فهذا حق ، ونفيه خطأ قد دل عليه النص الصريح فتعاد روحه فى جسده[(١)] » .

ثم يقول : إن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام :

---

(١) كتاب الروح ص ٤٣

أحدها : تعلقها به فى بطن الأم جنينا .

الثانى : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

الثالث : تعلقها به فى حال النوم ، فلها به تعلق من وجه ، ومفارقة من وجه .

الرابع : تعلقها به فى البرزخ ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقا كليا بحيث لايبقى لها التفات إليه ألبتة ، وقد ذكرنا فى أول الجواب من الأحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه وقت سلام المسلم ، وهذا الرد إعادة خاصة لايوجب حياة البدن قبل يوم القيامة .

الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد ، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه ، إذ هو تعلق لايقبل البدن معه موتا ، ولا نوما ، ولا فسادا[1] » .

وقد وضح الحافظ ابن القيم بذلك مذهب أهل السنة تمام التوضيح ، فلم يقل أحد من أئمة السنة من سلف الأمة بالحياة الدنيوية ، ولا نعلم من أين جاءت هذه البلية عند الشيخ عبد الحق والشيخ حسين أحمد ؟ والحقيقة أن هذا القول غير معقول وليس له توجيه .

والحديث الخامس : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

---

(١) كتاب الروح ص ٤٣ـ٤٤

رواه أصحاب السنن وابن حبان، وصححه الحاكم[1]، وقد نقل فى تنقيح الرواة فى تخريج أحاديث المشكاة تصحيح هذا الحديث عن بعض الأئمـة ثم قال: «وللحديث طرق جمعها المنذرى فى جزء، فتعدد الطرق[2] يشد بعضها بعضا[3]».

وكذلك حاول الحافظ ابن القيم فى جلاء الأفهـام رد جرح

---

(١) أبوداود ١/٦٣٥، والنسائى ٣/٩١، وابن ماجه ١/٣٤٥، ٥٢٤، وابن حبـان ٢/١٠٣، والحاكم ١/٢٧٨، وكذا أحمد ٤/٨، والدارمى ١/٣٠٧، وابن خزيمـة ٣/١١٨، كلهم من طريق حسين ابن على الجعفى، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبى الأشعث الصنعانى عن أوس بن أبى أوس رضى الله عنه.

(٢) أما قطعة «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» فقد رويت بثلاثة طرق وهى كلها مخدوشة.

وحديث أبى الدرداء الأول فيصعب صرف النظر عن جرح الامام البخارى والامام أبى حاتم من أئمـة الحـديث المهرة فيه. وحال سنن ابن مـاجه تظهر من كلام العلامة السندى. وقد ذكر الحافظ السخاوى رواية عن الطبرانى، ولكن ذكر معه أيضـا قول الحافظ العراقى: لايصح. القول البـديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع ص ١١٩

(٣) ١/ ٢٥٥

ابن حاتم، وأسس ذلك على الاشتباه بين عبد الرحمن بن يزيد بن جابر وبين عبد الرحمن بن يزيد بن تميم. والحق أن استيعاب قراءة مبحث جلاء الأفهام بتمامه لا يطمأن القلب والفكر.

ونقد أجلة المحدثين رحمهم الله لايصرف النظر عنه بالاحتمالات الجدلية. ويقول الحافظ عبد العظيم المنذرى فى مختصر سنن أبى داود[١] عن هذا الحديث: أخرجه النسائى وابن ماجه، وله علة دقيقة أشار إليها البخارى وغيره، قد جمعت طرقه فى جزء.

وهكذا قال فى الترغيب والترهيب[٢].

وقد أوضح العلامة تقى الدين السبكى والحافظ السخاوى هذه «العلة الدقيقة» يقول السبكى:

«وعلته أن الحسين بن على الجعفى لم يسمع من عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر، وإنما سمع من عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، وهو ضعيف. فلما حدث به الجعفى غلط فى اسم الجد فقال: «ابن جابر[٣]».

وبعد مثل هذا الكلام قال الحافظ السخاوى: «ولهذا قال

---

(١) ٢ / ٤

(٢) ١ / ١٢٩

(٣) شفاء السقام ص ٤٧

أبو حاتم : إن الحديث منكر[1] ».

وإشارة الإمام البخارى فى التأريخ الكبير والتأريخ الصغير.
يقول فى الكبير تحت ترجمة عبد الرحمن بن يزيد بن تميم : يقال هو الذى روى عنه أهل الكوفة أبو أسامة وحسين ، فقالوا عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر[2].

ويقول فى التأريخ الصغير[3]: وأما أهل الكوفة فرووا عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وهو ابن يزيد بن تميم ليس بابن جابر، وابن تميم منكر الحديث.

ونقل قول أبى حاتم ابنه الحافظ عبد الرحمن : سمعت أبى يقول : « عبد الرحمن بن يزيد بن جابر لا أعلم أحدا من أهل العراق يحدث عنه ، والذى عندى أن يروى عنه أبو أسامة وحسين الجعفى واحد ، وهو عبد الرحمن بن يزيد بن تميم ».

ثم بنى على هذه العلة ونقل الرواية المذكورة وقال : وهو حديث منكر لا أعلم أحدا رواه غير حسين الجعفى[4] ».

وسوى هؤلاء الأئمة يقول العلامة أبو بكر بن العربى المالكى :

---

(١) القول البديع ص ١١٦
(٢) التأريخ الكبير ٣٦٥/٥
(٣) ١١٨/٢ من طبعة محمود ابراهيم زايد
(٤) علل الحديث ١٩٧/١

إن الحديث لم يثبت[١]».

وروى بهـذا المعنى حديث آخر فى سنن ابن مـاجه عن أبى الدرداء بزيادة «فنبى الله حى يرزق[٢]».

وقد حكم الشوكانى على السند بأنه جيد، وتبعه صاحب تنقيح الرواة أيضا، ولكن ليس ذلك بصواب، يقول الحافظ السخاوى: «رجاله ثقات لكنه منقطع[٣]».

ويقول السندى الحنفى فى تعليقه على ابن ماجه[٤]: «منقطع فى موضعين، لأن رواية عبادة عن أبى الدرداء مرسلة، وزيد بن أيمن عن عبادة مرسلة، قاله البخارى».

ويقول الحافظ ابن حجـر: «قال البخارى زيد بن أيمن عن عبادة مرسلة[٥]».

وقول البخارى هذا فى التأريخ الكبير[٦].

وقوله: «فنبى الله حىّ يرزق» فى حديث أبى الدرداء عنـد

---

(١) نيل الأوطار ٢٨١/٣

(٢) كتاب الجنائز ٥٢٤/١

(٣) القول البديع ص ١١٩

(٤) ٥٠٣/١، وإنما هو قول البوصيرى فى مصباح الزجاجة ٥٩/٢

(٥) التهذيب ٣٩٨/٣

(٦) التأريخ الكبير ٣٨٧/٣

ابن ماجه زائد، ولفظه ينبيء أنه مدرج. ولم يذكر مجد بن تيمية فى المنتقى هذه الزيادة، وقد قبل الشيخ عبد الحق الدهلوى فى أشعة اللمعات[١] الادراج على طريق الشبهة، وقد اعترف أحمد رضا خان بأن هذه الزيادة مدرجة[٢].

وقد روى هذا الحديث فى ابن ماجه عن أوس بن أوس وشداد بن أوس، وليست فيه هذه الزيادة، وقد علم بهذا التفصيل أن الحكم بالجودة على سند هذا الحديث لايخلو من سهو.

ولوسلمنا بصحة هذه الأحاديث فإن الحياة الدنيوية لا تثبت بها، وقد فصلت الكلام هنا حتى تتضح حقيقة هذه الأحاديث التى يحكم عليها أجلة ديوبند همسا بأنها متواترة، ويعتمدون على مدارج النبوة ومؤلفات السيوطى اعتمادا يدعو إلى الاستعجاب من الذين ينتمون إلى الشاه ولى الله الدهلوى.

ويوجد فى هذه الأحاديث الضعف والانقطاع، ولكنها تتعلق بالصلاة على النبى ﷺ، لا بالحلال والحرام أو العقائد فقد سامح فيها مثل ابن القيم من أئمة الحديث، وعلى هذا تم تصحيحه بتعدد الطرق، وقد اشتهر فى العامة أن مثل هذه الأحاديث تقبل فى الفضائل، ولكن هذا الأصل نفسه محل نظر عند أهل التحقيق.

---

(١) ١ / ٥٠١

(٢) حاشية حياة الأموات ص ١٧٨

وقد ورد فى جلاء الأفهام، كما سبق، بحث طويل حول حديث أبى الدرداء، وحاول المؤلف أن يجيب عن الانقطاع والتضعيف، وجمع الشواهد للانقطاع، ولكنها بأنفسها محل النظر، وقد ذكر الحافظ ابن القيم نفسه علل هذه الشواهد، ثم إن هذه الشواهد تتعلق بكثرة الصلاة، وقصد بها فى الأغلب تخصيص يوم الجمعة، وهذا لابأس به، أى يمكن الاستدلال بهذه الشواهد على إكثار الصلاة يوم الجمعة.

عقيدة الحياة ونتائجها:

ولكن المشكلة القائمة الآن أن البريلوية وبعض أكابر ديوبند يحاولون إثبات عقيدة الحياة الدنيوية بهذه الضعاف والمقطوعات، وبدأوا يسمون هذا التصور البدعى بالعقيدة المتواترة، ولذا ينبغى أن يعلم جيدا أن هذه الأسانيد مع تعدد الطرق والشواهد لا ترتفع إلى أن تكون أساسا لعقيدة.

ثم إن هذه الطرق والشواهد لا تذكر الحياة الدنيوية، بل تكرر قوله ﷺ: «أكثروا علىّ الصلاة يوم الجمعة».

والطرق والشواهد التى ورد فيها ذكر الحياة بصراحة لم يصح منها واحد، ولايستحسن أحد محاولة إثبات العقائد بالأحاديث الصحيحة لغيرها.

أما العلماء الذين ينقل عنهم تصحيح وتوثيق هذه الأحاديث فلم يقل أحد منهم بالحياة الدنيوية ، ولم يحاول إثبات هذه العقيدة البدعية. وأكثر من تكلم فى هذا المقام هو الحافظ ابن القيم، وهو أيضا لايقول بالحياة الدنيوية ، وكذلك لم يرض بأن يثبت بهذه الأحاديث الحياة المطلقة ، ولذلك يكون الاستدلال بهذه المباحث على هذه العقيدة المخترعة مثل تأويل القول بما لا يرضى به القائل ، وهذا ما لايرضاه أهل العلم والفكر.

والحديث السادس صحيح ، وقد ورد فيه ذكر رد الروح عند السلام . وهذا خلاف الحياة الدنيوية . والأجوبة التى ساقها الحافظ السيوطى يبدو بها أن قلبه أيضا غير مقتنع بهذا الحديث ، فإن الخبط والتذبذب بارزان فى الجواب .

أما قول الشيخ حسين أحمد فإنه معارض لنص الحديث ، فالحديث يدل على أن روح النبى ﷺ ترد للرد على السلام ، وعلى قول الشيخ حسين أحمد لاحاجة لرد الروح ، ولذا ينبغى إعادة النظر إلى معنى الحديث ، فإنه لايتضح بتوجيه الشيخ حسين أحمد.

أما الحديث السابع ، فإنه يذكر لقاء الأنبياء عليهم السلام ليلة الاسراء ، ولا نعرف كيف يُستخرج منه الحياة الدنيوية !

وقد ذهب أئمة السنة فى هذا اللقاء مذهبين معروفين . فالبعض يرى أنه لقاء روحى ، فقد روى فى فتح البارى حديث عن البزار

والحاكم: أنه صلى ببيت المقدس مع الملائكة، وإنه أتى هناك بأرواح الأنبياء فأثنوا على الله[١]. والادعاء الخاطىء للحياة الدنيوية صار مشكلة وتعسر به الجمع بين الأحاديث.

والمذهب الثانى أن هذه الأرواح أعطيت أجساما مماثلة، وبهذه الأجسام تم اللقاء فى بيت المقدس أو ليلة الاسراء، وقد ذكر ذلك ابن حجر فقال:

« إن أرواحهم مشكلة بشكل أجسادهم[٢]، كما جزم به أبوالوفاء ابن عقيل ».

والصورتان يمكن وقوعهما فى البرزخ، وإطلاق الحياة الدنيوية عليهما ليس بمعقول.

ويصرح بعد ذلك ابن حجر فيقول: لأنه بعد موته وإن كان حيا فهى حياة أخروية لا تشبه الحياة الدنيا[٣].

ويقول: وهذه الحياة ليست دنيوية، إنما هى أخروية[٤].

وقد قال فى التلخيص الحبير[٥] نقلا عن البيهقى: الأنبياء أحياء عند ربهم كالشهداء.

---

(١) فتح البارى ٧ / ٢٠٠

(٢) أيضا ٧ / ٢١٠

(٣) أيضا ٧ / ٣٤٩

(٤) أيضا ٧ / ٤

(٥) التلخيص الحبير ص ١٦٢

وهذه الحياة حياة برزخية أخروية، ولا يعقل أن يصفها عاقل بأنها حياة دنيوية.

وجميع الحقائق، مثل صلاة موسى وحج هارون و يونس واحرام المسيح والدجال تكون مثالية برزخية لا دنيوية، وقد قال النبي ﷺ حينما توفى ابنه ابراهيم: له لظئرين تكملان رضاعه فى الجنة[1].

فهل ترون أن ابراهيم أعطى حياة دنيوية مع أنه ليس نبيا ولا شهيدا؟ وتوجد فى كتب السنة عشرات من الأحاديث فى هذا المعنى، فلو أثبتنا بهـا الحياة الدنيوية فكأننا قلنا إنه لايموت أحد فى الدنيا!

والأحاديث ٨، ٩، ١٠ لا تدل قطعـا على الحياة الدنيوية، ولا نعرف لماذا نقلها الشيخ زاهد؟ وبعد السطور السابقة لا تبقى حاجة للكلام على هذه الأحاديث.

قصص وحكايات:

شهادة جعفر وإخبار بعض الأرواح عن دينها وما يشبه ذلك من القصص قد ورد ذكرها فى كتـاب الروح وشرح الصدور والخصائص الكبرى. ولكن:

أولا: ليست هذه القصص حجة شرعا.

---

(١) المشكاة المصابيح ١٦٢١/٣

وثانيا: ليست هذه الأدلة جديرة بالوثوق فى باب العقائد.

وثالثا: يمكن الاستدلال بها على حياة الروح ونقلها وتحركها، ولكن لا تثبت بها الحياة الجسمية أو الدنيوية قطعا.

ورابعا: إذا ظهر المنام والكشف من غير نبي فيمكن أن يتيقن فيه صاحبه، ولكنه لايلزم عامة المسلمين.

وسماع سعيد بن المسيب الأذان فى المسجد النبوى عند وقعة الحرة ليس له معنى ودلالة على ما نحن فيه، فإن سعيدا لم يكن يعرف صوت النبى ﷺ، فيمكن أن يكون هذا الصوت لجنى صالح أو ملك، فكيف ثبت بذلك الحياة الدنيوية للنبى ﷺ؟

وقد نقل الشيخ عن ابن القاسم أربعة أدوار للإنسان:

الأول: دور الرحم.

والثانى: دور الدنيا.

والثالث: دور البرزخ.

والرابع: دور الآخرة.

وكل دور لاحق خير من سابقه. وعليكم أن تفكروا فى هذه السعة، وأن هذا الدليل لكم أو عليكم؟ فإن كان فى دور البرزخ سعة وهوخير من دور الدنيا فلماذا تحاولون إخراج النبى ﷺ من البرزخ إلى الحياة الدنيوية؟ إن الحياة البرزخية أعلى وأرفع بكثير من الحياة الدنيوية.

إن أحمد رضا خان وأتباعه فى غنى عن العقل والعلم، ولكن عليكم أن تفكروا، إن أهل التوحيد لايتجردون من العلم والعقل: ﴿إن فى ذلك لآيات لأولى النهى[١]﴾.

ويمكن التوسع فى الكتابة حول بعض أجزاء المقال، ولكن لا أقصد البحث والمناظرة. وأحوالنا المحلية تقتضى أن لا يحاول البعيدون عنا ابداء آرائهم فيها، فإن هذه البيئة يحسن فهمها علماؤها. إن الجهود التى تبذل لفرض اللادينية لعلكم لا تعرفونها، ولذا لاينبغى أن تلق مسئولية المستقبل عليكم، وتستغل رسائلكم وخطبكم لأغراض سيئة خبيثة. نسأل الله تعالى التوفيق لأن نعمل شيئا لإعلاء كلمة الإسلام، ولانكون سببا لفتح الأبواب الخفية التى تدخل منها إلينا القاديانية والرفض والبدعة والابتداع.

نظرة إلى محتويات رسالة حياة النبى ﷺ:

بعد أن أرسلت للنشر فى مجلة «رحيق بلاهور» ملاحظاتى الانتقادية للمقال المنشور فى مجلة «دار العلوم بديوبند» إذ جاءت إلىّ رسالة «حياة النبى» لمؤلفه الشيخ أخلاق حسين، التى قدم لها الشيخ سيد أبوذر البخارى.

ولكن الأسف أنها لا تحتوى إلا على اندفاع الشباب،

(١) طه: ١٢٨

ولا غرابة فى ذلك حيث لم تتوفر الأدلة وتكون النصوص معارضة بصراحة فيضطر الانسان إلى الهتاف باسم المدرسة التى ينتمى إليها وإلى التعسف والتكلف، ويبدى الشباب حماسهم وقوتهم ويستخدمون لسانهم وعقلهم فى صرف النصوص عن أصلها، وهكذا ينجحون فى تحويل اتجاه الأذهان إلى وقت ولوقصير، ويسنّدون الجدار الذى يريد أن ينقض بالتوسل إلى عظم مكانة الصلحاء والحفاظ على منزلتهم. وهذا ما فعله أخلاق حسين وأبوذر، ولذا لا أرى حاجة للكلام على الجزء البدائى لهذه الرسالة.

وكنت قد سمعت من بعض أصدقائى أن الشيخ محمد قاسم النانوتوى رحمه الله قد كتب رسالة فى هذا الموضوع، ومع بذل الجهد لم أظفر بنسخة منها، ولكن وجدت فى رسالة الشيخ أخلاق حسين اقتباسا من رسالة الشيخ النانوتوى، واسمها «آب حياة» يقول فى (ص ٢٣٢) محاولا تعليل حديث «يرد الله على روحى» لأنه يعارض موقف الديوبندية، فأراد بتأويله تنحيته من الطريق:

«لما صارت روح النبى المفتوح عليها منبعا وأصلا لسائر الأرواح وخاصة أرواح المؤمنين، فأى فرد من الأمة يسلم عليه ﷺ تردّ الشعبة التى فى جانبه، ولا يلزم ارتداد الشعب كلها، ومن

الظاهر أن ارتداد تلك الشعبة يكون سببا للاطلاع على السلام، ولكن لا يكون موجبا لزوال الاستغراق المطلق، لأن الشعب غير متناهيــة».

ان علو مكانة الشيخ النانوتوى وسعة نظره وغزارة علمــه واخلاصه وتقواه معلوم ومعروف، وان قلبى يرتجف من أن يقف متواضع مثلى موقف الانتقاد من الشيخ الذى يعد بحر العلم والمعرفة، ولكن فكرى لم يصب، ولله الحمد، بالتقليد والجمود، وليس أحد بعد النبي ﷺ معصوما، ولذلك أفكر فيما يحتوى عليه هذا الكلام الموجز، والأسف أن علما متبحرا مثل الشيخ النانوتوى لم يذكر دليلا ولا كتب شيئا يؤثر فى الفكر. وقد جاءت هذه البلية بسبب أنهم قد اختاروا نظرية خاطئة بأن حياة الأنبياء ليست برزخية بل جسمية دنيوية.

وحاصل كلام الشيخ النانوتوى أنه تصور الروح التى وصفهـا القرآن بالأمر مركبة فى لغة المجازات، ثم تصور الشعب غير المتناهية، ثم ان عناية كل جزء من أجزاء هذا المركب يمكن أن تنصرف إلى الجهات المختلفة، ثم ان هذا الانقسام لا يورث خللا فى الاستغراق مع العنــاية المذكورة، ثم ان هذه الروح منبع لعــالم الأرواح ولأرواح المؤمنين، أى أرواح المسلمين وغيرهم تنشعب من هــذه

الروح ، ولأرواح المؤمنين نسبة خاصة وصلة مع روح النبى ﷺ المفتوح عليها .

ولا يوجد فى الظاهر تعقيد فى كلام الشيخ النانوتوى رحمه الله ، الذى سبق أن ذكرنا ، وكل ما قاله بأسلوب المجاز والاستعارة لايتجاوز تصريف الألفاظ وتكرارها ، ولم يذكر نصا من الكتاب والسنة يؤيد رأيه .

والقرآن الكريم إذ ذكر الروح أرشد إرشادا بليغا جامعا :
﴿قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا[1]﴾ .

كان ينبغى أن يتفكر أن تفصيل الأمر لوكان ذكر شعبه غير المتناهية لبينها القرآن .

وقد ذكر الشيخ أخلاق حسين فى صفحة ١٧ كلاما من زاد المعاد لوقارنا بينه وبين كلام الشيخ النانوتوى لعرفنا أن كلام ابن القيم أقرب إلى السنة وأنسب وأبلغ فى الجمع بين الأحاديث ، وكلام الشيخ النانوتوى غير مؤثر على أنه تلعب بالألفاظ . ولونظرنا إلى حديث « يرد الله علىّ روحى » لذهب استدلاله كله سدى ، مع معارضته لألفاظ الحديث .

---

(١) الاسراء : ٨٥

علم كلام البريلوية :

تبين لنا أن لعلم البريلوية ثلاثة أصول :

الأول : الاكثار من شتم الخصم .

والثانى : توجيه المطاعن والتهم إليه بقدر الامكان حتى يحتار فى الرد عليها والتبرؤ منها .

والثالث: الحاق كلمة « الشريف » مع البدعة التى يراد نشرها ، مثل الحادى عشر الشريف ، المولد الشريف ، الأربعين الشريف ، وكل مسكونة تكون مركزا للشرك والبدع تضاف إليها كلمة الشريف ، وتضاف الألقاب الزائفة إلى اسم المذنب المشرك ، وذلك كى تكره العامة الحق ، ويودوا البدع وأهلها .

إخوان ديوبند :

وأصحاب ديوبند قد سلموا من المرضين الأولين ، فإنهم لايشتمون ولايكذبون ، ولكنهم يغلون فى احترام الأساتذة ويبالغون فى محاسن الأكابر بطريقة خاطئة . وقد سبق أن اطلعتم على قطعة من كلام الشيخ محمد قاسم رحمه الله ، وإليكم الآن مثالا للمبالغة فى نفس الكتاب :

« كتاب آب حياة كتاب قال فيه شيخ الهند رحمه الله : إنى قرأته على شيخى رحمه الله درسا درسا حتى اطلعت على مدارك المؤلف

وإنى قد رجوت من الشيخ حبيب الرحمن رحمه الله بعد ذكر هذا الواقع أن يدرسنى هذا الكتاب ، فقال مع ذكائه وتوقد فهمه : إنى لا أستطيع ذلك ، فمثل هذا الكتاب كيف يستطيع تدريسه أمثالنا غير الأكفاء ! » .

أرأيتم هذا الكلام ؟ إنه بالأردية وليس فيه أغلاق ولا عمق ، ولو اطلعت على غلو الشيخ محمد طيب هذا لنفضت الغبار عن عينى خيفة أن يكون هناك أسد نائم . ونحن لا نشك فى مكانة الرواة وثقتهم ، ولكن عرضه على الواقع يؤدى إلى صراع ذهنى بأن هؤلاء الأكابر ماذا يقولون ! ويمكن أن يكون موضع من الكتاب دقيقا رجع له شيخ الهند إلى أستاذه ، ولكن قراءة الكتاب كله درسا درسا أمر عجيب .

ونحن نرى أن ثلث علم كلام البريلوية ورثه أهل ديوبند من البريلويين ، وبذلك انتشرت النظرية الخاطئة التى تقول إن حياة الأنبياء دنيوية بين مدرسة ديوبند . وشبابنا الديوبنديون يرون أقوال الأساتذة لا تتحمل المس ولذا لا يجترؤن على تحليل حسنها وقبحها : ﴿ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب[1] ﴾ .

---

(١) الزمر : ١٨

اخوانى الكرام: ان طريق العلم والعقل يختلف عن ذلك تماما، ان احترام الأساتذة أمر، وصرف النظر عن العلم والعقل أمر آخر، وأمامكم أسوة الامام أبى حنيفة وتلامذته، فإننا نجد عندهم الاحترام والاختلاف جنبا إلى جنب، والاختلاف لم يمنعهم من إظهار الحق، ولم يحل إظهار الحق فى طريق الاحترام والأدب، وعاطفة إظهار الحق قد اندمجت مع الأدب والاحترام بحيث أن الأستاذ لا يتمعر وجهه مع اختلاف تلاميذه معه فى مئات من المسائل، ولا تتكدر طبائع التلاميذ، ولا يصل الأمر إلى التمادح المغالى فيه بين الطرفين، رحمهم الله ورضى عنهم

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم   إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وبعد ذلك وجدنا رسالة طويلة للشيخ محمد طيب نقلها الشيخ أخلاق حسين، ولو فصلت الكلام على هذه الرسالة فإن وقت القراء يضيع فى بحث غير نافع. والحقيقة أن كتابة الشيخ النانوتوى رحمه الله مبحث أو نظرية تشبه كتاب فصوص الحكم أو الفتوحات المكية، ولكن لا ينحل بها الحديث فى ضوء ألفاظه. ثم ان شرح الشيخ طيب ليست له علاقة مع كلام الشيخ النانوتوى، بل إنه آراء وأخيلة ولّدها ذهن الشيخ طيب، وإنه يستحسن إذا ألقى أمام الطلبة والمعتقدين، ولكن يصعب أن يثبت على ميزان الأدلة والبراهين، انه بحث مستقل لايلقى ضوءا على كلام الشيخ النانوتوى، ولايساعد

فى حل معنى الحديث ، نعم يبدو أنه محاولة فاشلة لضم كلام النانوتوى إلى كلام ابن القيم وبعض كشوف الشاه ولى الله .

وإنى قد وصفت هذه المحاولة بالفشل لأن الشيخ النانوتوى يرى روح النبى ﷺ أصلا لسائر الأرواح وخاصة أرواح المؤمنين ، ولكن الشيخ طيب يقضى على هذا العموم بوصف النبى ﷺ بالمؤمن الحقيقى ، ويعبر عن تخصيص أهل الايمان بأسلوب يوهم أن الروح والايمان مترادفان . والاصطلاح حق للجميع ، ونحن لا نستطيع منعه ، ولكن لينظر أهل العلم أى خبط ينشأ بذلك ؟ وكم يصعب منع برويز وخليله عبد الحكيم من الاصطلاح ! ولذا يحسن أن يتكلم مع الناس بلغتهم ، كما فعل ابن القيم .

ثم أطال الشيخ فى ذكر الشمس وأثرها فى أسلوب التمثيل ، ولكن هذه المحاولة أيضا ناقصة بسبب أن كلمة رد فى قوله ﷺ : «رد الله على روحى» يقتضى غير ذلك ، نعم هذا الطول يؤدى إلى التخبط دون شك .

ولو ألقى هذا الكلام حول وجوب طاعة النبى ﷺ ، وفُرض به القيد على الجمود الفقهى والصوفى لكان أنسب ، أما فهم الحديث المذكور فإن كلام الشيخ طيب يقتضى إخراج كلمة الرد من موضعه فى الحديث .

وكان هناك طريق آخر للتخلص من هذا الحديث ، وذلك أن

فى رواته أبا صخر حميد بن زياد، وقد رواه مسلم على طريق المتابعة، وقال يحيى بن معين أحيانا انه ضعيف، و روى عنه بعض المنكرات، فالجرح على الحديث كان طريقا للتخلص منه، أما الاعتراف بصحة الحديث ثم تقليب المصطلحات والتلعب بالألفاظ فإن ذلك يمهد الطريق لأهل الالحاد والبدع، والعلماء هم يكونون مسئولين عن ذلك.

أما اختيار طريق أهل السنة بأن الحياة برزخية، وهى تجتمع مع الموت الدنيوى، فلا تضاد بينهما، وهذا هو رأى أهل التحقيق وأكابرنا.

وقد قسم الشيخ طيب الاستغراق أيضا إلى أقسام، فهناك استغراق فى ذاته ﷺ، واستغراق فى أرواح الأمة، واستغراق فى ذات الله تعالى.

وحيث أن أمر الروح فوق فهمنا وإدراكنا فلا فائدة من هذا التكلف، والفرار من ظاهر الألفاظ لا يحسن بأمثالكم من متبعى الحديث، هذا تصوف كشفى يشبه ما عند ابن عربى وابن سعيد، ولا علاقة له مع زهد أبى حنيفة وأحمد و ورعهما.

و رسالة الشيخ طيب كلها بالأسلوب الخطابى، ومثلها كلام الشيخ محمد قاسم رحمه الله.

ولم تكن حاجة لهذا التصريح المر إن لم تكن مضايقة أهل التوحيد من قبل أهل الابتداع فى باكستان بالاستفادة من هذا التمويه

والألفاظ المحتملة. ونحن — المساكين البعداء — نشكركم إن أحسنتم إلينا بطريق آخر، أما الأسلوب الذى اخترتموه إلى الآن فإنه يدفعنا إلى الشكوى:

شكوت وما الشكوى لمثلى عادة ولكن يفيض الكأس عند امتلائها

إننا نود أن نسمع منكم كلام التوحيد والسنة، وقصص السلف واعتصامهم بالسنة، أما المتاع الذى تصدره دار العلوم فإنه يوجد بكثرة فى باكستان، فلماذا تتجشمون المشقة؟ اختاروا طريقا آخر لإرضاء الشيخ خير محمد.

وإنى قد صرفت النظر عن كثير من رسالة الشيخ طيب، مع توفر مجال القول والمناقشة. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

حل بعض الشبهات:

قبل عدة شهور كنت عرضت بعض النقاط فى مجلة «رحيق» حول موضوع حياة الأنبياء. وموقف البريلوية واضح فى هذا الموضوع، فقد كتب المولوى أحمد رضا خان فى الفتاوى الرضوية (٦١٠/١) عليه وجعل حياة الأنبياء جسمية دنيوية. ولكن موقفهم ينبنى على العاطفة بدل الأدلة، ولذا لا تؤثر فى الأوساط العلمية.

والمولوى أحمد رضا خان نفسه حينما يكتب فى مثل هذه المسائل

فإنه يختار طريق الطعن فى الخصم وشتمه واتهامه بدل الاستدلال، ولايختار طريقا إيجابيا، ولذا لايهتم أهل العلم والنظر بكتاباته وكتابات أتباعه. ولكن منزلة أهل ديوبند تختلف عن ذلك تماما، فنهم أهل التحقيق والنظر، ينظرون إلى الدلائل، ولا يبنون تأييد مذهبهم على العاطفة. ولكنى استغربت أن الشيخ حسين أحمد والشيخ محمد قاسم وبعض أكابر ديوبند قد اختاروا رأى الشيخ أحمد رضا خان نفسه فى هذا الموضوع.

ثم زاد الاستغراب بأن جعل بعضهم هذه الصورة لحياة الأنبياء مسألة اجماعية، مع أن هذا الادعاء ينافى التحقيق والعدالة معا، بل يرى كاتب هذه السطور أن أجلة ديوبند أيضا لايتفقون معهم فى هذه المسألة. وقد أيد بعض المجلات الديوبندية مقالى المنشور. والذين اختلفوا معى فلم يكن أساس الخلاف هو الأدلة والتحقيق، بل اعتمدوا على عظم منزلة الأساتذة أو على الجمود.

ومراعاة لاتجاه أهل العلم والتحقيق سبق أن كتبت فى مجلة «رحيق» وأكتب السطور الآتية أيضا، حتى يتم التفكير فى هذه المسائل على منهج أهل التحقيق من الأكابر. وإنى لا أظن أن أهل الحديث أقل حبا للشاه ولى الله وأبنائه وأحفاده، أو أقل حظا فى الاستفادة من تحقيقهم فى المسائل، ولكن كما قال الإمام مالك رحمه الله: ما من أحد إلا ويؤخذ من قوله ويرد عليه فلا يستثنى

أحد سوى الأنبياء من هذه الكليـــة ، ومع ذلك تنحنى الجباه أمام تحقيق الشاه ولى الله وأبنائه ، رحمهم الله وجعل الجنة مثواهم .

وبالنظر إلى منزلـة ديوبنـــد العلمية وعلو مكانة الشاه ولى الله رحمه الله تعالى ، لايمكن صرف النظر عن مسألة إذا جاءت من عندهم. وقد سبق أن ذكرنا الأحاديث الواردة فى هذا الباب بمتونها وأسانيدها وآراء أئمة الحديث وأقوال المحققين وما تيسر من الأدلة فى الموضوع فى صفحات مجلة رحيق .

آب حيـاة :

وقريبـا اطلعت على كـتاب الشيخ النانوتوى (آب حياة) بواسطة الأخ المحترم الشيخ محمد چراغ . وكنت من ذى قبل على يقين بعلمه وجلالة قدره ، وهذا الكـتاب قد زاد عندى منزلته واحترامه ، ومع ذلك أجدنى مضطرا للقول بأن أسلوب الكـتـاب ينبنى على التأويل لا التحقيق .

وقـد ألف الشيخ هذا الكـتاب فى الرد على وجهة نظر الشيعة نحو الوراثة النبوية ، واختار طريق المناظرة هذا للتخلص من شبهات الشيعة ، وذلك بأن النبى ﷺ حى بجسمه وهذه الحياة دنيوية ، وعلى هذا لايأتى سؤال وراثته ، ومع احترامنا البـالغ للشيخ فلاشك أن هذا طريق المناظرة ، ولا تنحل به النصوص التى تذكر وفاة النبى ﷺ

وانتقاله من هذه الدنيا ودفنه ، وقد صرح القرآن الكريم فقال : ﴿إنك ميت وإنهم ميتون[١]﴾ ، و وردت فى الأحاديث تفاصيل وفاته ، ثم خطبة أبى بكر وسكوت الصحابة و رجوع عمر وحزن أمهات المؤمنين كل ذلك ليس بحيث نصرف عنه النظر لمكانة الشيخ النانوتوى العلمية .

ثم إن أكابر ديوبند أو أكثرهم لايتفقون مع الشيخ فى هذه العقيدة ، وليست حقيقتها أكثر من تخيل صوفى ، ويعارضها التعبير الظاهرى لنصوص الحديث ، ولا نقول شيئا فى الجمود التقليدى ، ولكن البصيرة الدينية تأبى قبول هذا التأويل ، ولذلك نقول لأبناء ديوبند مع الأدب : إن أكابر ديوبند يستحقون الاحترام دون شك ، ولكن ليسوا مثل أبى حنيفة وأبى يوسف فى هذا العصر حتى نسلم جميع ما يقولون تقليدا لهم ، ولذا نرجو بذل الجهد حذرا من الجمود ، فإن الكتاب والسنة بيننا وكذلك تصريح الأئمة السلف ، ولا قول لأحد مع الله ورسوله .

حياة النبى وأهل الحديث :

وإنى مسرور بأن مثل هذه الزلة لم تصدر عن أحد من أكابر أهل الحديث ، ولايخفى ما للأسرة الغزنوية من أكابرنا من الشغف

---

(١) الزمر : ٣٠

والاتصال بالتصوف ، ولكن لم يصب الشيخ عبد الله الغزنوى ولا أحد من أبنائه وتلاميذه بمثل هذا الجمود فى العقيدة ، فالحمد لله على ذلك .

والذين استفادوا من علوم الشاه إسحاق بواسطة شيخ الكل السيد نذير حسين كانوا بمعزل عن مثل هذا الاعتقاد ، وكذلك سلم من هذه التأويلات الضعيفة المهملة الذين استفادوا من علماء اليمن فى علوم السنة ، وهذه السلامة قد تحققت بناء على خلو الطريقتين من الجمود التقليدى ، ففيهم احترام الأساتذة ولكن ليس على سبيل الجمود والتقليد ، وهذه هى سبيل المحدثين الحقيق . ومنذ أن وصف النقد التحقيقى بسوء الأدب سد الجمود سبل العقل والفكر وتركت الأذهانُ التفكير .

موقفى فى الكتابة :

كنت انتقدت كلام هؤلاء الأساطين فى كتابتى بالتزام حدود الأدب . ولوكانت هذه المسألة آتية من قبل بريلى لما رأيت حاجة لكتابة كلمة واحدة فيها ، فإن أهل بريلى لم يعرفوا التفكير ، وليس لهم تأثير فى وسط علمى .

ولكن حملنى على هذا النقد ما لأكابر ديوبند من الاحترام العلمى وتأثيره البالغ ، حتى يتعلم الطلاب النقد العلمى وعادة البحث والنظر .

وكانت لكتابتى آثار عجيبة فى أوساط مختلفة، فقد أعجب بها البعض جدا لأنها جاءت فى أوانها، وتناقلتها عدة جرائد الهند وباكستان. وكرهها البعض الآخر أشد الكره ورآها اساءة إلى أكابر ديوبند، أعاذنى الله من ذلك.

وقد انتقدها البعض فى بعض أجزائها نقدا سليما، وأشار إلى أنها لا تروى الغلة مع بسطها المعتدل، فبعض النواحى مجملة لابد من توضيحها.

ورأى البعض أن المسألة بأساسها تحتاج إلى إعادة النظر إلى جميع نواحيها فى ضوء النصوص. والرسائل التى وصلتنى بالبريد تنحو نفس المنحى.

نظرية المنشى محمد شفيع:

فقد لفت صديقنا المحترم المنشى محمد شفيع اللاهورى (مشربه ديوبندى، وهومحب للحق ومتعود على البحث والنظر والنقد والتحقيق) النظر إلى أن بعض جوانب المسألة محل للنظر، ولذا ينبغى أن نفكر فيها أكثر.

وإنى كنت قلت فى كتابتى إن حياة الأنبياء عليها إجماع الأمة، ومع أن صحة الأحاديث محل للنظر ولكنها تفيد بأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام:

إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء[١].

ويقول المنشى : إن هذه الكلية ليست صحيحة بأن أجساد جميع الأنبياء حرام على الأرض ، فقد علم عن أجساد بعض الأنبياء أن الأرض غيرتها ، فقد نقل الحافظ نور الدين الهيثمى (م — ٨٠٧ هـ) فى مجمع الزوائد من أبى يعلى والطبرانى حديث أبى موسى وعلى : فقال علماء بنى اسرائيل أن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه ... إلى أن قال : فلما احتفروا أخرجوا عظام يوسف .

وترتيب الألفاظ فى حديث على هكذا : قال له إنك عند قبر يوسف فاحتمل عظامه وقد استوى القبر بالأرض ، إلى أن قال : فاخرج العظام وجاوز البحر[٢].

ويرى المنشى أن الأحاديث التى وردت فى سلامة الجسد الأطهر ليست صحيحة، ولكن رواية أبى يعلى صحيحة بأن عظام يوسف عليه السلام قد حملها موسى عليه السلام معه ، أى كان الجلد واللحم قد بليا وبقيت العظام . وقد قال الهيثمى فى رواية أبى يعلى : رجال أبى يعلى رجال الصحيح ، وهذا الذى حملنى على سياقها .

---

(١) ابن ماجه ص ٧٧ ، ١١٩ ، والترغيب للمنذرى ٢/١١

(٢) مجمع الزوائد ١٠/١٧١

وقال فى رواية الطبرانى : رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه من لا أعرفهم .

ونقل المنشى نفس هذا المعنى من البداية والنهاية لابن كثير[(١)]. ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام .

ونجد نصا آخر فى ابن خلدون[(٢)] يؤيد المنشى : لما فتح يوشع مدينة أريحاء سار إلى نابلس فملكها ودفن هنالك شلو يوسف عليه السلام ، وكانوا حملوه معهم عند خروجهم من مصر ، وقد ذكرنا أنه كان أوصى بذلك عند موته .

وبهذه النصوص يبدو أن حكم عدم أكل الأرض الأجساد ليس عاما لجميع الأنبياء ، بل استثنى منه البعض .

وعلى أهل العلم أن ينظروا فى هذه النصوص ويحاولوا التوفيق أو الترجيح بين النصوص التى تبدو متعارضة ، والمرجو من المتوسلين إلى ديوبند خاصة أن يثبتوا مذهب أكابرهم فى ضوء هذه النصوص ، فإن المسائل لا تنحل بالعصبية أو السخط ، ولا الاعتقاد المفرط يحل محل الأدلة والبراهين .

والظاهر أن هذه الأدلة المتعارضة لا تؤثر فى الحياة البرزخية ،

---

(١) البداية والنهاية ٢٧٥/١

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٣١/١

فإنها ثابتة فى جميع الأحوال ، ومع وجود أحاديث العذاب والثواب فى القبر لابد أن توجد صورة للحيـاة فى القبر ، ولكن المشكلة فى الحيـاة النوعية ، وخاصة إذا فهمناها جسمية دنيوية ، ووجهة نظر البريلوية تزيد المسألة إشكالا ، فإنهم يرون أن صلحاء الأمة يكلفون فى القبر ببعض التكاليف الشرعية أيضا ، وكذلك عُرفت عندهم قصص العلاقات الزوجية أيضا .

وقد فصل صاحب روح المعانى تفصيلا كافيا ضمن مبحث حياة الشهداء عن أنواع هذه الحياة ، ويبدو أن المنشى محمد شفيع يقول بالحياة البرزخية للأنبياء عليهم السلام ، ولكنه لايرى الجسم ضروريا لهذه الحياة ، ولايشعر بضرورة لوازم الحياة الدنيوية لها .

تحليل أدلـة المنشى :

ولاشك أن الأدلـة تسع مثل هذا الرأى ، فإن يُقبل التصور الجسمى والدنيوى للحيـاة ، فلا مانع من قبول تصور المنشى هذا ؟ ولكنى أرى أن أدلة المنشى تبدو ضعيفة ومرجوحة من عدة وجوه :

١ — إن حديث : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبيـاء » . وإن لم يصح سندا ولكن علو المنزلة الحاصل للأصول الستة على الطبرانى وأبى يعلى لا يصرف النظر عنه ، فهذه الأصول من حيث المجموع فوق الطبرانى وغيره . وقول

أئمة الحديث يستدلون بكتب الطبقة الرابعة بعد النقد والتحقيق، أو يستدل بها أهل البدعة الذين يهدفون إلى تأييد بدعهم ولا يهتمون بقوة الدلائل[1].

٢ — والحافظ الهيثمى قد اعتنى فى مجمع الزوائد بجمع الزوائد فقط، حتى تبرز المواد لأهل العلم، ولذا لا يتكلم على هذه الزوائد باستيعاب ولايخوض فى تفاصيل الجرح والقدح أيضا.

٣ — وإنه قال فى رواية أبى يعلى: «رجاله رجال الصحيح» وهذا يدل على أن أصحاب الصحيح اعتمدوا على رجال هذا السند، ولكن ذلك لا يكفى لصحة الحديث، فقد روى مسلم فى الشواهد عن رجال تكلم فيهم أئمة الحديث، وإنه قد ذكر ذلك فى مقدمة صحيحه.

٤ — ثم هناك شروط أخرى لتصحيح الحديث سوى ثقة الرجال، ولا يُدعى فى المراسيل والمقطوعات بصحة الحديث مع وجود الرجال الثقات، ولذا ينبغى أن تكون شروط الراوى والرواية أمام النظر.

٥ — ويقول الهيثمى عن رواية الطبرانى: رواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه من لم أعرفهم. فالرواية التى رويت عن رجال معروفين كيف

---

(١) حجة الله البالغة ٢٨٥/١

يدّعى بصحتها. وبازاء هذه الروايات الضعيفة قد قبل جمهور الأمة رواية ابن ماجه مع ضعفها، وهى: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» ولذا إنها تترجح على روايات أبى يعلى والطبرانى الضعيفة، لتلق الأمة مفهومها بالقبول. والقرائن تقتضى أن ترجح رواية ابن ماجه، وتُسلّم سلامة الجسم مثل تسليم الحياة البرزخية.

٦ — ثم إن تسليم رواية ابن ماجه على علاتها يرفع التعارض أيضا، وذلك بأن يراد بالعظام فى رواية أبى يعلى والطبرانى نعش يوسف عليه السلام، كما ورد فى البداية النهاية[1] بلفظ: أخرجوا معهم تابوته، فلا يُستبعد تعبير العظام بالتابوت وبالعكس، وقد عُرف ارادة الجسم بالعظام فى مثل هذه المواضع.

وقد ذكر القرآن الكريم عقيدة منكرى البعث بهذه الألفاظ: ﴿من يحيى العظام وهى رميم[2]﴾. ومن المعلوم أن الكفار كانوا ينكرون بعث الأجساد، والعجب من احياء العظام يعبر عن هذه الحقيقة، فالمقصود: من يحيى الأجسام البالية. وكذلك يراد بقوله فى الحديث: «فاحتمل عظامه»

---

(١) البداية والنهاية ٢٧٥/١

(٢) يس: ٧٨

احتمل جسمه. وبهذا المعنى ينتفى التعارض بين الأحاديث، وكما أعلم أن الصحيح هو المذهب الذى اختاره أئمة السنة والحديث.

٧ — وكلام ابن خلدون أيضا محل للنظر، فإن موسى عليه السلام جاء بنعش يوسف معه من مصر، وأقامت بنو اسرائيل أربعين سنة فى التيه، ولم يستعدوا مع الجهد والتمنى للهجوم على بلد مجاور، ومات موسى وهارون فى هذه الفترة، فقاد يوشع بنى اسرائيل، وفتح مدينتى أريحاء ونابلس، فالمظنون أن هذه الفترة طالت سنوات. يقول ابن خلدون عند ذكر خروج بنى اسرائيل من مصر: وأخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام[١] وقد استعمل ابن خلدون كلمتى تابوت وشلو كليهما. وقد ذكر المسعودى فى رواية صورة التابوت أيضا: قبض الله يوسف بمصر وله مائة وعشرون سنة، وجعل فى تابوت الرخام وسد بالرصاص وطلى بالأطلية الدافعة للهواء والماء[٢].

ولا يعلم هل دفنت فى هذه الفترة عظام يوسف أو تابوته فى التيه، ثم دفنت فى نابلس بعد اخراجها، إن التاريخ ساكت عن هذه التفاصيل، والنصوص التى نجدها هى روايات اسرائيلية

(١) تأريخ ابن خلدون ١/ ١٢٣

(٢) أيضا ١/ ٤٧

يصعب الترجيح على أساسها. فالرأى الذى قبله جمهور الأمة هو الذى يترجح مع وجود الضعف فى الروايات. وهذه الوقائع كلها بأسلوب أخبارى، وهذا الأسلوب لايساوى أسلوب الحديث والمحدثين.

٨ — قد ذكر أبو القاسم السهيلى أجسام بعض شهداء أحد والصلحاء فقال: إنها خرجت من قبورها بعد عدة سنوات صحيحة سليمة ثم دفنت فى موضع آخر، ثم يقول: والأخبار بذلك صحيحة(١).

ثم يقول: «قال عليه السلام: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، أخرجه سليمان بن أشعث، وذكر أبو جعفر الداودى فى كتاب التأسى هذا الحديث بزيادة وذكر الشهداء والعلماء والمؤذنين، وهو زيادة غريبة لم تقع (لى) فى مسند غير أن الداودى من أهل الثقة والعلم».

ومع أن السهيلى والشوكانى ذكرا عن هذه الأحاديث الصحة والوثوق، ولكن مع ذلك أعترف بأن هذه الذخيرة لا تخلو من ضعف. وقد انتقدها البخارى والمنذرى والذهبى وغيرهم من أئمة الفن، وهؤلاء أوثق من السهيلى فى هذا الفن. ولذا لو أصر المنشى على رأيه فله ذلك.

---

(١) الروض الأنف ٣٢/١

ومرة أخرى أبدى رجائى من أبناء ديوبند أن يكتبوا فى هذا الموضوع بالتحقيق، ولا يكتفوا بتقليد الأساتذة الأكابر، وكذلك لا يحملوا ملاحظاتى على اساءة الأدب فيسخطوا، فإن العلم أمانة، والجهل عن الحقائق خيانة، والتمسك بالنصوص ديانة، والاعراض عن التحريف والتأويل صيانة، ومن حرم عن ذلك فقد حرم بعض الخير، والله ولى التوفيق، عليـــه توكلت وهو حسبى ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، عليه أعتمد وإليه أنيب.

(جريدة الاعتصام بلاهور ٢٧/١٠ عدد ١٩٥٩/١/٣٠م).

‡ ※●※◇※●※ ‡

الفصل الثامن

فى

زيارة القبور

الرؤية الجاهلية والإسلامية عن القبر :

يطلق « القبر » على الأرض العميقة ، ولذلك يطلق على الحفرة التى تحفر لدفن الميت ، وقد ذكر القرآن الكريم القبر لعدة مقاصد ، يقول تعالى : ﴿ثم أماته فأقبره ـ عبس : ٢١﴾ .

فالقصد هنا هو التحدث بالنعمة ، أى صينت جثة الانسان من المهانة والذل بالدفن .

وقد ذكر ضمنا فى واقعة أخرى :

﴿ولا تقم على قبره ـ التوبة : ٨٤﴾ .

و ﴿حتى زرتم المقابر ـ التكاثر : ٢﴾ .

و ﴿يبعث من فى القبور ـ الحج : ٧﴾ .

و ﴿وإذا القبور بعثرت ـ الانفطار : ٤﴾ .

و ذكر القبر فى هذه المواضع للدلالة على ما يحدث وللتذكرة ، ولم يرد به نوع من التكريم أو التحقير .

وفى بداية التاريخ كان هابيل أول قتيل ظلما ، وكان القاتل متحيرا كيف وأين يذهب بالجثة ؟ ثم إنه عرف بدلالة غراب أن الجثث تدفن فى الأرض . وهذا الحادث يدل على عجلة الانسان وجهله . ثم إن هابيل كان رجلا صالحا ، ولكن الانسان لم يؤمر بأن يجعل له قبة أو يكرمه تكريما مع أنه قتل مظلوما .

أصحاب الكهف :

ويشبه ذلك حادث أصحاب الكهف ، فهؤلاء الشباب خرجوا مهاجرين فى سبيل الله ولجأوا إلى غار خوفا من الحكومة الظالمة فأخذتهم السنة ، يقول تعالى : ﴿تحسبهم أيقاظا وهم رقود[1]﴾ وناموا، وبما أن الغار كان فيه خطر بنى الناس هناك مسجدا. واتخذ أهل الابتداع هذا الحادث دليلا على جواز بناء المساجد على القبور، ولكن هذا الاستدلال ليس فى محله قطعا، فإن الموت لم يطرأ على أصحاب الكهف كما نص عليه القرآن ، بل كانوا أحياء نائمين ، وليس قبر أو موت ، والتعبير عن مثواهم بالقبر الفخرى خطأ فاحش ولغو.

الأنبياء السابقون رحمهم الله :

قد ذكر القرآن الكريم قصص الأنبياء بالتفصيل اللازم ، وأكثرهم توفوا على الأرض ودفنوا فيها، يقول تعالى: ﴿وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين[2]﴾ .

فإنهم كانوا يأكلون الطعام ، ولم يكتب لهم الخلود ، وهذه

---

(١) الكهف : ١٨

(٢) الأنبياء : ٨

هى سنة الله تعالى : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى[١]﴾ .

فالأنبياء عليهم السلام لم يستثنوا من هذه الكلية ، ولكن مع ذلك لم يعلم موضع قبر أحد منهم بالوجه الصحيح . ولا أقيم عليه عيد ، ولا حكى عن نبى أنه ذهب لزيارة قبر نبى آخر ، أو أمر أمته أن يعاملوا هذه المعاملة مع قبره ، أو تقدم النذور لقبر نبى من الأنبياء . وتعليم الأنبياء فى هذا الباب واضح جدا ، أى أنهم لم يولوا أى أهمية لأى قبر من القبور ، وهذا يدل على أن الشرائع السابقة أيضا لم تذهب هذا المذهب فى القبور .

تقاليد ما قبل الإسلام :

والدين الصحيح لم يُعط القبور أهميةً ما ، ولكن الأخطاء التى ارتكبها العامة وأعداء الأنبياء فى هذا الأمر قد ذكرت تفاصيلها فى الأحاديث ، وبها نعلم الأبواب الخفية التى أوجدها الشيطان وأتباعه . ومن عادة المشركين أنهم كانوا يخالفون الأنبياء عليهم السلام وأهل الحق فى حياتهم ، ولما ارتحلوا بدأوا يصنعون لهم تماثيل وصورا ، واتخذوا قبورهم وسيلة للحصول على أقواتهم .

والأحاديث الشريفة دلنا على المفاسد التالية من القبور ، ويمكن

(١) طه : ٥٥

أن نعبر عنها بالزيارة الجاهلية :

١ — تجصيص القبور والانفاق عليها دون حاجة .

٢ — السجود عليها والاستعانة بها .

٣ — بناء المساجد والمعابد عند القبور ، وكسب الدنيا بمجاورتها والمرابطة عندها .

٤ — الاحتفال عند القبور مثل الأعياد والاجتماع عندها وإظهار الفرح لديها .

وكما أن الأحاديث تدل على هذه الأمراض ، فكذلك تدل على الكراهة والتنفر، وأقوال النبي ﷺ تنبىء أنه كان خبيرا بالأمراض القديمة ، وكان يود أن ينقذ أمته من الآثار السيئة التى ظهرت فى الأمم السابقة بهذه العادات والتقاليد . ويبدو أن التعلق بالقبور على هذه الطريقة يؤدى إلى العقائد الشركية .

وأسلوب أقوال النبي ﷺ يبين مدى تأسفه وتألمه على أهل الكتاب ، والأسباب التى لعنهم بها كان منها الطريقة السائدة لزيارة القبور .

أحاديث النبي ﷺ :

١ — عن جابر قال نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يبنى

عليه وأن يقعد عليه، و روى أن يكتب عليها[1].

٢ — عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة، وإنها بأرض الحبشة، وذكرت له ما رأيت فيها من الصور، فقال رسول الله ﷺ: أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله[2].

ويُعلم من بعض الأحاديث أن ذلك وقع للنبى ﷺ فى مرضه الأخير. وهذه الأحاديث تبين عدم جواز تجصيص القبور، وأن لايبنى قربها معبد، وأن لايبنى بناء على القبور لاحترامها، فإن هذا العمل شر عند النبى ﷺ، ومن يقوم به هو شر خلق الله.

٣ — عن عطاء بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. رواه مالك مرسلا. ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا.

---

(١) مسلم ٦٦٧/٢، (٩٤)، وأحمد ٢٩٥/٣، ٣٣٢، ٣٩٩، و ٢٩٩/٦

(٢) فتح البارى ٥٢٤/١، ٥٣١، ومسلم ٣٧٥/١–٣٧٦

التواتر:

وقد رويت عن النبي ﷺ أحاديث هذا المعنى بتواتر، وقد لعن النبي ﷺ في بعضها على من يفعل ذلك: فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتشديد فيه[1].

وقد روى هذا الحديث في صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود وأبي حاتم والترمذي والنسائي والمنتقى، عن أبي هريرة وعبد الله بن مسعود وعائشة وعبد الله بن عباس وجندب بن عبد الله البجلي وغيرهم من الصحابة.

ومعنى الحديث واضح، أي يحرم السجود نحو القبر والتوجه إليه مثل القبلة، وقد ورد في رواية جندب بن عبد الله: ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك[2].

وفي هذا الحديث ورد ذكر الصلحاء أيضا مع الأنبياء، ثم شدد في النهي عن جعل القبور مساجد. والقبور التي تعبد هكذا فهي في حكم الوثن عند النبي ﷺ:

عن أبي مرثد الغنوي قال: قال رسول الله ﷺ: لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها[3].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٧٦٢، ٧٦٥، طبعة العبيكان.

(٢) صحيح مسلم ١/٣٧٨ (٢٣)

(٣) أيضا ٢/٦٦٨ (٩٧، ٩٨)

وإن ذهب أثر القبر واستوت الأرض صحت الصلاة ، فقد روى عن مسجد الخيف والحرم المكى والمسجد النبوى انه كان فى بعض منهـا قبور بعض المشركين و بعض الأنبياء عليهم السلام ، ولكنها انعدمت الآن جميعـا ، ولذا لم يبق خوف الشرك وجازت الصلاة فى مساجدها .

وكأن الشرع يقصد أن تكون المعابد بعيدة عن القبور تماما ، أى لايكون قبر فى مسجد ، ولا مسجد على قبر ، فإن حرمة القـبر تختلف عن حرمة المسجد ، ولاينبغى أن نجمع بينهما .

المسجد عند القبور :

ربما يبنى الناس عند المزارات والمقامات المساجد ، ويوهم ذلك أن الصلاة فى هذا المسجد أفضل، كأن الفضيلة حصلت للمسجد بسبب القبر! إن القول بأن بيت الله يفضل بشىء آخر يعنى صريحا أن النسبة إلى الخالق لم تمنح الفضل الذى منحته النسبة إلى المخلوق! ولكن الحق أن المسجد غنى بمكانته كما أن الله تعـالى غنى عن الخلق ، ولذا كره النبي ﷺ بناء المسجد عند القبور .

وقـد صرح بذلك فى رواية عائشة وجابر : إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا .

وفى رواية جابر : نهى أن يجصص القبر وأن يبنى عليه .

وهذا نهى عن بناء المسجد على القبر وعن البناء على القبر، وتكره الصلاة فى مثل هذه المساجد. بل لا تصح فيه الصلاة إذا رأى أحد أن هذا المسجد أولى بالقبول أو الصلاة فيه أفضل من غيره.

حفلات وأعياد على القبور:

ويبدو أن الشارع يهدف بالقبر إلى أن يذكر بالخراب وتعيد رؤيته مشهد الموت، ويبرز زوال الدنيا وفناؤها، ويزهد عن رونق الدنيا وبهجتها. ويتحقق هذا الهدف إذا لم توجد فى المقابر المبانى الرائعة مثل المدن، ولم يظهر الجمال والشوكة، والرخام والمرمر. وبناء مثل تاج محل لا يحقق مثل هذا الهدف، بل إنه يذكر الدنيا وثروتها وإسراف أهلها واقبالهم على متعها.

وكذلك ينافى هذا الهدف الصخب والضجة والحفلات والأعياد التى تقام على القبور، ولذلك نرى أن النبى ﷺ وجه أمته بما يأتى: عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبرى عيدا، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم[1]».

زيارة الوثنيين:

كان أهل الكتاب مكلفين بالأحكام السماوية، ولذا يُستغرب فشو عبادة القبور فيهم، ثم إن أمر التوحيد مشترك بين الشرائع،

(١) أبو داود ٦/٣١، وأحمد ٢/٣٦٧

وعبادة القبور وزيارتها الشركية تنافى تعاليم السماء وتوحيد الأنبياء، ولكن الأحاديث السابقة تدل على أن أهل الكتاب كانوا قد انحرفوا عن توجيهات السماء، وكانت عبادة القبور والمشاهد والحفلات والاجتماعات انتشرت فيهم بسبب اتباع الأوهام والظنون.

واتجاه عبادة القبور فى الوثنيين لا يبدو قويا، ولعل سببه اقتناعهم بالأصنام وانشغالهم بها عن القبور، فالذين تعودوا على عبادة الصلحاء القائمين كيف يعبدون الصلحاء الراقدين؟ ولما أمكن عبادة الأشخاص البارزين فلماذا يرتبط المرء بالمستورين فى القبور؟

أصل الداء:

والداء الأصيل فى عبادة الأصنام والقبور أن المشرك لا يؤمن بالإله الغائب، وإنه لا يستطيع أن يتيقن بأن الإله الغائب والمعبود المختفى يستطيع الاسعاف بحاجته، وإنه يشعر باخلاص وحرارة أن نظام هذا العالم الكبير لا يمكن أن يدبره إله غائب وحيد: ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا، إن هذا لشىء عجاب. ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق[1]﴾.

والحقيقة أن الناس اخترعوا التوسل بالأحياء والأموات، ومدارج المقابر ووسائط الأصنام حتى يستقر شىء أمام الأنظار

---

(١) سورة ص: ٥، ٧

ولو لم يكن دائما، ولاحرج أن زاد عدد الآلهة الوهبية ، فإن الحكومة الإلهية كيف تستغنى عن الأمانة ؟

وجميع هذه الآفات نشأت بعلم الغيب ، فإن الأنبياء يدعون إلى الإله الغائب ، وأهل التوسل لا يطمئنون إلا بالشفعاء الظاهر والصلحاء الوهبيين ، ولذلك يروون هذه الغلة بالقبور حينا وبالأصنام حينا آخر .

وبما أن عباد الأصنام ارتاحوا بهذه الأوثان القائمة المرئية فلذا لم يحتاجوا إلى القبور كثيرا ، ولكن عقلية الشرك تبدو مساوية ، ولذا توجد بعض آثار عبادة القبور فيهم أيضا ، فقد قال ابن جرير فى تفسير سورة النجم : إن ابن عباس ومجاهدا وأبا صالح شددوا التاء فى اللات وقالوا : فإن رجلا بل السويق للحاج فمات فعكفوا على قبره فعبدوه[١] .

وقد حكى ذلك ابن كثير عن ربيع بن أنس[٢] ، وقد روى العلامة العينى فى شرح البخارى[٣] ، وصاحب التفسير المظهرى[٤] .

(١) ابن جرير ٢٧/٣٥

(٢) ابن كثير ٤/٢٥٣

(٣) البخارى ٩/٢٧٨

(٤) التفسير المظهرى ٩/١١٦

وصاحب روح المعانى[1] عن ابن المنذر عن ابن جريج : أنه كان رجل من ثقيف بل السويق بالزيت فلما توفى جعلوا قبره وثنا .

وهذه الآثار تدل على أن الوثنيين فى العرب ربما كانوا يعبدون القبور أيضا . والإسلام قد قضى على هذه العبادات كلها بفضل الإيمان بالغيب ، وأقرّ ذات الله وصفاته فى الأذهان على طريقة لم يشعر بعدها المؤمنون بحاجة إلى صنم أو قبر ، بل إنهم وقفوا أمام الله تعالى متوسلين بقلة بضاعتهم أو أعمالهم وفازوا فى مقصدهم : ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان[2]﴾ .

وقال تعالى : ﴿أدعونى أستجب لكم[3]﴾ .

فالمؤمنون بعد أن آمنوا بالإله الغائب قد استغنوا عن جميع الوسائل المصطنعة التى ابتلى بها الوثنيون السطحيون والقبوريون .

القبر المجصص :

كان مرجع عبادة القبور فى العصر القديم إلى الاعتقاد والتجارة معا مثلما نرى اليوم ، فحل « المتاجرون بالعظام » محل الصلحاء والأتقياء ، وتحولت تكية فى عدة أسابيع إلى متجر ، وبدأ التجار

---

(١) الروح المعانى ٥٥/٢٧

(٢) البقرة : ١٨٦

(٣) غافر : ٦٠

يمارسون تجارة بالغة فى الربح .

وقد منع الشارع الحكيم تجصيص القبر ، كما مر فى حديث جابر ، بل أمر بهدم ما بنى على القبر ، فقد روى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ أمر عليا : أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته .

وقد حافظ علىّ على هذا العهد فى ولايته ، وعين له أبا الهياج الأسدى .

وهذه الفوضى فى القبور قد وصلت إلى أن الناس عبدوا قبور بعض النساء المومسات ، وأناروا عليها السراج ، ويكسبون بها المال ، أعاذنا الله من ذلك .

يقول الإمام الشافعى : « وأحب أن لا يبنى ولا يجصص فإن ذلك للزينة والخيلاء ، وليس الموت موضع واحد منهما ، ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصصة » (قال الراوى) عن طاوس أن رسول الله ﷺ نهى أن تبنى القبور أو تجصص .

قال الشافعى : « وقد رأيت من الولاة من يهدم بمكة ما تبنى فيها فلم أر الفقهاء يعيبون[1] » .

وقال مالك : « أكره تجصيص القبور والبناء عليها ، وهذه

---

(١) الأم للشافعى ٣٤٦/١

الحجارة التى يبنى عليها[١]».

وقد ذكر كذلك مزيدا من الآثار فى نفس المعنى.

قال سحنون: «فهذه آثار فى تسويتها فكيف بمن يريد أن يبنى عليها[٢]».

وقال العلامة الشامى: «وأما البناء عليه فلم أر من اختار جوازه[٣]».

ثم حكى عن الإمام أبى حنيفة: وعن أبى حنيفة يكره أن يبنى عليه بناء من بيت أو قبة ونحو ذلك، لما روى جابر: نهى رسول الله ﷺ[٤].

وقال الكاسانى فى البدائع والصنائع: وكره أبو حنيفة البناء على القبور وأن يعلم بعلامة، وكره أبو يوسف الكتابة[٥].

الزيارة المسنونة:

سبق أن ذكرنا زيارة الجاهلية وأقوال النبى ﷺ فيها، فلنبحث الآن الزيارة المسنونة وأهدافها:

عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن

---

(١) المدونة الكبرى ص ١٨٩

(٢) نفس المصدر

(٣) الشامى ١/٩٣٧

(٤) أيضا ١/٩٣٧

(٥) البدائع والصنائع ١/٣٢٠

زيارة القبور، فزوروها فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة[١].

ويقول العلامة الكاسانى بعد ذكر رواية جابر: لأن ذلك من باب الزينة ولا حاجة بالميت إليها، ولأنه تضييع المال بلا فائدة فكان مكروها[٢].

وبناء على هذا التصريح من الشامى لايجوز بناء شيء يظهر الزينة والجمال فى المقابر باتفاق من الأئمة، ولتكن المقبرة خربة. والقبور التى أقيمت عليها المبانى لا يتحقق منها هدف الزيارة، فالواجب للزيارة المسنونة أن يظهر منها الزهد وتذكر الآخرة. والقباب والمبانى التى أقيمت على قبور العلماء وأهل الله يكرهها الشرع قطعا، بل لا تصح باتفاق من العلماء.

الدعاء المسنون:

وحينما يزور المرء القبر يسلم عليه ويدعو للميت مثل الجنازة فيقول: السلام عليكم أهل الديار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.

وهناك أدعية أخرى رويت عن النبى ﷺ، وهى معروفة عند أهل العلم.

---

(١) مسلم ٢/٦٧١، و٣/١٥٦٤، والترمذى ٣/٣٧٠، والموطأ ٢/٤٨٥، والنسائى ٢/٤٣٦، وأحمد ٣/٣٨، وابن ماجه ١/٥٠١

(٢) البدائع والصنائع ١/٣٢٠

متى بدأت عبادة القبور :

انتشرت قبل بعث النبي ﷺ عبادة القبور فى اليهود والنصارى أكثر، وكان هذا النوع من الشرك يوجد فى المشركين أيضا، ولكن كان قليلا، كما سبق ذكره.

وقد بدأ اتجاه عبادة القبور فى القرن الثالث، وفقا لقول النبي ﷺ : لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل.

وقد ولد الامام الشافعى فى عام (١٥٠هـ) وقد سبق قوله بأنه رأى قبور الأنصار والمهاجرين، إنها كانت خالية من البناء وكانت ساذجة. وإنه قد توفى (٢٠٤هـ) وكانت مقابر البقيع والمعلى ساذجة إلى ذلك الوقت، وذلك أن أهل العلم كانوا بكثرة، ولذا لم يمكن أن تنتشر جهالة البناء على القبور.

ولما وصلت الفتوح الاسلامية إلى البلدان النائية، وفتحت مناطق فارس والروم، وأثرت تعاليم الاسلام فى نفوس الناس، فتأثر المسلمون أيضا بعادات وتقاليد الأمم المفتوحة.

وكان التصوف فى الاسلام عبارة عن الزهد فى الدنيا والتوكل على الله والالتزام بأحكامه. وكان المسلمون يتوكلون على الله بعد بذل أقصى الجهد، ولم يكن هناك نظام الخوانق والتكايا ولا غلو الاعتقاد والاحترام.

وحينما اختلط تعليم الإسلام بآثار اليهود والنصارى وأمم مصر والهند ظهرت صورة نظام التكايا، وصار التصوف مركبا من تقليل الطعام وحبس النفس وعمل الأربعين وآداب المرشد والمريد وما إلى ذلك، وهذه الصفات نتيجة التصوف الذى أخذ من الخوانق وفقراء اليهود ونساك الهنـــد، أجرى فيه بعض التغيير ثم بذل جهد لجعل هذه الأمور ملائمة للإسلام. وكانت تتضمن بعض الفوائد والآثار النفسية فتحولت إلى فن. والصورة المعاصرة لعبادة القبور ناشئة عن ذلك النظام الخانقاهى وعن تلك الخلفية.

والاعتقاد الغالى فى المرشد والمريد قـــد أدى إلى جعل الشيخ نائبا عن الله ورسوله، ومنع من نقده واعتراضه. وهذا كما قيل[1]:

«لوّن سجادتك بالخمر إن قال المرشد الخبير، فإن السالك لايجهل طرق وآداب المراحل».

كان من محاسن نظام الخوانق أنه يورث عاطفة بالغة للطاعة، وكانت حركة حسن بن الصباح الباطنية بأسرها مؤسسة على عاطفـــة الطاعة، وكان من غلو هذه العـــاطفة أن لم يكن هناك إذن للتكلم للمرء ولو رأى من مرشده قولا أو فعلا يعارض الشريعـــة، وجل

(١) النص بالفارسية:

بمـــى سجاده رنگين كن گرت پير مغان گويد
كه سالك بيخبر نبود زراه و رسم منزلهـا

ما عليه أن ينظر ويسمع ويطيع .

وهذا العيب لايزال يلزم نظام الخوانق اليوم، فمهما قدمت لهم الأدلة والبراهين من الكتاب والسنة ضد عبادة القبور وتأليه الانسان، ولكنهم يفضلون أقوال وأعمال مشايخهم وأصحابهم على الكتاب والسنة، ويأتون بنكات متنوعة .

ومع صعوبة تحديد الوقت يمكن أن نعرف تدرج هذا المرض، وأنه اشتد وتفاقم فى القرنين : السادس والسابع الهجرى، فكانت عدة طوائف من مصطنعى الصوفية قد زينت محلاتها ونشرت تجارتها، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية دخل فى المقاومة مع فقير من الفرقة الرفاعية، وقد سبق أن أثر فى الحكومة وأعيانها، إنه طلب من شيخ الإسلام أن يقتحم معه فى النار، ومن لم تحرقه النار هو الصادق .

فقال شيخ الإسلام : وقبل أن ندخل فى النار يجب أن نغتسل جميعا بالملح والخل .

ولكن الفقير لم يرض بذلك، وكتب الفوز لشيخ الإسلام. وقد سجل شيخ الإسلام هذا الحوار كاملا فى رسالته « الصوفية والفقراء[1] » .

إيقاد السراج :

وكما أن البناء على القبور من دواعى الشرك، فكذلك ورد النهى عن إيقاد السرج عليها وقال إنه من دواعى الشرك أيضا، قال الرسول

---

(١) مجموع شيخ الإسلام ٤٥٢/١١ ، ٤٧١

ﷺ: «لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج».

ويظهر بذلك أن العرب كانوا يوقدون السرج على القبور، ولذا احتاج النبي ﷺ إلى النهى عنه، وأبدى كراهيته له. ومن الواضح أن الفعل الذى يلعن عليه النبي ﷺ يكون ضرره فى الدين وخسارته فى الآخرة فوق تصور المرء.

تقديم الزهور إلى القبور:

إن تفكير مثقفى بلادنا عجيب، فإنهم يقبلون كل ما جاء من أوربا صما بكما، وحينما يقدم لهم تعليم الإسلام تتحول كل شعرة منهم إلى التساؤل والمناقشة.

وقد عرف فى أوربا أن الناس يقدمون إلى القبور الزهور والرياحين، فالمسلمون عندنا مع قلة تعمقهم فى الدين يقلدون الغربيين دون فهم وإدراك، فالزهور تقدم للقبور فى جميع المناطق، مع وضوح أن الميت لا ينتفع بذلك قليلا أو كثيرا، كما أن الميت لا ينتفع ولا يستضىء بنور السراج، ولا بروائح الفواكه، ولكن هذه العادة آتية من أوربا فإن المتنورين سيتمسكون بها. ولكن العقل يفرض ويقتضى أن نفكر فى هذه التقاليد بعد الترفع والتخلى عن العاطفية. وقد عمت الآن وشملت هذه العادة حتى صار تقديم الزهور إلى قبور الموتى جزءا من زيارات الملوك والوزراء،

ومعنى ذلك أن صارت هذه العادة فى الأوساط الرسمية دنيوية محضة، ولكن أوساط الخوانق لا تزال تظنها دينا وشريعة.

وعامة الناس يجهلون ذخائر السنة والتاريخ، ويرون القباب على القبور فى بغداد وكربلاء والنجف، فيحسبون أنها لابد وأن بنيت على أساس الأحكام الشرعية، ولكن الحقيقة بالعكس من ذلك.

وكان الإمام الحاكم صاحب المستدرك قد رأى هذه المزارات فقال: هذه الأسانيد صحيحة، وليس العمل عليها، فإن أئمة المسلمين من الشرق والغرب مكتوب على قبورهم، وهو عمل أخذ به الخلف عن السلف[1].

والحقيقة أن هذا العمل لم يثبت عن النبى ﷺ والصحابة، بل فعل ذلك من جاء بعدهم، وليس عملهم وقولهم هذا حجة، فضلا عن أن يكون ناسخا للحديث، فإن قول النبى ﷺ لاينسخ إلا بقوله ﷺ، يقول الإمام الذهبى فى تلخيص المستدرك: قلت ما قلت طائلا، ولا نعلم صحابيا فعل ذلك، وإنما شىء أحدثه بعض التابعين فمن بعدهم، ولم يبلغهم النهى[2].

---

(١) المستدرك ٣٧٠/١

(٢) نفس المصدر

الروضة النبوية «قبر النبي ﷺ»:

دفن جسم النبي ﷺ بعد الوفاة فى حجرته، ودفن فيها أبو بكر، وبعد أن دفن عمر فى الحجرة اتخذت عائشة جدارا فصلت به القبر عن البيت. وقد أجرى عبد الله بن الزبير ترميما فى الحجرة، وكانت القبور حينذاك غير مجصصة، وفى عصر الخليفة عمر بن عبد العزيز سقط الجدار الغربى، فأمر ابن المزاهم بتنظيف الحجرة وتجديد الجدار، وكانت الحجرة حينذاك مربعة، ثم أمر الخليفة عبد الملك بضم الحجرة إلى المسجد. وكان علماء المدينة المنورة يكرهون ذلك ويرون عدم إدخال القبور فى المسجد و وجوب الفصل بينهما. وقد زاد الخليفة عمر بن عبد العزيز زاوية فصار البناء مخمسا بعد أن كان مربعا، وبما أن القبلة كانت فى ناحية الجنوب فرأوا أن الزاوية إذا كانت فى ناحية الشمال فإن السجود لا يكون للقبر الشريف يقول ابن القيم فى ذلك:

فأجاب رب العالمين دعاءه   وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت أرجاؤه بدعائه   فى عزة وحماية وصيان

وتوالى بعد ذلك الترميم للحجرة، وكان دافع الحفاظ على آثار النبي ﷺ يدفع إلى الاكتفاء بالترميم فى الأغلب، وقد ذكر العلامة على بن عبد الله السمهودى فى كتابه «وفاء الوفاء بأخبار

دار المصطفى » ذلك بتفصيل .

وبعـد أن ضمت الحجرة إلى المسجد نصب شباك من الطوب حول الحجرة ، واتصل سقفها بسقف المسجد . ثم وضع المنصور بن قلاوون الصالحى (م — ٦٧٨ هـ) الخشب مكان الشباك وكان شبـاك الخشب مربعـا من تحته ومثمنا من فوقـه ، وكان ذلك يسمى بـ « قبـة الرزاق » وكان هذا العمل قد تم باشارة من الحـاكم كمال الدين بن أحمد بن برهان عبد القوى ولكن كرهه علماء ذلك العصر ، فلما عزل كمال الدين رأى الناس ذلك جزاء لعمله القبة .

ولما بليت هذه القبة رمّمها الملك ناصر حسن بن محمد قلاوون ، ثم رممهـا الملك أشرف بن حسين شعبان فى ٧٦٥ هـ ، واستمر هذا الترميم إلى أن تم بناء القبة الخضراء الحاليـة ، وقـد ذكر العلامة السمهودى هذه الترميات بتفصيل فى نحو مائة صفحة .

وقـد جرى هذا التغير بناء على المصالح البنائيـة والحكومية ، لا على أمر أو وصية من النبى ﷺ ، ولا وجد أثر من آثار الصحابة رضى الله عنهم يثبت به ذلك ، ولم يصح عقـلا أو نقلا الاستدلال ببناء القبة الخضراء على منارات وقباب القبور الأخرى ، فإن تغير القبة هذا لا يصلح أن يكون دليلا شرعيا .

وقد حرم المحققون من علماء الحنفية هذا الأمر بصراحة ،

يقول القاضى ثناء الله البانى بتى :

«اعلاء قبور الأولياء وبناء القباب عليها والاحتفال عندها وإيقاد السرج عليها . كل ذلك بدعة ، وكره ذلك البعض تحريما ، وقد لعن النبى ﷺ موقدى السراج عند القبور والساجدين لها ، وقال ﷺ : لا تجعلوا قبرى عيدا ومسجدا ، ولا تصلوا فى مسجد مثل هذا ، ولا تحتفلوا فيه فى يوم معين ، وإنه أرسل عليا رضى الله عنه لتسوية القبور المرتفعة ولمحو التصوير[1]» .

آداب الزيارة :

تسن زيارة عامة القبور، فليقرأ الزائر الدعاء المسنون لدى زيارة القبر، وقد رويت ألفاظ الدعاء عن النبى ﷺ ، ومع وجود الخلاف فيها نجد أمرا مشتركا بينها، وهو أن جميع صيغ هذه الدعاء تتضمن الدعاء لصاحب القبر ، ولم يطلب شيء من صاحب القبر ، ومراعاة هذا الأدب ضرورية جدا، لأن دعاء المرء الله تعالى لنفسه أو لغيره عبادة ، فمتى صُرف هذا الدعاء إلى الغير يكون عبادة له . وقد قال النبى ﷺ : الدعاء مخ العبادة .

وورد فى حديث آخر : الدعاء هو العبادة .

وعبادة غير الله شرك فى الحقيقة .

---

(١) ارشاد الطالبين ص ٢٠

والعبادة حق خاص بالله تعالى، لايشاركه فيه ولى أو نبى. ومن دعا نبيا أو وليا فإنه جعله شريكا لله تعالى.

ونعلم من هنا أن الزائر ان دعا الله تعالى لصاحب القبر وقت الزيارة فإن ذلك عبادة يثـاب عليه. وإن دعا هو صاحب القبر وسأله شيئا فإن ذلك شرك تحبط به أعماله.

بل المذهب الصحيح أن لايرى القبر موضع التقرب، ومن الخطأ أن يدعو عنده أحد ويحسب أن الدعاء يقبل عنده أو يقبل سريعا.

وقد اشتهر أثر يقول إن الامام الشافعى كان يرى قبر الامام أبي حنيفة موضع القبول، ولكنه خطأ لايتصل بالامام الشافعى بسند.

والطريقة الصحيحة الوحيدة للزيارة أن يقرأ الدعاء المسنون، ويسأل المغفرة للقبور، كما يفعل فى الجنازة، فإن أصحاب القبور لايستطيعون أن يأخذوا أو يعطوا شيئا، ولذا من العبث أن نسألهم شيئا، بل إن ذلك إثم.

الكذب والافتراء:

سمعنا عباد القبور يقولون: «إذا تحيرتم فى الأمور فاستعينوا بأهل القبور».

يقال: إن ذلك حديث، ولكن الواقع أنه ليس بحديث، فقد صرح المحدثون بأنه كذب، يقول ابن تيمية: هو كلام موضوع

مكذوب باتفاق العلماء[١].

ويقول الشاه ولى الله بعد هذه الرواية : هذا قول المجاورين ، افتروه على النبى ﷺ للحصول على النذور[٢]. والاستدلال بالأحاديث الموضوعة فى باب العقائد جهل.

وهكذا اخترع أهل البدعة رواية أخرى : فأعينونى يا عباد الله.

ولكن لم ترد هذه الكلمات فى حديث صحيح ، بل ورد عند أبى يعلى وغيره كما يأتى: إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله احبسوا على ، فإن لله فى الأرض حاضرا يحبسه.

وليس فى هذا ذكر الاستعانة بتصور الأولياء.

ويروى عن الشافعى : أصابنى ضيق فدعوت عند قبر أبى حنيفة فأجبت[٣].

وهذا افتراء على الشافعى لما يأتى :

فأولا : انه لما جاء بغداد لم يكن قبر الإمام فيها معروفا .

وثانيا: إن الشافعى كان قد جاء من الحجاز ، وكان فيها قبور الذين هم أفضل من الإمام أبى حنيفة بكثير وكانت هناك قبور

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٦٧٧

(٢) البلاغ المبين ص ٥٣

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٦٨٥

الصحابة ، فلماذا لم يعالج الشافعى فقره بالذهاب إليها ؟

وثالثا: لماذا لم تحصل هذه الوصيفة للإمام أبى يوسف والإمام محمد والإمام زفر من تلاميذ الإمام؟ ولماذ لم يدعوا عند قبر أستاذهم ؟ إن الإمام الشافعى وجد هذه الوصيفة فى الحجاز، وحُرم التلامذة الملازمون له ليلا ونهارا !

احتفال أهل بدر:

يقول عامة القبوريين فى خطبهم: إن النبى ﷺ كان يذهب إلى قبور شهداء بدر كل سنة. ولكن لم أجد هذا الحديث فى الصحاح، ولا ورد ذكره فى كتب التأريخ والسيرة، والمظنون أن أيدى القبوريين قد لعبت فيه.

وكان فى غزوة بدر قتل من صناديد قريش نحو من سبعين نفرا، وكلهم قد ألقوا فى قليب سوى أمية. واستشهد نحو أربعة عشر صحابيا، ولكن لم يعلم موضع دفنهم وكيفيته على وجه الصحة والتحديد.

فلوكان النبى ﷺ يذهب إلى قبورهم كل سنة بالتزام لذكر ذلك فى الأحاديث والآثار، ثم الجدير بالتأمل وجود هذه الطريقة فى الصحابة، فإنهم كانوا يعملون بكل سنة من سنن النبى ﷺ ويتفانون فى ذلك، ثم ان موقع بدر بعيد جدا من المدينة، والنبى ﷺ لم يتعود على مثل هذا السفر، ولم تكن أشغاله تسمح بذلك.

شهداء أحد:

قد ثبت فى شهداء أحد أن النبى ﷺ ذهب إلى أحد، ويبدو هذا صوابا، فإن أحدا جزء من المدينة المنورة، ولعل طريقها مثل البقيع. وهذا لايسمى سفرا، وإنه ﷺ لم يقم به كل سنة، بل ذهب فى عام ٨ هـ فقط، ودعا للشهداء، فقد جاء فى البخارى:

عن عقبة بن عامر قال: صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات[1].

وتكرر هذا الحديث فى ثلاثة مواضع من البخارى، مرة فى كتاب الجنائز، ومرتين فى كتاب المغازى، ويوجد خلاف يسير فى الألفاظ، وبهذا الحديث تظهر الأمور التالية:

١ – لم تكن هذه الزيارة كل عام، بل الواقع المذكور خاص بعام ٨ هـ

٢ – كان هذا الحادث حادث وداع، فإن النبى ﷺ لم يذهب بعده لزيارة شهداء أحد.

٣ – ألقى النبى ﷺ هناك خطبة، وكان ﷺ يلقى مثل هذه الخطب لدى الأمور المعتادة.

ولو فهمنا فى هذا الحديث من الصلاة معنى الدعاء فحسب لكان

---

(١) البخارى (١٧) ٣٤٨/٧

أنسب . والحنفية تكره صلاة الجنازة على القبر بعد خمس سنوات ، فإن تفسخ الجثة يقينى فى هذه المدة والشافعية تكره صلاة الجنازة على شهيد المعركة ، والأحاديث الصحيحة تقتضى ذلك ، فالقياس أن النبي ﷺ دعا دعوة مودّع فى سنة ٨ هـ ، ويمكن أن القبوريين ظنوا ذلك احتفالا ، ولكن الظاهر أن هذه الروايات لا تتحمل الاحتفال ، ثم حملوا هذا الواقع على بدر أيضا، فإن استدلالهم يكون بهذه المثابة .

المنامات والقصص :

إن الأوساط القبورية تعتمد كثيرا على المنامات والقصص الواهية ، وتثق بهذه المنسوجات العنكبوتية ، ولكن الحق أن المنامات والقصص ليست حجة شرعية .

ومن دأب أئمة السنة أنهم لايقبلون شيئا بدون سند ، ثم إنهم فى العقائد يستدلون بما تواتر وثبت من ذخيرة الحديث ، وفى الأعمال لايلتفتون إلى الضعاف والشواذ والمنكرات .

أما هؤلاء فيتعللون بالمنامات والأخبار الباطلة فى باب العقائد . إن أئمة الأصول قد صرحوا بأن منامات الأمة ليست حجة شرعية ولايثبت به حكم .

ثم إن مثل هذه القصص والمنامات توجد بكثرة لدى اليهود

والنصارى والهنود وغيرهم من الأمم الوثنية، فلو فتحنا هذا الباب للاستدلال لما تعسر إثبات الوثنية والمجوسية أيضا، ونبوة القادياني أيضا تعتمد على هذه المنامات.

نعش دانيال :

ذكر البيهقي في السنن الكبرى وابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم عن أبي العالية قال لما فتحنا تُستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرا عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف له. قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لاينبشونه[1].

أما رحمة الله تعالى على أهل الحق فإنها تنزل على الأحياء والأموات، ويمكن أن تنزل على دانيال، وقد نزلت على النبي ﷺ والأنبياء والصلحاء، بل نحن العصاة أيضا نرجو رحمته تعالى، واستدلال القبوريين بما مر فإن أحدا لم يستغث بدانيال حينذاك، ولا هو يجوز الآن، ولذا أخفى عمر ذلك القبر بحيث لايستطيع أحد أن يعرفه. وهذه التعمية دليل على أن الصحابة كانوا يرون الاستعانة والاستغاثة بالقبور غير جائز.

(١) مختصرا من اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٣٩

وقد كان ذلك بأمر من عمر ، ولم يعارضه أحد من الصحابة ، وهذا يدل على أن الصحابة كانوا على إجماع ضد هذه الأعمال الشركية، وإلا أنهم كانوا يصرحون لعمر أيضا بما كانوا يكرهون .

وهناك محاولة لتسوية آية خاصة بالموضوع أيضا ، يقول تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور[1] ﴾ .

معنى الآية واضح ، فمن « بيانية » والكفار بيان لأصحاب القبور، أى يُرجى الإيمان فى الحياة ، وكذلك يتعلق الأمل بأسباب أخرى لرحمة الله ، ولكن ليس هناك معقد أمل للكفار بعد الموت ، فالمسلمون الذين يتصلون بالكفار بعد الإسلام عليهم أن ييأسوا من رحمة الله . وعلى هذا ليس فى الآية مجال و سعة لعبادة القبور، وقد اتفق جميع المفسرين فى تفسير الآية على الأسلوب المذكور .

ومن الواضح أن القرآن قد نزل لمعالجة مثل هذه الأمراض ، فكيف يسمح بالشرك ؟

وقد ذكر الشاه عبد العزيز فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون[2] ﴾ . أقساما مختلفة للأنداد ، وفى القسم

---

(١) الممتحنة : ١٣

(٢) البقرة : ٢٢

الرابع منها ذكر عباد القبور فقال :

الرابع : يقول عباد المشايخ حينما يرتحل من هذه الدنيا رجل صالح صار بكماله فى الرياضة والمجاهدة مستجاب الدعوات ومقبول الشفاعة عند الله ، وتحصل لروحه قوة عظيمة وسعة كافية ، وكل من يجعل صورته برزخا أو يسجد ويتذلل فى موضع قيامه وقعوده، فتطلع عليه روحه لسعتها وإطلاقها ، وتشفع له فى الدنيا والآخرة(١).

فالشاه عبد العزيز يرى مثل هذا الاستمداد والاعانة ندا وشركا ، وإيجاب مثل هذه الوسائل والوسائط بين الله تعالى وخلقه اساءة ظن بالله ، يقول ابن القيم :

« ومن ظن له ولدا أو شريكا أو أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه أو ان بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه ويتوسلون بهم إليه ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه فيدعونهم ويخافونهم ويرجونهم فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه(٢)» .

---

(١) التفسير العزيزى ١/١٥١

(٢) الهدى ٢/١١٤

القاضى ثناء الله البانى بتى:

كان القاضى ثناء الله يتبع المذهب الحنفى، وكان صوفى المشرب، صاحب نظر فى الحديث، تحترمه طبقات الديوبندية والبريلوية وأهل الحديث، وله اعتقاد قوى فى مجدد الألف الثانى. وله مكانة عالية بين أقرانه فى العلم والفضل والزهد والتقوى والإنابة إلى الله، رحمه الله تعالى ورضى عنه ورفع درجته، إنه يقول فى إرشاد الطالبين ما ملخصه:

«لو قال أحد إن الله ورسوله شاهدان على هذا العمل لكفر، والأولياء لايوجدون المعدوم، ولايعدمون الموجود، ونسبة الايجاد أو الإعدام أو الرزق ومنح الأولاد ومنع الأذى والأمراض كفر، يقول تعالى: ﴿قل لا أملك لنفسى نفعا ولاضرا إلا ما شاء الله[1]﴾ ولا تجوز عبادة أحد سوى الله تعالى، ولاطلب النصر من أحد، وقوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين[2]﴾ يرشدنا إلى أن نستعين بالله وحده ونخصه وحده بالعبادة، وتقديم قوله: (إياك) يفيد الحصر، فلا يجوز أى نذر لأولياء الله، فإن النذر عبادة، فلونذر أحد مثل هذا النذر لما وجب عليه الوفاء به، فإن الحذر من المعصية ضرورى.

---

(١) الأعراف: ١٨٨

(٢) الفاتحة: ٤

ولايجوز طواف القبور ، فإن الطواف فى حكم الصلاة وهو حق بيت الله . ولايجوز دعاء الأولياء والأنبياء أحياء كانوا أو أمواتا ، فقد قال رسول الله ﷺ : إن الدعاء هو العبادة ، ثم هناك قول الله تعالى فى البقرة: ﴿ادعونى أستجب لكم﴾ . وقال تعالى : ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين[1]﴾ . والذين ينادون بـ « يا شيخ عبد القادر الجيلانى شيئا لله » ، أو بـ « خواجه شمس الدين شيئا لله » فإن ذلك شرك وكفر» .

ثم يقول : قوله تعالى : ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم[2]﴾ ، لا تخص عبّاد الأوثان فقط ، فإن قوله : (من دون الله) عام ، والعبرة فى الأحكام بعموم الألفاظ .

ثم يقول : إن ضمّ أحد إلى كلمة التوحيد قوله : « على ولى الله ، وأبو بكر ولى الله » عزر ، وكذلك لايجوز قول « يا محمد ، يا محمد » فى الذكر والورد[3] .

والاستدلال بالقرآن المجيد على الشرك دعاء غير الله عجيب ، ولكن حينما تفسد عقلية الأمم تظهر منها أغرب مما ذكر ، وهكذا

---

(١) غافر: ٦٠

(٢) الأعراف : ١٩٤

(٣) إرشاد الطالبين ص ١٩

حال إخواننا القبوريين ، إنهم يطلبون من القرآن أدلة على الشرك والكفر !!!

إن الكتاب والسنة يهدفان إلى القضاء على الكفر والشرك والبدع لا الحفاظ عليها ، وكانت حياة رسول الله ﷺ كلها حربا على الشرك ، ومقتضى حب الرسول واتباعه أن نعامل القبور المعاملة التى تجوز ، ونجتنب الأمور التى نهى عنها .

والذين نسميهم أولياء الله وصلوا إلى الولاية بإطاعة الله ورسوله ، فكل عمل يعارضه الكتاب والسنة ينافى الإتيان به حب الأولياء ، ولا اعتبار للعمل الدينى الذى يخلو من صبغة الكتاب والسنة ، ومثل هذه الأعمال يؤدى إلى الخزى والخسران فى الآخرة ، مهما كان الادعاء للحب والشغف ، وفقنا الله جميعا للعمل بالكتاب والسنة ، آمين .

⁑ ※ ● ※ ◇ ※ ● ※ ⁑

الفصل التاسع

فى

أسئلة عن مذهب أهل الحديث

والإجابة عنها

«كان المحامى الأستاذ عبد الحق قد تقدم بأسئلة إلى شيخ الحديث محمد اسماعيل السلفى أمير جمعية أهل الحديث المركزية، وقد أجاب عنها الشيخ اجابات شافية ننشرها فيما يلى»:

فأولا : الأسئلة :

١ — ما هو تعريف مذهب أهل الحديث (من حيث المذهب الفقهى) حرروا بألفاظ موجزة جامعة.

٢ — ما هو كتاب مذهب أهل الحديث فى أصول الفقه؟ أفيدوا باسم الكتاب ومؤلفه.

٣ — ما هى أصول فقه أهل الحديث؟

٤ — من هم المجتهدون لمذهب أهل الحديث، الذين لهم مؤلفات جامعة فى فقه أهل الحديث؟

٥ — كم قسما للمجتهدين فى مذهب أهل الحديث، وما هى الأوصاف اللازمة لكل قسم؟

٦ — ما هى شروط المفتى فى مذهب أهل الحديث، وهل يجب أن يكون مجتهدا؟

٧ — كم عالما يوجد فى الهند وباكستان يمكن أن نصفها بالمجتهد عند أهل الحديث، أفيدوا بأسمائهم وعناوينهم.

٨ — هل يوجد فقه أهل الحديث مدونا ومرتبا؟ إن وجد فمن

دوّنه ومتى ؟ وإن كان هناك كتاب جامع لفقه أهل الحديث فأفيدونا باسمه ومؤلفه .

٩ — أليس الاستمرار فى العمل بمثل هذا الفقه المدون دائما للعامى بمثـابة كونه حنفيـا أو شافعيا ، وما هو الفرق بين مثل هذا المقلد وبين الحنفى والشافعى ؟

١٠ — إن لم يكن فقه مذهب أهل الحديث مدونا ومرتبا فكيف يفتى علماء أهل الحـديث فى المسائل الاجتهادية التى يصل عددها إلى مئات الألوف ؟ هل يفتون على قول إمام فى الفقه واجتهاده ، وإن كان الواقع هو الثانى أفليس ذلك تقليـدا لذلك الإمام؟ وإن كان الواقع هو الأول فهل يبقى بذلك فى الأمة النظام والتناسق الذى يتحقق باتباع مذهب معين؟ فإن الاجتهاد الشخصى لمختلف علماء الحديث لابد وأن يختلف ، أفلا نخشى من ازدياد الاختلاف والتفرقة فى مثل هذه الصورة ؟

١١ — أى شىء أفضل للعمل من بين الاجتهاد الشخصى لعـالم من أهل الحـديث والفقه المدون المرتب للإمام أبى حنيفة والإمام الشافعى ؟ ولو اتبع عامى فى المسائل الاجتهادية فقه إمام من هؤلاء الأئمة أفلا يكون هذا العامى عاملا بالحديث خاصة إذا أبدى استعداده لترك مسائل إمامه التى تعارض الكتاب والسنة ؟

(ملاحظة: ليراجع الأقسام الأربع للتقليد فى كتاب معيار الحق لمؤلفه السيد الشيخ نذير حسين المحدث الدهلوى رحمه الله).

١٢ — هل يقدم علماء أهل الحديث لكل مسألة فقهية نصا صريحا من القرآن الكريم أو من الحديث الشريف، كما يقال إنه دأب ابن حزم الظاهرى، ثم ما هو الفرق بين مذهب أهل الحديث ومذهب الظاهرية؟

١٣ — إن كان الجواب بالإيجاب فالمرجو أن تعلنوا تقديم الآيات والأحاديث الصريحة لكل مسألة فقهية حتى لا يبقى مجال للمعترض.

١٤ — وإن كان الجواب بالنفى فعليكم أن تقدموا حول المسائل الفقهية بفتوى اجتهادية إلى المعارضين، لا تكون مروية عن أحد من الأئمة الأربعة، ولامعارضة للكتاب والسنة، ويكون قول علماء أهل الحديث المفتى به.

ولو أفتيتم على قول من أقوال الأئمة المجتهدين بعد أن وجدتموه موافقا للكتاب والسنة فلابد أن تقدموا مصدره من القرآن والحديث، وإلا كان ذلك تقليدا أعمى لذلك الإمام (بخلاف الاتباع) وهذا لا يجوز عندكم حسب قول أولئك المجتهدين بأنه لا يجوز الافتاء على قولنا بدون دليل.

والسلام

(عبد الخالق، كنده كوث)

الإجابة :

سررت بأنكم تهتمون بالدين مع اشتغالكم بالقانون. وأسلوب الأسئلة المذكورة ينم عن اتجاهكم الجدلى فى هذه الفروع الفقهية، وإنكم قد راعيتم القانون والمناظرة معا فى ترتيب هذه الأسئلة، ثم إن هذه الأسئلة تنم عن أنكم ترون أهل الحديث فرقة مضادة لأئمة الاجتهاد، مباينة لهم فى كل مسألة.

ودعوة الجمود التى تقدم اليوم من ديوبند وبريلى، وكذلك من متأخرى الشوافع فإن أهل الحديث يعارضونها كل المعارضة، ونحن لا نرضى بهذا الجمود قطعا، بل نراه منافيا لدعوة الإسلام العامة أيضا. والطالب المحب للعدل يصل بهذه الدعوة المتعصبة إلى نفس النتيجة التى وصلتم إليها.

ولكن دعوة أهل الحديث عامة جامعة فى الحقيقة، وهى تتضمن المساعى الفقهية لأئمة الاجتهاد والمذاهب الأربعة. وهدف هذه الدعوة استعراض هذه المساعى المباركة، وفهمها فى ضوء الكتاب والسنة، ويُنظر إلى منهج أئمة السلف وقت التوفيق والترجيح بين هذه الخلافيات. وأهل الحديث يختلفون جزئيا مع الفقه السائد، ولكن حركتهم تهدف بصفة أساسية إلى الاستفادة التحقيقية من علوم أئمة الاجتهاد وآثارهم، أى يكون الاختيار فى الجزئيات الفقهية على أساس العلم والبصيرة ثم تحمل هذه النظريات

المختلفة واحترام علوم الأئمة والاستفادة منها . . . كل ذلك من روح هذه الحركة . وبعد هذا البيان الأساسى الموجز نجيب على كل سؤال :

١ — مذهب أهل الحديث دعوة مؤسسة فى الأصول والفروع ، أى العقائد والأعمال على ظاهر الكتاب والسنة ومنهج أئمة السلف ، أى الصحابة رضى الله عنهم ، ولم تؤسس هذه الدعوة على اسم شخصية ما بعد النبى ﷺ .

٢ — مؤلفات أصول الفقه فيما يلى : الرسالة للإمام الشافعى ، روضة الناظر لابن قدامة ، احكام الأحكام لابن حزم ، الأحكام للآمدى ، التوضيح والتلويح للتفتازانى ، كشف الأسرار فى شرح أصول البزدوى ، الاحكام فى أصول الأحكام للعز بن عبد السلام ، القواعد لابن رجب ، القواعد والفوائد الأصولية لعلى بن عباس البعلى ، القواعد النورانية لابن تيمية ، الموافقات للشاطبى ، ارشاد الفحول للشوكانى ، حصول المأمول للنواب صديق حسن خان ، ومؤلفات قدماء الحنفية ، والتى بينت الأصول من حيث الأصول مثل مسلم الثبوت وغيره . أما مؤلفات الملاجيون والشاشى من متأخرى الحنفية فليست تحقيقية . وقال الكاتب الجلبى فى كشف الظنون : أول من ألف فى أصول الفقه المعتزلة

وأهل الحديث، ولكن لاينبغى الاعتماد على كتبهم، لأن المعتزلة يخالفوننا فى العقائد، وأهل الحديث فى الفروع.

والاختلاف فى أصول الفقه على نوع خاص، والخبير لاينخدع به. وقد جمع أهل الحديث ذخيرة كبيرة فى أصول الفقه سوى ما ذكر، وكل محب للحق يواجه صعوبة فى هذا الموضوع، لأن الإمام أبا حنيفة وتلامذة أبى يوسف عامة قد وقعوا فريسة للاعتزال، وقد تأثر القاضى عيسى بن أبان وبشر المريسى والسرخسى والكرخى بالمعتزلة قليلا أو كثيرا، والذين لم يتأثروا بالاعتزال منهجهم فى الأصول سليم تماما. والتفصيل فى هذا الموضوع يحتاج إلى الوقت، ثم إن هذه المسألة درسية وليست اخبارية.

٣ — تلقى الإجابة (٢) ضوءا كافيا على إجابة هذا السؤال، وقد تضمنت الإجابة الأولى مغزى هذا السؤال.

٤ — ليس هناك تقسيم للمجتهدين، فمجتهدو المذاهب الأربعة أئمة ومجتهدون لدى أهل الحديث أيضا، والمجتهدون من أئمة الحديث عند أهل الحديث هم: البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى وابن خزيمة وابن جرير الطبرى وأبو عبد الرحمن الأوزاعى وأبو يوسف ومحمد، ولكن الحق لاينحصر فى أحد، ولم يصل أحد إلى منزلة النبوة أو العصمة، والخطأ ممكن مع غزارة العلم،

وهذا هو الواقع ، ولذا لايكون اجتهاد أحد واجب القبول أو واجب الاتباع .

٥ — تقسيم المجتهدين ليس مسألة شرعية ، والمصطلحات قد وضعت وفق قوله تعالى : ﴿وفوق كل ذى علم عليم[1]﴾ ، وللحفاظ على التقليد اتخذت هذه الأغلال والسلاسل ، حتى لايسمى اختلافهم المبنى على التحقيق بـ « ترك التقليد » وإلا كان هؤلاء الأساتذة والتلاميذ يختلفون على أساس الأدلة ، ويستغنون عن تقليد بعضهم لبعض ، رحمهم الله تعالى .

٦ — يجب على المفتى علم آيات الأحكام وأحاديث الأحكام على الأقل ، وإحاطة مذاهب العلماء ، وعلم العربية ، وأصول الفقه ، وأصول الحديث ، وأن يتصف بالعمل والتقوى ، وليس الاجتهاد بواجب .

٧ — لم يتم احصاء المجتهدين فى السابق ولا الآن ، ولم تمس الحاجة لذلك ، والافادة العلمية بالتدريس والتذكير تحدد بنفسها هذه المنزلة ، ولم يكن المجتهدون المعروفون فى حياتهم عظماء لدى أقرانهم كما هم الآن ، وهكذا حال علماء أهل الحديث ، ويمكن أن يعدّ الجيل اللاحق كلا من السيد نذير حسين والشيخ

---

(١) يوسف : ٧٦

شمس الحق والشيخ شرف الحق والحافظ عبد الله الغازى فورى والشيخ عبد العزيز الرحيم آبادى والحافظ محمد اللكهوى والحافظ عبد المنان الوزير آبادى والشيخ عبد الجبار الغزنوى من الأئمة المجتهدين، ولكنى لا أرى حاجة لمثل هذه الاحصائية بالقطع.

وبصفتكم رجل القانون ينبغى أن تنظروا فى معنى هذا الاصطلاح قبل عد المجتهدين، فالعلوم التى كلف بها المجتهد اصطلاحا يصعب أن يكون أحد من الصحابة مجتهدا فى ضوئها، بل يصعب أن يوصف أحد من التابعين أيضا بالاجتهاد، حتى إن أئمة الاجتهاد المتفق عليهم لم يصلوا إلى هذه المنزلة بهذه الطرق المصطلح عليها، والغريب أن هذه القيود المصطلح عليها يفرضها على أئمة الاجتهاد مَن ليسوا مجتهدين، وما أصدق قول الرسول ﷺ: إن من أشراط الساعة أن تلد الأمة ربتها.

إن أرباب التقليد يهدون طريق الاجتهاد للمجتهدين، ثم يقفلون باب الاجتهاد بداية من المحرم عام ٤٠١ هـ، مع وجود علوم الاجتهاد إلى الآن. ورد فى الرسالة الحميدية: ولكن من عصر أربع مائة من الهجرة النبوية، على صاحبها أزكى الصلاة والسلام، قال العلماء الأعلام، كما ينقل عن علماء الحنفية: إن باب الاجتهاد قد انسد

من ذلك التاريخ[1].

و بما أننا لا نرضى بتقليد المجتهد لماذا نتعب باحصاء المجتهدين ، فاحسبونا مسلما من خير القرون يسأل علماء عصره عن المسائل بدون تعيين : ثم يعمل بها حسب فهمه و وسعه ، فكما أنه لايرى التقليد واجبا ، لايبحث عن المجتهد .

٨ — فقه المذاهب المعروفة هو فقهنا ، ونحن نعمل به فى ضوء الكتاب والسنة وفق فهمنا وحسب مقتضيات العصر بدون تخصيص ، ونختار منها المسائل والمرض الأصلى هو تعيين فقه واحد ، وهو الذى أوثق رباط التقليد ، وأقفل باب الفكر والنظر والفهم والإدراك . وقد ألفت كتب كثيرة على هذا المنهج الفقهى ، مثل زاد المعاد ونيل الأوطار والفتح الربانى وبدور الأهلة ودليل الطالب إلى أرجح المطالب والفتاوى ، ولكنها لم تحل محل الفقه السائد لانعدام التقليد وهذا هو الأنسب ، فإن المطلوب أن يقوم العلماء بالتحقيق حسب علمهم وعلى العامة أن يرجعوا إلى العلماء دون تخصيص ، كما كان الناس يفعلون فى قرون الخير ، يقول فى ذلك الشاه ولى الله :

« وبعد القرنين حدث فيهم شىء من التخريج ، غير أن أهل

---

(١) الرسالة الحميدية ص ٣٢٨

المائة الرابعة لم يكونوا مجتمعين على التقليد على مذهب التفقه لـه والحكاية لقوله كما يظهر من التتبع ، بل كان فيهم العلماء والعامة ، وكان من خبر العامة أنهم كانوا فى المسائل الاجماعية التى لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع ، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل والصلوات والزكاة من آبائهم ومعلميهم فيمشون حسب ذلك ، و إذا وقعت لهم واقعـة استفتوا فيها أى مفت وجدوا من غير تعيين مذهب، وكان من خبر الخاصة أنه كان أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث يتخلص إليهم من أحاديث النبى ﷺ وآثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شىء آخر[1]» .

هذا هو تصوير الاسلام الصحيح ، وبوجوده لا تمس الحاجة إلى تدوين فقه جديد ألبتة ، بل يعمل بما وجد من الفقه ، ولا يضيق على الناس بالزام فقه معين ، وبذلك يتحقق هدف أهل الحديث .

وعلى هذا المنهج يأتى قول الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى . يقول :

« فإنا نعلم بالضرورة أنه لم يكن فى عصر الصحابة رجل واحد اتخذ رجلا منهم يقلده فى جميع أقواله فلم يسقط منها شيئا ، وأسقط أقوال غيره فلم يأخذ منها شيئا ، ونعـلم بالضرورة أن هذا لم يكن

---

(١) حجة الله البالغة ١٢٢/١

فى التابعين ولا تابعى التابعين ، فليكذبنا المقلدون برجل واحد سلك سبيلهم الوخيمة فى القرون الفضيلة على لسان رسول الله ﷺ ، وإنما حدثت هذه البدعة فى القرن الرابع المذموم على لسانه ﷺ(١) » .

وبعد هذا التوضيح ينبغى أن تفكروا جيدا فى منشأ تقسيم المجتهدين وتقسيم أصول الفقه ، إن هذا سياج مثل خيوط العنكبوت قد أقيم للحفاظ على بنيان التقليد المتهدم ، حتى لم ينج منه رجل قانون مثلكم ، وإنى أستغرب كيف تبادر ذهنكم إلى هذا السؤال !

٩ — قد مر جواب ذلك فى الثامن ، والحق أنه لو تم إيجاب الالتزام بفقه أهل الحديث مثل فقه المذاهب الأخرى لكان ذلك تقليدا أيضا .

١٠ — قد سبق أن قلت إن سائر الفقه جدير بالعمل ، ويعمل بجميعها العلماء بدون تخصيص حسب الظروف والأحوال ، ويتحملون الاختلاف فى الفروع ، فإن ذلك يحقق وحدة قرون الخير . أما هذا النزاع فقد نشأ بالتقليد ، وبه سيطر ضيق النظر على الأذهان ، وسُمى الداء دواء ، وأنتم تسمون

---

(١) اعلام الموقعين ٢/٢٢٢

هذا الاختلاف الجامد وحدة !!

إذا كانت المذاهب الأربعة حقا ، وهى توجد فى الدنيا فأين رأيتم الوحدة؟ إنكم تحملتم المذاهب الأربعة على أنها حق، فلو أضفتم إليها مذهب أهل الحديث لما كان ذلك ضارا للوحدة المصطلحة ، نعم يكون نطاقها أوسع قليلا ، فياليت العلماء يقبلونه ! والداء الأول هو التقليد الشائع ، والثانى عادةُ عدم التحمل ، فلو قضيتم على هذا الالتزام والايجاب لانتهت المشكلات كلها ، وبعض المشكلات النظرية تذهب بنفسها بالعمل ، بل إن كثيرا من الأمور قد صلحت فى هذه القرون ، ولو تحملتم اختلاف الرأى لذهبت التفرقة ، إن الاختلاف والتفرقة ليسا فى حكم واحد ، بل الاختلاف الفقهى شيء يتحمل ، ولكن ليس فى الإسلام مكان للتفرقة .

١١ — ينبغى عرضُ الاجتهاد على الكتاب والسنة لأى عالم كان ، ولا ينبغى إلزام النـاس باجتهاد أحد إذا لم يوجد تصريح فى الكتاب والسنة ، بل إنه يعمل بأى اجتهاد شاء حسب المصالح ، ولا يلام ولا يضيق عليه . والعامة يرجعون إلى العلماء بدون شك ، فالمستحسن أن يتم تعويدهم للاستفسار عن المسائل باسم الشريعة أو الكتاب والسنة ، لاباسم المجتهدين المعروفين أو الفقه المتعارف ، وأن يجيب العلماء حسب نظرهم . والمقلد لو رضى

بترك المسائل المعارضة للكتاب والسنة فهذا النوع من التقليد متحمل وهو أنسب الأنواع ، وقد تحمل ذلك السيد نذير حسين رحمه الله والحافظ ابن القيم رحمه الله. والتجربة ترشد إلى أن يكون الاستفتاء اللازم على أساس الشريعة ، لا على الفقه المتعارف ، وقد أصلح السيد نذير حسين رحمه الله فى هذا الموضوع من كتابه معيار الحق هذا الأمر.

١٢ — ان ابن حزم ينكر القياس رأسا ، وأهل الحديث يقولون بالقياس ، وبالمساواة فى حكم النظائر ، ولكن إذا عارض القياسُ الكتاب والسنة فى موضع فإن أهل الحديث يقدمون النصوص ، فمدة الرضاعة عند الحنفية ، وهى سنتان ونصف ، واتخاذ الخل من الخمر معارضان للنصوص ، ولذا تقدم النصوص فيهما.

١٣ — تضمنت الاجابة (١٢) الاجابة على ذلك ، والقياس مقبول إن كان تابعا للنصوص ، ولذا لايجب اعلان جديد عن كل مسألة تعرض.

١٤ — لاينشأ هذا السؤال بعد التصريح السابق ، وهذه الفروع الفرضية ناشئة عن دراستكم القانونية.

والسعى مبذول لأن ينظر إلى مصادر الأئمة لدى الأخذ

بأقوالهم ، ومع ذلك يُستحسن الاعتراف بقصور النظر ، والفهم قد يخطىء ، وإن لم يتم الاطلاع على المصدر أمكن اختيار سبيل آخر .

وإني أرسل هذه الإجابات إليكم مع ضيق الوقت ، وأرجو أن تبدوا رأيكم نحوها ، وإني آثرت عدم تطويل هذا المبحث بأسلوب المناظرة ، وإلا إنكم تعرفون أنه ليس هناك قول نهائي في هذه المباحث . وأرجو أن تراجعوا إلى إعلام الموقعين المترجم بالأردية ، وإن عرفتم العربية فارجعوا إلى الاعلام ، وجامع بيان العلم وفضله ، والأحكام لابن حزم .

والسلام عليكم .

سؤال حول تصور النبي ﷺ في الصلاة وجوابه :

هل تعتقدون أنتم (الوهابيون) أن تصور النبي ﷺ في الصلاة أقبح من الحمار والثور ، مع أن سورة الفاتحة تتضمن ذكر الذين أنعم الله عليهم بأعمالهم الصالحة ، والذين استحقوا الغضب بالأعمال السيئة . وكذلك يصلى على النبي ﷺ في التحيات ، وكذلك على الصالحين ، ويرد في دعاء ابراهيم ذكر الوالدين والأولاد وسائر المؤمنين ، فماذا تقولون في ذلك ؟

السائل

مرزا عمر بيك نظامي

اسلام آباد ، كوجرانوله

الجواب :

وصلتنى رسالتكم وسررت بأنكم تصدّيتم للتحقيق فى المسائل التى ينشرها علماء البريلوية وعامتها اختلاقا منهم وطعنا فى أهل الحديث الذين قد لا يعرفون عنها شيئا ، فإن طريق التحقيق هذا يورث فيكم البصيرة وفيهم الشعور بأمانة الكلمة . وفيما يلى الجواب :

١ — الوهابية (أو أهل الوهاب) ليست مذهبا ، ونحن لا نحب أن ينسبنا أحد إليها . وكان هناك فى نجد عالم معروف اسمه « محمد ابن عبد الوهاب » ، وقد حاول الاصلاح فى نجد واليمن بالوعظ والارشاد ، وحذر الناس من عبادة القبور والبدع والتقاليد السيئة . وقد خالفه الناس وعارضوه ، حتى ان والده أيضا عارضه مع كونه عالما . وبعد جهود وهجرة استغرقت سنوات تعاون مع الشيخ آل سعود ، ثم فهم الناس هذه الدعوة شيئا فشيئا ، وأحس والده أيضا أن ابنه على الصواب . والناس يسمون الشيخ وهابيا طعنا فيه ، والواقع أنه على مذهب الامام أحمد فى الفقه . وعامة الناس فى بلادنا حنفية ، وفى نجد حنبلية ، والوهابية ليست فرقة ولا مذهبا ، بل أنها حركة ، والناس بابتعادهم عن الدين عامة قد ابتعدوا عنها أيضا . وعلماء البريلوية يطعنون فى مخالفيهم باطلاق الوهابية عليهم ، ولكن الحقيقة أن ذلك دأب الانجليز وطريقتهم .

أما نحن فلسنا « وهابيين » ولا « أهل الوهاب » إننـــا نؤمن برسالة محمد ﷺ ، وبأن طاعته واجبة وفيهـــا النجاة ، ونرى أن الأئمة الأربعة أئمتنـا ، وأن فقه الأربعة سواء ، ونقبل المسألة التى توافق الكتاب والسنة ، ونبتعد عن هذه الفرق كلها ، ونجتنب الوثنية وعبادة المرشد ونراها معارضة للكتاب والسنة ، ولا نرضى بالاحتفال لدى القبور والخانقاهات ، ونرى أن التجارة بالصلحاء وملء البطون بهذه الطريقة إثم .

تصور الرسول ﷺ :

إن مسألـة تصور النبى ﷺ فى الصلاة أو عدم تصوره ليست من مسائل العقيدة ، ولذا لم ترد فى كتب العقائد ، وفى الأغلب يوجد فى المكتبات العامة من هذه الكتب : شرح العقائد النسفية ، والعقيدة الطحاوية ، وشرح العقيدة الأصفهانية ، والعقيدة الصابونية ، وحاشية الخيالى على شرح العقائد النسفية للتفتـازانى ، مع حاشية عبد الحكيم السيالكوتى عليها ، وشرح مطالع الأنظار (على متن طوالع الأنوار للقاضى عبد الله البيضاوى) لشمس الدين الأصفهانى ، ولكن لم تذكر هذه العقيـــدة فى أحد منهـا . ولا نعرف من أين اتخذها علماء البريلويـة ؟ والصحيح أن الصلاة يجب أداؤها بالخشوع والخضوع ، وأن يتدبر المصلى ما يقرؤه فى صلاته ، ويحاول الابتعاد عن الأفكار

المضطربة ، ولو جاءته هذه الأفكار والوساوس فعليه أن يدفعها ويتعوذ ويحوقل فى نفسه .

منشأ الغلط :

منذ نحو أكثر من قرن ظهر رجل صالح اسمه السيد أحمد البريلوى ، انه كان حنفى المذهب وبلغ الغاية فى الصلاح والتقوى ، وقد جاهد ضد السيخ والانجليز ، وقد انضم تحت لوائه وتبعه كثير من كبار العلماء ، منهم الشاه اسماعيل بن عبد الغنى بن الشاه ولى الله ، والشيخ عبد الحى البدهانوى الحنفى ، وكان الشاه اسماعيل من أهل الحديث ، والسيد أحمد البريلوى حنفيا صوفيا ، وهذا الأخير قام بتأليف كتاب فى التصوف سماه « الصراط المستقيم » وهذا الكتاب باللغة الفارسية يتضمن أربعة أبواب ، قام بترجمة بابين منها الشيخ عبد الحى البدهانوى ، وفى أحد هذين البابين وردت عبارة انخدع بها البريلويون ، أنهم لم يفهموا هذه العبارة على وجهها الصحيح (وقريبا تأتى هذه العبارة) .

والذى ينبغى ملاحظته هنا أن السيد أحمد البريلوى والشيخ عبد الحى البدهانوى كلاهما من الحنفية . أما الشاه اسماعيل فليس مؤلفا لهذا الكتاب ولا مترجما له ، ولكن الناشرين استعملوا ذكائهم فوضعوا اسمه على الكتاب لاشتهاره ، فتعرض الشاه اسماعيل لجهل

البريلويين بدون ذنب ، وهكذا التصقت التهمة بجماعة أهل الحديث لكون الشاه اسماعيل منهم ، مع أن هذه المسألة لم تذكر فى أحد من كتب أهل الحديث .

ولا شك فى أننا نرى هؤلاء الكبار أبراراً صلحاء مع أننا نختلف معهم اختلافا فقهيا ، ولكن لا نعتبرهم أئمة متبوعين لنا . ولبعض هؤلاء الصلحاء مؤلفات تضم أنواعا من المسائل ، منها ما هو خطأ ، ومنها ما هو صواب ، وإننا لا نقلد أحدا منهم ، ولكن نراهم علماء صالحين . ولا نعلم لماذا يكذب البريلويون فيقولون إنهم أئمتنا ، ولكن نحن نؤكد أن كتبهم ليست حجة لدينا ، وأن هؤلاء الصلحاء ليسوا أئمتنا ، ولذا لا يجب علينا أن نشرح تلك العبارة أو نكشف عن وجه المغالطة فيها ، ومع ذلك استحسن توضيح تلك العبارة ومعناها .

إن السيد أحمد البريلوى يقصد بتلك العبارة أن تؤدى الصلاة بعناية بالغة ، بحيث لا تقترب منها الوساوس والأخيلة ، وخاصة الأخيلة التى لا تناسب عظمة الله تعالى وجلاله ، فإن الشىء الأول فى العبادة حب الله تعالى وعظمته وعلوه ، والشىء الثانى فيها تضرع الانسان وعجزه وافتقاره .

فالأخيلة التى تقلل من هذين الشيئين ، ولا تناسب جلال الله تعالى وعلوه ، أو يحسب الانسان نفسه عظيما ويتعالى ويتكبر [فإن ذلك مفسد للعبادة] وإن جاء ذكر الرسول ﷺ بأنه عبد الله

و رسوله فإن ذلك لابأس فيه ، لأنه لايعارض عظمة الله تعالى، وفيه اعتراف بعبدية الرسول ﷺ و رسالته ، وكذلك لا يعارض خيـال المغضوب أو المنعم عليهم عظمة الله تعـالى ، فإن الإنعام يرمز إلى الاحتيـاج ، وفى الغضب تحقير لذلك العصيان ، ومن هذه النـاحية لايعارض هذا الخيالُ عظمةَ الله تعالى .

أما إذا خطر خيـال ولى أو صالح أو نبى فإن ذلك ، بالنظر إلى صلاحه وعظمته ، يعارض عظمة الله تعالى وجلاله ، ولا تستطيع أن تتعوذ وتحوقل لذلك . وبالعكس من ذلك إذا خطر خيـال ثور أو حمار أو شىء حقير فإنك تدفعـه بالتعوذ والحوقلة ، ولا تتأثر به عظمة الله و ربوبيته وعزته .

والسيد أحمد يقصد إلى أن جميع الوساوس ينبغى أن تبعد عن الصلاة ، و هنـاك بعض الوساوس تحـدث فى الصلاة خللا أكثر وبعضها أقل . ونكتة السيد أحمد هذه عجيبة من ناحيـة التصوف ، ولكن البليد الذى لايستطيع أن يصل إلى هذا التعمق يلتجىء إلى التكفير ، والحق أن المقارنة ليست بين ذات النبى ﷺ وبين الثور ، بل بين نقص الوساوس وضررها ، وذلك أن رجلا يقول : إن الحديد الحامى أضر من ناحية الاحراق من الماء الساخن ، فالمقارنة هنا ليست بين قيمة الحديد والماء ، بل فى تأثير الحرارة فى الحديد والماء .

والسيد أحمد قد كتب عدة صفحات لتفهيم هذا الأمر اللطيف العميق ، ولكن نفسية العلماء البريلويين العدائية قد حالت دون فهم هذا الأمر، ولو أحببت لأرسلت إليك كتاب الصراط المستقيم حتى تفهم قول السيد أحمد بكامله ، عسى أن يفتح الله عليك .

وقال السيد أحمد أيضا : إن أثر الوسوسة يختلف فى طبيعة عن أخرى حسب الطبائع ، وذلك أن الصالح مثل عمر رضى الله عنه كان يجهز الجيش وهو فى صلاته ، ولم يكن ذلك يؤثر فى صلاته وخشوعه ، ولذا ينبغى أن لايفسد العامة صلواتهم بتقليد الصلحاء وأهل الله .

والسيد أحمد قد قسم الوسوسة إلى قسمين : وسوسة ليس لها علاج ، وينبغى أن يدعو لذلك الله تعالى أو يقضى فترة فى صحبة مرشد كامل . والثانية وسوسة لها علاج ، وقد ذكر هذا العلاج فقال : والذى نقل عن عمر رضى الله عنه من أنه كان يجهز الجيش فى الصلاة فلا يغتر أحد بذلك حتى يفسد صلاته :

« لا تقس عمل الصالحين على نفسك ، فإن كلمة (شير) تعنى الأسد والحليب بفرق بسيط فى النطق[1] » .

---

(١) ترجمة بيت فارسى نصه :

كار پاكان از قياس خود مگير

هست مانند در نوشتن شير شير

ان الخضر استحق الأجر حينما كسر السفينة وقتل الغلام، ولكن غيره يأثم لو فعل ذلك. وكذلك عمر الفاروق وصل منزلة لم يكن فيها تجهيز الجيش يخل فى صلاته، بل كان يكملها، فإن الله تعالى كان يلقى ذلك فى قلبه. أما الذى يتوجه بنفسه إلى تدبير أمر، سواء كان دينيا أو دنيويا، فأمره يختلف عن أمر عمر تماما. والذى ينكشف له هذا الأمر فإنه يعلم، نعم إن خيال الجماع مع الزوجة أخف من وسوسة، بمقتضى ظلمات بعضها فوق بعض، وصرف الهمة إلى الشيخ أو صلحاء مثله، ولوكان محمدا ﷺ، أقبح من الاستغراق فى صورة الثور والحمار، لأن خيال الشيخ يأتى إلى الانسان بتكريم وإجلال ويلتصق به، أما خيال الثور والحمار فلا يتعلق به مثل الالتصاق والتعظيم، بل يكون حقيرا وذليلا، وتعظيم الغير هذا يؤدى إلى الشرك. والحاصل أن المقصود هنا بيان تفاوت الوساوس. وأصل هذا الكتاب بالفارسية، وقد نقلت هنا مترجما بقدر الحاجة.

والسيد أحمد يذكر هنا عظمة النبى ﷺ والصلحاء، ولكن علماء البريلوية حولوه إلى تحقير، والفهم المعكوس ليس له علاج، ومن يضلل الله فلا هادى له.

والمسلمون جميعا متفقون على أن الصلاة تؤدى بالإنابة

والخشوع ، والوساوس والأخيلة تورث نقصا فى الصلاة، والسيد أحمد قد ذكر هذه المسألة وقد وضحها بأن خيال الأشياء الرديئة والحقيرة لايضر كثيرا لعدم أهميتها ، والأشياء العزيزة والمحبوبة تضر أكثر ، لأن عزتها وحبها يسود ويسيطر على القلب .

وهنا نتساءل العلماء البريلويين عن رأيهم ، هل يورث تصور الثور وحده نقصا فى الصلاة ، وتصور الصلحاء لايحدث أثرا فيها؟ أم يرون الخشوع غير ضرورى للصلاة؟ إنك لا تفرق بين تصور الكافر والمشرك واليهودى والنصرانى والمجوسى ، بل تراهم سواء ، وسؤالك بجزئه الأخير يُظهر أنكم ترون تصور المغضوب عليهم والمنعم عليهم والكفار والمشركين والصالحين جائزا ، وليس لكم بد سوى ذلك .

والحاصل أن السيد أحمد يرى الخشوع واجبا فى الصلاة ، ويكره الأخيلة والوساوس ، ويفرق بين الوساوس ، فضرر البعض أكثر والبعض الآخر أقل ، والمقارنة هنا ليست بين ذات النبى ﷺ المباركة وبين الثور (نعوذ بالله) بل بين الوساوس الحسنة ، وبين الوساوس القبيحة ، وبين الوساوس الضارة أكثر وبين الضارة أقل .

نظير فقهى :

ولتجلية الذهن أودّ أن تفكروا فى بعض ما صرّح به فقهاء الحنفية ، رحمهم الله تعالى:

«لو نظر مصلٍّ إلى المصحف وقرأ منه فسدت صلاته، لا إلى فرج امرأة بشهوة، لأن الأول تعليم وتعلم فيها، لا الثانى[1]».

وكتب المولوى أحمد رضا خان: «لو طلق المرأة رجعيا ولم تمض العدة، وكان فى الصلاة إذ وقع بصره على فرج المرأة الداخل وتحققت الشهوة لم تفسد صلاته[2]».

فهل يتساءل هنا المولوى صادق وغيره من علماء البريلوية أن الفرج أفضل من القرآن بحيث أن الصلاة تفسد بالقرآن، ورؤية الفرج لا تؤثر فيها!!!

وتوجد هذه المسألة فى الشامى ومراقى الفلاح. فالتوجيه الذى يختاره رجالكم لهذا هو نفسه يعذر السيد أحمد أيضا.

المسألة الثانية:

«قال إمام بعد شهر: كنت مجوسيا، فلا إعادة عليه، ولو قال: صليت بغير وضوء أو فى ثوب نجس أعادها إن كان متيقنا[3]».

وهنا يمكن أن يقال إنكم ترون المجوسى خيرا من مسلم غير متوضىء، فهل تحبون ذلك؟ إن تصويب توجيهات الفقهاء يدفعنا إلى

(١) الأشباه والنظائر ص ٧٢٠

(٢) الفتاوى الرضوية ٦٧/١

(٣) الأشباه والنظائر ص ٧٢٠

تصويب توجيه السيد أحمد أيضا. عليكم أن ترجعوا إلى علمائكم لمعرفة ذلك، ولكنى أخاف أنكم تواجهون المقاطعة من جماعتكم بعد رغبتكم فى التحقيق، ويحرم عليكم دخول مسجدهم.

إننا كما نرى الأئمة الأربعة وفقهاء المذهب صلحاء ونستفيد بعلومهم، فكذلك نرى السيد أحمد والشيخ عبد الحى، مع كونهما حنفيين، من صلحائنا، ونقبل من أقوالهم ما يوافق الكتاب والسنة، ونصرف النظر عما لا نفهمه، ولكن لا نشتمهما ولا نسبهما، ولا نرى وجوب طاعتهما:

﴿ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا[1]﴾.

وختاما أشكركم على أنكم اجترأتم على التحقيق، وفقكم الله تعالى للفهم، آمين؟

‡ ※●※◇※●※ ‡

(١) الحشر: ١٠

تم الكتاب

بعون الملك الوهاب

توضيح حول مبحث الحياة

عند ما نشر بحث المؤلف فى مجلة صوت الأمة، واطلع عليه الشيخ سعيد أحمد المدرس فى دار العلوم بديوبند، أرسل إلىّ تصريح الشيخ محمد قاسم التالى، وهو يوضح موقفه فى حياة النبى ﷺ :

قال الشيخ محمد قاسم النانوتوى فى رسالته إلى الشيخ محمد صديق المرادآبادى :

«أتذكر أن أكثر الأحاديث فى باب الحياة ضعيفة، ودون الاطالة أود أن أقول : مع أن هذه هى العقيدة، وأعلم أنها تكون هكذا إن شاء الله، ولكنى لا أرى هذه العقيدة من العقائد الضرورية ولا أقوم بتعليمها، ولا أتخاصم مع منكريها، ولا أبينها لأحد .

ولو سئلت عنها ولم أخش الفساد لبينتها دون مبالاة، فمن الخير أن تراعوا هذا الأمر[1]» .

(١) لطائف قاسمى ص ٥

١ — فهرس المصادر

(١) القرآن الكريم

الف

الآلوسى، أبو الثناء، شهاب الدين محمود بن عبد الله، المعروف بالآلوسى الكبير، (م — ١٢٧٠هـ)

(٢) «روح المعانى»

ادارة الطباعة المنيرية بمصر، ١٢٦٧هـ

ابراهيم بن على بن محمد، ابن فرحون برهان الدين (م — ٧٩٩ هـ)

(٣) «الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب»

دار التراث للطبع والنشر، القاهرة

أحمد رضا خان بن نقى على البريلوى (م — ١٣٤٠هـ)

(٤) «حاشية حياة الأموات»

(٥) «العطايا النبوية فى الفتاوى الرضوية»

رضا اكيديمى، بومباى، ١٤٠٥هـ

(٦) «ملفوظات»

أحمد بن محمد الحنفى الحموى (م — ١٠٩٨هـ)
(٧) «غمز عيون البصائر على محاسن الأشباه والنظائر»
طبعة نول كشور بلكنو، ١٢٩٤هـ
الأشعرى، أبو الحسن على بن اسماعيل (م — ٣٣٠هـ)
(٨) «مقالات الاسلاميين»
مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٩هـ
الألبانى، محمد ناصر الدين
(٩) «صفة صلاة النبى ﷺ»

ب

بحر العلوم، عبد العلى بن نظام الدين الأنصارى (م — ١٢٢٥هـ)
(١٠) «فواتح الرحموت فى شرح مسلم الثبوت»
طبعة نول كشور بلكنو، ١٢٩٥هـ
البخارى، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (م — ٢٥٦هـ)
(١١) «الجامع الصحيح»
طبعة أصح المطابع بدهلى، ١٣٨٤هـ
(١٢) «التاريخ الكبير»
دار الكتب العلمية، بيروت
(١٣) «علل الحديث»
البخارى، عبد العزيز بن أحمد (م — ٧٣٠هـ)
(١٤) «كشف الأسرار»

(١٥) « شرح المنتخب الحسامى »

البزدوى ، أبو الحسن على بن محمد ، فخر الاسلام (م — ٤٨٢ هـ)

(١٦) « أصول البزدوى »

البغدادى ، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد (م — ٤٢٠ هـ)

(١٧) « الفرق بين الفرق »

البقا ، محمد بن عبد الرحمن الغازيفورى (م — ١٣٣٤ هـ)

(١٨) « سر من رأى فى بحث الجمعة فى القرى »

البوصيرى ، أحمد بن أبى بكر بن اسماعيل (م — ٨٤٠ هـ)

(١٩) « مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه »

دار العربية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ

البيهقى ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن على (م — ٤٨٨ هـ)

(٢٠) « جزء القراءة »

ت

الترمذى ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (م — ٢٧٩ هـ)

(٢١) « السنن الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى »

التفتازانى ، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله (م — ٧٩١ هـ)

(٢٢) « التلويح إلى كشف غوامض التنقيح »

ابن تيمية ، شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (م — ٧٢٨ هـ)

(٢٣) « مجموع فتاوى ابن تيمية »

ترتيب ، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدى الحنبلى

الطبعة الأولى بالرياض ، ١٣٨١ هـ

(٢٤) « منهاج السنة النبوية »

(٢٥) « اقتضاء الصراط المستقيم »

طبعة العبيكان

(٢٦) « رد المنطق »

(٢٧) « نقض المنطق »

(٢٨) « القواعد النورانية »

ث

ثناء الله ، البانى بتى ، القاضى (م — ١٢٢٥ هـ)

(٢٩) ارشاد الطالبين

ج

الجبرتى ، حسن بن ابراهيم بن حسن الزيلعى الحنفى (م — ١١٨٨ هـ)

(٣٠) « الأقوال المعربة عن أحوال الأشربة »

الجصاص ، أبو بكر أحمد بن على (م — ٣٧٠ هـ)

(٣١) « أحكام القرآن »

الملاجيون ، بن أبى سعيد بن عبيد الله الأميثهوى (م — ١١٣٠هـ)

(٣٢) « نور الأنوار فى شرح المنار »

ح

ابن حاجب، عثمان بن عمر بن أبى بكر (م — ٦٤٦ ﻫ)
(٣٣) «منتهى السول والأمل فى علمى الأصول والجدل»

الحاج خليفة، مصطفى بن عبد الله الكاتب شلبى (م — ١٠٦٦ ﻫ)
(٣٤) «كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون»
مطبعة العالم ١٣١٠ﻫ (نومرو) الطبعة الأولى

ابن حجر، أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى (م — ٨٥٢ ﻫ)
(٣٥) «فتح البارى» المطبعة السلفية بمصر
(٣٦) «تهذيب التهذيب»
مطبعة دائرة المعارف، حيدر آباد، ١٣٢٥ﻫ

ابن حزم، أبو محمد على بن أحمد (م — ٤٥٦ ﻫ)
(٣٧) «الأحكام لأصول الأحكام»
(٣٨) «التعنيف»

حسام الدين، محمد بن محمد بن عمر الاخسيكثى (م — ٦٤٤ ﻫ)
(٣٩) «المنتخب فى أصول المذهب»

حسين أحمد المدنى (م — ١٣٥٨ﻫ)
(٤٠) «مكاتيب»

الحصكفى، محمد علاء الدين بن على (م — ١٠٨٨ﻫ)
(٤١) «الدر المختار شرح تنوير الأبصار» (على هامش رد المحتار لابن عابدين)
المطبع المجتبائى بدهلى، ١٢٨٧ﻫ

ابن حنبل ، أحمد (م — ٢٤١ هـ)

(٤٢) « مسنده »

خ

الخضرى ، الشيخ محمد بك

(٤٣) « أصول الفقه »

مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الخامسة ، ١٣٨٥هـ

الخطيب ، أحمد بن على البغدادى (م — ٤٦٣ هـ)

(٤٤) « تاريخ بغداد »

دار الكتاب العربى ، بيروت

الخطيب ، ولى الدين محمد بن عبد الله التبريزى (من علماء القرن الثامن الهجرى)

(٤٥) « مشكاة المصابيح »

أصح المطابع ، دهلى ، ١٩٥٥م

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (م — ٨٠٨ هـ)

(٤٦) « مقدمة ابن خلدون »

المطبعة البهية ، مصر

(٤٧) « كتاب العبر و ديوان المبتدأ والخبر فى تأريخ العرب والعجم والبربر »

مطبعة النهضة ، بشارع عبد العزيز ، بمصر ، ١٩٣٦م

د

الدارقطنى ، على بن عمر (م — ٣٨٥ هـ)

(٤٨) « سنن الدارقطنى »

طبعة الأنصارى بدهلى

الدارمى ، أبو محمد الدارمى » (م — ٢٥٥ هـ)

(٤٩) « سنن الدارمى »

طبعة النظامى بكانفور

أبو داود ، سليمان بن أشعث السجستانى (م — ٢٧٥ هـ)

(٥٠) « سننه »

الدمشقى ، محمد بن محمد (م — ٨٨٣ هـ)

(٥١) « النشر فى القراءات العشر »

ذ

الذهبى ، أبو عبد الله شمس الدين (م — ٧٤٨ هـ)

(٥٢) « تذكرة الحفاظ »

مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد ، الهند

الطبعة الثانية ، ١٣٣٣هـ

ر

الرازى ، محمد بن أبى بكر بن عبد القادر

(٥٣) « مختار الصحاح »

الرويانى ، محمد بن هارون (م — ٣٠٧ ﻫ)

(٥٤) « مسنده »

س

السبكى ، تقى الدين ، على بن أحمد ، عبد الكافى (م — ٧٧١ ﻫ)

(٥٥) « شفاء السقام »

السهيلى ، أبو القاسم ، عبد الرحمن بن عبد الله (م — ٥٨١ ﻫ)

(٥٦) « الروض الأنف »

السيوطى ، عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد (م — ٩١١ ﻫ)

(٥٧) « صون المنطق والكلام »

ش

الشعرانى ، عبد الوهاب (م — ٩٧٣ ﻫ)

(٥٨) « الميزان الكبرى »

أكمل المطابع بدهلى ، ١٢٨٦ﻫ

الشوكانى ، محمد بن على (م — ١٢٥٥ ﻫ)

(٥٩) « نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار »

ادارة الطباعة المنيرية فى مصر

الطبعة الثانية ، ١٣٤٤ﻫ

(٦٠) « تحفة الذاكرين »

الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (م — ٥٤٨ هـ)

(٦١) « الملل والنحل » بهامش الفصل فى الملل لابن حزم

الشهيد ، محمد بن اسماعيل بن عبد الغنى (م — ١٢٤٦ هـ)

(٦٢) « ايضاح الحق الصريح فى أحكام الميت والضريح »

الشيبانى ، أبو عبد الله محمد بن حسن (م — ١٨٩ هـ)

(٦٣) « الجامع الصغير »

المطبع العلوى بلكنؤ

ص

صدر الشريعة الأصغر ، عبيد الله بن مسعود بن محمود البخارى (م — ٧٤٧ هـ)

(٦٤) « شرح الوقاية »

الصنعانى ، محمد بن اسماعيل الأمير الكحلانى (م — ١١٨٢ هـ)

(٦٥) « سبل السلام »

ط

طاشكبرى زاده ، أحمد بن مصطفى (م — ٩٦٨ هـ)

(٦٦) « مفتاح السعادة والسيادة »

مطبعة دائرة المعارف النظامية ، حيدرآباد ، الهند ، ١٣٢٩ هـ

الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد البغدادى (م — ٣١٠ ﻫ)

(٦٧) « جامع البيان فى تفسير القرآن »

المطبعة الميمنية ، مصر ، ١٣٠٦ ﻫ ،

الطحاوى ، أحمد بن محمد بن سلمة (م — ٣٢١ ﻫ)

(٦٨) « مختصر الطحاوى »

ع

ابن عابدين ، السيد محمد أمين بن عمر بن عبد العز الشامى (م — ١٢٥٢ﻫ)

(٦٩) « رد المحتار »

المطبع المجتبائى دهلى ١٢٨٧ﻫ

ابن أبى عاصم ، أبو بكر بن عمرو (م — ٢٨٧ ﻫ)

(٧٠) « السنة »

ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله بن محمد (م — ٤٦٣ ﻫ)

(٧١) « جامع بيان العلم وفضله »

عبد الحق الحقانى ، (م — ١٣٣٥ﻫ)

(٧٢) « النامى فى شرح الحسامى »

طبعة المجتبائى ، دهلى

عبد الحق ، المحدث الدهلوى (م — ١٠٥٢ ﻫ)

(٧٣) « أشعة اللمعات »

المطبعة نول كشور ، لكناؤ ، ١٢٩٠ﻫ

عبد الحى اللكهنوى ، (م — ١٣٠٤هـ)

(٧٤) « عمدة الرعاية على شرح الوقاية »

المكتبة الرحيمية ، ١٣٧٠هـ

(٧٥) « الفوائد البهية فى تراجم الحنفية »

المطبع المصطفائى ، دهلى ، ١٢٩٣هـ

الشاه عبد العزيز الدهلوى ، (م — ١٢٣٩هـ)

(٧٦) « الفتاوى العزيزية »

العظيم آبادى ، شمس الحق (م — ١٣٢٩ هـ)

(٧٧) « عون المعبود شرح سنن أبى داود »

العقيلى ، أبوجعفر ، محمد بن عمر (م — ٣٢٢ هـ)

(٧٨) « الضعفاء »

العينى ، بدر الدين ، أبو محمد محمود بن أحمد الحنفى (م — ٨٥٦ هـ)

(٧٩) « عمدة القارى »

مطبعة دار الطباعة العامرة فى دار السلطنة السنية

غ

الغزالى ، أبوحامد محمد بن محمد (م — ٥٠٥ هـ)

(٨٠) « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة »

ف

الفلانى، صالح بن محمد بن نوح العمرى (م — ١٢١٨هـ)

(٨١) «إيقاظ همم أولى الأبصار»

إدارة الطباعة المنيرية بمصر

الطبعة الأولى، ١٣٥٤هـ

ابن فورك، أبو بكر محمد بن حسن بن فورك (م — ٤٠٦ هـ)

(٨٢) «مشكل الحديث»

الفيومى، أحمد بن محمد بن على المقرى (م — ٧٧٠ هـ)

(٨٣) «المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى»

ق

قاضى خان، حسن بن منصور بن محمود الأوزجندى (م — ٥٩٢ هـ)

(٨٤) «فتاوى قاضى خان»

مطبع المنشى نول كشور بلكهنؤ، ١٣٠٢هـ

ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم (م — ٢٧٦ هـ)

(٨٥) «تأويل مختلف الحديث»

دار القومية العربية للطباعة والنشر بمصر، ١٣٨٦هـ

ابن القيم ، أبو عبد الله محمد بن أبى بكر (م — ٧٥١ هـ)

(٨٦) « إعلام الموقعين عن رب العالمين »

تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد

مطبعة السعادة بمصر - الطبعة الأولى ، ١٣٧٤هـ

(٨٧) « شرح القصيدة النونية »

مطبعة الامام بمصر

(٨٨) « زاد المعاد فى هدى خير العباد »

المطبعة المصرية ، ١٣٤٧هـ

(٨٩) « الطرق الحكمية »

مطبعة السنة المحمدية

(٩٠) « بدائع الفوائد »

(٩١) « كتاب الروح »

ك

الكاشغرى ، سديد الدين (م — ٩٥٦ هـ)

(٩٢) « منية المصلى »

المطبع المجتبائى بدهلى ، ١٨٩٢هـ

الكاسانى ، أبو بكر بن مسعود بن أحمد (م — ٥٨٧ هـ)

(٩٣) « بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع »

ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمر (م — ٧٧٤ هـ)
(٩٤) « البداية والنهاية »
مكتبة المعارف، بيروت
الطبعة الثانية، ١٩٧٤م

م

الإمام مالك بن أنس (م — ١٧٩هـ)
(٩٥) « المدونة الكبرى »
مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٣هـ

المباركفورى، أبو العلى عبد الرحمن (م — ١٣٥٣ هـ)
(٩٦) « تحفة الأحوذى فى شرح جامع الترمذى »
جيد برقى پريس بدهلى

الإمام محمد بن الحسن الشيبانى (م — ١٨٩ هـ)
(٩٧) « الجامع الصغير »

الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى (م — ٢٦١ هـ)
(٩٨) « صحيح مسلم »

المقريزى، تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر (م — ٨٤٥ هـ)
(٩٩) « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار »

المرغينانى، برهان الدين (م — ١١٩٦ م)
(١٠٠) « الهداية فى الفروع »

المنذرى، عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله (م — ٦٥٦ هـ)

(١٠١) «الترغيب والترهيب»

المطبعة الفاروقية، دهلى، ١٣٠٠هـ

ن

ابن نجيم، زين الدين بن ابراهيم المصرى الحنفى (م — ٩٧٠ هـ)

(١٠٢) «الأشباه والنظائر»

النسائى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (م — ٣٠٣ هـ)

(١٠٣) «سنن النسائى»

النعمانى، عبد الرشيد النعمانى

(١٠٤) «ما تمس إليه الحاجة»

النواب صديق حسن خان (م — ١٣٠٧ هـ)

(١٠٥) «اتحاف النبلاء المتقين باحياء مآثر الفقهاء المحدثين»

طبعة النظامى بكانفور ١٢٨٨هـ

(١٠٦) «أبجد العلوم»

المطبعة الصديقية، بهوفال ١٢٩٦هـ

(١٠٧) «الروضة الندية شرح الدرر البهية»

المطبع العلوى بلكهنؤ، ١٢٩٠هـ الطبعة الأولى

(١٠٨) « فتح البيان »

المطبعة الكبرى المنيرية ببولاق مصر المحمية

الطبعة الأولى ١٣١٠هـ

و

الشاه ولى الله ، أحمد بن عبد الرحيم (م — ١١٧٦هـ)

(١٠٩) « حجة الله البالغة »

المكتبة الرشيدية ، دهلى ، ١٣٧٣هـ

(١١٠) « قرة العينين فى تفضيل الشيخين »

المطبع المجتبائى بدهلى ، ١٣١٠هـ

(١١١) « الخير الكثير »

(١١٢) « عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد »

طبعة مصر

(١١٣) « المصفى شرح الموطأ » (بالفارسية)

(١١٤) « التفهيمات الإلهية »

مدنية برقى پريس ، بجنور ، الهند ، ١٩٣٦م

(١١٥) « البلاغ المبين »

الشيخ ولايت على (م — ١٢٦٩هـ)

(١١٦) « العمل بالحديث »

ه

الهيثمى ، أبو الحسن على بن أبى بكر بن سليمان (م — ٨٠٧ ﻫ)

(١١٧) « مجمع الزوائد ومنبع الفوائد »

دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٦٧ م

ى

أبو يعلى أبو الحسين محمد بن محمد بن الحسين الحنبلى (م — ٥٢٦ ﻫ)

(١١٨) « طبقات الحنابلة »

---

(١١٩) « مجلة فاران » كراتشى

رئيس التحرير: ماهر القادرى

(١٢٠) « مجلة الاعتصام » لاهور

رئيس التحرير: الشيخ عطاء الله حنيف البهوجيانوي

٢ — فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
قيد التقليد العام	٢٢٧
الفواحش فى باكستان	٢٣٢
مثال مضحك	٢٣٣
الشاه ولى الله والتقليد	٢٣٧
شبهات حول التقليد	٢٤١
الآية الأولى	٢٤٢
الآية الثانية	٢٤٥
خطبة الجمعة	٢٤٦
قيام رمضان	,,
الأئمة يردون على التقليد	٢٥٠
الاعتدال أو الجمود فى التقليد	٢٥٢
هل الفقه قانون مصطنع ؟	,,
المسألة الأولى : وضع اليدين	٢٥٣
المسألة الثانية : رفع اليدين	٢٥٦
الحديث الأول	٢٥٧
الحديث الثانى	٢٥٨
الخلاصة	٢٦١

الموضوع	الصفحة
المسألة الثالثة : جلسة الاستراحة	٢٦١
المسألة الرابعة : التورك فى القعدة الأخيرة	٢٦٣
المسألة الخامسة : قراءة الفاتحة خلف الإمام	٢٦٤
المسألة السادسة : الركعتان الأخيرتان	”
المسألة السابعة : النية باللسان	٢٦٥
المسألة الثامنة : الأضحية قبل الصلاة	٢٦٦
المسألة التاسعة : زوجة مفقود الخبر	٢٦٧
الفصل الخامس فى الائتمام بأهل الحديث ومناقشة آراء المعارضين له	٢٧٣
الائتمام بأهل الحديث	٢٧٤
الوهابي	٢٧٥
الدلائل	٢٧٧
طهارة الخمر	٢٨٩
المسح على العمامة	٢٩٦
وجوب الغسل	٢٩٧
المسح على الرجل	٢٩٨
نهاية القول	”

الموضوع	الصفحة
حركة الهند الجديدة	٣٧٢
طبيعة الحركة	,,
أهل ديوبند وأهل الحديث	٣٧٥
موقف الشاه ولى الله الدهلوى	٣٧٨
مسألة حياة النبى ﷺ	,,
كيف يحسم النزاع	٣٨٠
الشاه محمد اسماعيل رحمه الله	,,
موقف ثالث	٣٨١
فشل الحركة المعارضة للتوحيد	٣٨٢
محل النزاع	٣٨٥
أهل الحديث والفقهاء	,,
عقيدة البريلوية عن حياة النبى ﷺ	٣٨٦
مواقف الديوبنديين للبريلويين	٣٨٧
نقاط للنظر والتدبر	٣٨٨
حياة الأنبياء الدنيوية ، مذهب أهل البدعة	٣٩٣
هل الموت مهانة ومذلة للأنبياء	,,
الحقيقة لا تتغير بتغير العنوان	٣٩٦
كراهية الموت	,,

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

HARAKAT-UL-INTILAQUE AL-FIKRI

●

By

Allamah Mohd. Ismail Al-Salafi

●

Publisher

IDARAT-UL-BUHOOTH-IL-ISLAMIA

JAMIA SALAFIA, VARANASI

INDIA